تأويل رؤياي

أطروحات صغيرة في الأدب والثقافة

أدي ولد آدب



آفاق

مقالات

أدي ولد آدب

تأويل رؤياي: أطروحات صغيرة في الأدب والثقافة

آفاق

هذا الكتاب

"ربيع" المؤلف، لم يبق على أفق إلا وأبدع ثورة عليه، بما في ذلك أفق الذات. هنا تكتب "سيرة" تثور على الصيغ التقليدية، فتشكل حالا من رؤى أكثر صدقا بقربها من الواقع وبعدها عن الخيال.

وإن جاز لنا أن ننحت وصفا لهذا الكتاب، فهو دون شك "سيرة نقدية"، أملتها غربة الكاتب، بين نفس منصهرة كليا في "الشعر الحار"، وذات فاقدة لرائحة تراب الوطن وأهله، وعين متألمة من المشهد العربي السياسي والثقافي، وفكر متفائل بأنه بالإمكان أن نتجاوز نحن -العرب- أحسن مما هو كائن، وأن نتجاوز ذاتيا ما كان.

وإن بدا الكتاب للوهلة الأولى متشظيا، فليس ذلك سوى رمز فني عن تشظي الآفاق التي يطرقها، إنها "صعلكة" جمالية للزيادة في "حرارة" التلقي، الحرارة نفسها التي انبعث منها، لا سيما وأن منطقه العربي يعاني التطاير، والتفرق، والانشقاق. صحيح أن كل تيمة من تيماته تمثل أفقا، لكنها ليست منعزلة، وإنما منتظمة وفق خط رفيع يمثل فعلا "أفق رؤية" تحتاج فقط إلى قارئ "حار".

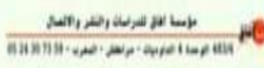


أدي ولد آدب

تأويل رؤياي

أطروحات صغيرة في الأدب والثقافة





مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال
483/6 الوحدة 4 الداوديات - مراكش - المغرب - 05 24 30 71 59

تأويل رؤياي

أطروحات صغيرة في الأدب والثقافة

أدي ولد آدب

تأويل رؤياي

أطروحات صغيرة في الأدب والثقافة

الطبعة الأولى– 2019

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة

– مقالات –

• **الكتاب:**

تأويل رؤياي: أطروحات صغيرة في الأدب والثقافة

• **المؤلف:**

أدي ولد آدب

• **عدد الصفحات:** **384** صفحة

• **مقاس:** 17×24 سنتم

• **الطبعة الأولى:** مراكش 2019 م

• **الكلمات المفاتيح:** اللغة العربية، النقد، الشعر، شنقيط

• **الحقل المعرفي:** آداب/ مقالات / / مقالات صحفية

• **ديوي:** 800

رقم الإيداع القانوني: 2019MO2175

الرقم الدولي: 978-9920-756-11-2

الناشر:



مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال،

483/4 الوحدة الرابعة، الداوديات – مراكش – المغرب

Tél/Fax: 05 24 30 73 59

www.afaqedit.com

Email: afaqedit@gmail.com

الطباعة: المطبعة والوراقة الوطنية – مراكش – المغرب

سيرة قلم.. عشق زراعة الحروف.. في زوايا البياض

بين الحاء والباء.. تعبدا

بين اللام والألف.. تمردا

فأينعت هنا عناقيد سطور...

من تذوقها... ربما ألهمته "تأويل رؤياي"

أدي ولد آدب

الكلمة والواقع.. جدل التأثير

منْذُ القِدَمِ يَحْتَدِمُ الجَدَلُ البيزنْطي، حوْلَ الكَلِمَةِ والواقِع.. أيُّهُمَا يُؤثِّرُ في الآخَرِ، أوْ أيُّهما -على الأصحِّ- أَقْوَى تأثيرًا، إذْ كلٌّ مِنْهما -بِلا شَكٍّ- يَفْعَلُ فِي نظيرِهِ.

ومَهْمَا يَكُنْ، فإنَّنَا -عُشَّاقَ الكَلِمَةِ ومُمْتَهِنيها- سَنَظَلُّ نَخُوضُ مَعْرَكَةَ تَغْيِيرِ الوَاقِعِ الآسِنِ إلَى الأفْضَلِ، ونَحْنُ لا نَمْلِكُ -ولا نُريدُ أنْ نَمْلِكُ- سلاحًا غيرَ الكلِمة، رغْمَ إدْراكِنا أنَّها أصْبَحَتْ سُخْرِيَّةَ الساخِرينَ، وأضْحُوكَةَ المُتضَاحِكِينَ، بعْدَمَا صَارَ حِبْرُهَا -في الغَالِبِ- مَغْشُوشًا بالمَاءِ، وحُرُوفُها فُقاعات، جَوْفَاء...

نَعَمْ.. إنَّ الكَلِمَةَ السائِدَةَ اليَوْمَ هي الكَلِمَةُ/ السِّلْعَةُ، المَأجُورَةُ، الحِرْبَائِيةُ، المُنَافِقَةُ... وهذا النوْعُ من الكلماتِ يُزَيِّفُ الواقعَ، ولا يَكْشِفُه، يُفْسِدُه، ولا يُصْلِحُه، يَهْدِمُه، ولا يَبْنِيهِ، ويُكَرِّسُه، ولا يُغَيِّرُه، ولهذا فقدتِ الكلمةُ مَعْناها، وسُمِّيتْ الأشياءُ بنَقيضِ أسْمائها، فأصبحتْ المَساوئ فضائلَ، والفضائلُ مَسَاوِئَ، فانْطمَسَ الواقعُ، وانْتَحَرَ المَنْطِقُ، وضاعَ المَعْنَى...

ومِنْ هُنَا، تَفَشَّى الاسْتِهْزاءُ بالكلامِ، ولمْ تَعُدْ تَسْمَعُ إلا "هذا مُجَرَّدُ كَلامٍ"،"هذا كلامُ جرَائدَ"، " هذا "كلامُ شُعَرَاءَ"، "هذا كلامُ فلاسفةٍ"، "هذا كلامُ سِيَّاسِيينَ"... بمَعْنى أنَّ كلامَ الجميعِ لم يَعُدْ يَعْنِي شَيْئًا، ولكنْ هذا الواقعُ لنْ يُحْبِطَنَا، ولنْ يُثَبِّطَنَا، رغْمَ أنَّه جَديرٌ بذلك، بلْ لن يَزيدنا إلا إصْرارًا عَلَى مُواصَلَةِ الرِّحْلَةِ معَ الكَلِمَةِ، إذْ أوَّلُ واقعٍ نُريدُ تَغْييرَهُ هو واقعُ الكَلِمَةِ نفسها، حتَّى تَسْتَعيدَ شَرَفَها، وسِحْرَها، وقوَّةَ تأثيرها... حيث سَنَجْعَلُ دِمَاءَ القُلوبِ حِبْرَها، وشُحناتِ الصدْقِ وَقُودَ حُرُوفِها، وصَلابَةَ العَزْمِ والمَبْدَأ طاقَتَها المُتَجَدِّدَةَ، وإرَادَةَ الخَيْرِ دَافِعَها، وعندها سَتَعْرِفُ من جديدٍ طَريقَها إلى القُلوبِ، وتَسْتَرْجِعُ أسْماءَها ودَلالاتِها: "كلِمة شَرَفٍ"، "أعْطيْتُه كلِمَتِي"، " أنا عنْدَ كلِمتي"، لتُصْبحَ الكلمةُ تُساوي الواقعَ الفِعْلِي تمامًا، كما كانتْ ذاتَ يوْمٍ.

ومنْ هُنَا سَيَتَحَوَّلُ سُؤالُ: هلْ تَسْتَطيعُ الكلمةُ أنْ تُغَيِّرَ الواقعَ؟ إلى سُؤالِ: هلْ يَسْتطيعُ غيْرُ الكَلِمَةِ أنْ يُغَيِّرَ الوَاقِعَ؟

أجَلْ.. إنَّنَا نُذَكِّرُ الجميعَ أنَّ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ- أخْرَجَ الكوْنَ منَ العَدَمِ إلى الوُجُودِ، بِسِرِّ كَلِمَةٍ، لا تَتَجَاوَزُ حرْفَيْنِ، حيْثُ ابْتَدَعُهُ بِكافٍ ونُونٍ: "كُنْ"، وهَذَا مَعْنَى قوْلُ بَعْضِ الأنَاجِيلِ: "في البَدْءِ كانتِ الكلمةُ"، إضافةً إلى أنَّ الإسلامَ كانَ أوَّلُ خَيْطٍ مِنْهُ رَبَطَ بَيْنَ السَّمَاءِ والأرْضِ هو كَلِمَةُ "اقْرَأْ"، وبِسِرِّ هذا الفِعْلِ الثلاثي تَغَيَّرَ العَرَبُ -بقُدْرَةِ قَادِرٍ- مِنْ أمَّةِ بَدَاوَةٍ أمِّيَّةٍ جاهِلِيَّةٍ، إلى أمَّةِ حَضَارَةٍ عَالِمَةٍ هَادِيَةٍ، وبِسِرِّ هذا الفِعْلِ "اقْرَأْ" غَيَّرَ العَرَبُ العَالَمَ منْ مَشْرِقِه إلى مَغْرِبِه، فأخْرَجُوهُ منَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ، إنَّهُ سِرُّ الكلمةِ العَجِيبُ، الذي يُنْجِزُ الواقعَ بسُرْعَةِ "كُنْ فَيَكُونُ"، فبَيْنَمَا الإنْسانُ كافرٌ مَلْعُونٌ، إذا به مُسْلِمٌ مَرْحُومٌ بواسِطةِ كلمتيْ "الشَهَادَتيْن".

وبنَقِيضِ هاتيْن الكلمَتَيْنِ يَخْرُجُ منَ الإسْلاَمِ إلى الكُفْرِ، وبالكَلِمَةِ يُعْقَدُ رباطُ الزَّوْجِيَّةِ المُقَدَّسُ بيْنَ الرَّجُلِ والمَرْأةِ، وتُسْتَبَاحُ العَلاَقَةُ التي كانتْ مُحَرَّمَةً (زَوَّجْتُ- قَبِلْتُ)، وبالكلمةِ تنْتَقِلُ المِلْكِيَّةُ منْ يَدٍ إلى يَدٍ (بِعْتُ -أهْدَيْتُ- تَصَدَّقْتُ- نَذَرْتُ...).

والخُلاصَةُ التي لا يُعْلَى عَلَيْهَا في هذا السياق، هي مَا ضَرَبَ اللهُ تعالى مَثلاً للكَلِمَتَيْنِ: الإيجابية والسلبية، في (سورة إبراهيم)، فكانت الأولى:(كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصْلُها ثابتٌ وفرْعُها في السماءِ (24) تُؤْتِي أكْلَها كلَّ حِينٍ بإذْنِ رَبِّهَا...)، وكانت الكلمة الثانية الخبيثة: (كشجرةٍ خبيثةٍ اجْتُثَّتْ منْ فوْقِ الأرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26).

أنا والشعر: توأما وجود

"أناي" الشاعرة، أعتقد أنها ولدتْ حاملةً لجينات الشعر المُتَسَرِّبة إليها من مُوَرِّثات بلد " المليون شاعر" عموما، ومن مُوَرِّثات "بيت الشعر" الذي ولدتُ فيه، خصوصا. وقد انطلقتْ صرخةُ ميلادي شاعرًا بالفعل، بعدما كنتُ شاعرا بالقوة، ابتداء من1982، ومنذ ذلك التاريخ وأنا في تفاعل مستمر مع هذا الفن.

وهنا أنبه إلى أن ارتباطي بالأدب -في عمومه، هواية، وتخصصا أكاديميا ومهنيا، حيث دَرَسْتُه ودَرَّسْتُه طيلة العقود الماضية- جَعَلَ هاجسَ الشعر، ومِقَصَّ الناقد، يعيشان داخلي جدَلا مستمرا، ذاك ينتج، وهذا يأخذ دائما من أطراف إنتاجه، كلما تطورت رؤيتي النقدية المواكبة لتجربتي الشعرية، حتى تمَخَّضَتْ خُلاصتها الآن عن حوالي عشر مجموعات شعرية، نشر منها ديوانان – طبعتهما معا وزارة الثقافة الجزائرية 2009، أحدهما بعنوان "تأبط أوراقا" والثاني بعنوان "رحلة بين الحاء والباء"، فجاء الأول يمثل صوتي المنطلق إلى الخارج، بينما الثاني جاء صدًى لصوتي المُرتدِّ إلى الداخل، فكان الأول حوارا مع الأحداث والوقائع وصدى لانعكاساتها على الذات الشاعرة، والثاني حديثا مع النفس "مونولوجا داخليا".

هذا مع العلم أن الحدود بين الداخل والخارج، والموضوعي والذاتي–ضمن وجدان الشاعر وتجربته- هي حدود وهمية لا وجود لها خارج التعاطي الإجرائي البحت، فالديوانان صوتان للشاعر والثائر المتفاعلين ضمن "أناي" العميقة، فهما إذن يمثلان وجهين لعملة واحدة،هي: أدي ولد آدب الصعلوك "المتأبط أوراقه"، والراحل-أبدا-" بين الحاء والباء"، حبا، وبوحا، وإحساسا بتكامل الديوانين فضَّلْتُ نشرَهما معا، بين دفتيْ غلافٍ واحد، باعتبارهما الأعمالَ الشعرية الأولى، وقرَّرْتُ أنْ أكتبَ قصيدةً تعبِّرُ عن ترابطهما العضوي، تكون مقدمة غير تقليدية لهما، ولذلك سميتها: "هذا أنا".

تلك هي "أناي" السطحية في أهم ملامحها المدركة، أما "أناي" العميقة فلا أستطيع أن أتحدث عنها إلا من خلال شعري، لأنه يتكلم عنها في غمرات هذياني السريالي لحظة ميلاد

القصيدة، بما لا أسمح لنفسي أن أقوله عني في لحظات سيطرة الوعي المُتَعَقِّل، فقد ضبطتُ "أناي" في قصيدة"فاتحة الشعر الحار"، ترسمُ غيْبوبَة الإبداع:

أنـــا إنْ تلبَّســني القصـــيدُ.. رأَتَنِـــي أرْنـــو إليـــكَ.. ولا أراكَ.. أنـــا عَـــمِ
أهْـذي.. بصَـحْو المَحْـو.. تكتبُني الـرُّؤى فـــإذا حروفي..غَابَـــةٌ.. مـــنْ أنْجُـــمِ

وضبطتُها مرة أخرى، متلبسة بالإشراقة ذاتها، في"نزيف مشاعري"، تُفَلْسِفُ صمَتَها:

أيريبـــكَ الصـــمْتُ الـــذي يغْشـــاني؟ القلـــبُ.. يهْـذي..تحت صـــمتِ لِســـاني
إنِّي..أراكَ.. ولا أراكَ.. لأنَّنِـــــــــــي دانٍ.. بَعيـــدٌ.. منـــكَ.. حـــينَ تـــراني
فأنـــا.. أشـــاركَكَ المكـــانَ.. ورُبَّـــما أرتـــادُ كوْنـــا.. خلـــف كـــلِّ مكـــاني
إنِّي.. غريـــبٌ.. بـــين قـــومي.. هـــا هُنـــا لـــيس المكـــانُ.. ولا الزمـــانُ.. زمـــاني
أنـــا.. شـــاعرٌ.. قـــد فـــاضَ في وجْدانِـــه نبْـــعُ المعـــاني.. مـــن يـــد الرحمـــان
صـــمْتي.. نزيـــفُ مَشـــاعري.. وعِبـــادتي ومُقـــدَّسٌ -مـــلْءَ الخُطـــى- هـــذياني
رَمَـــضُ الرصـــيف.. أعـــزُّ لي مـــنْ مَقعَـــدٍ يحْشـــو فمِـــي.. وا صرْخَـــةَ الأوْطـــان!!

وفي نَصِّ "سُلالة المتنبي"، ضبطتُ هذه "الأنا" في مختبر جيني، تجري فحص الـ dnn ، غير مشغولة بإثبات نسبها الطيني إلى أي جَدٍّ من القبائل القرشية، كما هو شأن الهَوَس القبَلي عندنا، وإنما كانت تُوَثِّقُ "خريطتَها الجينية" إبداعيا، مُسْتبقة النتائج:

افحـصْ دَمِـي.. تُبْصِـرْ رَحِيـقَ الأحْـرُفِ أوْ جُـسَّ قلبـي.. تُصْـغِ فِيـهِ لِمعْـزَفِ
أنـا.. مِـنْ سُـلالةِ مَـنْ تَنَبَّـأ.. شـاعِرًا المُـــــــرْتَقِينَ إلى المَقَـــــــامِ الأشْرَفِ

وفي" نشيد الشاعر المهاجر"، تكثفتْ في"أناي" المفردة كل أنوات الشعراء الشناقطة المهاجرين، بحمولتهم الشعرية الثقافية الضاربة الجذور في صميم "الضاد"- فاسْتَبَحْتُ أنْ أتكلمَ"مُفرَدًا بصيغة الجمْع":

تباهـــتْ بنـــاتُ الشـــعْر: أَني سَـــميرُها ولِي مـــن قلـــوب العاشـــقين كبيرُهـــا
وسِـعْتُ جمـالَ الكـوْن عشْـقًا.. عَزَفْتُـه نَشـيدًا.. فرُوحِـي في القـوافي عَصـيرُها
تأَبَّطـــتُ مـــن أرواح "مليـــون شـــاعر" أســـاطيرَ.. أبْنيهـــا ولا أسْـــتعيرُها
أنـا ابـنُ صَـمِيم الضـاد.. مَمْلكَتِـي الـرُّؤى ببَيْـت القصـيدِ.. البِـدْعِ..جَلَّ سَريرُهـا
على صَهَوَاتَ الـريح.. أغْـزو مَـدَى المَدَى طـواحينَ.. في سـحْق الحيـاة نَعيرُهـا

وفي "قراءة في الرمل" ذات مرة، باغتُّ هذه " الأنا" العميقة، وهي تَتَعَرَّفُ على ذاتها المَجْبُولة من رمْل الصحراء **الكبرى، المَفطورة بطقُسها وطقوسها:**

أنا.. طفلُ صحراء المَجَابَاتِ.. التي تلِدُ القصيدَ.. من الحَصى.. والأنْجُمِ

فعزيفُ هذي الريح..هُوجُ عَواطِفِي وترمُّضُ الصحراء يكتبُ في دَمِي

سِفْرًا.. من الصمْت..المُجَلْجِل.. عَازفًا دقَّاتِ قلبٍ.. حائرٍ.. مُسْتَفْهِمِ:

ما للعواصفِ لا تُحَرِّكُ ساكنًا إلا قصيدًا.. من نزيفِ تأزُّم؟!

وبقدر ما تنْغرسُ هذه "الأنا" في تخوم الأرض، وتشرئب إلى السماء، منافسةً نخيلَها وجبالَها، رُسوخاً وشُموخًا، حسب ما يتجلَّى عبر مَرايا قصائدي: "إسراء إلى إمارة الشعر"، و"نشيد الشاعر المهاجر"، و"أنا والنخلة توأما أزل"، تبقى هذه "الأنا" العميقة مُحَلِّقَةً، لا ترْتهِنُ إلا للجَمال، الذي بدونه لا تتحَقَّقُ كيْنونتُها:

أنا..طائرٌ.. يهْفو جَناحي للمَدَى

للحُسْن.. في مَلَكُوت ربِّي.. مُرْتَهِنْ

إنها " أنا" تلهثُ طول حياتها خلفَ حُلم الخُلود في "كتاب الوجود"، الذي تتحدَّثُ قصيدة لي بهذا العنوان، عن إشكالية جَدَل المَحْو والإثبات فيه، حيث تقول:

وأنا المُطارِدُ للأماني

الهاربات.. اللاَّبساتِ

غلائلا.. زرْقاءَ.. منْ نسْج التُّرابِ

كتبَ الزمانُ.. على جَبيني: آيَ وحْيٍ.. بَيِّناتٍ..

منْ سُطورِ كِتابه.. مَعَ أنني ما زلتُ لمْ أكتبْ كِتابي

فمَتى أراني.. جُمْلة.. تُتْلَى.. على سَمْع الزمان.. مُضِيئَةً

قد كثَّفتْ لي ما تَنَاثَرَ.. من هَبَاءاتِ الشباب؟!

والحقيقة أن رحلتي -الطويلة نسبيا- مع الشعر، كانت سعيا دؤوبا لنحت خصوصيتي، استجابة لنوازع بصمات الهوية، المركوزة في جِبِلَّتِنا الفطرية، حيث لا ينبغي لي - في نظري- أن أكون نسخة من غيري، مهما أعجبني، وحول هذا الملمح تتمحور قصيدة "بصمة شعر":

أَنَــا.. لَسْــتُ أَقْبَــلُ.. أنْ أَكُــونَ سِــوَايَا مَهْمَا "أَنَـاهُ".. عَلَـتْ.. "أَنَـايَ".. "أَنَايـا"!

اللهُ.. مُبْـــــــدِعُنَا.. أرَادَ.. تَمَـــــــايُزا إذْ خَـــصَّ كُـــلاًّ.. صَـــنْعَةً.. ومَزَايَـــا!

لُغَتِي.. وصَوْتِي.. لِي.. وحِبْرِي.. بَصْمَتِي نَظَـرِي.. أحَاسِيــسِي.. هَـوَايَ.. رُؤَايَـا!

نَبْضِــي.. وأنْفَـاسِي.. وخَطْـوِي.. لِي.. أنَـا أَيَكُــونُ إيقَــاعِي.. صَــدًى.. لِسِــوَايَا؟!

وفي ضوء هذا البحث عن الفرادة، كنت أومن بأن لكل شاعر، قصائد تظل "معلقات بالغيب"، تنتظر منه أن يستدرجها للتَّنَزُّلِ:

لِمَــــن القَصَـــائِدُ.. بالبَهَـــا.. تَتَوَضَّـــأُ وبظـــــل سِــــدْرَةِ مُنْتَهَـــاهُ.. تَفَيَّـــأُ؟

مَـا اسَّـاقَطَتْ رُطَبًـا.. عـلَى مَـنْ هزَّهَـا أعْــذَاقُها.. عَـــنْ قاطِفِيهـــا.. تَرْبَـــأُ!

حَامَــتْ.. شَيَاطِــينُ القصــائِدِ.. حَوْلَهَــا لمْ يُغْوِهَـــا "الضِّـــلِّيلُ".. و"المُتَنَبِّـــئُ"!

تِلْـكَ القَصَـائدُ.. لِي.. أنَـا.. وأنَـا.. لَهَـا أزَلاً.. تَهَيَّـــأُ.. لِي.. لَهَـــا.. أتَهَيَّـــأُ!

ولكن –مع ذلك– تبقى رحلتي مع الشعر تستمدُّ مُسوِّغ استمراريتها من إيماني بأن عمر الشاعر سفر خلف قصائد هاربة، لا تنكتب:

لَهْفِي.. لَهُنَّ.. قَصائداً..

تَأتِي.. ولا تَأتِي..

ولَهْفَ الشَّاعِرِ المَجْذُوبِ!

تَخْتَارُ ذاكِرَةَ السَّمَا.. المَثْقُوبِ.. مَهْبطها..

وتأبَى قَبْضَةَ المَكْتُوبِ!

إنَّ اللواتي قد كتبْتُ.. ظِلالُهَا..

وهْيَ الجَمُوحُ.. بأفْقِهَا المَرْغُوبِ!

أجل إن الشاعر الصعلوك الذي يسكنني، آلى على نفسه، بالرحلة –دَأْبًا–" بين الحاء والباء"، بحثا عن أناه الشارد، في القصائد الجامحة، وفي المُثُل الجميلة، الضائعة، ولذلك ختمتُ بطاقة تعريفي، الشعرية:"هذا أنا" بإصرار:

سأظَلُّ رغم المُرْجِفِينَ.. أنا..أنا

أبْنِي الحُروفَ صناعةً..

أتأبَّطُ الأوراقَ.. أسلحةَ البناء الشامل الخضراءَ..

أعتقد المحبَّة شِرْعةً..

أحْيى.. وأفْنَى.. للجَمَال..

أقدِّس الإبداعَ..

أعْبُدُ–وحْدَهُ– الخلاَّقَ

وما ذلك إلا لكوني أرى:

أنَّ الوجـــودَ بـــدون عينـــيْ شـــاعرٍ جَـــدْبٌ.. كئيـــبٌ.. باهـــتُ الألـــوانِ

وأنـــا أحـــبُّ –مـــن الحيـــاة– جَمَالَهَـــا القُـــبحُ يُـــؤلمُ مُقلـــةَ الفنَّـــانِ

وهكذا يظل الجمالُ، والحبُّ، والشعرُ، ثالوثا، وجوديا، أشفق من انهياره في مهب عولمة القبح، والكراهية، الزاحفة بعواصف الدمار الآلي، على هذا الكون، ولذلك صرخت في ختام" الحب وثورة الأزرار":

الحُسْنُ، والحُبُّ، والشِّعْرُ الجميل.. عَنَا

وينُ الحَيَاةِ.. فلا تمْحُوا العَناوينا!

وختمت "هجائية الزمن الرديء" بالتشبث بهذا الثالوث" مهما كان:

سَلاَمٌ.. على الحُسْن، والحُبِّ.. والشِّعْرِ..

إِنِّي –لِهَذِي الثَّلاثَةِ– سَوْفَ أَظَلُّ..

أُغَنِّي..

أغَنِّي..

أُغَنِّي

ولَوْ وَأَدُوا الصَّوْتَ.. خَنْقًا..

لأَنِّي أرَى الكَوْنَ –دُونَ الثَّلاثَةِ–

أعْمَى النَّوايَا!

جدل الروح والطين.. عبر الوجود والقصيد

الإنسانُ قبضةٌ من طينٍ، ونفحةٌ من روحٍ، وكلاهُما تنزعُ به إلى أصْلِها، وطبْعِها، وبيْنَهما يحتدمُ الصراعُ أبدًا، فبقدْرِ ما يُخْلِدُ به طينُه إلى الأرضِ، بجاذبيةِ الغرائزِ، تصعدُ به روحُه إلى معارجِ السمُوِّ، عبْر نوازِعِها السماويةِ، وهكذا جاءتْ كلُّ الأديانِ لتزْكيةِ الرُّوحِ، والارْتقاءِ بها، تغليبًا لها، على المُثبِّطاتِ التُّرابيةِ، دون أنْ تحْرمَ الطينَ من حُقوقِهِ ومُقوِّماتِه، لكنْ ليسَ علَى حِسابِ الرُّوحِ طبْعًا، ولعلَّ شهْرَ رمضان وتجربةَ الصيامِ والقيامِ فيه، أفضلُ مناسبةٍ للتفكيرِ في هذا المَلْمَحِ، غيْرَ أنِّي بإرْجاعِ بصَرِي كرَّتَيْنِ في الموضوعِ، وجدتُ أنَّ هذه الجدليةَ كانتْ حاضِرَةً بقوَّةٍ في تجْربتي الشِّعْريةِ على طولِ امْتِدادها، ومن أمْثلة تجَلِّياتِها المُتَعَدِّدَةِ، عبْرَ قصيدةِ "طه.. خُلاصةُ الأحْقاب":

النَّــاسُ أبْنَـــاءُ الـــتّرابِ.. وخَـــيْرُهُمْ مَـــنْ شَـــعَّ نُـــورا.. فُي الرَّمَـــادِ الخَـــابِي

وفي قصيدةِ " عروس التجلي" أناجي الرسولَ صلى الله عليه وسلم:

يــا مُعْتِــقَ الأرْوَاحِ.. مــنْ طِــينٍ.. هُــنَا أرْواحُ سِــجْنِ الطِّــينِ.. تَشْــكُو حَبْسَــها!

وفي قصيدة " صلوات القوافي":

النَّــاسُ.. ذَرَّاتُ هَــذا الرَّمْــلِ.. مَعْــدِنُهُمْ قَدْ جِئْتَ.. تَفْرقُ.. بَـيْنَ الشَّـحْمِ.. والـوَرَمِ

فَمَـــــنْ تَشَـــبَّعَ بـــالتَّقْوَى.. فَطِينَتُـــهُ بـالرُّوحِ.. تَرْقَـى سَـمَاءَ الطُّهْـرِ.. وَالكَـرَمِ

وَمَـنْ طغَـى الرَّمْـلُ.. فِي تكْـوين جَـوْهَرِهِ أهْــوَى بـــِهِ.. دَرَكًــا.. في هُـــوَّةِ الظُّلَــمِ

وفي قصيدة" مولد النور" اصرخُ بالنُّظُمِ التقليديةِ، في مَهَبِّ رِسَالَةِ الإسلام:

ويــا ممَالِــكَ.. شَــابَ الجَــورُ.. فِي دَمِهَــا كِســرَى.. وقَــيْصَرُ.. أوْهـــامٌ.. تَقَاليــدُ

النـــاسُ: طِـــينٌ.. ورُوحُ الله: جَـــوْهَرُهُمْ فَـمَا لهُـمْ - دُونَ فضْـلِ الـرُّوح - تمْجيـدُ

زيْـفُ الفـوَارقِ.. بَـيْنَ النـاس.. مَلحَمَـةٌ أضْــحَتْ لهَــا بيَــدِ التقْــوَى المَقاليــدُ

هَــذا أوَانُ انْعِتــاقِ الأرْضِ.. مِــنْ دَجَــلٍ فِي ثــوْرَةِ النـــُّورِ.. للطغيَــانِ.. تَفْنِيـــدُ

وفي قصيدة " الأحقاف"، استرقتُ السمْعَ إلى حِوارٍ بين حَبَّاتٍ من الرَّمْل:

رفقـا.. بنـا.. أيُّهـا الإنْسـانُ.. أنْـتَ سليــ ـــلُ الطـينِ..لا تمْـش مُخْتـالا.. ولا بَطِـرَا

النـاسُ.. أهْـرامُ رَمْـل.. تُبْتَنَـى.. أمَـدًا فـإنْ طغَـى المـوْجُ.. تَلْـقَ الرَّمْـلَ.. مُنْتَشَـرَا

فاصعدْ.. بروحِكَ.. خَـلِّ الطـينَ.. مُرْتهِنًـا للطـين.. إنَّ السـما مَثْـوى.. لِمَـنْ طهُـرا

أما في قصيدة "الحب.. وثورة الأزرار"، فأرى أن شبكات الاتصالات الحديثة، بقدر ما قربت العوالم المادية المتنائية، شَيَّأَتْ عالم المشاعر الجملية:

لكـنَّما عَـالَمُ الأرواحِ.. مـا طُويـتْ فيـه المسـافاتُ.. دانينَـا.. كقاصـينا!

تَوَثنَـتْ رغَبـاتُ العشـقِ.. في دَمِنـا فالجسْـمُ.. يُعْبَـدُ.. ربًّـا.. والهـوَى دِينـا!

وَا ضـيْعةَ الحـبِّ.. معراجًـا.. لأنْفُسِـنا وسِـدرة المُنْـتَهَى.. مَرْعَـى أمَانـينا!

آهٍ.. مـن الطـينِ.. غَـالَ الرُّوح.. في جَسَـدٍ يـا نفْحَـةَ الـرُّوحِ.. هُبِّـي.. نـوِّرِي الطِّينـا!

وهناك تجلياتٌ أخْرَى لهذه الجَدَلِيةِ الوُجُوديةِ، تراءتْ لِي مُنْبَثَّةً في تضاعيفِ نُصوصي، تُوحِي بحُضورِها القوي عنْدي، حتَّى في لا وعْيِي، تجْعَلني أسألُ اللهَ في هذهِ العشْر الأواخـرِ أنْ يُطَهِّرَ أرْواحَنا من أوْساخِ التُّراب، ويعتقَها من قبْضةِ شَهَوَاتِ الطين، مستعيدا-هنا- نجواي، في خاتمة قصيدتي " أنا.. والنخلة.. توأما أزل":

آوِي.. إليـك.. فضُـخّ النـورَ.. في خَلَـدِي يـا بـاطنَ الـرُّوحِ.. جـوْهِرْ ظـاهرَ الخـزَفِ!

الكبرياء الجميلة

يبدو هذا العنوانُ مُسْتَفِزًّا بعْضَ الشيْء، حيثُ لا تكادُ الكبْرياءُ- في فلْسفتنا الأخلاقية الدينية- تقترنُ بالجمالِ، غيْرَ أنَّ للنسبيةِ -دائما- حكْمَها، فالتكبرُ عن الرذائلِ والسفاسفِ، والهوانِ، لا يمكنُ إلا أنْ يكونَ جميلاً، وهذا ما أعْتقدُه، وأدافعُ عنه، فأنا -بطبْعي- متواضعٌ، لله الحَمْد، لكني أحبُّ تلك الكبرياءَ المشْروعةَ، المشْروطة بالنزوعِ إلى الفضيلة، والترفعِ عن اللهاثِ المُشينِ وراءَ المَوائدِ والفوائدِ، والتهافتِ على المواقعِ والمنافعِ.

وعندما أرْجَعْتُ البَصَرَ كرَّتيْنِ في شِعْري، وجدتُ أصْداءَ هذه "الكبْرياءِ الجميلةِ"، حاضرةً بقوةٍ، في تضاعيفِ قصائدِي، ففِي "هِجائيةِ الزَّمَنِ الرَّدِيءِ"، أتَحَسَّسُ في ذاتِي:

بَقَايَا طُمُوحٍ..
ومُسْكَةُ كِبْرٍ.. عَنِ السَّفْسَفاتِ..
مَحَطَّاتِ نُورٍ..
عَلَى رغْمِ حِلْكَةِ هَذِي البَلاَيَا!

وفي غمراتِ "نزيفِ مَشاعِرِي"، تتشَبَّثُ قصائدِي، بمُسْكَةِ الكبْرياءِ ذاتِها، احْتماءً من انْزلاقِ الحرْفِ، في مَهَاوِي الذلِّ الحَافَّةِ المُتَرَبِّصَةِ:

في تَمْـــتَمَاتِي.. مـــا تـــزالُ بَقيـــةٌ   مِـــنْ كبْريـــاءِ الحـــرْفِ.. مِـــلْءَ جَنَـــاني!
إنْ ذَلَّ شِـــعْرِي.. قَاســـمتْنِي موْثِقـــاً:   رَبَّـــاتُ عَبْقَـــرَ.. ضَـــيَّعتْ عُـــنْواني!

وحينَ تتلمَّسُ سِرَّ ذلك في المُوَرِّثاتِ، تصْرخُ بكَ الجيناتُ-عبْرَ "سُلالةِ المُتَنَبِّي":

افحـصْ دَمـي.. تُبْصــرْ رَحيـقَ الأحْـرُفِ   أوْ جُـــسَّ قلبـــي.. تُصْـــغِ فيـــه لِمِعْـــزَفِ
أنــا مــنْ سُــلالةِ مَــنْ تَنَبَّــأَ.. شــاعرًا   المُـــــــرْتقينَ.. إلى المَقـــــــامِ.. الأشْرَفِ

وحين اسْتَرْجِعُ هُويةَ الشاعرِ الراحلِ -في دَمِي- "بيْن الحَاءِ والبَاءِ"، وقد "تأَبَّطَ أوْرَاقا"، مُتقمِّصًا العاشقَ الفارسَ، أرُدُّ -في حِوَاريةِ "هذا أنا"- على سُؤالِ مُسْتَجْوِبِي الافتراضي من شرْطة مَنافِذ الإبداع:

ما مِهْنةُ الصعْلوكِ؟
أكتبُ أحْرُفًا..
مهما تَعَدَّدَ شكـْـلُهَا
حاءٌ.. وباءٌ.. أصْلُها..
لامٌ.. معَ الألفِ.. المَدِيدَةِ.. فَصْلُها..
لم تمْتَهِنْ -للظالمينَ- نِفَاقا!

وفي نص" أنا سيد الثورات"، استعرضُ أسْلِحَتي الخطيرةَ التي أسْتَبْطِنُها، في كيْنُونَةِ ذاتي:

أنا لسْتُ أمْلكُ مِنْ سِلاح..
غيْر مُسْكةِ كبْريا..
تأْبى الحَياةَ.. بلا حَيَا..
أُفٍّ عَلى خُبْزٍ.. بلا عِزٍ..
على وَطنٍ.. بلا سَكَنٍ..
على عِلْمٍ.. بلا طعْمٍ..
على حُكْمٍ.. بلا عِلْمٍ..
أَنَا حُرٌّ..
أواجهُ مَنْ يُهينُ مَقامي
***
أنا لسْتُ أمْلكُ مِنْ سِلاح..
غير جَبْهَةِ ثائِرٍ..
تَهْوَى الشّمُوخَ..
بوَجْهِ كلِّ مُكابرٍ..
ومُتاجرٍ..
بالزيْفِ.. والأوْهامِ

إنها أَسْلحةُ قوةٍ داخليةٍ، لا تسْتطيعُ أنْ تُصادرَها جَمارِكُ الحُدودِ، ولا شُرْطَتُها، حيثُ لا ترْصدُها أرْقى أجْهِزَتِهِمْ التكْنولوجيةِ، إنَّها ترْسانةُ الروح، المُنْحَدِرَةُ إليْها، ليْسَ منَ الجِيناتِ فقط، بلْ هي مُسْتَلْهَمَةٌ حتَّى منْ طبيعةِ الأرْضِ، نخيلاً، وجِبالاً، فكنْتُ في "إسْرائِي إلى إمارةِ الشِّعْر":

آتي.. وخلفي صُفوفُ النخْلِ.. ترْقبُني عِزُّ الجِبالِ.. العَوالِي.. مُلْهِمٌ ذاتي

وما دمتُ "أنا والنخلة توْأما أزل"، فلا غَرَابَةَ أنْ تكون:

قَدْ أرْضَعَتْنِيَ عِشْقَ الأرْضِ.. رَاسِخَةً وألْهَمَتْنِي شُمُوخَ العِزِّ.. والأنَفِ

وأقْرَأتْنِي أساطيرَ الصُّمُودِ.. عَلى رَيْبِ الزَّمَانِ.. وقَحْطِ الأرْضِ.. والشَّظَّفِ

إنَّ هذا التَّماهي، بمُكوناتِ الأرْضِ وتضاريسها، رُسوخًا وشُموخًا، يتجَلَّى أيْضا، في"نشيد الشاعر المُهاجر"، حيث تسافرُ فيَّ بلادي، كلما سافرتُ عنْها، وتسْكُنني عندما لا أسْكنُها:

يُعانِقُ عُمْقِي.. فِي الثَّرَى..عُمْق نَخْلِها وتَدْرِي ذُراها.. الشّمّ.. أنِّي نَظِيرُها

***

تَأَبَّطْتُهَا.. حُلْمًا.. تَبَرَّجَ.. في دَمِي مَدائنَ.. فُضْلَى.. لا يُضاهَى.. صَغِيرُها

فَهَلْ كُلُّ ذَنْبِي.. أنَّنِي لَسْتُ تافِهًا وأنَّ الدُّنَا.. لاَ يَطَّبِينِي.. حَقِيرُها؟!

وحتى قصيدتي التي أرْثي بها نفْسي، والتي يُفْتَرَضُ أنَّهَا تُمَثِّلُ صوْتِي بعْدَ موْتي، أرَكِّزَ فيها على تأبين قيمة هذه الكبرياء الجميلة:

ولْتَبْكِ.. خَدًّا.. كَمْ تَصَعَّرَ.. لِلْجَبَا بِرِ.. وانْحنَى لله.. والمِسْكِينِ!

أنا شاعر الحرية.. رغم حاجز العمر

الشعر والحرية توأمان، وهما معا ليس لهما عمر محدد، بل هما ضرورتان وجوديتان، ترافقان الإنسان من المهد إلى اللحد، وهذا ما يسوغ -في نظري- تنافي " شاعر الحرية" مع سن الأربعين، التي جعلتها قناة الجزيرة سقفا لمشروعها الإبداعي الموسوم بهذا العنوان الجميل، المنبثق من صميم مناخ الثورات العربية، المنتفضة ضد جميع أصفاد الاستبداد، التي طالما كبلت الحريات عقودا وعقودا.

ورغم هذا الاعتراض على الشرط المضاف، فإن العنوان -في نواتيه الصلبتين- موفق إلى حد كبير، في جمعه بين هاتين القيمتين التوأمين، ومن هنا قد يكون إحراز هذا اللقب أكثر إغراء -في اعتقادي- من لقب أمير الشعراء، الذي سبق أن كنت أحد متوجيه، لأن الثورة أنسب لمزاجي من الإمارة، ولأن إمارة الشعر لا تتحقق إلا بحرية الشاعر إبداعيا وفكريا وسياسيا...ولعل هذا هو ما جعل الخليل بن أحمد -المتهم زورا وبهتانا بتقييد القرائح- يعتبر "الشعراء أمراء الكلام، يحتج بهم ولا يحتج عليهم"، حيث انتبه إلى أن إمارتهم تنبثق من حريتهم، فاللغة- بكل قواعدها وضوابطها- تتحول في يد الشاعر الحق إلى طاقة سحرية تبتكر نواميسها المتجددة، الأكثر حجية -في عالم الإبداع- من قواعد كهنة اللغة وسدنتها، ومن قيود حراس الأبواب العالية للمعابد والقصور.

وانطلاقا من هذه التوطئة، فإنني أعلن إشفاقي -مبدئيا- من اجتذاب هذه المسابقة المُسَيَّجَةِ بجدار العمر الأربعيني، لطبقة ممن يعتبرون "شاعرَ الحرية" طقسا مِهَنِيًا، يُمارَسُ وقت الحاجة، مثل"شاعر البلاط"، لا فرق، حتى ليمكن لمن كان بالأمس شاعرَ بلاط، أن يتحول الآن إلى شاعر حرية، ركوبًا لموجة الثوراتِ المحتدمة هنا وهناك، مثلما يفعلُ اليومَ بعضُ ممتهني سياسة الحِرْباواتِ والأفاعي والمَسارح، حيث تتبدل الألوان حسب الظروف، وتتناسخ الجلود تبعا للفصول، وتتغير الأقنعة وفقا للأدوار.

كما أشفق -أيضا- أن يتسلل إلى حرم هذا اللقب الشريف كثيرٌ ممن أدْمَنُوا الصمتَ الجبانَ، والمُهادنة الخانِعة، للاستبداد المهيمن في بلدانهم، حتى إذا"أزفتْ الآزفة"، وانفجرتْ

الثوراتُ، مرفوقة بمشهد إعلامي تهاوتْ جدرانه العازلة للأصوات الحرة، وجَفَّتْ حلوقُ ضفادعه، من طول النقيق تسبيحا بآلاء الطواغيت المزيفة، بَدَأَ هؤلاء ينظفون حناجرهم من خيوط العنكبوت، التي نسجت بين أوتارها الصوتية بيوتها الواهنة حِقبًا، ليبنوا على أطلالها أبيات شعر ثورية، يراودون بها لقب "شاعر الحرية"، الذي لم تكن لهم سابقة في ارتياد آفاقه، التي ينبغي أن تظل بعيدة المنال، إلا على "من سعى لها سعيها"، في الضرَّاءِ قبْلَ السَّرَّاءِ، وفي الرَّهَبِ قبْلَ الرَّغَبِ، إذ يعتبر شرط السوابق-إيجابا وسلبا- أوْلى-في مسابقة "شاعر الحرية" هذه- من شرط جدار العمر العازل، حسب رأيي على الأقل.

ومهما يكن، فإن هناك شعراء عربا معاصرين ارتبطوا بالقضايا الوطنية الكبرى، فحملوها هموما، وكرستهم نجوما، "فمنهم من قضى نحبه" مثل: الشابي ونزار ودرويش...."ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا"، وقد يكون خير مثال عليهم: أحمد مطر الذي منحه الجمهور لقب "شاعر الحرية"، قبل إعلان شبكة" الجزيرة" لمسابقتها، لأنه نَذَرَ عمرَه -قبْلَ الأربعين وبعدها- لرفع "لافتاته" في وجوه الطغاة، مصبوغة بمزيج عجيب، بين الشعرية والحرية والسخرية.

واليوم تزدحم على بوابة التاريخ أفواج من الشعراء، ليدخلوا دائرة الضوء الإعلامي، من بابها الفسيح، عبر قناة الجزيرة الواسعة الانتشار، في مشروعها الإبداعي المنتظر:" شاعر الحرية".

وغدا -في المستقبل المرتقب- سيحمل هذا اللقب، شاعرٌ أو شعراءُ عديدون، ممن لم تتجاوز أعمارهم "حد الأربعين"، وهناك آخرون -فوق الأربعين سنة- سوف يُدْعَوْنَ لتأثيث المشهد، وإغناء هتافات الحرية الشبابية، بأصوات حكمة الكهول الرصينة.

وبما أن سنواتي المنيفة على الأربعين-أطال الله بقائي- قد انتصبت حاجزا دون تقديمي لنفسي إلى حلبة السباق في الشعر والحرية، وبما أنني قد لا أكون بين المدعوين- من خارج الأربعين - لهذه الاحتفالية، نظرا لأنني -ربما- لست معروفا هناك بما فيه الكفاية، ولأنني أحتفظ بمسكة حياء تمنعني من استجداء المشاركة في أي مناسبة لم تستدعني من تلقاء نفسها، فإنني قد ضبطتني-ذات لحظة- متلبسا بحوار مع ذاتي، رغبت في أن أبثه، عبر "هوامش" شاعر الحرية، إن لم يتح لي النفوذ إلى صميم هذه التظاهرة السامية مقصدا، الجريئة موضوعا، حيث وجدتُ ذاتي تُرَبِّتُ عَلى أَنَايَ، تهدهده بسابق رصيده في شعر الحرية، هامسة:

ليتوَّجْ هذا، وليدْعَ إلى التتويج ذلك،فأنتَ كنتَ، ومازلتَ، وستظلُّ – بإذن الله– شاعرَ الحرية،إذ تلبَّسَ هذا الثنائي الجميل صرْخة ميلادكَ، وسيتلبَّس شهقة موتكَ،فأنت فُطِرْتَ مسكونا بأرواح شرفاء الصعاليك، ولذلك وَسَمْتَ الشاعرَ الثائرَ فيكَ بلقب" تأبط أوراقا"، عنوان أحد ديوانيك، في حين أدمَنَ الشاعرُ العاشق ملْءَ جوانحك" رحلة بين الحاء والباء"، عنوان ديوانك الثاني، فطبعتَ وجْهَيْ عُمْلة هويتكَ بالثورة والحرية والحب والشعر، وحين اخْتُزِلتْ وظيفة الشعر–وجوديا– في طُعْمٍ من الشعير، يصطاد الكرامةَ والإبداعَ، نظرتَ إليه باعتباره –لدى الشرفاء– رئة بها يتنفسون هواءَ الحرية النقي،وأحيانا يتحول لديهم كمامة واقية من الغازات السامة، التي تلوِّثُ صفاءَ الحياة والمُثُل، وآونة يصبح عدسة سحرية، يرون من خلالها جمالَ الوجود، المُشوَّه بأيدي سدنة المادة، وعبدة الغرائز:

إنَّ الوُجـــودَ –بـــدون عَيْنَـــيْ شـــاعرٍ–	جَـــدْبٌ.. كَئِيـــبٌ.. باهِـــتُ الألـــوانِ
وأنـــا أحِـــبُّ مِـــنَ الحيـــاةِ جَمالَهَـــا	القـــبْحُ يُـــؤْلِمُ مُقلـــةَ الفَنَّـــان
وطنـــي المُرَجَّـــى جَنّـــةٌ مَفْقـــودَةٌ	لِلحُـــبِّ.. للإبْـــداع.. للإيـــمان
أفٍّ..عـــلى زَمَـــنٍ.. يُبَلِّـــدُ حِسَّـــهُ	زَبَدٌ..يُغَـــشِّي الجَـــوْهَرَ الإنْســـاني

وكنتَ –كلما أمعن المستبدون في طمْس هذه القيم الكونية– تمعن في الإصرار على التشبث بها، ملء غنائك الباكي في"هجائية الزمن الرديء":

سَلامٌ.. على الحُسْن والحُبِّ والشِّعْر..
إنِّي..
لهذي الثلاثة..سوف أظلُّ أُغَنِّي..أُغَنِّي..أُغَنِّي..
ولو وأدُوا الصوْتَ..خَنْقًا..
لأنِّي..
أرَى الكوْنَ –دون الثلاثة– أعْمَى النَّوايا

واعتمادا على عيينك الشاعرتين الناظرتين" إلى الغيب من وراء ستر رقيق"، واستثمارا لحنجرتكَ التي لم توضع في المزاد العلني لبيع حناجر الببغاوات، قَرَّرَ الصعلوك الذي يسكنك –في أوج احتدام التدجين والتكميم 1994– أن يعلن تحديه للصمت المطبق في بلدكَ، فتأبط سلاحه أوراقا، وشق بصوته النشاز –يومها– رتابة الواقع المر، الجاثم على الصدور، الكاتم للأنفاس، مستشرفا نقطة ضوء في آخر النفق المظلم، متنبئا بالثورات الشعبية القادمة لا محالة،

في زمن شعري قلَّ متنبئوه، مستلهما -في ذلك- أساطير الأغوال، وهبَّاتها الماحقة، مهما طال سباتها، حسب المخيال الشعبي، حيث ختمتَ قصيدتكَ: "تأبَّط أوراقا"، بهذه الأبيات:

سفينةُ الوطن المَنْهوب.. تائهةٌ   أنَّى لها -دونَ أهْل العِلم- مَنْجاةٌ؟!
إلامَ أنْظرُ.. والأحْداثُ مَهْزَلةٌ   تُدْمِي عُيُونِيَ - مِنْ سِيزيفَ- مَأسَاةٌ؟
قدْ يَكْسِرُ الماردُ المَسْجُونُ قمْقمَهُ   أليس للغول -بعد النوم- هبات؟

وعندما اسْتشْرَتْ مصادرة بعض منابرنا الصحفية المستقلة وإسكاتها، كنت -ربما- الصوت الوحيد 1996 الذي رسم منحنى الثورات الشعبية، المنبثقة حتما من تحت وطأة الضغط الرهيب، حيث يفيض الإحساس حِبْرًا، فإذا صُودِرَ فدَمْعًا، فإذا اسْتُنْزِفَ فَدَمًا، إنها "صرخة الحق":

وطنُ الصمْت.. تَجْتَويهِ قُلوعي   ورُبوعُ الخُنوع.. ليْستْ رُبوعي
وَجَعَ الكبْتِ.. آهِ.. منكَ.. لِجَامًا   كيف ترضى الأقلامُ ذلَّ الركوع؟!
أحْرُفُ الحق.. تلتظي.. جَمَراتٍ   في فمِ الحرِّ.. شُزَّبًا.. في الضلوع
والشعورُ المَوَّارُ.. إنْ هاج عَصْفًا   في ضلوعٍ.. تنْهَدّ.. شتَّى الصُّدوع
ومِدادُ الأقلام.. إنْ يَسْرقوهُ   تنهمرْ.. بالنجيع.. بعد الدموع

وحينما سادتْ فلسفة مقايضة المواقف بالمواقع، وأصبح المثقف- في دولتك وأخواتها- مصلوبا بين خيارين أحلاهما مر:إما الصمت الجبان، مقابل الكرسي الوثير، المعترض غصة في الحلق المأجور، وإما الصرخة الوطنية الحرة في مهب العاصافة، وأقلُّ أثمانها الاحتراق -حرمانا- على رَمَضِ الرصيف، فضَّلتَ -بدون تردد- اسْتِمْراءَ النخْب الأرسطي المُرِّ،على ركوع غاليليو الجبان، أمام جبروت الكهنوت المستبد، حسب قصيدتك: " نزيف مشاعري":

أنا شاعرٌ.. قدْ فاضَ.. في وجْدانِهِ   نَبْعُ المَعاني.. مِنْ يَدِ الرَّحْمانِ
رَمَضُ الرصِيفِ.. أعَزُّ لِي مِنْ مَقْعَدٍ   يَحْشُو فَمِي.. وَا صَرْخَةَ الأوْطانِ!
مُلْكي.. وعَرْشي.. بَيْتُ شِعْر.. شَارد   في كلِّ وادٍ.. أمْتَطِي هَيَمانِي
لوْلا القصائدُ.. في دَمِي.. تَعْويذة   لانْسَقْتُ.. في دوَّامَةِ الطوفانِ

في تَمْـــتَمَاتي.. مـــا تَـــــزالُ.. بقِيـــــةٌ مِـــنْ كبْريـــاءِ الحَـــرْفِ.. مِـــلْءَ جَنـــاني

ربَّـــاتُ عَبْقَـــرَ.. قاسَـــمَتْنِي مَوْثِقًـــا إنْ ذلَّ شِـــعْري.. ضَـــيَّعَتْ عنـــواني

أقْسَـــمْتُ.. بـــالحَرْفِ الجَميـــلِ.. وسِرِّهِ مـــالي بهَجْـــرِ المُلْهِـــمَاتِ يَـــدَانِ

وحين وجدتَ نفسك -بعد 2003- شبْهَ مُشَرَّدٍ عن وطنك،في ظروف كنتَ خلالها -لوعدت إليه- سيستقبلك بالأصفاد، بدل الأحضان، مكشرا عن نيوب المفترس، عوضَ إشراقة المرحب، مبوئا إياك "غيابات الجب"، بدلَ الرتب السنية، ورغم أن السجن كان أحب إليك مما يدعوك إليه، فإنكَ فضَّلتَ عليه المنفى الأكاديمي في المغرب، باحثا عن العمل أحيانا في بعض بلاد الخليج، حتى ضبَطتْـكَ نفسك ذات ليلة -وأنت لا تجد مكانا تنام فيه- تمتم:

أنـــا طـــائرٌ.. يَهْفُـــو جَنـــاحِي.. للمَـــدَى للحُسْـــنِ.. في مَلكُـــوت رَبِّي.. مُـــرْتَهَنْ

فـــإذا أنَـــا أمْعَنْـــتُ تَحْليقًـــا.. فقـــلْ لا يَبْتغِـــي قَفصًـــا.. ويَبْحَـــثُ عَـــنْ وَطَـــنْ

وطَـــنٌ هنـــا.. وطَـــنٌ هنـــاك.. وتنْهَمِـــي الـــ أوطـــانُ خارطـــةً.. يظللهـــا كفَـــنْ

وأمام هذا الإحساس بالضياع، فوق خرائط الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، تعَوَّذتَ -من السقوط المسْتشري في صفوف الرفاق المبدعين- بـ"هجائية الزمن الرديء"، عازفا لحْن الغربة، في زمن لا يناسبك:

ورغْم الضجيج الذي يَتَنَاشَزُ نَغْمًا..
يظلُّ صدى الوحشة البِكْر..في الروح..يَعْزفُ نَايَا
ورغم الذين يَمُوجونَ حوْلي..لهاثا..وراءَ الفُتاتِ..
فلستُ أكادُ أحسُّ سِوايا
فهذا الزمانُ.. به قدْ تنسَّرَ كُلُّ بُغاثٍ..
فما عادَ للشُّرَفا وَطناً..مَلكوتُ الدنايا
وما الشعراءُ الذين حَناجِرُهُمْ أُجِّرَتْ..
لِبُغاتِ السَّلاطين..إلا بَغايَا

ورغم رداءة الزمن هذه، فإن الشاعر الثائر بين جنبيك ظل انتماؤه ممزقا بين رفض الوطن المشهود، والتوق للوطن المفقود المنشود، يفر من تضاريس الوطن الواقعي، وخطوط عرضه وطوله، فوق الأرض والخرائط، إلى جنة الوطن الحلم، ولو في عالم الوجدان:

وطنـــي المُرَجَّـــى.. إنْ تَفُتْنــي.. واقِعًـا   فأنَـا.. أحُـجُّ إليْـكَ.. فِي وجْـدَاني

سـأظلُّ أرْكُضُ..خَلْـفَ حُلْـمٍ..أزْرَقٍ   مهمـا تنـاثر.. مثـل خـيْطِ دُخـان

ولكن قوة مخيلة الشاعر، مهما استطاع بها أن يبني مُدُنَه الفاضلة، في برزخ الحرف، بين الفاصلة والفاصلة، فإن إكراهات الواقع المأزوم تَسْتَنْزِلُهُ -دائما- من عالم الغيب، إلى عالم الشهادة، ويا شتان ما بين وطنيه هنا وهناك، وقد سجلتَ تمزُّقكَ هذا في قصيدتك"بين وطنين:

ألقـاهُ.. فِرْدَوْسًـا.. بـأحْلامِي.. ولكِـنْ.. إنْ صَـحَوْتُ.. جَهَـنَّمًا ألْقَـاهُ

وطنـي الـذي ذَبَحُوهُ.. قُرْبَانـا.. عـلى   نُصُـبِ السِّياسَـةِ.. شَـارِبينَ دِمَـاهُ

وطنـي المُمَـزَّق فِي الخَـرَائطِ كَعْكَـةً   مُتَنَاهَبًـا.. بَـيْنَ الخطـوطِ.. جَنَـاهُ

وطنـي الـذي هَرمَـتْ كَراسِـيهِ.. وَمَـلَّ الغَاصِـبِيهِ.. صَـبَاحُهُ.. وَمَسَـاهُ

وطنـي المُـدَنَّس رُوحُـهُ.. الشَّـاكِي المُـزَوَّر بَوْحُـهُ.. المَخْنـوق فِي شَـكْوَاهُ

وطنـي الـذي يَنْفِـي كُنـوزَ عُقُولـهِ   مِـلْءَ الـدُّنَا.. وَالحُمْـقُ مِـلْءَ دُنَـاهُ

وطنـي الـذي سَرَقُـوا رَنِـينَ حُرُوفِـهِ   حَتَّـى الحُـرُوف.. فـأفْرَغُوا مَعْنـاهُ

وهكذا لم يكن"شاعر الحرية"، الصهلوك الثائر الذي يسكنك منذ عقود، يختزل دائرة حريته الشاعرة التي يرسمها لنفسه، في عالم الحرف، ضمن خريطة وطنك الضيق، بل كنتَ تفتح آفاق ثورتكَ على كل الكراسي والعروش، المنتصبة على المآسي والنعوش، ففي رثائك 2003 للشيخ الشهيد: أحمد ياسين"آية الكرسي"، استبد بك الغضب، حين رأيت الطيران الإسرائيلي يمزق جسمَه الطاهرَ المهزولَ فوق كرسيه المتحرك، وكراسي أحكامنا الجامدة شاهدة هناك:

الحاكمونا في الكراسي..في العروش..
ونحن.. ما بين المآسي..والنعوش..
إلى المآسي..والنعوش..
إلى التلاشي.. والعدمْ

وقد أعَدْتَ عزفَ غضبك الثائر على هذه الكراسي والعروش الجامدة الشاهدة أيضا على المجزرة الثانية للجيش الإسرائيلي في"قانا"، خلال هجومه على لبنان 2006:

آه.. يا لبناننا..يا طائرَ الفينيق..عُدْ لِي.. مِنْ رَمادِكَ..وانْتَفِضْ..
رَفْرِفْ عَلى الأنْقاض والأشْلاءِ..
وانثرْ سِحْرَكَ الفَتَّانَ..
يَمْحُ القبْحَ.. والمَوْتَ المُعانَى
لا تبالي.. بالفُتاتاتِ التي نَثروا عَلى جُثمانِكَ المَوْؤودِ..
واصْرخْ: يا دُمَانَا..
يا كراسي.. يا عُروشًا..
منذ كانتْ.. لمْ تُفِدْ إلا مآسي..ونعوشًا..
لمْ تَسُسْنَا.. عنْ رضانَا
يا جُيوشا.. دَجَّجُوها..ضِدَّنا..
لَمَّا تزلْ..تعْدو علينْا..مَعْ عِدانا..
سَلَّطَ اللهُ عليكِ السُّوسَ..
إنْ لمْ تَرْفَعِي عَنْك الهوانا..
ترفعي عنا الهوانا
هذه قانا......

ومرة ثالثة 2009 تؤاخذ ذات الكراسي والعروش الجامدة الشاهدة على وضع "غزة بين النار والحصار":

والحاكمونا..في الكراسي..في العروش..
يرون غزة.. بين هاتيك المآسي..والنعوش..
تواطؤا..يستمرئون مصيرها..
حتى يلاقوا المشنقهْ
فاقذفْ "حِذاءَكَ" في وُجوهِ الحاكِمينا بالغَلَبْ
العاجزينَ..عَنِ التَّجَمُّع.. والخُطَبْ
واصرخْ بهمْ: غَضَبٌ.. غضبْ

شافيزُ..أرْدُوغانُ..أوْلَى مِنْكمُ بِبَنِي العَرَبْ
يا قائدينا..للبلايا المحدقهْ

أجل.. أيها الشاعر الثائر.. ها هو حبل المشنقة قد التفَّ وما يزال يلتف، مواصلا رحلته بين رقاب "قائدينا"، وقائدي أنفسهم نحو " البلايا المحدقهْ "، مصداقا لرؤياك المتنبئة بمصائر المستبدين، ولقد صَدَقتْ -إذن- مُورِّثاتُ جيناتك، حين قلتَ:

أنــا.. مِــنْ سُــلالةِ مَــنْ تَنَبَّــأَ.. شــاعرًا   المُـــــــرْتَقينَ إلى المَقـــــــام الأشْرَفِ
الــــزارعينَ عــــلى المَـــدَى أرْواحَهـــمْ   الـــراحِلينَ عـــلى بِســـاطِ الأحْـــرُفِ

أجل..فمازلتَ تنظر إلى مستقبل هذه الثورات الشعبية العربية بـ" فراسة -الشاعر- المؤمن الذي ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق"، بل قد نَظَّرْتَ لها، حين رغبتَ سنة 1989 في توجيه ثورة الحجارة الشبابية إلى الداخل، إذ لم يكن العدو الخارجي -على شراسته- أوْلى بحجارة الشباب الثائرين، من العدو الداخلي، المتجسد في الحكام المستبدين، ورعاياهم الخانعين:

إيـــهِ.. تَيَّـــارَ ثـــوْرةِ الطِّفْـــلِ.. زَلْـــزِلْ   كُـــلَّ عِـــرْقٍ.. بأرْضِـــنَا.. مُسْـــتَكِينا
ثـــوْرَةَ الطِّفْـــلِ.. لَمْ تَـــزَلْ فِي سُـــباتٍ   إيـــهِ.. هُبِّـــي.. بحَجْـــرَةٍ فَادْمغِينـــا

وقد واصلتَ دعوتكَ الثورية من خلال قصيدتك:" أزيحوا الجدار"، التي تلحّ على هذه اللأَّزمة، فاتحةً لجميع مقاطعها المتعددة، متذمرا من مصادرة جدار العزل العنصري لحرية التنقل، والتنفس، والنظر، والتخاطب... في فلسطين، متجاوزا هذا الجدار وأشباهه من الجُدُر التاريخية، إلى نظائره من الجدران الداخلية المنتصبة في أعماقنا، مثل جدارن الخوف، والتعتيم، والتكميم، والتدجيل، والتدجين...، داعيا إلى هدم كل ذلك، متنبئا -في النهاية- بحتمية انهيار الجُدُر، " إذا زلزلت الأرض زلزالها "، تحت أقدام الشعوب المنتفضة، وقال الحكام: " مالها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها":

أزيحوا الجدارَ..
فتالله.. لا.. لنْ يطولَ انتظارٌ..
على ذا الجدار الذي لا يريدُ انفضاضا..
سينقضُّ حَتْمًا.. ولو لمْ يُرِدْ..

سينقضُّ.. ذي الأرْضُ.. لَمَّا تَمِدْ..
ولكنما النصْرُ آت..
نشيدُ البنين.. نشيد البناتِ:
سَيَهْوي الجدارُ.. سَيَهْوي الجدارُ.. سَيَهْوي الجدارُ

وإذا كان أدب الخيال العلمي والسياسي ظل شبه متمحض للسرديات، فإنك -في مشروعك الثوري المجهول والمتجاهل- قد دشنتَ شِعْر الخيال العلمي السياسي، سنة2006، عبر قصيدتك: "مصنع الأحلام السياسية"، حيث أعلنتَ في مستهلها يأسَكَ من انبثاق الإصلاح من صميم الإنسان العربي، لاستشراء الفساد في النُخَبِ المتعاقبة، ويأسَكَ أيضا من إمكانية استيراد المصلحين من الخارج، راسمًا على الشفاه سؤالك الإشكالي:

فهل يصنع الغرب لي ما أريد:
وسائلَ.. سِحْرية الصُّنْع..
تعملُ-دون أناسٍ- بعقلٍ ذكِي؟!

ثم تبدأ في رسم ملامح الربوتات الإصلاحية التي تريد، وتحديد اختصاصتها، مُلِحًّا في بداية المقاطع العشر المكونة لهيكل المشروع، على لازمة: أريد"، مما يعني سبقكَ الواضحَ للثورات العربية الراهنة، في نحت شعارها الكبير: " الشعب يريد إسقاط النظام"، فأنت تقول هناك:

أريدُ.. عصا شُرَطِيٍّ.. إذا كُلِّفَتْ قمْعَ حُرٍّ.. تعودُ على الشُّرَطِيِّ.. فتقمَعهُ.. وتصيحُ: أنا.. ما خُلقتُ لغيْر جَبين الغَويِّ

أريدُ.. مَدافعَ.. تعرفُ أوْجُهَ كُلِّ عِدَاهَا.. وترفضُ أفواهُهَا أنْ تُوجَّهَ صوْبَ نحور الذين أتتْ.. لِتكونَ حمىً لهمُ.. في يَدِ العَسْكريِّ

أريدُ.. خزائنَ.. إنْ لامَسَتْها يدَا سارقٍ.. يصرخ المالُ:
يا للفضائح.. تبَّتْ يداكَ.. أبَا لهَبٍ.. فيُصعق بالشلل الأبَدِيِّ
وهكذا تتسلسل بقية المقاطع، مقتصرا - هنا- على فواتيحها:
أريدُ.. زنازنَ
تعْرفُ أوْجُهَ كلِّ مُساقٍ إليها.. فتُحْكِم إغْلاقَ أبْوابها.. دون وَجْهِ البَريِّ.............

أريدُ.. منابرَ.. إنْ أبْدَعَ الشِّعْرَ-منْ فوقها- شاعرٌ.. في مديح الطغاةِ..
لهاثا.. وراء الفُتَاتِ..
تذبْ-خجلا- أحرفُ الصفحاتِ...........
أريدُ.. صحائفَ.. ترفضُ حِبرَ النفاقِ.. يُلوِّثُ طُهْرَ البياض.. بماءِ الحَياءِ المراقِ.......
أريدُ.. عمائمَ... بيضاءَ.. سوْداءَ.. لكنْ بحَجْمِ رُؤوس ذويها.. توافقُ لوْنَ سَرائرهمْ........
أريدُ.. كراسيَ حُكْمٍ... تَأَبَّى على غاصبيها.. وتصْرَعُ مَنْ ليس كُفْؤًا.. على فَمِهِ........
أريدُ.. صناديقَ.. تعرفُ مَعْنَى انتخابٍ.. تتوب من "الحشو" دون حسابٍ..
لها شَفتان.. وأفضلُ أنْفٍ ذكيٍّ...

وفي نهاية مقطع الختام، تعلن الكفر، بربوتات الإصلاح التكنلوجي، واضعا ثقتك في انبثاق الثورة من عمق الشعب العربيّ، مادام زمن المعجزات النبوية قد انتهى، وكأنك تضغط على الصاعق الْمُفَجِّر لتلك الثورة في وجدانه الْمُنَوَّم، مستلهما " إرادة الحياة" للشابي:

لعَمْرُكَ..إنَّ مَصانِعَ حُلْمِي..لَتَحْتاجُ مُعْجزةً مِنْ نَبِيِّ..
وإلاَّ.. فهَبَّة شعْبٍ..أراد الحياةَ.. بعزمٍ..قويِّ..
فأيقظ ما ماتَ مِنْ رُوحِهِ العبْقريِّ

والخلاصة أن هذه المسؤولية الثورية، هي ميراث شعراء الحرية الكبار، المنحدر إلى روحك من تأبط شرًّا، إلى نزار قباني، الذي ألمحتَ -وأنت ترثيه 1998- إلى أنك ربما تكون وارث سوطه الذي طالما أدمى به ظهور الطواغيت:

يـا حافظـا شَـمَمَ القصـيدِ.. وجالـدا ظهْـرَ الطغـاة..ح ُروفُ شِـعْركَ نـارُ
مَـنْ يُمْسِـكُ السَّـوْطَ الـذي أوْرَثْتَـهُ؟ عـارٌ.. سُـجودُ الشِّـعْر بَعْـدكَ.. عـارُ
أتـنفسَ الصُّـعَداءَ.. كـلّ مُـدَجّن أنْ مـتَّ؟ لا..لا يفـرح الأشرارُ
سـيظلُّ صَـوْتُكَ هـادرًا مِـلْءَ المَـدَى يَحْيـا بـه العشـاقُ.. والأحْـرارُ

وفي ضوء هذه الثورة المستعرة ملء روحكَ وشعرك، لا غرابة أن يَنْصبَ لكَ جَمارِكُ الإبداع محطات تفتيش، ومساءلة، على درب تجربتك الشعرية، محاولة لعرقلة تغلغلها في

وجدان جمهورك، حسب ما جَسَّدتْهُ البنيةُ الحِوارية في قصيدتك:"هذا أنا"، التي يقول أحد مقاطعها:

ما مهنة الصعلوك؟
أكتبُ أحْرُفا..
مهما تعَدَّدَ شكْلُها..
حَاءٌ وباءٌ..أصْلُها..
لامٌ.. معَ الألفِ المديدةِ..فَصْلُها..
لمْ تمْتهنْ للظالمينَ..نفاقا
قِفْ.. مَنْ تأَبَّط شِعْرَهُ.. مُتلبِّسًا بالحَرْفِ:" لا "..فلقدْ "تأَبَّط شَرَّهُ"..
أحياءُ يَعْرُبَ.. لم تزلْ رَصَدًا..
على كلِّ الصعاليك الذين تأَبَّطوا مُثُلَ الحياة..
فقفْ..هنا..
لو كنتَ حِرْباءَ العُهود.. وزامرًا..يَقْتاتُ مِنْ رئَتَيْهِ ريحَ حَيَاتِهِ..
ويعيدُ كلَّ مواهبٍ..رزقتْ له أبْواقا
لو كنتَ تحملُ ملْءَ كَفِّكَ دَوْلةً..
تتأبط الأموالَ..
تنْتعِلُ الرِّجالَ..
تدوسُ آلاماً..وآمالا..
أبَحْتُ لكَ الطريقَ..ولمْ أطقْ إغلاقا

ونظرا لأنكَ -في النهاية- قد اخترقتَ هذه الحواجز المفتعلة، فتهاوتْ متاريسها بَدَدًا، واتخذتَ أنتَ إلى قلوب جمهور قارئيك طرائقَ قِدَدًا، فلا غرابة أن تنتقل -مع إشراقة ربيع الثورات العربية- من مقام تعريف التحدي، عبر قصيدة:"هذا أنا"، إلى مقام دعوي ريادة الثورات، حيث يتلبسُ هنا ضميركَ بضمير الشعب العربي الثائر، خلال قصيدة: " أنا سيد الثورات"، المعززة -أيضا- بأختها: "ارحل.. حروف السر".

ولا شك أنه من المستحيل أن تظل، صابرا على رمض الرصيف، قابضا على هذه المبادئ الثورية في حياتك وشعرك، تقاوم المد العاتي ، طيلة "رحلتك بين الحاء والباء"، متأبطا

أوراقك"، إلى "جُودي" النجاح، لولا تشبُّعُ روحِكَ بنفحةٍ قويةٍ من الإيمان بالله، وبمسكة من التسامي عن السفسفات، ضمنتا لك التمتع بأسمى معاني التحررمن عبادة الأوثان، بلاطاتٍ وعتباتٍ، ومن عبادة العجل السامري، "تَعِسَ عبْدُ الدرهم والدينار"، ومن التخندق في الدوائر المذهبية الوهمية أيديولوجيا وأدبيا... فكيف -إذن- يقصيك هذا العمر الذي كرسته لشعر الحرية، وحرية الشعر، عن مضمار "شاعر الحرية"، وأنت ما هرمت إلا من أجل هذه اللحظة؟

فجأة -على وقع هذا السؤال- أفقتُ من غيبوبة نجوايَ مع نفسي، لأجدني -أستغفر الله- متلبسا بالكتابة عن نفسي، وهو ما لم أفعله قطّ، ولكن ماحيلتي، والمقال قد اكتمل الآن في لحظة استغراق؟

ضربت الطاولة بيدي، وصحت: إلى الأمام..إلى الأمام..ثورة..ثورة..قد لا يُسَلَّمُ لي بأني "سيد الثورات"، ولا بأنني " شاعر الحرية"، ولكن " هذا أنا "، بكل صدق، انسقتُ مع" نزيف مشاعري"، في لحظة انفعال، نَدَّتْ عن جدار الصمت والتواضع الذي يبعدني عن كثير من المناسبات الجميلة، التي لا يستحوذ عليها -غالبا- سوى المتحذلقين والمتطفلين، أعاذنا الله.

أحبك.. يا يدي..

عندما أرى تهافت بعض الناس على مصافحة الطغاة البغاة، أقبل باطنك وظاهرك، وأحمد الله الذي أكرمك بأنك لم تصافحي أبدا يد أي حاكم، لاسيما سفاحي حكام العرب، وما كان الله ليفعل بك ذلك، وقد قال صاحبك 2002م:

مَـنْ صـافحتْ يَـدُهُ.. يَـدَ السَّـفَّاحِ.. تَغْـ ـــرَقْ كفَّـــهُ بـــدِمَاءِ شـــعْبٍ قَتَّلَـــهْ!

أحبك.. يا يدي..

لأنك -مهما افتقرت- لا تمتدين.. ذليلة.. لغير الله.

ولأنك -إن وجدتِ- لا تمنعين معروفا..

وما كان الله ليفعل بك ذلك، وصاحبك هو القائل 2010:

تَعَلَّـــقَ قـــوْمٌ بـــالفُلوسِ.. فأفْلَسُـــوا وأثْـــرَى الـــذينَ المَكرمـــاتِ تَعَلَّقُـــوا!

أحبك.. يا يدي..

لأنك.. تكتبين.. قناعاتك.. حرة.. غير مرتهنة.. لأي ترغيب، ولا ترهيب.

وما كان الله ليفعل بك ذلك، وصاحبُك قد حدَّدَ خيارَه المَبْدَئِيَّ الأصْعبَ، سنة 1998م:

رَمَــضُ الرَّصِــيفِ أعــزُّ لِي مــنْ مقْعَــدٍ يَحْشُــو فَمِــي.. وا صرْخــةَ الأوْطــان!

أحبك.. يا يدي..

لأنك -مهما صفرت كفك من "وسخ الدنيا"- قد حباك الله من ملكوت التعبير، وثروة البيان، وأي نعمة أكبر من ذلك.. لك الحمد يا ربي:

مَالِي عَصَا مُوسَى.. أهُشُّ بِهَا.. عَلَى

سُحُبِ الرُّؤَى.. لَكِنْ لَدَيَّ عَصَايا!

قَلَمِي.. الذِي إن -منْهُ- نَـدَّت نُقطَةٌ

فاضَتْ حُرُوفُ السِّحْرِ.. طَوْعَ مُنَايا!

أنا أعرف أن جاذبية رِجْل اللاعب، ومردوديتها المادية -في هذا العصر المنحط روحيا- قد انحسرت أمامها قيمة العقل، فما بالك بقيمة اليد المبسوطة بالخير، المقبوضة عن الشر، المبدعة في تشكيل الحب والجمال؟! لكن رغم ذلك سأظل أحبك يا يدي.. فأنت من أهم أسلحتي التي استعرضتها في قصيدة: "أنا سيد الثورات"؛ حيث قلت:

أنا لسْتُ أمْلكُ مِنْ سِلاح..
غيْر هاتيْن اليديْن..
لغيْر رَبِّي.. لمْ تُمَدَّا
تُتْقِنانِ.. إشارَةَ النصْرِ..
التحَدِّي..
تَصْنعانِ السِّحْرَ..
بالأزْرارِ.. والأقلامِ

هكذا، وجدتني أناجي يدي، رغم كونها -لحظة هذا التدليل- كانت فارغة تماما من أي فلس، كما هو حالها -لله الحمد- في كثير من أحايينها...

والحقيقة أني سبق أن تمرست بقراءة أخرى للكف، ودلالات تجلياتها، متجاوزا كل قارئة كف، وفنجان.. حيث قلت 1999:

يا قارئاتِ الكَفِّ..
كمْ خَلْفَ الخُطُوطِ منَ المَعاني!
فانْظُرِي.. تَرَيْ اليَدَا:
غَابَاتِ أيْدٍ.. خَاوِياتٍ.. شاحِباتٍ..
راعِشاتٍ. ضارِعاتٍ.. في المَدَى
تَمْتَدُّ.. تَبْغِي الخُبْزَ.. تبْغِي الدِّفْءَ..
تَبْغِي السِّلْمَ.. تَبْغِي العِلْمَ.. تَبْغِي مَرْقَدَا
غَابَاتِ أيْدٍ.. حانِياتٍ.. دافِئاتٍ..
فاتِحاتٍ.. بابَ حُلْمٍ.. مُوصَدًا
غَاباتِ أيْدٍ.. راسِماتٍ.. عازِفاتٍ..

كاتباتٍ.. مُحْيِياتٍ.. جُلْمُدَا
غاباتِ أَيْدٍ.. زارعاتٍ.. حاصداتٍ..
بانياتٍ.. دافعاتٍ.. للعدَى
غاباتِ أَيْدٍ.. غاضباتٍ.. ثائراتٍ..
مُعْلِناتٍ.. لِلْمَمَاتِ.. تَمَرُّدَا
مُتَحَدِّياتِ.. القَاصِفاتِ.. الراجِماتِ..
لِكُلِّ عاتٍ.. مُشْهِراتٍ.. أَزْنُدَا
غاباتِ أَيْدٍ.. قاتلاتٍ.. ناهباتٍ..
-دُونَ فَرْقٍ- مَتْجَرًا.. أَوْ مَعْبَدَا
مُتَشَبِّثاتٍ.. بالكَراسِي.. تاركاتٍ..
شَعْبَهَا.. نَهْبَ الشَّتَاتِ.. أو الرَّدَى
جُثَثاً.. تَنَاهَبها الجَوارحُ.. والزوابعُ..
والشوارعُ.. والمدافعُ.. والمُدَى
عَاشَتْ يَدٌ.. تبَّتْ يَدٌ.. فَكِلاهُمَا -يا رَبُّ-
تُجْزَي اليَوْمَ.. أَوْ تــجْزَى.. غَدَا

رحلة بين الحاء والباء

في "عصر عولمة الكراهية" هذا، وغلبة دوي طبول الحرْب، على دبْدبات طبول الحُب، وسيادة السياسة الفاصلة، على الثقافة الواصلة، دعونا نستحضرُ -دائما- أنَ ديننا دين المحبة والتسامح والتواصل، وأنَّ إشاعَةَ الحُبِّ الجَميلِ هي أَفْضَلُ تِرْيَاقٍ لِمُكافَحَةِ سُمُومِ الكَراهَةِ الفَتَّاكَة، وغَازَاتِها المُتَفَشِّية السامَّة؛ فالحبُّ هو منْبَعُ الرحْمة، والرحْمة هي سرُّ التعايُشِ الكوْني، وهذا التعايشُ، هو شرْطُ استمْرار الحياة، وتنامِي الحَضارات، وهو أنْبَلُ، وأسْمى، وأقدسُ، وأشمَلُ، من أنْ يُختزلَ، في الشَّهَوَات الذاتية الجامحة، والغرائز الجَسَدِية المُسْتَثَارَة، إنَّه -باخْتصارٍ- شعورُنا الفطْري بالانْجذابِ الغَلاَّبِ إلى كل ما نراه جميلا.....

فطالما قلتُ إن الحُبّ سِرُّ الحَياةِ.. وناموُسُ الوُجُودِ.. المُودَعُ فِي حَرْفَيْ: «الحاء والباء»، وقد كُتِبَ عليْنا إدْمَانُ الرِّحْلَةِ بيْنَ هذيْنِ الحَرْفيْن، نَرْحَلُ ذهاباً منَ الحَاءِ إلَى البَاءِ (حبًّا)، ثمَّ نَرْحَلُ إياباً من الباءِ إلى الحاءِ (بوْحاً)، والحِكْمَةُ البَالِغَةُ في إيلافِ الإنْسانِ هاتيْن الرِّحْلتيْنِ، هي أنِّ رِحْلةَ الذهابِ -بِقَدْرِ إمْعَانِكَ فِي مجَاهِيلِهَا- تجْعَلُكَ تمْتَلِئُ بمَشاعِرِ المَحبَّةِ، حتَّى يَضِيقَ بِهَا وجْدَانُكَ، فتُصْبِح أحْوَجَ مَا تَكُونُ للإفْصَاحِ عنْ ما يَعْتَلِجُ في نفْسِكَ، ومنْ هُنا تَأْتِي ضَرُورَةُ رِحْلَةُ الإيابِ بيْنَ الحَرْفَيْنِ، فَتَهْتِفُ بكَ تَعْلِيَماتُ المُضِيفاتِ عنْدَ الإقْلاع: (بُحْ)، تَنْفِيساً عنْ طاقةِ الحُبِّ المُتَفَاعِلَةِ فيكَ، فَيَا وَيْلَ مَنْ تجْتَاحُ كَيْنُونَتَهُ أعاصيرُ الحُبِّ الهوْجاءُ، وتَفِيضُ يَنَابِيعُهُ مِلْءَ جَوَانِحِه، ثمَّ لا يَكُونُ شَاعِراً، مُتَشَبِّعاً بِمَلَكَةِ التعْبيرِ، ونِعْمَةِ البَيَانِ التي مَنَّ اللهُ عليْنَا بها، رَدِيفةً لِنِعْمَةِ الخلق ذاته، لنفهم دورها الوجودي.

وعلى ضَوْءِ هَذِهِ الرُّؤْيَة، أعْتقِدُ أنَّ التوْفيقَ لمْ يَخُنِّي عنْدَ اخْتياري لـ«رحْلة بين الحاء والباء» عنواناً لإحْدَى مجْمُوعاَتِي الشِّعْرِية، وعنْواناً لقصيدةٍ منْ أمَّهَاتِ الدِّيوانِ نفْسِه، لاسيما في هذا الزمن الرديء.

وانطلاقا من هذه العَتَبَةِ، أدْعوكم إلى فسْحة تتنفَّسُون فيها جَوًّا إنسانيا، روحيا، نقيا، عبْرَ "رحْلَةٍ بيْن الحاءِ والباءِ"؛ كما عَنْوَنْتُ أوَّلَ دواويني؛ فالكوْنُ على سعَتِه، وتعْقيدِ ترْكيبِه،

يُدُورُ بيْن هذيْن الحرْفيْن الصغيريْن العظيميْن، والحياة ينبغِي أنْ تكونَ -فعْلا- رحْلة بيْنهما، فهناك ينبغي أنْ نركبَ جميعا في فُلْكِهَا، ونقول: "بِسْمِ اللهِ مجْرَاهَا وَمرْسَاهَا":

شـــاطِئا بَحْـــرِ الحُـــبِّ: حَـــاءٌ.. وبَـــاءُ بَـــيْنَ هَـــذا.. وذاك.. سِرٌّ.. فضَـــاءُ
بَـــيْنَ ذيْـــنِ الحَـــرْفيْنِ.. رحْلَـــةُ تـــوْقٍ خائضُـــوها العُشَّـــاقُ.. وَالأوْليـــاءُ
كلّـــمَا لاحَ.. بـــالتّجَلِّي.. جَمَـــالٌ أقلعُـــوا.. حيْـــثُ مَـــا هُنـــاك انْتهـــاءُ

فالحقيقة أن هذين الحرفين يختزنان ملحمة الوجود، وبقراءتهما -بعمق- نكتشف أسرار الحروف المتفاعلة في سفر الحياة، ونواميس الطبيعة:

الحُـــبُّ.. مَلْحَمَـــةُ الحَيَـــاةِ.. وسِرُّهـــا فَـتَهَجَّ.. تَـوْقَ "الحَـاءِ".. نحْـوَ.. "البَـاءِ!"
حَرْفـــانِ.. بيْـــنَهُمَا الحُـــرُوفُ.. تفاعلـــتْ فـــــازْدَانَتِ الأفْعَـــــالُ.. للأسْـــــمَاءِ!
الكَـــوْنُ.. بيْـــنَهُما.. يُنَـــاغِمُ نَبْضَـــهُ فهُـــمَا الهَـــوَاءُ.. المَـــاءُ.. للأحْيَـــاءِ!

وهكذا دعوت دائما إلى أن تكونَ -الآن- حربُنا المقدسةُ ضد "راءِ" الحرْب نفْسها، لتدْميرِ برْزَخهَا المُعْتَرِضِ بيْنَ حرْفَيْ الحُبِّ، حتَّى يلْتَقِيا على أمْرٍ قُدْ قُدِر، ولنْ يكونَ ذلك إلا بإشاعة "الحاء والباء" بين الناس، عُمْلَةً رائجةً للتعامُل الإنساني، وهديةً رمْزيةً بيْن الناس، في كلِّ المُناسباتِ، إعادةً للاعتبار الذي انتزعتْه منْها، سُلْطَةُ القيم المادِّيةِ الطاغية:

أيَـــا أصْـــدِقائي.. يـــا جَمِيـــعَ أحِبَّـــائِي لكمْ.. منْ هَدَايَا العِيدِ.. حَـاءٌ.. مَـعَ البَـاءِ!
فـــلا تَسْـــتَقِلُّوها.. هُمَـــا كُـــلُّ ثَـــرْوَتِي إذا.. بِهِـــمَا.. أُغْنِـــي الـــدُّنَا.. زادُ إثْرَائِـــي!
وَبَيْـــنَهُما.. تَحْلُـــو الحَيَـــاةُ.. وتَزْدَهـــي إذَا زالَ راءُ الحَـــرْبِ.. أُفٍّ عَـــلَى الـــرَّاءِ!

أجلْ.. هيا -معا- نعلنُ "تحالفَ الحضارات"- في الحرْبِ الكوْنية المُقدَّسة- ضد راء الحرب:

إنِّي أحَـــارِبُ رَاءَ الحَـــرْبِ مُـــذْ زَمَـــنٍ لأسْـــقِطَ الحَـــدَّ.. بَـــيْنَ الحَـــاءِ.. والبَـــاءِ
الحُـــبُّ.. سِرٌّ.. عظـــيمٌ.. مَـــنْ تأبَّطَـــهُ تَمَلَّـــكَ الحَـــاءَ.. بَـــيْنَ السِّـــينِ.. والـــرَّاءِ!

وهنا سنعيد رسْمَ خرائطِ أوطانِ المَحَبَّةِ، بدَلَ خرائط الوجَع، المصْبوغةِ بلوْن الدم، والدمار الشامل، ونرحل- بأمان- من "الوطن المُسَجَّى" إلى "الوطن المُرَجَّى":

هُنَـــا وَطَـــنُ المُعَـــانِي.. وَالأمَـــانِي جِنَـــانُ الخُلْـــدِ.. والأوْطـــانُ بُـــورُ!
وَمِـــنْ "حَـــاءٍ".. نُسَـــافِرُ.. نَحْـــوَ "بَـــاءٍ" وَرَاءُ الحَـــرْبِ.. بَيْـــنَهُمَا.. كَســـيرُ!

وفي هذا السياق ندت مني صرخة شعرية في وجه صلف الحدود العربية الوهمية:

تــآكلي.. يــا حُــدودَ الــوهْم.. وامْتزِجِــي   خَــرَائِطَ العُــرْب.. بــيْنَ الحــاءِ.. والبــاءِ

هذه سبيلي "أدين بدين الحب"، وحتى في الحوار الافتراضي الذي بنيْتُ عليه قصيدة «هذا أنا»، رددتُ على شرطة الإبداع، حين استجوبتني عن محطة الإقلاع، ووجهة رحلتي، ومهنتي:

من أين جئت؟

وأين تمْضي؟

إنني أدْمَنْتُ -مذْ فَتَحَ الوجُودُ عليَّ عيْنَيْه- الرحيلَ..

أطاردُ المَعْنَى..

فمِنْ حاءٍ.. إلى باءٍ..

ومِنْ باءٍ..إلى حاءٍ..

تُطَوِّحُ رِحْلَتِي..ما أوْسَعَ الآفاقا!

***

ما مِهْنةُ الصعْلوكِ؟

أكتبُ أحْرُفًا..

مهما تَعَدَّدَ شكْلُهَا

حاءٌ.. وباءٌ.. أصْلُها..

لامٌ.. معَ الألفِ.. المَدِيدَةِ.. فَصْلُها..

لم تمْتَهِنْ -للظالمينَ- نِفَاقا!

إنَّ إيماني بسر ّهذيْن الحرفيْن جعَلني أوصِي بأنْ يُجْعَلا شاهِدَتَيْ قبْري-فِي السَّمَاء- تسامِيا بهما، في الحياة، وحتى بعْد الممات:

"إذا مــتُّ.. فــادْفِنِّي".. بأجْمَــلِ غيْمَــةٍ   ورُصَّ.. عَــلَى قــبْري.. السَّــماويِّ.. أنْجُــما

وضَــعْ.. عنْــد رأسي "الحَــاء".. شــاهدة..   لــدَى قــدَمَيَّ.. "البَــاءَ".. إنِّي هُمُــا.. هُمــا

الحب.. في زمن البغضاء

تشرفت -مساء 5/ 7/ 2016م- بأن كنت ضيفا على برنامج "كتاب وحوار"، بإذاعة قطر، مع مقدمه الأستاذ الفاضل الدكتور سلمان الظفيري، حيث دار الحوار بيننا حول كتاب: "طوق الحمامة"، لابن حزم الأندلسي، منطلقا في اقتراح هذا الكتاب على هذا البرنامج الملتزم الجاد، من اعتبار الحب لا ينبغي أن ينظر إليه كأحد التابوهات المحظورة، أو المحذورة، أو المسكوت عنها، على الأقل، فهو عاطفة إنسانية، تنسجم مع قوانين الفطرة الإلهية التي جبل الناس -وحتى الحيوان- عليها، ولا تبديل لسنة الله.

فالحب هو منبع الرحمة، والرحمة هي سر التعايش الكوني، وهذا التعايش، هو شرط استمرار الحياة، وتنامي الحضارات، وهو أنبل، وأسمى، وأقدس، وأشمل، من أن يختزل، في الشهوات الذاتية الجامحة، والغرائز الجسدية المستثارة، إنه باختصار شعورنا الفطري بالانجذاب إلى ما نراه جميلا، وهذا الشعور- في حد ذاته- لا أحد يتحكَّمُ فيه، وبالتالي ليس لأحد أنْ يحْكُمَ عليه بالتجريم أو التحريم المطلق، ما لم يخرج- في تجلياته الفعلية-عن الضوابط الشرعية والقانونية، وحتى العرفية، التي وضعت لتسيير هذه العاطفة، وترشيد إشباعاتها، إذ المُجَرَّمُ والمُحَرَّمُ، هو ما يترتب على هذا الشعور من مخالفات، ومَضَارَّ، وليس مجرد الشعور الفطري ذاته...الذي قد يرقى إلى آفاق، ويشمل مجالات، لا علاقة لها أصلا بالشبهات.

وقد لاحظت من خلال نقاشنا للموضوع أن الحضارة الإسلامية بدأت -وظلت- منفتحة على الحب بمفهومه الكوني النبيل، وتسامحت في التعبير عنه شعرا ونثرا، فلم تتعامل مع مدونة الشعر الجاهلي- مهما كانت درجة الفحش فيها- بأثر رجعي، فتحظر تداولها، ولم تحجر على المدونة الأدبية الإسلامية اللاحقة، مالم تتأكد هناك ممارسة فعلية مخالفة لجوهر الإسلام وروحه، لدرجة أن فقهاء المدينة السبعة، ومن في طبقتهم من سادات التابعين كانوا يتعاطون شعر الغزل الطافح بالبوح، عن عاطفة حب جياشة تجاه جميلات أحبوهن فعلا، دون أن يجرفهم هذا الحب العاصف إلى اقتراف محرم، ولا حتى إلى مساءلة جدية -من طرف المجتمع- لمنطوق نصوصهم، ولم تحُمْ ريبة حول نواياهم، ولم يتجه أي قدح إلى مكانتهم الدينية، أو مسؤوليتهم الفقهية، وقصائد عروة بن أذينة، وعبيد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن القس.... شاهدة على هذا المنحى، إضافة إلى تيارين واسعيْن وممْتديْن في التاريخ، يمثل أحدهما الحب الروحي العفيف، عبر ما سمي بالمدرسة العذرية، والثاني يمثل الحب الحسي الماجن، وبينهما تيار ثالث وسطي، "لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء".

وفي مجال التأليف حول موضوع الحب، في حضارتنا الإسلامية، نجد عدة مؤلفات: بدأت بكتاب: "الزهرة"، لمحمد بن داود الظاهري297هـ، ثم كتاب: "الموشى"، أو"الظرف والظرفاء" لأبي الطيب الوشَّاء 325هـ، ثم كتاب "عطف الألف المألوف على اللام المعطوف"، لأبي الحسن علي بن محمد الديلمي ق4هـ، ثم "رسالة العشق" لابن سيناء 429هـ، ثم كتاب: "المصون في سر الهوى المكنون" لإبراهيم الحصري 453هـ، ثم كتاب: "طوْق الحمامة"، لابن حزم الأندلسي 456هـ، ثم كتاب: " مصارع العشاق"، لأبي محمد السراج 500هـ، وكتاب: "ذم الهوى" لابن الجوزي 579هـ، ثم كتاب: " منازل الأحباب، ومَنَازِهُ الألباب"، لمحمود بن سلمان بن فهد الحنبلي 725هـ، ثم كتاب: "روضة المحبين ونزهة المشتاقين" لابن القيم 741هـ، ثم كتاب: "الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين" لـ ملغطاي بن فليح 752هـ، ثم "ديوان الصبابة" لابن أبي حجلة الدمشقي 776هـ، ثم كتاب: "روضة التعريف بالحب الشريف" للسان الدين بن الخطيب 776هـ، ثم كتاب: "تزيين الأسواق، في أخبار العشاق" لداود الأنطاكي 1008هـ.

وبإلقاء نظرة –ولو خاطفة– على تنوع العناوين، والأعصار، والأمصار، وزوايا المقاربات، يتضح أن الحب كان مشغلا روحيا، ومعرفيا، وإبداعيا، ونفسيا، وفلسفيا، واجتماعيا...لهذه الأمة.. مع ملاحظة أن لا عنوان يوحي بالقدح، غير "ذم الهوي"، الذي جنح للذم علاجا لمن أَلِّفَ له، رغبة في تنفيره من معاناته، كما أنَّ كل هذه المؤلفات عالجت الحب في مستوياته الإنسانية، ولم يَتَمَحَّضْ منها لدعوى الحب الإلهي الشريف، غير "روضة التعريف" لابن الخطيب.

والحقيقة أننا اليوم بحاجة إلى إفشاء المحبة الإنسانية السامية، في عصر وعالم تسوده عولمة الكراهية والبغضاء.. والقبح، والموت، والدمار.

إنِّي أحَارِبُ رَاءَ الحَرْبِ مُذْ زَمَنٍ
لأسْقِطَ الحَدَّ.. بيْنَ الحَاءِ.. والبَاءِ
الحُبُّ.. سِرٌّ.. عظيمٌ.. مَنْ تأَبَّطَهُ
تَمَلَّكَ الحَاءَ.. بيْنَ السِّينِ.. والرَّاءِ!

"عيد الحب".. بين العهر والطهر

الحبُّ يستحقُّ أنْ نحتفلَ به طولَ العُمْر، وأنْ نجعلَ حياتَنا كلَّها عِيدًا له، لكنْ ينْبَغي التنْبيهُ إلَى أنَّ الحبَّ أقدسُ وأطهرُ وأنبلُ منْ أنْ يُرْهَنَ ويُخْتَزَلَ الاحْتفاءُ به، بمناسبةِ اغتصابِ قسيسٍ يُسَمَّى "فالنتين"، لابْنةِ المَلِكِ في عهْدِه، فأعْدَمَه انتقامًا لشَرَفِه، وجزاءً لعهْرهما، أليْسَ فِي تاريخنا الإسْلامي، وحتَّى العربي الجَاهِلي، ما فيه نماذجُ للحُبِّ الطاهرِ، العفيفِ، تستَحقُّ الاحْتفاءَ، فنُسَمِّيهِ -إنْ كانَ لا بُدَّ- عيْد قيْس ليلى، أو يومَ جميل بثينة... إلى غيْرِ ذلك من أبطالِ أساطيرِ الحُبِّ عند العرَب، اسْتثمارًا في فلسفة الحُبِّ المُقدَّس، وإقلاعًا عنْ مُسْتنْقعات الحُبّ المُدَنَّس، السائدةِ اليوم، في عصْر عوْلَمَة العُهْر، والقبْح، والكرَاهية....

إلَى مَتَى نَظَلُّ مُنْخَرِطِينَ في إمَّعِيَّتِنا الحضارية، وكأنَّ قدَرَنا أنْ نسْتوْردَ كُلَّ شيْءٍ من الغرْب، ونحْن مُغْمَضُو البَصَر، مسْلوبُو البَصيرة، مشْلولُو التفْكيرِ، حتَّى فِي مجَالِ الحُبِّ، الذي يُفْتَرَضُ فينا أنْ نَكُونَ أُمَّتَه الأولَى فِي جَاهِلِيتنا وإسْلامِنا، فقديمًا كانَ العَرَبُ -رغْمَ العنْفِ البَدَوِيِّ الظاهر- أمَّةً يَفْعَلُ فيها الحُبُّ أفاعِيلَه، بحيث يَخْتَرِقُ شِغَافَ الفُرْسانِ الأشاوِسِ، فيَمُوتُونَ من أجْلِه ويَحْيونَ، بهشاشةٍ عاطفيةٍ باطنيةٍ، لا تُناقِضُ صلابَةَ المَظْهَر الفُروسِيّ، حتى لدَى عنترة بن شداد، وغيْره من صعاليك العرَب وسَادَاتِها على السَّواء، وحِينَ جاءَ الإسلامُ اعْتَمَدَ الحُبَّ وإشاعَتَه -بمَفْهُومِه الإنْسانِيّ الشامِلِ- رُكْنًا أساسيا من العقيدة، بحيث لا يَكْتَمِلُ إيمانُ الفرْدِ حتَّى يُحِبّ لغيْره ما يُحِبّ لنفْسِه، وكرَّسَ حُبَّ الجَمَال عموما، وجمال المرْأة خُصوصا، جسَدا ورُوحا، وعنْدما تفاعَلَتْ ضوابطُ الأَعْراف الجاهِليةِ المُحَافِظَةِ على الشرَفِ والعِرْضِ، معَ ضوابطِ الإسلام...مَاتَ كثيرٌ من شُعَرَاءِ العشْقِ المُؤسْطَرين في قصَصِ حُبِّهِمْ العَفيفِ العُذْرِيّ القاتل.. الذي سَلَبَهَمْ حتى أسْماء آبائِهم، ونَسَبَهم القَبَلِيّ الأصيل، فارْتَهَنَتْ هُوُياتُهم بأسْماء حَبيباتهم، واخْتُزِلتْ كيْنوناتُهم في النِّسْبَة إلى عرائسهم الشِّعْرية، مثل العاشقَيْن المَذْكورَيْن آنِفا، إضافة إلى "عرْوة عفْراء"، و"قيس لبْنى"، و"كثير عَزَّة"، وغيْلان مَيَّة....

وبَعيدا عنْ تَقَمُّصِ تاريخ الحُبِّ العاهِر الفاجِر سوَاءً كانَ باسْم أسْطُورَة "فالنتين" الغرْبيةِ، أو أسْطُورة "أسَاف ونائلة" العَرَبية الجاهلية، وبعيدًا أيْضا عنْ تَقَمُّصِ رُمُوزِ الحُبِّ

العَرَبِيّ الإسلامي العَفيف الطاهر، ابْتداءً من "مُغِيثٍ وبُرَيْرَةَ" في العهْد النَّبَوِيِّ الشريف، مُرُورًا بالمَدْرَسَةِ العُذْرِيَّةِ في العصْر الأمُويّ، وحتى رُمُوز الحُبِّ الإلهيّ، من "رابِعة العدوية"، إلى "ابن الفارض"، إلى "ابن عربي" الذي أعْلنَ أنَّه يَدِينُ بدِينِ الحُبِّ أنّي تَوَجَّهَتْ رَكائبُه... لنْ يكونَ هُنَاكَ عِيدٌ حَقِيقيٌّ للحُبِّ تسْتشْعِرُه الإنسانيةُ، مِلْءَ وجْدانِها ووُجُودَها، ما لمْ نجْعلْ حرْبَنا المُقَدَّسَةَ الآنَ ضد "راءِ" الحرْب نفْسه.

الحرب العالمية الثالثة ... ضد راء الحرب

أرَى أنَّ الحَديثَ اليوْمَ عن "عِيدِ الكُرْهِ" أكْثرَ واقِعِيةً -فِي الغرْب، والعَرَبِ معًا- مِنْ دعْوَى الاحْتفالِ والاحْتِفاءِ بـ "عِيدِ الحُبِّ" المَزْعُوم... حيث لا صوْتَ يعْلو-فِي هذا المُنْعَرَجِ الحادِّ الخطيرِ، منْ حضارَتنا الميكانيكية- فوْقَ أصوات قرْعِ طُبُول الحرْب، فتعالوْا لنقرَعَ طبولَ الحُبِّ، ولنحوِّل نُذُر الحرْب العالمية الثالثةِ الكبرى، إلى اتجاه رُوحِي يليقُ بإنسانيتنا، فنحْنُ في عصْرٍ وصفتُه ذاتَ مرة بـ"عوْلمة الكراهية"، فالكل يصيح -في وجوه الكل-: "لماذا تكرهوننا؟"، مما يعْني أنَّ الجميعَ يكره الجميعَ، ، والكلُّ يتنمَّرُ علَى الكلِّ، ويستعدُّ للانقضاض عليْه بكلِّ وحْشية؛ حيْثُ تَكَادُ صِناعةُ الموْت -في حَضارَة الزِّرِّ- تتَفَوَّقُ على صِناعة الحياة، وحيثُ يَطغَى على مَفهومِ الحُبِّ طابعُ التدْنِيس، بَدَلَ حُمُولة التقديس، فعَنْ أيِّ حُبٍّ نتحدَّثُ، وبأيِّ عيدٍ نحْتفِلُ، أو نحْتفِي، وأوْطانُنا العربيةُ المَسْكونَةُ بحُروبِ "البَسْوس"، و"داحِس والغبْراء"، وذهْنية" دُول الطوائف"-غارقةً في طوفان الكراهية، وأعاصيرِها القادِمَةِ مما ورَاءَ البِحَارِ، منْ موْطنِ الـ "فالنتين"، و" عيد الحُبِّ" المَوْهُوم، من تِلْقاءِ العالَمِ الغرْبي، المسْكون بعقيدةِ "حُرُوبه الصليبية"، وحمَلاتِه "الاسْتعْمارية"، حيث تحالفتِ النزْعَتَانِ العُدْوَانيتانِ المُتأصِّلتانِ في العقْليْنِ الباطنيْنِ لكلٍّ من العالميْنِ: الغرْبي والعرَبي.

وهكذا، لنْ يكونَ هُنَاكَ -كما قلت سابقا- عِيدٌ حَقِيقيٌّ للحُبِّ تسْتشْعِرُه الإنسانيةُ، مِلْءَ وجْدانِها ووُجُودَها، ما لمْ نجْعلْ حرْبَنا المُقَدَّسَةَ الآنَ ضد "راءِ" الحرْب نفْسها، لتدْميرِ جِدارِهَا المُعْتَرِضِ بيْنَ حرْفَيْ الحُبِّ، حتَّى يلْتَقِيا على أمْرٍ قدْ قُدِر، ولنْ يكونَ ذلك إلا بإشاعة "الحاء والباء" بيْن الناس، عُمْلَةً رائجةً للتعامُلِ الإنساني، فهيا -معي- نُعْلنُ "تَحالُفَ الحَضاراتِ"- في الحَرْبِ العالمية الثالثة، عبر نشيدي هذا:

إنِّي أحَـــارِبُ رَاءَ الحَـــرْبِ مُـــذْ زَمَـــنٍ   لأسْـــقِطَ الحَـــدَّ.. بـــيْنَ الحَـــاءِ.. والبَـــاءِ

الحُـــبُّ.. سِرٌّ.. عظـــيمٌ.. مَـــنْ تأبَّطَـــهُ   تَمَلَّـــكَ الحَـــاءَ.. بـــيْنَ السِّـــينِ.. والـــرَّاءِ!

إنَّ إشاعَةَ الحُبِّ الجَميلِ هي أفْضَلُ تِرْيَاقٍ لِمُكافَحَةِ سُمُومِ الكَراهَةِ الفَتَّاكَة، وغَازَاتِها المُتَفَشِّية، وما دمتُ أعْتقدُ -جازما- أنَّ اعْتِلاجَ الحُبِّ فِي كِيانِنا مُعَانَاةٌ، والتَّعْبِيرُ عَنْهُ انْتِصَارٌ،

فإنني أدعو لإشاعة كلمة "أحبك"، بكلِّ ما تكتَنِزُه من قدسيةٍ في ذاتِها، حتى نُطهِّرَها من حُمولة العار، والعيْب والإباحية، التي تلبَّسَتْها ظلْما وعُدْوانا، وأنْ نُوسِّع مفهومَها الروحي بعيدا عن الحيز المادِّي الضيِّقِ الذي اختزلَها فيه الاستعمالُ الخاطئ.

الشاعر..

في مهب عولمة القبح والكراهية

الشاعرُ يَتَمَيَّزُ برَهافة إحْساسه المَعْهودةِ التي مَنَحَتْهُ العربيةُ -بمُوجِبها- هذا الاسمَ المُشْتَقَّ من ينبوعِ الشُّعُور الإنساني الجَيَّاش، ولذلك فإنَّ رُوحَه الصافية، تُعْتَبَرُ مِرْآةً للبيئةِ التي تُحِيطُ به، فتَتَلَوَّنُ بألوانِها الجميلةِ والقبيحةِ معًا، فعندما يَطْغَى عليها ثالوثُ:" الماء والخضراء والخد الحسن" يَتَّشِحُ الشِّعْرُ بالغضارة، والنضارة، وتتفاوَحُ أبْياتُه بعبير الجِنَانِ الغَنَّاءِ، وعطر الحُورِ الحِسَان، وعندما تغْرَقُ المَشاهِدُ والمَناظِرُ بِدَمِ "هابيل" المَسْفوكِ بيَدِ "قابيل"، يَتَزَمَّلُ الشعْرُ بثوْب الحِدادِ، وتُظَاهِرُ القصيدةُ بيْنَ دِثَارِ النادِبَةِ لِجَمالِ الوُجُودِ المُنْتَهَكِ، ودِرْعِ الثائرةِ ضدَّ اخْتلالاتِ الحياة السائدة، مُضْفِيةً -في الحالة الأولى- جَمَالَ الفَنِّ على جَمالِ البيئة، ومُغْرِقَةً -في الحالة الثانية- قُبْحَ الحياة في جَمالِ القصيدة، لأنَّ الشاعرَ وظيفتُه التَّبَتُّلُ في مِحْرابِ الجَمالِ، ومُحَارَبَةُ القُبْحِ في كلِّ تَجَلِّياتِه.

ومن هنا أعتقدُ أنَّ الشاعرَ الذي لا يُقاسِمُ المَنْكوبينَ إحْساسَهم، ولا يَلْتَقِطُ وجْدانُه ذبْذباتِ مُعَاناتِهم، هو كائنٌ غيرُ جَديرٍ بصِفةِ الشاعر، التي لا يَسْتَحِقُّها إلاَّ منْ " يَشْعُرُ بما لا يَشْعُرُ به غيرُه"، أمَّا هذا الذي لا يَحِسُّ بأفْظعِ ما يشْعُرُ به غيرُه، فابْحَثوا له عن لَقَبٍ آخرَ غير "الشاعر"، فهو إمَّا مُتبَلِّدُ الإحْساس، أو سَادِيٌّ سَجين بُرْجٍ عَاجِيٍّ، لا يَرَى فِيهِ غيرَ بَواعِثِ الحُبِّ والجَمَال، المنتهكة حوله.

وأنّى يتحقق له ذلك الهروبُ الكبيرُ؟ لا سِيَّما في هذا الزمَنِ الرديء الذي سَادَتْ فيهِ عَوْلَمَة القُبْح والكرَاهِيةِ عبْرَ ما أسْمَيْتُه ذاتَ مَرَّةٍ "حضارة الزر"، المُسَوِّقَةِ -منْ خِلالِ انْتشارِها الواسع- لانْتصارِ حُبِّ القُوَّةِ على قُوَّةِ الحُبِّ، وهيْمَنَةِ حَقِّ القوة على قوة الحَقِّ، حيثُ تَفْرِضُ صُورَ الخَرَابِ الدَّامِية عبْر شاشاتِ السماواتِ المَفْتوحة، على الشاعر-مَهْمَا تَهَرَّبَ- أنْ يكتبَ إبْداعَه بقلمٍ لا حِبْرَ له سِوَى دَمِهِ المَسْفُوكِ من المُحيط إلى الخليج.

وتحْتَ ضغْطِ هذا التشْويهِ المُريعِ لِجَمالِ الوُجُودِ، انْفَجَرَ هذا السؤال-ذاتَ قصيدةٍ- على شَفَتَيَّ:

مِـــنْ أيْـــنَ يَنْبَثِـــقُ الشِّـــعْرُ الجَمِيـــلُ..وَفِي عُيُونِنَـــا يَكْتُـــبُ القُـــبْحُ الـــدَّوَاوِينَا؟

ثم سرعان ما استدركتُ أنه -مَهْمَا يَكُنْ- لا يَنْبَغِي للشاعر أنْ يَرْكَعَ مُسْتَسْلِمًا أمَامَ جَبَرُوتِ التّغَوُّل المادي القبيح، بلْ يَجِبُ أنْ يَظَلَّ يُحارِبُ قبْحَ الزمَنِ الرَّديء بجَمَالِ الفَنِّ والرُّوح، حيثُ إنَّ النفوسَ هي مَسْرَحُ فاعِليتِه التغْييرية، ومن داخلِ هذه النفوسِ يأتِي التغييرُ الجِذْريُّ للواقع.

وهكذا عندما وَجَدْتُ عالمَ القِوَى المُتغَطْرِسَة، قدْ "تأبَّطَ شَرًّا"، مُشْهِرًا أسْلِحَةَ دَمَارِهِ الشامِلِ لإبَادَةِ الإنْسانية، وقَفْتُ في وجْهِه -بكُلِّ شَجاعَةٍ- "مُتَأبِّطًا أوْراقي"، ذاتَ "القوَّةِ النَّاعِمَة"، وعندما عَوْلَمَ الجبابرةُ القبْحَ والكَراهِيةَ، أدْمَنْتُ أنا "رِحْلتِي بيْنَ الحَاءِ والبَاءِ"، فصحْتُ في مَهَبِّ عاصِفَةِ الرَّدَاءَةِ التِّي تَجْتَاحُ عَصْرَنَا المَجْنونَ، في تَضاعِيفِ "نَزِيفِ مَشاعِري":

إنَّ الوُجـــودَ بـــدُونِ عَيْنَـــيْ شَـــاعِرٍ جَـــدْبٌ.. كَئِيـــبٌ.. بَاهِـــتُ الألـــوانِ
وأنَـــا أحِـــبُّ مـــنَ الحَيَـــاةِ جَمَالَهَـــا القُـــبْحُ يُـــؤْلِمُ مُقْلَـــةَ الفَنَّـــانِ

وفي هذا السياقِ أشْفَقْتُ -في خِتام قصيدتي: "الحُب وثورة الأزرار"- مِنْ زَوَالِ ثَالوثِ الشُّعَراءِ المُقَدَّس:

الحُسْـنُ.. والحُـبُّ.. والشِّـعْرُ الجَمِيـلُ.. عَنـاوينُ الحَيَـاةِ.. فـلا تَمْحُـوا العَناوِينَـا

وعلى ضوْءِ إيماني بأنَّ هذا الثالوثَ من أهَمِّ نَوَامِيسِ الكوْن، التي باخْتِلالِهَا تَخْتَلُّ بنْيَةُ الوُجُودِ عامة، والشِّعْرِيِّ خاصة، أمْعَنْتُ في رِثائِه، خِتامًا لِقصيدتي" هِجائية الزمَنِ الرديء"، مُتَشَبِّثًا به إلى الأبَدِ:

سلامٌ.. على الحسْن.. والحُبِّ.. والشِّعْر..
إنِّي.. لهذي الثلاثة.. سوْف أظلُّ:
أُغَنِّي.. أُغَنِّي.. أُغَنِّي..
ولو وَأَدُوا الصَّوْتَ خَنْقًا لأنِّي..
أرَى الكَوْنَ -دُونَ الثَّلاثةِ- أعْمَى النَّوَايَا.

الشعراء بين الألفة والمفارقة

الشعراءُ كائناتٌ من كوكب الإحساس المُرْهَف، مهْما عاشوا فوْق كوْكب الأرض، وما اسْتحقوا هذا الاسم -في نظر ابن رشيق القيرواني- إلا لأنهمْ يشعرون بما لا يشعر به غيرهم، ولذلك يظلون في حالة تنازع قوي، بين الألفة، والمُفارَقة، ولا سيما شعراء العرَب، القدماء الذين، عانوا من وحْشة فضاء الصحْراء المُترَامي الأطراف، وشَظَفِ حياته، وذلك ما اختزلَه المُتنبي "مالئُ الدنْيا، وشاغلُ الناس"، في قوْله:

خُلِقْتُ.. ألُوفًا.. لوْ دُعِيتُ إلى الصِّبا لفارَقْتُ شيْبي مُوجَعَ القلْبِ باكيا

إنَّ البحثَ عن الأليفِ في جَوِّ الوحْشة السائد، يتجَلَّى في اشْتقاقهم له، حتَّى من أنَاهم المُفْرَدة، حين لا يَجِدُونه واقعا، فتراهم دائما في مَطالِع المُناجاة الشعْرية، يستخدمون: المَنَادَى المُثَنَّى: "خليليَّ"، اختراعا لمُخاطَبيْن، يأنس ُبالبوْح إليْهما، ويُمْسِكانِ له بطرَفِ خيْط الحديث، ليَطيبَ له نسْجُ الإبداع.. يَسْتَوْقفهما مَعَه على أطْلاله الداثرة، مُسْتَبْكِيا: " قِفَا نبْكِ من ذكْرى حبيبٍ ومَنْزل..."، كما هو حالُ امرئ القيْس، أو مُضِيفًا للاسْتبْكاء، بُعْدَا تعَبُّدِيا، تطْهِيريا، كما هو حال "كَثَيِّر عَزَّةَ"

"خليليَّ هذا ربْعُ عزَّة فاعْقِلا قلوصيْكما.. ثم ابْكيا حيْث حَلَّتِ

ولا تيْأسا أن يمْحُو اللهُ عنْكما ذنوبًا.. إذا صليْتما حيث صَلَّتِ

وهذا "الملك الضلِّيل": امرؤ القيس، "حاملُ لِوَاء الشُّعَراء" الجاهليين، عنْدما حضرَه المَوْتُ، مسْتوْحشا، ضائعا، غريبا، في مَرابع تُرُكْيا، بسفْح جَبَلِ "عسيب"، قرْبَ "أنْقرة"، يَبْحثُ عن الألْفة، حتى في آخِر لحْظة من حياته، ويمدُّ خيوطَ البوْح الشِّعْري، ونجْوى الشكْوى، تَحْتَ التراب، بيْن قبْره المُنْتَظَر، وقبْرٍ آخرَ لَمَحَهُ هناك، قِيلَ له: إنَّه لإحْدَى بناتِ المُلُوكِ، وهل قتله إلا حبُّه لبناتِ الملوك:

أَجارَتَنا إنَّ الخُطُوبَ تنوبُ وإنِّي مُقيمٌ ما أقامَ عَسِيبُ

أَجَارَتَنا إنَّا غريبانِ هاهنا وكُلّ غريبٍ للغريبِ نَسِيبُ

أما الفارسُ المِغْوَارُ أبو مِحْجَن الثقفي، فقد كان -حسَبَ الروايات- من مُدْمِنِي الخمْر، حتى بعد إسْلامه، ولم يَستطع الإقلاع عنها إلا بعْد معْركة القادسية، ولهذا قالَ -ذاتَ قصيدة- في لحْظة إشفاقٍ من مُفارَقتها بعد دفْنه في العَراء:

إذا مــــتُّ فـــادْفِنِّي إلى جنْـــبِ كرْمَـــةٍ تُـــرَوِّي عِظَـــامِي بعْـــدَ مـــوْتي عُرُوقُهـــا
ولا تـــــدْفِنَنِّي -بــــالفَلاة- فـــإنني أخـــافُ إذا مَـــا مِـــتُّ أنْ لا أذُوقُهـــا

أمَّا الشُّعراءُ الصعاليكُ الذين نَبَذَهم المُجتمعُ، أو نَبَذُوهُ، فلمْ تمْنعْهم قسْوَة الحياة إنسانا، ومكانا، وزمانا، عن تطلُّبِ الألْفة، حتَّى فِي مُجتَمَعهم الوحْشيِّ المُوازي، حيْث يقولُ الأحيمرُ السعْدي:

عوَى الذئْبُ.. فاسْتأنسْتُ بالذئْبِ.. إذْ عَوَى وصـــوَّتَ إنْسَـــانٌ.. فكِـــدْتُ أطـــيرُ

ويقول الشنْفرى:

ولِي دونكـــمْ أهْلُـــون: سِـــيدٌ.. عمَلَّـــسٌ وأرْقـــطُ زهْلـــولٌ.. وعرْفـــاءُ جيْـــألُ
هـــمُ الأهْـــلُ.. لا مُسْـــتودَعُ الـــسر ذائـــعٌ لـــديهم ولا الجَـــانِي -بـــما جـــرَّ- يُخْـــذَلُ

المُهِمُّ هو تحقُّقُ الألفة، من حيْثُما تحققتْ، ولو من خلال المفارقة، سواء من تحْت صخور جبلِ "عسيب"، لدى امرئ القيس، أو عروق "كرْمة" العنب، لدى أبي مِحْجَن الثقفي، أو ذئب الأحيْمر السعْدي، أو غابة وحوش الشنفرى.

أنا أكِنُّ لكَ... مَتَى ستُعْلِنُ؟

دَرَجَ -في خطاباتنا، وفي معاملاتنا- أنْ تسْمعَ أحَدَهم -خلالَ لحْظةِ اعترافٍ مُسَرَّبَةٍ- يبُوحُ لكَ بأنَّه يُكِنُّ لكَ التقديرَ والمَوَدَّةَ والإعجابَ بشخْصِكَ، أو مُنْجَزِكَ، أو هُمَا معًا ...

يا هذا... لِمَ تُكابدُ مُعاناةَ التكتُّم.. طيلةَ حَيَاتِكَ؟ ولِماذَا تُكابرُ في التعبير عن حُبِّك، وإعجابِكَ.. وتقديركَ لشخْصٍ مُعَيَّنٍ؟ هل تَجِدُ غضاضةً في ذلك؟

هذه ليستْ علاقةَ حُبٍّ مشْبُوهٍ يَجِبُ التستُّرُ عليْها، بل هي مَوَدَّةُ أخٍ.. لأخٍ، يفْرضُ عليْكَ مَنْطِقُ الروحِ الإيجابيةِ الاجتماعية، وجَوْهَرُ الإيمانِ في دِينِنا الحنيفِ، ووصايا رَسولنا نَبِيِّ الرحْمَةِ والمحبة -عليه الصلاة والسلام- أنْ تُشِيعَها، وتَبُثُّها في وجْه أخِيكَ صباحا.. مساء، ما دُمْتَ تشْعرُ صادقًا بحُبِّه، فلا تلْقاهُ إلاَّ وقلتَ له -بمِلء فَمِكَ، وقلبِكَ، ووجهكَ-: "يا فلان.. إنِّي أحُبُّكَ"، فيُجيبكَ: "أحَبَّكَ اللهُ الذي أحْبَبْتَنِي فيه"؛ وهكذا تنْتَشِرُ المَوَدَّةُ والرحْمَةُ في كيان المُجْتمعات.. وترْتفعُ الروحُ المَعْنَوِيةُ للمُتَوَادِّين، وتَتَوَقَّدُ حَافِزِيةُ الإبْدَاعِ، والإنْجازِ، باعْتِبارِ ذلك الحُبِّ -رمْزيا- رأسَ مالٍ، مُكْتَسَبًا عبْرَ الاسْتِثْمارِ في قِيم مَعْنَوَيةٍ يَسْتَحِقُّ صاحِبُها التقديرَ، والإعجابَ....

فكيف تظلُّ صامتًا.. مُعْرِضًا-"يا أيها المُدَّثِّرُ" بحِجَابِ "المُعاصَرَةِ، المانِعَةِ من المُناصَرَةِ".. حتَّى يُغَيِّبَ الموتُ منْ أحْبَبْتَ -في زَعْمِكَ- لتُعْلِنَ حُبَّكَ، وإعْجَابَكَ يَوْمَ لا يَنفَع الإعْلانُ ..

حِينئذٍ لنْ تكُونَ دُموعُكَ -في نظري- إلا "دُمُوعَ تَمَاسِيحَ"، ولنْ تَكُونَ تَأوُّهَاتُكَ -وحَتَّى مَراثِيكَ- إلاَّ مثْلَ عَويلِ النَّادِبَةِ المَأجُورَةِ أو المُتَملِّقَةِ. ولنْ تَكُونَ اعْتِرَافاتُكَ بالفضْلِ للفقِيدِ إلا مثْلَ الطبيبِ الذي يأتِي بعْدَ الموْتِ!

فابْقَ على تَكَتُّمِكَ السَّفِيهِ، وصمْتِكَ غيْرِ النزيهِ، فنَفْسُكَ -في التشْخِيصِ النِّهائي- غيْرُ سَوِيَّةٍ مُطْلَقًا.

ولقد قلتُ في مَرْثِيتي لنفْسي، حينما تخيَّلتُ المُتَباكينَ، النَّادِبينَ، بعْد موْتي، وهمْ منَ كانوا يَزمُّونَ شِفاهَهم عن الاعْترافِ للْحَيِّ، ويبالغونَ في الثناءِ، والتفجُّعِ عليْه ميتًا:

سَـفَهٌ.. جُحُـودُ المَـرْءِ.. حَيًّـا.. فَضْـلَهُ   والجُحُـودُ.. بعـد المـوتِ.. بـالتَّثْمِينِ

لا تَطْـوِنِي.. حَيًّـا.. وَتَنْـشر مَيِّتِـي   فَمَـدامِعُ التِّمْسـاحُ.. لا تَعْنِينِـي

قُـلْ لِي: أُحِبُّـكَ.. مِـلْءَ وَجْهِـي.. أغْنَنِـي   طَـرِّزْ.. حَمِيـدَ الـذِّكْرِ.. فَـوْقَ جبينـي

تَحْيَـا الفَضـائلُ.. إنْ تَضَـوَّعَ نَشـرُهَا   وتَمُـوتُ.. كَالأزْهـار.. بـالتخْزين

الحقيقة أنَ إعْلانَ الكراهية رُبَّما كانَ أفْضلَ منْ كتْمانِ المَحَبَّةِ، لأنه أصدق، وكِلاهُما لا خيْر فِيه..

وإذا كانَ مُجْتَمَعُنا الشرْقيّ، يُحَرِّجُ في إفْصَاح المْرْأة –بالدَّرَجة الأولى، والرَّجُلِ بالدرجة الثانية– عنْ عاطفةِ الحُبِّ تُجاهَ بعْضهما البعْض، حتَّى ولوكانَ ذلك البوحُ داخِلَ إطار الزوْجية الشرْعية، فَما بالُكَ لوْ كانَ التصريحُ بالحُبِ، خارجَ إطارِ الزواج، لكنّني أعتقدُ أنَّ كلمة "أحُبُّك" في حدِّ ذاتِها، ليست حَرامًا أبدا، ولا مُنْكَرًا من القوْل، ما لمْ تتحوَّلْ إلى مُمَارسَةٍ غيْرِ مشْرُوعَة، ودليلي أنَّ كثيرًا من أجِلاَّءِ التابِعينَ، وخصوصًا الشعراء من "فقهاءِ المدينة السبعة" (عروة بن أذينة، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود) لم يتردّدُوا في إعْلان حُبِّهم لجميلاتٍ تَدَلَّهوا بهنّ، في عصْرهم المُزَكَّى، فمِنْ أيْنَ هبطتْ عليْنا عادةُ التحْريج في بوْحِ الحُبِّ البَريء؟ حتى بيْن أفْراد المُجْتمَع منَ الرِّجال...بعيدا عن الرِّيبة، وسَلَفُنا الصالحُ كانَ أكثرَ انفتاحًا، ونَبِيُّنَا –عليه السلام– يَحُضُّنا على إفْشاءِ المَحبَّة، وإفْشاءِ السلام، وهُمَا مُتلازمانِ؛ حيْثُ لا سَلامَ بدُونِ حُبّ.

ألسْنا اليوم أكثرَ حاجةً لنشْر ثقافةِ المَحبَّة والسلام هذه، ونحْنُ فِي هذا الزمَن الرديء، الذي وَصَفْتُه –ذاتَ مَرَّةٍ– بعَصْرِ عَوْلَمَةِ الكراهية، حيْثُ تَكَادُ صِناعةُ المْوْت –فِي حَضارَة الزِّرِّ– تتَفَوَّقُ على صِناعة الحياة، وحيثُ يَطغَى على مَفهومِ الحُبِّ طابعُ التدْنِيس، بَدَلَ حُمُولة التقديس، بَعْدَما أفْرِغَ من رَوْحانِيتِه، واخْتُزِلَ فِي بُعْدِه المَادِّي الغَرِيزي، الذي يَتَقاسَمُه الإنْسانُ حَتَّى مَعَ أخَسِّ الكائناتِ الحَيَّةِ، وإذا كُنْتُ أعْتَقِدُ –جازماً– أنَّ إشاعَةَ الحُبِّ الجَميلِ هي أفْضَلُ تِرْيَاقٍ لِمُكافَحَةِ سُمُومِ الكَراهَةِ الفَتَّاكَة، وغَازَاتِها المُتَفَشِّية، فإنَّ اعْتِقادِي راسخٌ –أيْضاً– بأنَّ اعْتِلاجَ الحُبِّ فِي كِيانِنَا مُعَانَاةٌ، والتَّعْبِيرُ عَنْهُ انْتصار، ولهذا أصِرُّ عَلى المُطالَبَة باسْترِجَاع كلِمَةِ "أحِبُّك" لقُدسِيَّتِها فِي ذِاتِها، وتطْهيرها من حُمُولَة العار، والعيْب والإباحِية، التي تلبَّسَتْها ظلْما وعدْوانا، وأنْ نوَسِّع مفْهومَها الروحيَّ عن الحَيِّزِ المادي الضيِّق، الذي اخْتزَلَها فيه الاسْتِعْمَالُ الخاطئ.

أجيال الشعراء:
جدل التناكر والتناصر

الحياة الأدبية سيرورة وصيرورة مستمرة:"جيلٌ يمرُّ ويأتي بعده جيلُ"، هذه سنة الله ولن تجد لسنته تحويلا، لكن عقدة الإشكال، الحافزة هنا لتناول الموضوع، هي طبيعة العلاقة بين الجيل السابق، والجيل اللاحق، هل هي علاقة تناصر، أم علاقة تناكر؟

أعتقد أن التناصر هو ما ينبغي أن يكون، ولكن التناكر، هو الكائن بالفعل، لأن غالبية المتجايلين تنطلق من مقولة أن "المعاصرة تمنع المناصرة"، وأن "شدة القرب حجاب"، لا سيما في هذا العصر الذي قلت فيه أخلاقيات الفرسان، وقلت فيه نسبة الروح المثالية، حتى أصبح القانون الساري المفعول في حياتنا الثقافية عموما، والأدبية خصوصا، هو وأد إبداع الحي، ثم محاولة إحيائه -عبثا- فور موته، عبر رثائيات "دموع التماسيح"، وكأننا نجهل تماما تقاليد التكريم، ولا نفلح إلا في مراسيم التأبين، وهو كما قلت في مرثيتي لنفسي-أطال الله بقائي-:

سَفَهٌ.. جُحُودُ المَرْءِ.. حَـيًّا.. فَضْلَهُ

والجُودُ.. بعْد المَوْتِ.. بالتَّثْمِينِ!

لا تَطْوِنِي.. حَيًّا.. وَتَنْشُر مَيِّـتًـا

فَمَدامِعُ التِّمْساحِ.. لا تَعْنِينِي

قُلْ لِي: أُحِبُّكَ.. مِلْءَ وَجْهِي.. أزدَهى

طَرِّزْ.. حَمِيدَ الذِّكْرِ.. فَوْقَ جبيني

تَحْيَا الفَضائلُ.. إنْ تَضَوَّعَ نشْرُهَا

وتَمُوتُ.. كَالأزْهار.. بالتخْزين!

قُلْ.. مَا تَشَاءُ.. مُؤَبِّنِي.. أوْ لاَ تَقُلْ

فَلَقَدْ أمِنْتُ الصَّمْتَ.. أنْ يَطْوِينِي!

لقد كان جيل آبائنا الأدبيين، وريثا شرعيا لجاهلية جدودنا، إلا أنه كان يئد حتى أولاده، بدل الاقتصار على وئد البنات الجاهلي، فلم يكن يشجع، إلا مريديه المهيئين للتخندق معه في أي شلة يؤسسها، أو لُوبِي يرتئيه.. أما ذوو الأرواح المستقلة المتمردة على التبعية والطاعة والولاء، فقد كان حظَّهم النبذُ والإقصاءُ.. وسدُّ نوافذِ الإعلام، وفرصِ الظهور أمامهم...

غير أن تقنيات العولمة الجديدة عصفت بذلك الوضع الذي كان يتيح لجيل مُمَكَّن له في الأرض أن يتحكم في المشهد الإعلامي، أمام جيل ناشئ، ويحرمه من فرص التفاعل الخلاّق بين الأجيال...فقد فتحت مواقع التواصل الاجتماعي، ووسائطها الالكترونية المتطورة.. آفاقا غير محدودة، لتلاقح تجارب الأجيال، وتفاعل المواهب، وتثاقف الأفكار، وتحاور الأقاصي مع الأداني.. في غياب مطلق للسيطرة على جسور وصْل الفصْل.

فلم يعد بيد محترفي عادة الوأد من الآباء الأدبيين إلا الحسرة، بعدما رأوا من سعوا جاهدين لقتلهم، يشبُّون عن الطوْق، ويقفون-إبداعيا- على أقدامهم، رافعي رؤوسهم، دونما حاجة إلى التوكؤ على عِصِيِّ الجيل الأبوي المفترض، ولا التسلق على أكتاف اللوبيات التحزبية، المحتكرة للساحة الثقافية والأدبية..... والأكثر نكاية بهم أنهم بدأوا يرون جيلا جديدا من المَرَدَةِ الصغار، اللذين يولدون في غرف الدردشة الالكترونية... وينمُّون مواهبَهم عبْر التفاعل مع مشهد أدبي إبداعي كوني لا حدود له... حيث لا يحتاجون إلا قليل رعاية وتوجيه وتشجيع من جيلنا نحن الذين عانينا من الإقصاء، فآلينا على أنفسنا أنْ لا نعامل الجيل اللاحق بنا، بما عاملنا به الجيل السابق علينا.

أكتب هذه السطور وأنا أرى -بابتهاج وفخر- أحد شبابنا الصغار عمريا، يتأهل الآن حتى نهائيات برنامج" أمير الشعراء"، بعدما كان قبل حوالي سنتين، يشكو إلي- شعريا- إهمالَ الكبار له، ولجيله، فرددتُ عليه.. ناصحا بالمضي قدما في طريق التحدي الذاتي، دون انتظار صك غفران من أحد، حيث قلتُ:

حنانيْــكَ.. لا تفــتحْ جِــراحَ مــواجعي   بشــكواك لي.. إني لأخْفــي الــذي تُبْــدي

"وهــلْ أنــا إلا مــنْ غُزّيــة".. لم أزلْ   أُذَادُ.. لـدى وِرْدِ القصائدِ.. عـنْ وِرْدِي؟!

ولكننــــي أدْمنـــتُ رحْلــةَ شـــاعرٍ   تــأبط حُبًّــا.. قــد تــأَبَّى عــلى الصــد!

وحيــدا.. ولكــنْ مــلْء رُوحــي عــوالمٌ   فلولا جُنودُ الـرُّوح.. قلـتُ: أنَـا وحْـدِي!

تقَحمْتُ دربَ الشوْكِ.. أغْزُو مَـدى المَـدى ... أهُـدُّ سُـدودَ الحظْـرِ.. سـدًّا.. عـلى سـدِّ!

ولم أتوســـلْ "صـــكَّ غفـــرانِ" ناقـــدٍ ... لأني صـــــعلوكٌ.. تمَـــرَّدَ.. في المَهْــــدِ!

فـلا تعْطِنِـي -في الشـعْر- عـرْشَ إمـارةٍ ... أنـا "سـيِّدُ الثـوْرَاتِ".. بـاقٍ عـلى العَهْـدِ!

فمرْحَى.. لكمْ.. جيلَ الشباب.. بعـصركمْ ... نوافذُ نشـرْ الشـعْر.. تـأبى.. عـلى الوصْـدِ

ونحـــن "هِرِمْنـــا" في طِـــرادِ.. قصـــائدٍ ... إذا مـــا ابْتَـــدَعْناها.. تُبَـــادَرُ.. بـــالوأْدِ

الشاعر:
وغربة اللامنتمي.. في عالم الزبونية

الزبونية، والشللية، والحركية، والحزبية، والمذهبية، واللوبية، وحتى القبلية، كلها مفردات، أصبحت تمثل مفاتيح -في حياتنا اليومية- للمنفعة، والتوظيف، وحتى الشهرة، وصناعة النجومية، ولو بشكل مفبرك "صنع في الصين"؟

وإذا كان أغلب الشعراء قد استفادوا من تموقعاتهم، داخل هذه الدوائر الضيقة، واستمْرأوا ريعَها، وانخدعوا ببريق مكاسبها، وترسانتها الدعائية الانتقائية الموجهة، وفق مبدأ:" لِّمعني..ألِّمْعْكَ"؛ فإني أرى أن المثقفين عموما، لهم آفاق فكرية واسعة، تأنف من التخندق القسري المسبق، والشعراء خصوصا كائنات تتماهى مع الحرية والانطلاق والتهويم في ملكوت الروح والخيال، ولا يناسبها الانحباس في هذه الأقفاص الهشة الوهمية، (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون)؟

أعرف أن مثلي من المغردين خارج السرب، يدفعون ضريبة "الكتابة خارج الأقواس"، وضريبة قول ما يريدون، لا ما يراد لهم، والتعبير عن رؤيتهم، لا ما تراه عيون الآخرين، والتفكير بعقولهم لا بالعقول المستعارة ، وفهمهم للحقيقية على أنها أكبر من أن يمثلها أشخاص معينون، ليسوا مدججين بأي اصطفاء إلاهي، وعلى ضوء ذلك، يحرم المؤمنون بالاستقلال مثلي، من الوظائف والمناصب والمواقع، والمنافع التي تحتكر مبدئيا للمنتمين، المنساقين، مع اتجاه القطيع، ولو بدون كفاءة ولا استحقاق، حيث لا تكتفي أبواق الدعاية المؤدلجة المحترفة، بتحويل حبتهم إلى قبة، بل تستنفر كل طاقاتها الموجهة، لجعل قبة الآخرين حبة، لأن حقيقة التمذهب مبنية على خلفية إقصائية، لا تكاد تنفك عنها، ولو في لا وعيها....

أذكر أني سئلت ذات مقابلة عن انتمائي السياسي مثلا، فقلت إني لا أصنف نفسي في تيار سياسي أو إيديولوجي مما ذكر، ولا من غيره، لأني أضيق بالخانات المرسومة مسبقا.

وأنفر بطبعي من عبادة الأشخاص، وتقديس آرائهم وطروحاتهم لدرجة اعتقادها تنزيلا صالحا لكل زمان ومكان، لاسيما أن بعض متَّبِعي أصنام الإيديولوجيات، أسمى ثقافة، وأرجح عقلا، وأعمق فكرا، من أوثانهم المعاصرة، أو هكذا يفترض فيهم، وهذا ما يؤكد وجْه الشبه مع عَبَدَة الأصنام القدماء، حين كانوا يصنعونها بأيديهم من الصخر، وحتى التمر...ثم يَخِرُّون عليْها عاكفين، زد على ذلك أن هذه الخلفيات مهما كانت صلابتها أو هشاشتها قد تشوهت على يد أغلب ممارسيها، حيث حولوها إلى إعلانات فوق واجهات تجارية لمزاد علني، أو سرى في بعض الأحيان.

ورغم أنني لم أنتم أبدا لحزب سياسي أو تيار إيديولوجي، فإنني أرى هويتي الذاتية مركبة من أجمل ما في هذه التيارات، فأنا إسلامي طبعا في معتقدي وسلوكي ما استطعت، وقومي بانتمائي ثقافيا وحضاريا، ويساري في ثوريتي وتعاطفي مع أصحاب الحق المظلومين، ولكن بدون استغلال سياسي لأي خلفية من هذه، وبدون ارتهان لها.

وكم أجبت بالنفي أيضا عن عدم انتمائي أدبيا، لأي مدرسة أو تيار نقدي، محدد، لأن سيرورة الإبداع القائمة على فكرة "التطور والارتقاء"، لا تقف عند هذه المحطات المتجاوزَة... فالمبدع الحقيقي-في نظري- يسعى للتميز، لا للمطابقة، وقد أفردت أحد دواويني بعنوان:" بصمة شاعر"، قلت في قصيدته التي أخذ منها عنوانه:

أَنَا.. لَسْتُ أَقْبَلُ.. أنْ أَكُونَ سِوَايَا   مَهْمَا "أَنَاهُ".. عَلَتْ.. "أَنَايَ".. "أَنَايا"!

لُغَتِي.. وصَوْتِي.. لِي.. وحِبْرِي.. بَصْمَتِي   نَظَرِي.. أَحَاسِيسِي.. هَوَايَ.. رُؤَايَا!

نَبْضِي.. وأَنْفَاسِي.. وخَطْوِي.. لِي.. أَنَا   أَيَكُونُ إيقَاعِي.. صَدًى.. لِسِوَايَا؟!

أَنَا.. لَنْ أَسَاوِمَ.. فِي صَمِيمِ هُوِيَّتِي   مَهْمَا تَنَاسَخَت الذَّوَاتِ.. مَرَايَا!

فَاتْرُكْ صَدَى غَيْرِي.. إذَا أَصْغَيْتَ.. لِي   واسْمَعْ.. صَدَى رُوحِي.. بِحَرْفِي.. نَايَا!

أَنَا مَا اسْتَعَرْتُ.. اسْمًا.. قِنَاعًا.. ما اسْتَعَرْ   تُ.. مِن أَيِّ نَجْمٍ.. فِي الوُجُودِ.. حُلاَيَا!

عَنِّي.. أَفَتِّشُ.. فِيَّ.. وُسْعَ عَوَالِمِي   مَا اسْتَوْحَشَتْ بِكْرَ الدُّرُوبِ خُطَايَا!

فَانْظُرْ.. إِلَيَّ.. بِأَيِّ عَيْنٍ.. شِئْتَهَا   أَنَا.. هَكَذا.. قَدْ شَاءَنِي.. مَوْلاَيَا!

الدعاية:
جدل القبة والحبة

جعْلُ "الحبَّة قُبَّةً"، مثل مشهور، يختزل جوهر الصناعة الدعائية، إذا كانت مع، لكن جعْلَ "القبَّة حبَّةً" هو الوجه الآخر للدعاية المُوَجَّهَةِ ضدَّ، وإذا كان المنْحى الأول هو العملة الرائجة في سوق الدوائر العامة التي وصفتها -في مقالي: "غربة الشاعر اللامتنمي" -بـ (الزبونية، والشللية، والحركية، والحزبية، والمذهبية، واللوبية، وحتى القبلية، التي أصحبت كلها مفردات تمثل مفاتيح -في حياتنا اليومية- للمنفعة، والتوظيف، وحتى الشهرة، وصناعة النجومية، ولو بشكل مفبرك "صنع في الصين"، فإن ما أريد التوقف عنده اليوم هو جدل "الحبة والقبة" في عالم الأدب، والأدباء، حيث لا يخلو هذا الحقل الجميل السامي من شوائب هذه الدوائر الضيقة، ولا يتعفف جل أصحابها عن استخدام هذه الأسلحة الفتاكة، ضد بعض زملائهم من المغردين خارج السرب، الرافضين -بطبعهم- للتخندق الأعمى أو القسري داخل هذه الدوائر الضيقة، والمتعففين عن استمْراء ريعها، والانخداع ببريق مكاسبها، وترسانتها الدعائية الانتقائية الموجهة، وفق مبدأ: " لِّمْعْني.. أُلَمِّعْكَ"؛ حيث لا تكتفي أبواق الدعاية المؤدلجة المحترفة، بتحويل حبة من ينتسب لها إلى قبة، بل تستنفر كل طاقاتها الموجهة، لجعل قبة المبدع العصامي المستقل حبة، عبر محاولة سلبه كل ما منحه الله من مواهب، وطمس كل إشعاع استطاع أن يحققه، خارج هذه الدوائر، دون استغلال لأدوات صناعة الفقاقيع الإعلامية، التي سرعان ما تنطفئ فور ملامستها هواء الواقع، خارج ركام زبد الوهم والتزييف، وبدون استعانة -أيضا- بأنابيب نفخ كميات من رياح الدعاية في البالونات المغشوشة، ولعل من أطرف أساليب طعن الأدباء بعضهم بعضا -ولو تحت الحزام- أن هؤلاء الفرسان "الدون كيشوتيين"، عندما يفشلون في حربهم ضد طواحين الهواء، ولا يستطيعون النيل من بعض الموهوبين الأصلاء في مجالي الشعر والنقد معا، ترى الشعراء منهم يثنون على الجانب النقدي لهؤلاء، متجاهلين الجانب الشعري، والعكس بالنسبة للنقاد منهم، حيث

يثنون على الجانب الشعري لأولئك، ويتجاهلون الجانب النقدي، وكأن فضل الله لا يمكن أن يجمع لهم بين الموهبتين.....

وفي لحظة ضجر من مثل أجواء هذه الكراهية والتحاسد و"التناكر المزمن"، كتبت هذا النص، تحت عنوان القبر السماوي:

"إذا مــتُّ.. فــادْفِنِّي".. بأجْمَــلِ غيْمَــةٍ ورُصَّ.. عَـلَى قـبْري.. السَّـماويِّ.. أنْجُـمَا

وضَعْ.. عنْد رَأسِي "الحَاء".. شاهِدةً.. وضـعْ لــدَى قــدَمَيَّ.. "البَـاءَ".. إنِّي هُمُـا.. هُمـا

وخَـــلِّ تُـــرَابِي.. للــــتُّرَابِ.. فَطالَمَـــا سَمَتْ.. تَبْتَغِي.. رُوحِـي.. إلَى الأوْجِ.. سُـلَّمَا

ســـأتْركُ أرْضَ الله.. ظهْــرا.. وباطِنــا لمـن ضَـيَّقوا.. بالحقْـد.. واسِـعَها.. عَمَـى

عَسَى غيْمَةَ القبْرِ.. السَّمَاوِي.. تَكُونَ.. مِـنْ بَنَـاتِ.. الَّتِـي قـدْ ظَلَّلَـتْ مُرْسَـلَ السَّـمَا

فتَسْـكَر رُوحِـي.. مِــنْ رَحِيــقِ ظِلالِهــا بَعِيـد المَـدَى.. عـنْ بَـرْزَخِ الحَـرِّ.. والظَّـمَا

أنَـاجِي.. هُنَـا.. أرْوَاحَ مَـنْ عَشِـقُوا العُـلا ولسْـــــتُ أرَي.. إلا نَبِيًّـــــا.. ومُلْهَـــــمَا

ولِي.. المَـلأ الأعْـلَى.. يُقيمُــونَ.. محْفَــلا إذا مَا.. ورَائِـي.. ضَـجَّتِ الأرْضُ.. مَأْتَمَـا

أغـرِّدُ.. طـيْرا.. أخـضَرَ الـرُّوح.. لَمْ أزَلْ مــدَى مَلَكُــوتِ الله.. بالحُسْــنِ.. مُغْرَمــا

أنَـا–في الـدُّنَا– في برْزَخِـي– روحُ شَـاعِرٍ تُحِـبُّ الجَـمَالَ.. الخَـيْرَ.. والسِّـلْمَ.. والـنَّمَا

فَمَهْمَا تَرَيْ– يا غيْمَتِي– الجَـدْبَ.. أمْطِـري عُصَــارَة رُوحِــي.. تُمْــرِع الأرْضُ.. أنْعُــمَا

ويَغْسِــلُ فَــيْضُ الحُــبِّ.. كُــلَّ كَرَاهَــةٍ ويسْـقُط رَاءُ الحَـرْبِ.. يَصــرُخُ: لا دمَـا!

أبطال الظل

في معجم السياسة يتداول مصطلح" حكومة الظل"، وفي المجال العسكري الوطني، يوجد مصطلح "الجندي المجهول"، وفي كل ذلك مسعى إلى صرف الأنظار عن التركيز على بؤرة الضوء، التي يحتلها أبطال أنانيون في جميع مجالات الحياة، ليسوا أجدر بها من "أبطال الظل"، الأكثر نكرانا للذات، والأكثر تضحية من أجل صنع "البطولة" شبه الوهمية لعشاقها الانتهازين، المستحوذين على الريع الرمزي، من الشهرة، والمجد، والتقدير، والثراء.. دون صانعيهم.

إن عيون "الكاميرات"، وعدسات التصوير.. خلفها صانعو المجد.. لأبطال هم أقل منهم بطولة، فعندما ترى أبطال المسلسلات الخارقين، فكر فيمن خلف الكواليس، من مبدعي السناريو، والمخرجين، والمصورين، والمعدين.. الذين لا تراهم في دائرة الضوء.. وعندما ترى أبطال لاعبي كرة القدم.. فكر فيمن هيئوا لهم الهدف، ومنحوهم شرفه، وحيث تسمع خطابات الزعماء السياسيين، والقادة الإداريين؛ فتعجبك -وقلما يحدث ذلك في عالمنا العربي- فاعلم أن هناك -خلف دائرة الضوء- أبطال بيان ومعرفة وسياسية هم الذين تسمع.. يمنحون الجهال، وأنصاف الأميين شرف البلاغة.. وحين ترى أبطال الأفلام الوثائقية المغامرين في مخاطر القطبين الجليدين المتجمدين، أوفي مغامرات تسلق القمم العليا في "أفرست" وغيرها، أو في مغامرات الغوص في أعماق البحار، مع القروش، أوفي سباحة الأنهار مع التماسيح وأفراس النهر، أو في مغامرات الغابات، تسلقا للأشجار، ومعايشة للحيوانات المفترسة، أوفي اعتساف الصحاري، فوق رمضاء الرمال الحارقة، وتحت لهيب الهواجر، ولفح سمومها.... فكر فيمن صوروا كل تلك الأفلام ورافقوا أبطالها في كل مغامراتهم الموصوفة بالخارقة، فأبطال الظل أقوى، وأشد جلَدا، وأكثر شجاعة من أبطال الضوء.. ربما.. لأن أولئك يُصَوَّرُون هناك باعتبارهم خريجي تدريب عسكري عالي الجودة، في البحرية الأمريكية وغيرها، في حين لا تتفوق قدراتهم الخارقة المزعومة، على قدرات مرافقيهم

من "أبطال الظل" و"الجنود المجهولين"، الذين يتسلقون معهم أينما تسلقوا، ويركضون معهم أينما ركضوا، ويسبحون معهم أينما سبحوا.....

الحقيقة أن التاريخ يصنعه "أبطال الظل" هؤلاء.. ثم يترسبون -كالدر- في الأعماق، تاركين السطح للزبد...فالأهرام بنتها عقول العلماء، وأيدي البسطاء، ثم نال الفراعنة شرفها.. زورا وبهتانا.. وقس على ذلك كل عجائب الدنيا السبعة.. ومآثر ومنشآت الحضارة المعاصرة.. إننا بحاجة للنظر في الوجه الآخر.. للأشياء... فغالبا ما يخدعنا بريق القناع.. عن حقيقة الوجه.. والتاريخ -كان وما يزال- يكتب بأقلام، إمَّا معَ، وإمَّا ضِدَّ.. وبينهما تضيع الحقيقة...أو تميع على الأقل.

أموات يرزقون

الحياة والموت يقاسان بالمعنى، بالمنجز، أو بعدمهما، وليسا مجرد تواصل العملية البيولوجية، أو توقفها، وفي ضوء هذه الرؤية يمكن أن نكسر حدة مفارقة العنوان، فنفهم أن بعض الأحياء أموات، وبعض الأموات أحياء، حتى أن أحد الشعراء القدماء اعتبر الموت الحقيقي هو موت الأحياء، فقال:

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء!

وعلى ضوء هذا يمكن أن نقول إن كثيرا من الأدباء والشعراء، الذين شغلوا حيزا من الحياة، واستحوذوا على مساحة من الأضواء، بفعل الدعاية، أو استغلال النفوذ، ومكنت لهم السلطات في الأرض، وبوأتهم المنابر، قد ماتوا الآن أحياء، رغم أنهم مازالوا يتنفسون، ويأكلون، ويشربون، ويستيقظون، وينامون... لأنهم كفُّوا عن الفعل الثقافي، والإنتاج الإبداعي، بسبب تغير الشروط السابقة، التي كانت تتوفر لهم، وأصبحوا يعتاشون على الذكرى، ويحاولون استصحاب ماض قد تولى إلى غير رجعة، عبر محاولة التمسك بصدارة مشهد، لم يعد لهم، قد استحوذت عليه ناشئة جديدة، تتمتع بالحيوية، والدينامية الثقافية، والفاعلية الإبداعية، بحكم سيرورة الحياة وصيرورتها، التي مازالوا يكابرون في الاعتراف بها، وكأنهم يريدون توقيف حركة الزمن، عند النقطة التي توقف عندها نبضهم الثقافي، أنانية، ونكرانا فعليا لتناسخ الأجيال، الذي تقول نواميسه الكونية إن الحياة، "جيلٌ يَمُرُّ ويَأْتِي بَعْدَهُ جِيلُ".

صحيح أن بعض عمالقة الأدباء، يظلون مهيمنين على المشهد الثقافي والإبداعي، مالئين الدنيا، وشاغلين الناس، طيلة حياتهم، وحتى بعد موتهم، لأن عطاءهم لا يشيخ، ولا يقبل الإحالة على التقاعد "المعاش"، حيث إن مددهم الإبداعي نابع من ذواتهم، أكثر مما هو مفتعل، أو مكتسب من شروط خارجية، غيرية، قابلة للتبدل، وهذا هو مكمن الفرق الشاسع، والجلي، بين الإبداع الأصيل الحقيقي، والإبداع المصطنع، في معامل الدعاية الزائفة، والدعوى الباطلة... التي تبني أهراما من الزبد، أو الرمل، سرعان ما تنهار، وتتلاشى، أمام تبدلات طقسي البحر والبر لغير صالحها، حيث لا يعدو هؤلاء أن يكونوا أبطالا، من سلالة "دون كيشوت"، يجيدون تقنيات الكر والفر، ولكن على "طواحين الهواء" فقط، في معترك الوهم، ومسرح الخيال.....

أيها الأموات أحياء.. إنَّ تيسر قنوات الإعلام والتواصل، وتمردها على سيطرة الرقيب المتحكم، وسرعة نبض الحياة غير المشفقة، على من لا يستطيع مواكبتها بنفس السرعة، وبنفس دينامية التفاعل الخلاق، كلها أمور.. تستدعي منكم أن ترفعوا الراية البيضاء، وتعترفوا أنكم فارقتم الحياة، باعتبارها معنى متجددا، وإبداعا مستمرا... أجل.. إنكم- فعلا- مجرد أموات يرزقون!

برلماني.. وشاعران

في بلاد "المليون شاعر"، يتسلل الشعر، إلى قبة البرلمان، وغيرها من المواقع الرسمية، والشعبية، ويخترق كل التخصصات، ويندس في كل التفاصيل الحيوية، ويوحد كل المتناقضات..

استحضرت هذه التداعيات، حين استعادت لي اليوم صفحتي على الفيسبوك، تدوينة سبق أن كتبها النائب البرلماني/ الدكتور القانوني: محمد محمود الصديق، في مثل هذا التاريخ على صفحته سنة 2016، حيث دون -بتواضع العارفين-:

(ليس لي في الشعر والأدب باع ولا ذراع، و"ذائقتي النقدية" ضعيفة، ولكنْ ما فتحتُ لهذين "الفَتَيَيْن" -الذين لم ألقهما في حياتي- قصيدةً إلا أكملتُها، ولا نَصا إلا استعذبتُه؛ وذلك عندي هو مقياس الجمال الشعري حسب ذوقي الضعيف. ولما فَتّشتُ خلف هذا "الانطباع" الغامض عما "أسرني" في تلك القصائد؟ - وجدتُ:جمالًا لأسلوب، ورِقةَ الألفاظ، وانسياب المعاني..

- ووجدت الجِدّة والإبداع، وعدمَ التقليد والاجترار..

- ووجدت قبل ذلك وبعده: روحَ الشهامة، ومنطقَ الكرامة، وكِبرياء العدل، ورونق الحق.. ثم النفورَ من الضيم، والازدراءَ بالسخف..

فحُقَّ عندي لهاذين الشاعرين أن يُتوجا -صِدْقا لا زورا- على هامة شعراء لـ 1.000.000 شاعر.أدي آدب - الشيخ ولد بلعمش).

والحقيقية أن حروفا قليلة مشحونة بحمولة كبيرة من صدق صاحبها، خير من كثير من المديح الزائف...الخاضع لجدلية "الولاء/ البراء، المع/ الضد... ورغم زهدي في التقريظ، فقد لامست روحي حروف الرجل، وفرحت بها أكثر في حق صديقي المرحوم: الشيخ بلعمش، فعلقت عليها:

(أيها الأخ المحترم، الذي لم ألتق به قط، شهادتك هذه أفضل عندنا من كل هرطقات لجان "التحكم" في الشخوص، أكثر من تحكيم النصوص... وصديقي يستحقها بكل جدارة، وأنا يحصل لي شرف الإضافة بأدنى سبب).

وكان رد صديقي الشيخ ولد بلعمش، طافحا هو الآخر بالفرح، والنبل، والإيثار، حيث دوَّن:

(حفظكم الله وبارك فيكم.. لا يسعد الشاعر أكثر من أن يقول له الناس: إن شعرك يمتعنا ... لا أشك في صدق وصفك بخصوص أخينا الأكبر وشاعرنا الراقي أدي ولد آدبه.. وسأعتبر ثناءكم علي فضلا منكم وكرم أخلاق.. فأسمعكم الله ما تحبون ومكنكم من نيل ما تشتهون.. وعسى قولكم الطيب هذا يكون حافزا لي كي أغوص أكثر في يم القصيد فأجيء بلؤلؤ مكنون لا تنتهي حاجة الروح إليه في عصر المادة البئيس.. تحياتي وتقديري).

ما أعجبني أكثر أني كتبت تعليقي قبل تعليق زميلي الشيخ، وأعتقد أنه كتب تعليقه قبل أن يرى تعليقي؛ حيث لم يحل عليه، ولم يسجل عليه إعجابا وقتها، ومع ذلك جاء التعليقان متطابقين، في الإعجاب بتدوينة أخينا الدكتور القانوني البرلماني، ومتفقين في نكران الذات، وتقدير الآخر..

مرت على هذه الدردشة سنة ونيف وتوفي صديقي الشاعر الشيخ ولد بلعمش 8/ 12/ 2017، بنوبة قلبية، ألمت به إثر انتهاك حرم القدس الشريف، وبعد آخر حديث مسجل له، حاول فيه أن يبث روح تفاؤله في ركام طبقات التخاذل العربي المخيم على المشهد العربي، لكن قلبه الكبير اختل إيقاعه فجأة.. ولم يستطع وزْن شحنة الإحباط الأكبر.. غير أن حروف هذه التدوينة القليلة منحته لحظة رضى قبل موته.. لم يمنحها له أهل الاختصاص.

نزيف فقد الأحبة

لا بُدَّ لكلِّ إنْسان أنْ يَكونَ فاقدا أو مفقودا، عبْر رحْلة الحياة فوق هذه الأرض، فـ "كلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإكْرَامِ) "، غيرْ أنَّ إحْساسَ الشاعرِ بالفِراقِ، وبالفقْد، يَتناسَبُ طرْديا معَ رَهافةِ حِسِّهِ، المُضاعَفَةِ عشَراتِ المرَّات فوْق إحْساسِ الإنْسان العادي، فهو لا يَسْتَحِقُّ اسْمَ الشاعر، إلا إذا كانَ يشعرُ بما لا يشعرُ به غيْرُه، ومنْ ثَمَّ يعبِّرُ أيْضا بما لا يعبرُّ به غيْره.

وهكذا، أجِدُني اليوْمَ في ظلِّ فقْدِي لآخِرِ أشِقَّائي يوْم الأربعاء الماضي، لا أنْساقُ للكتابةِ في أيِّ سِياق غيْر اسْتِرْجَاعِ لَحَظَاتِ نزِيف فقْد الأحِبَّةِ، الذي ابْتلانِي به الله، لأنه مَنَّ علي بالبقاء حيًّا، فوَجَدَنِي- بفضْله- من الصابرينَ، له الحمْدُ، وله الشُّكْر، علَى ما أعْطى، وعلَى ما أخَذَ، غيْر أنَّه "لا بُدَّ للمَصْدُور أنْ يَنْفُثَ"، وهل تكونُ نفْثةُ الشَّاعِرِ المَحْزُونِ إلا شِعْرًا؟

كانتْ بِدايةُ نَزيفِ فقْدِ الأحِبَّةِ -بالنسْبة لِي- عامَ 1973؛ حيثُ فقدْتُ أمِّي، وَكنْتُ صغيرًا، فكبرْتُ أنَا والشِّعْر، وظللنا - معًا- نَبْحَثُ عنْ كلِماتٍ تعبِّرُ عنْ إحْسَاَّسِي بفقْدها، حتى قلتُ، بعْد ثلاثين سنة:

أمِّـي.. نَشـيدُ الكـوْنِ.. مِـلْءَ المَسْـمَعِ	هِبَـةُ السَّـمَا.. لِـلأرْض.. سَـعْدُ المَطْلَـعِ!
... وأنَـا.. بِـلاَ وَطَـنٍ.. سِـوَى أحْضَـانِهَا	مَـنْ ذا يُحَـدِّدُ - فِي الخَـرَائطِ- مَـوْقِعِي؟!
مـا يُـتْم ُأمِّـي.. غـيْر يُتْـمِ الأرْضِ.. إنَّـ	ـهُمَا -مَعًـا- أُمَّـايَ.. مَرْجِـعُ مَرْجِعِـي!
إنِّي اكْتَهَلْـتُ.. وَمَـا يَـزالُ بـدَاخِلِي	طِفْـلٌ.. يَـرَى أمِّـي -الَّتِي مَاتـتْ- مَعِـي!

ثم كان فقْد أبي 2004، بعْد تَنَاثُرِ عدّةِ أقْمار منْ أسْرَتِنا، وأنا بعيدٌ في غُرْبَة التعْليم العالي، فصحْتُ:

يُغالِبُ صبْري الحُزْنَ.. والحزْن غالِبي وكيْفَ اصْطِباري.. بعْدَ كلِّ مَصائِبي؟!
أنَا الجَبَلُ الرَّاسِي.. تمُورُ.. بأضْلُعي أعاصيرُ.. لا يَنْهَدُّ منْهُنَّ جانِبي
ولكنَّما قلْبي قد أوْهَتْ شِغَافَه "عَصائِبُ -(حُزْنٍ)- أُعْقِبَتْ بَعَصائِبِ"!
فلَمَّا نَعَى الناعِي أبِي الآنَ هَدَّنِي فصحْتُ - ولَيْلي نَابِغِيُّ الذوَائِبِ:
"كِلِينِي.. لِهَمٍّ.. يا أُمَيْمَة.. نَاصِبِ وليْلٍ.. أقَاسِيهِ.. بَطِيءِ الكوَاكِبِ"

وفي سنة 2012، كانَ فقْدُ شقيقي الأكبر.. أبِي بعْد أبويَّ.. "المُرَابِطُ"، في ثُغُورِ المَعارف والمَكارم، وهنا -فعْلا-:

رأيْنا السّما.. كادتْ على الأرْض.. تُطْبق وحَشْرَجَت الأنفاسُ.. تَخْنِقُ.. تَخْنِقُ
ودارتْ بنا الأفلاكُ.. لحْظةَ نَعْيِه فَحِرْنا.. أنَنْفي مَوْتَه؟ أمْ نُصَدِّقُ؟
وعُذْنا بـ "طُور" الصّبْر.. فانْهَدَّ.. لوْعَةً وكلُّ "كَليمٍ".. يَوْمَ ذا الرُّزْءِ.. يُصْعَقُ
وقدْ فَجّرَتْ "طوفانَ نُوحٍ" عُيونُنا فَنَحْنُ -مَعَ "الجُودِيِّ" و "الفُلْكِ"- نَغْرَقُ
وقدْ سَعَّرَتْ "نارُ الخليل" قُلوبَنا إذا دُعِيتْ: "بَرْدًا.. سَلامًا".. تَحَرَّقُ
ولَمَّا هَزَزْنا جِذْعَ كُلِّ قصيدةٍ تَساقَطَ سِحْرُ الشِّعْر.. يُرْتَجُ.. يُطْرِقُ
وُجُومًا.. أمامَ الخَطْبِ..قدْ غامَت الرُّؤَى وضاقَ مَجالُ القوْل.. فالصمْتُ يَنْطِقُ
لقدْ ماتَ رَبُّ "الضادِ".. سَيِّدُ حَرْفِها وبَحْرُ العُلومِ.. الأَعْمَقُ.. المُتَدَفّقُ
تأَبَّطَ مِنْهُ القبْرُ مَشْروعَ أُمّة تَمَثّلَهُ.. فَرْدًا.. وعاشَ يُحَقّقُ

وبعْده تسارَعَ انْتِثارُ عقْد أشِقَّائي، ففِي 2014، فقدْتُ الدكتور الفيلسوف:"حَمَّ"، فوَلْوَلَتْ قصيدتي:

أخِي.. بِمَوْتِكَ.. مَاتَ الصَّبْرُ..في خَلَدِي أيَا يَدَ الله..شُدَّي -رَحْمَةً- عَضُدِي
أوَّاهُ.. هَا كَبِدِي.. مَنْزُوفَةٌ.. ألَمًا دَمْعًا.. عليْكَ.. أخِي.. يَا "حَمَّ".. يَا كَبِدِي
سَرَتْ بِنَعْيِكَ.. مِلْءَ الجِسْمِ.. زَلْزَلَةٌ مَهْمَا تَجَلَّدْتُ.. لا يَقْوَى لَهَا جَلَدِي
بَيْنَ الجَوَانِحِ إعْصَارٌ.. أكَابِدُهُ يَا وَيْلَتِي.. "خُلِقَ الإنْسَانُ فِي كَبَدِ"!

ثم فقدت مستهل 2017، توْأم َروحي، شقيقي: سيدي أحمد البكاي؛ فتضرعتْ قصيدتي:

أمْطـــري.. يـــا فُيـــوضَ رحْمـــةِ ربي جــدَثا.. حـــلَّ فِيـــه فلْـــذةُ قلْبـــي!
إنَّ حُبِّـــــي.. تقاسَـــــمَتْهُ.. قُبُــــورٌ فهُنـــا.. هـــا هُنـــا.. هُنالـــكَ.. حُبِّـــي!
رَبّ.. رُحْمَـى.. بمَـنْ قـدْ أبْقيْـتَ.. لطْفَـكَ.. رَبِّي!! وبمَـــنْ أخــذتَ مــنَ أهْــلي

وأخيرا فقدت -قبل ثلاثة أيام- شقيقي الأكبر مني مباشرة: سيد امحمد، وما زلتُ لمْ أجدْ مَرْثيتَه المُناسبة، لمَعْرِفَتِي بِسُمُوِّ ذوْقِه الأدَبِيِّ، وصَراحَتِه في النقد الشعْري، لدَرَجَةٍ ربَّما أسْمَعُ صوْتَه يُؤنِّبُني، من تحْت القبْر-برَّدَ اللهُ مثْواه- لوْ كتبْتُ فيه ما ليْسَ على مُسْتَوَاهُ، ولا مُسْتَوَايَ عنْده.. لذلك اسْتَعَرْتُ في تأبِينِه.. بعْد بقية إخْوتي.. قوْلَ الشاعر القديم:

أبَعْـــدَ بنِـــي أمِّـــي الـــذينَ تتـــابَعُوا أَرَجِّـــي الحَيَـــاةَ أو مـــنَ المـــوْتِ أجْـــزَعُ؟
أولئـــك إخْـــوان الصـــفَاءِ.. رُزِئْـــتُهُمْ ومَـــا الكَـــفُّ إلا إصْـــبعٌ ... ثـــمَّ إصْـــبعُ

أجَلْ.. إنَّ إيماني بأنَّ نزيفَ الفقْد.. لنْ يتوقَّفَ دُوني... جَعَلَنِي أسْتَبِقُ مَوْتِي بكِتابَةِ مَرْثِيتِي لنفْسي.. 2012، مُدْرِكا أنَّنَا

جَميعـــا نعـــيشُ تحْـــتَ مَشِـــيئةِ الله.. بـــيْن الجَـــبرُوت.. والرحَمُـــوت
لله.. جَـــلَّ جَلالُـــهُ.. الجَـــبَرُوتُ! فِينَـا.. يُصَـرِّفُ فِعْـلَ: مَـاتَ.. يَمُـوتُ!
لَكِنَّـــه -أيْضـــا- يُصـــرِّفُ.. رَحْمَـــةً أحْيَـــا.. وأنْعَـــمَ.. دَامَـــتِ الرَّحَمُـــوتُ!

أطال الله بقاءكم في عافية.

وداعا..
فقيد "لغتنا الجميلة"

بعد ثمانين عاما، حافلة بالعطاء الأدبي الرفيع، ثكلت لغتنا العربية الجميلة، أحد فرسانها المبدعين، وحراسها الأمينين، حين فارقت الشاعر المصري الكبير: فاروق شوشة، الذي كان "مفردا بصيغة الجمع"، يزدحم تحت جلده الشاعر المبدع، الناقد/ الحَكَم الحصيف، المدرِّسُ، الأستاذ، الإذاعي، الساحر الصوت والأداء!

خدم اللغة العربية وأدبها عبر برنامجه الإذاعي:"لغتنا الجميلة"، منذ سنة 1967م، ومن خلال عضويته في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومن خلال صفحته بمجلة "العربي" الكويتية، بالعنوان نفسه، إضافة إلى كتاب أصدره بعد ذلك بنفس الاسم، وقد خدم الثقافة عموما، من خلال برنامجه التلفزيوني: "أمسية ثقافية"، منذ 1977م، كما خدم الشعر العربي ، والموسيقى، والأدب عموما، عبر رئاسته للجنتي النصوص بالإذاعة والتلفزيون، وعضويته في لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة، ورئاسته للجنة المؤلفين والملحنين، إضافة إلى مؤلفات عديدة منها : أحلى 20 قصيدة حب في الشعر العربي، وأحلى 20 قصيدة في الحب الإلهي، والعلاج بالشعر، ولغتنا الجميلة ومشكلات المعاصرة..... معززا كل هذا المجهود التراكمي، والحصاد المعرفي، بكثير من مشاركاته في مهرجانات الشعر العربية والدولية.

وإذا أردت أن أستقرئ عناوين دواوينه بالطريقة النسقية التي تستهويني دائما، لنجعل من مسميات كتبه، مفردات خطاب دال، يعبر عن سيرورته الإبداعية، ورؤيته الفنية، ومنحاه الفكري، ويعيد بناء معمارها، بشكل يبدو فيه ما لم يكن واعيا، كما لو كان يستبطن وعيا نسقيا ضمنيا ببنيته الدلالية الداخلية؛ فالشاعر: فاروق شوشة، كانت فاتحة رحلته الشعرية "إلى مسافرة 1966"، مسْتلهما وهْجَ "العيون المحترقة 1972م"، مصطادا "لؤلؤة في القلب 1973م"، و "في انتظار الذي لا يأتي 1979م"، اقتحمَ "الدائرة المحكمة 1983م"، كاتبا "لغة من دم العاشقين 1986م"، فيها "يقول الدم العربي 1988م": "هيت لك

1992م"،"سيدة الماء 1994م"، مادام هناك "وقت لاقتناص الوقت 1997م"، ما بين "حبيبة والقمر 1988م"، و"وجه أبنوسي 2000 م"،إذ للجمال وجهان، بالأبيض والأسود، كالحياة تماما، يا راصد "الجميلة تنزل إلى النهر 2002 م".

ولعل أهم ميزة بصَم بها فقيدُ "لغتنا الجميلة"، شعره، هي سمة "السهولة الممتنعة، حيث تبدو البساطة مترفة الجمال، وهنا أكتفي بومضتين، من شعريْه: "العمودي"، والتفعيلي، يقول في الأول، وكأنه يتحدث عن نصه ذاته:

رُبّ أَلْقَيْتَنـــــي بـــــوادٍ ظَلِيــــــلِ تتمنَّـــــــى وُرُودَهُ العُشَّــــــــاقُ
قـــد يُطـــاقُ الجَـــمَالُ فَـــرْداً ولكـــنْ كـــلُّ هـــذا الجَـــمَالِ كيْـــف يُطـــاقُ؟

وفي المثال الثاني، يقول:

سأذكرُ بارقَةً منْ حَنينْ
أضاءتْ بقلْبِي فَرَاغ السِّنينْ
وأذكرُ موْجَةَ حُبٍّ دَفينْ
تُداعِبُ أحْلامَنا كُلَّ حِينْ
وتَطْفُو عَلَى صَفَحَاتِ العُيُون.

وأنت يا شاعرنا الفقيد...ستبقى نشيدا خالدا على صفحات القلوب، وصفحات الدهور، رغم خروجك اليوم من "عذابات العمر الجميلة"، وانتهائك من "انتظار الذي لا يأتي"، إلى مقابلة الذي سيأتي حتما...إلى رحمات الله.

رحيل الشاعر الصغير أولاد أحمد:

بيْن وداعيْن

يوم الخامس إبريل، ودعت تونس -بحسرة- شاعرها محمد الصغير أولاد أحمد، سليل مدينة الثورة سيدي بوزيد، وحامل جيناتها، الذي كان رئيس "بيت الشعْر" هناك لفترة طويلةـ والذي تشبث بالشعر، حتى آخر نفس، ولم تشغله مكابدة الحياة والموت، عن كتابة وداعه لتونس التي أحبها، كما لم يحبها أي أحد، حسب قوله القديم:

"نحبُّ البلاد

كما لا يحب

البلاد أحدْ

نحج إليها

مع المفردين

عند الصباح

وبعد المساء

ويوم الأحدْ

ولو قتلونا

كما قتلونا

ولو شردونا

كما شرّدونا

ولو أبعدونا

لبرك الغماد

لعدنا غزاة

لهذا البلدْ"

وكما ودع هذا البلد الذي كرس لحبه حياته، نعته رئاسة الحكومة التونسية ببيان قالت فيه: إنها "تنعي فقيد الثقافة التونسية الشاعر الفذ محمد الصغير أولاد حمد، شاعر الثورة ومثقف الطليعة لعقود، والذي خسرت تونس برحيله فارسا من فرسان الثقافة والإبداع."

لكنني وأنا أقرأ النص الوداعي لهذا الشاعر الفقيد، تذكرت نص الشاعر التونسي الأكبر أبي القاسم الشابي، في وداع الحياة نفسه، فلاحظت -رغم وحدة اللحظة والموضوع- أن لكل من النصين اتجاهين مختلفين في توديع الحياة، فالشابي متخفف من قبضة الحياة الدنيا، مقبل بلهفة وشغف إلى الحياة الأخرى، معتبرا الموت صباحا جديدا مشرقا، ومرفأ مُخَلِّصًا من ظلمة الحياة، وأمواج مآسيها.. وكأن لديه إيمانا مطلقا بسعادة مصيره النهائي، حين يقول:

مـــــاتَ عَهْـــــدُ النَّـــــواحْ   وزَمَـــــانُ الجُنُـــــونْ

وأَطَـــــلَّ الصَّـــــبَاحْ   مِـــــنْ وراءِ القُـــــرُونْ

مِـــــنْ وراءِ الظَّـــــلامْ   وهـــــديرِ الميـــــاهْ

قَـــــدْ دعـــــاني الصَّـــــباحْ   ورَبيـــــعُ الحَيَـــــاهْ

يـــــا لـــــهُ مِـــــنْ دُعـــــاءْ   هـــــزَّ قلبـــــي صَـــــداهْ

لمْ يَعُـــــدْ لي بقـــــاءْ   فَـــــوْقَ هـــــذي البقـــــاعْ

الْـــــوَداعَ الـــــوَداعْ   يـــــا جِبَـــــالَ الهُمـــــومْ

يـــــا ضَـــــبابَ الأَســـــى   يـــــا فِجـــــاجَ الجحـــــيمْ

قَـــــدْ جـــــرى زَوْرَقـــــي   في الخِضَّـــــمِ العَظـــــيمْ

ونـــــشرتُ القـــــلاعْ   فـــــالوَداعْ الـــــوداعْ

أما الشاعر التونسي الآخر الصغير أولاد أحمد، فهو يودع الحياة متشبثا بها، بكل تناقضاتها، بكل تفاصيلها البسيطة، حتى إنه ليودع الوداع نفسه، غير متحمس أبدا للمغادرة، إلى العالم الآخر:

"أودّعُ السابقَ واللاحق

أودّع السافل والشاهق

أودّع الأسباب والنتائج

أودّع الطرق والمناهج

أودّع الأيائل واليرقات

أودّع الأجنّة والأفراد والجماعات

أودّع البلدان والأوطان

أودّع الأديان

.....

أودّع أقلامي وساعاتي

أودّع كتبي وكراساتي

أودّع الصغائر والكبائر

أودّع السجائر

أودّع الأغلال والقيود

أودّع الجنود والحدود

.....

أودّع المنديل الذي يودّع

المناديل التي تودّع

الدموع التي تودّعني

أودّع.. الوداع"

ربما يكون، تشبث أولاد أحمد بالحياة، راجعا إلى أنه لا يملك يقين الشابي، بسعادة المصير هناك، الذي لا نعرف –حقيقة– من أين استمده الشابي، فأولاد أحمد كان يقول:

"إلهي :

لقد تمَّ بيعُ التذاكِرِ للآخرَهْ

ولم أجدِ المالَ، والوقْتَ، والعُذْرَ

كيْ أقْتني تذْكِرَهْ

فمزِّق تذاكرهمْ يا إلهي

ليسعدَ قلبي

ألم تَعَدِ الناس بالمَغْفِرهْ"

بلي.. ربُّنا غفَّار لمن تاب.. رحمة الله عليك.. أولاد أحمد.. فقد أحسن صديقك شاعر تونس الآخر: المنصف المزغني، في رثائك، بهذه الومضة المكتنزة بكثير من الدلالات:

حِينَ الشاعرُ ماتْ

قامتْ كلماتْ

طارتْ فوْقَ النَّعْشِ

واحتاجتْ كلماتْ

في شَفَتَيْه

إلى النَّبْشِ.

عزاء الشعراء.. للشعراء

حين يكتبُ الشعراءُ تعْزياتٍ أوْ مَرْثياتٍ، في مَآتِمِ أصحابِ المال، والسلطان... من حقِّ علاماتِ الاستفهام، والتعجُّبِ أنْ تنْزرِعَ أمامَ نُصوصهمْ، مشبعةً بإيحاءاتِ الرِّيبَةِ، والاسْتنكارِ، لكنْ حين يكتبُ هؤلاءِ الشعراءُ، تعازيَّ لأصْدقائهمْ الشعراء، يكونُ النبْلُ الإنساني سيِّدَ المَوْقف، وتقعُ هذه المَراثي من الشاعر المُعزَّى موْقعًا عظيمًا لا يعرفه إلا هو، حيث يتدثَّرُ جَمَالُ الحِسِّ الإنْسانيِّ العميق، بجَمَالِ التعْبير البيَاني الدقيق، فيكونانِ نورا على نُور، "يهْدِي اللهُ لنُورِهِ منْ يَشَاءُ"، وهكذا عنْدما تُوَفي شَقيقي، قبْل أيَّام، بعْد أشقَّاءِ آخَرينَ سبَقُوهُ، كَانَ ممنْ وفِّقُوا للتَّعَاطِي مَعِي-شِعْريا- في هذه المُناسبة الأليمةِ، "وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْل وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ"، شاعران، لنْ أنْسَى لهُما ذلكَ المَوْقف أبَدا، لا حَانَ يومُ الوفاء لهُما، فعنْدما كتبتُ أبياتا بسيطةً لتهْدئة خاطِري، فوْرَ المصيبة، قائلا، تحْت عنوان: "رثاء توْأم الروح":

أمْطـــري.. يـــا فُيـــوضَ رحْمَـــةِ ربِّي ... جـــدَثا.. حـــلَّ فِيـــه فلْـــذةُ قلْبـــي!

أوْسِـــعِيه: أهْـــلا.. ورحْبـــا.. فكـــمْ ذا ... قابـــلَ النـــاسَ: ألْـــفَ أهْـــلٍ.. ورحْـــب!

يـــا "ابْـــنَ آدَبَّ".. تَـــوْأمَ الـــرُّوحِ.. آهٍ ... آهِ.. لـــوْ يُـــدْفَعُ المَـــمَاتُ.. بِطِـــبِّ!

إنَّ حُبِّـــي.. تقاسَـــمَتْهُ.. قُبُـــورٌ ... فهُنـــا.. هـــا هُنـــا.. هُنالـــكَ.. حُبِّـــي!

رَبِّ.. رُحْمَـــى.. بمَـــنْ أخـــذتَ مـــنَ أهْـــلي ... وبمَـــنْ قـــدْ أبْقيْـــتَ.. لُطْفَـــكَ.. رَبِّي!

نَحْـــنُ لسْـــنا.. يـــا ربِّ.. إلا تُرابـــا ... فـــوْقَ هـــذي الـــتُّراب.. أوْ تحْـــتَ تُـــرْبِ!

فـــأدِمْ.. مـــلْءَ بيْتِنَـــا بَركـــاتٍ ... تغمـــرُ الأرْضَ بـــيْن شرْقٍ.. وغـــرْبِ!

كتب صديقي المبدع :الشيخ ولد بلعمش قائلا:

سـتُنبئكَ الـدنيا عـن الصـبرِ في القضـا ... ومـا أخَـذَ المـولى امتحانـاً وعوَّضـا

وأنـت أمـيرُ المكرمـاتِ فمـنْ تـرى ... يُجادلُ أنْ تـرضَى مـن الله مـا ارتَضـَى؟!

ومـا أحسـنَ الصـبر الجميـلَ بنُبْلِـه ... ولكـنَّ بعـضَ النَّـاسِ حظُّهُـم الرِّضـا!

فـديتُكَ لا تحـزنْ فشـعرُكَ مَرْهَمِـي ... إذَا زمـنٌ لِي بـالجراحِ تَعرَّضَـا

(لقد كان في أهل الغـضى لـو دنـا الغـضى ... مـزار) ولكـنْ بَعـدَهُمْ مَـا دَنَـا الغَضـَى!

ومـنْ عَجَـبٍ أنِّي أُلاقيـكَ باسـماً ... وَلِي شَـهَقاتٌ مـنْ أسـىً تَمْـلأ الفَضَـا!

تَـدثَّرْ بِسَـمْتِ الأكـرمينَ تَجَمُّـلاً ... وَرَمِّـمْ بنـاءَ الصـبرِ إمَّـا تَقَوَّضَـا

فـما هـذه الأيـامُ إلاَّ كَـما تَـرى ... وإنْ قَطَّبَـتْ في غَفْـوةِ الـبرقِ أوْمَضَـا

أَيَـا ابـنَ الـسُّراةِ العـارفينَ بـربِّهمْ ... ومـنْ لـكَ في أهـلِ الحجَـى سـلفٌ مَـضَى

لـك اللهُ مـنْ شـهمٍ تَسـامَى مـروءةً ... وعـنْ سَـقَط الـدُّنيا الخؤونـةِ أَعرَضَـا

سَـتُؤْجَرُ في الـرزءِ العظـيمِ وتنْقَـضِي ... شـجونٌ وأيُّ الأمْـرِ لـيسَ إلَى انقِضَـا؟!

ثم كتب -أيضا- صديقي المبدع: محمد ولد إمام:

يـا أمـير الحـروفِ كيـفَ أُعزِّيـكَ ... وقـد عَـزَّ في الحبيـبِ عـزاءُ

والمراثـي إعـادةٌ واجْـترارٌ ... لا رثـاءٌ يُغنـي هنـا أو ثنـاءُ

هـذه الـدارُ أخـونُ الصـحبِ لم تعـ ... ـطِ جمـيلاً إلاّ انتقـاهُ الفنـاءُ

كيـف نأسـى عـلى حيـاةٍ بـدارٍ ... نحـن فيهـا يـا سـيدي غربـاءُ

أوجـهُ الـراحلينَ تنبئنـا أنَّ الـ ... أمـاني حروفُهـا جوفـاءُ

غـيرَ أنَّ الحكـيمَ يـرضى قضـاءَ الله ... فيـه ولـوْ عَنـاهُ القضـاءُ

فاصـبر إنَّ الصـبرَ الجميـلَ جميـلٌ ... وجـزاءُ الصـبور نعـمَ الجـزاءُ

وابتسـمْ للـصروف مهـما توالـتْ ... تَبِعـاتُ الأرزاء والأرزاءُ

لم تَـدمْ حالـةٌ عـلى أيِّ حـالٍ ... لا هنـاءٌ يبقـى هنـا أو عنـاءُ

ولـكَ الأجـرُ بعـدَه ولـه الجنَّـات ... مـأوىً يلقـى بـه مـا يشـاءُ!

وفي الختام أستحضر ما سبق أنْ كتبتُه إدراكا لجمال هذا التفاعل الإنساني، شاكرا من عمق قلبي منْ شدَّتْ دعواتُهم، كلماتُهم، خطواتُهم، مِنْ أزْرنا، في مصابنا، المأجور عند الله، قائلا لهم جميعا أينما كانوا:

شكرًا.. لَمنْ عَزَّوْا.. لَمنْ واسَوْا.. لِمَنْ
كَتَبُوا.. لَمنْ هَتَفُوا.. لَمنْ وَصَلُوا.. لَمنْ...
ما أَجْمَلَ الأَرْواحَ.. حِينَ تَحسُّ بالـ
أَرْواحِ.. في وقْتِ الفَواجِعِ.. والمِحَنْ!
ما أَجْمَلَ الحُبَّ... النَّبِيلَ.. إذَا صَفَا الـ
إنْسانُ.. للإنْسانِ.. لا يَرْجُو ثَمَنْ!
ما أَعْمَقَ الإيمانَ.. حِينَ يَلُفُّنَا
يَطْوِي الفَوارقَ.. والمَسَافَاتِ.. الزَّمَنْ!
تا الله -رغْمَ مُصَابِنَا- إنَّا نَرَى الْـ
مِحَنَ.. الجَلِيلَةَ.. فِي بَواطِنِها المِنَنْ!
شكرًا.. لَمنْ عَزَّوْا.. لَمنْ واسَوْا.. لِمَنْ
كَتَبُوا.. لَمنْ هَتَفُوا.. لَمنْ وَصَلُوا.. لَمنْ...

فقيدنا المبدع:
الشيخ ولد بلعمش...وأنا..

لن أتحدث هنا عن محطات تلاقينا -روحيا- في القوافي والمواقف... ولن أنشر مراسلاتنا عبر مواقع التواصل الاجتماعي، فتلك لحظات بث مصانة... ولن أتحدث عن حرص كل منا لتقديم الآخر، إلى المنابر الإعلامية الأدبية الدولية التي يعرفها، بعيدا عن التناكر.. والإقصاء.. السائد في ساحتنا الثقافية، والأدبية...

سأسترجع فقط لحظات مواساة متبادلة بيننا، حين يفتقر الشاعر المفجوع، إلى شاعر، يسند رأسه إلى نبض قلبه، ويتوكأ على قلمه/ عصاه، ويهش بحروفه على مشاعره الجريحة، فعندما فجعت بشقيقي: الدكتور: حمَّ بن آدب: 11/ 4/ 2014م، بادر الشيخ بلعمش، وهو السبَّاق للفضل دائما.. فكتب:

الشاعر الباكي.. يعزي الشاعرا

تعزية إلى أخينا الشاعر أدي ولد آدبَّ و من خلاله إلى الأسرة الفاضلة:

أخَــوانِ مــن دَوْحِ الكــرامِ تَجــاورا	غُصــنيْنِ، واتَّبعَــا الجُــدودَ مــآثِرا
حتَّــى إذا الأحــزانُ هبَّــتْ ريحُهــا	طفــقَ الَّــذي كَسَرــتْهُ يبكــي الآخَــرا
قلبــي لقلبــكَ مُنصــتٌ بِدُعائــهِ	والشــاعرُ البــاكي يُعــزِّي الشــاعرَا
حــادِي الفنــاءِ ونحــنُ نسـعى خلفَـه	يــأبى علينــا الظــلَّ يومًــا عــابِرَا
صــبراً شــقيقَ الــروحِ وابــنَ شــقيقِها	فلقــدْ عُرفــتَ لــدى الخطــوبِ مُصــابِرا
ولــربما دعَــت الســماءُ حبيبَهــا	ولــربَّما ســئمَ الفــراقَ فســافَرا

وسألت الله -في سري- ألاَّ تمر بالشيخ مناسبة تقتضي الرد عليه، ولكن 30/ 6/ 2016، كان يوما حزينا فقد فيه شاعرنا الراحل، شقيقين له، مع صديقين لهما، دفعة واحدة، خلال حادث سير مروع، في العشر الأواخر من رمضان، فكتبت:

تعزية لأخي وصديقي المبدع: الشيخ بلعمش، نصير الجميع وقت الشدائد، وإلى أهاليه

الكرماء.. الطيبين...

شَــقِيقَاكَ.. والتِّرْبَــانِ.. شَــيْخَ القَصَــائِدِ هُــمُ خــيْرُ مَفْقُــودٍ.. فكُــنْ خَــيْرَ فَــاقِدِ!

تَضَــاعَفَ هــذا الــرُّزْءُ.. أنْ حَــلَّ فجْــأةً ولكـــنَّ لُطْــفَ الله.. أقْــوَى.. مُسَــاعِدِ!

لـــــكَ اللهُ.. لِيَّ اللهُ.. رُزْؤُكَ.. فَــــاجِعِي فأنْــتَ.. أنَــا.. شَخْصَــانِ.. لكــنْ كوَاحِــدِ!

أنَــا عَــارفٌ.. فَقْــدَ الأشِــقَّاءِ... يَــا لَــهُ! وكنْـــتَ تُعَزِّينِـــي.. بِــأبْهَى القصـــائدِ!

فــدُمْ.. جَبَــلَ الإيــمَانِ.. لا مُتَضَعْضِــعًا نُصِــرْتَ.. نَصِــيرَ النَّــاسِ.. عنْــدَ الشــدائدِ!

شَــقِيقَاكَ.. والتِّرْبَــانِ.. تَــاقُوا.. لِــرَبْعِهِمْ فنَـــادَتْهُمُ الجَنَّـــاتُ.. قَبْـــلَ المَعَاهَـــدِ!

تَقَبَّلَ رَبُّ العَــرْشِ -فِي العَشْــرِ- صَــوْمَهُمْ فـــأفْطَرَهُمْ -فِي الخُلْـــدِ- زَهْـــوَ المَوائِـــدِ!

فيَــا أهْلهَــمْ.. أهْــلَ المَعَــارفِ.. والتُّقَــى بكـــمْ نَتَعَـــزَى.. يـــا شُـــيُوخَ الأمَاجِـــدِ!

وكنت على يقين من أنه سيرثيني لو مت قبله، ولم أتوقع أن أرثيه، وحين أفقت قبل أيام قليلة على نعيه، عبر الفيس بوك، شعرت -تحت وقع الصدمة الفاجعة- بأني فقدت سر الحرف مطلقا...ثلاثة أيام والفجيعة تخرسني.. ثم كتبت في آخِرِ آخِرِها، مسابقا نهاية وقت العزاء 10 /11 /2017:

سلام.. شهيد القدس

(ومضة من رثاء الشيخ ولد بلعمش شاعر المثل العليا)

أفــتِّشُ.. عنِّــي.. مــذْ نعِيــتَ.. فــلا أنَــا أنَــا.. وقَصِــيدي.. صــاحَ بِي: مَــا أنَــا هُنـا!

معًــا.. أذْهَلَتْنَــا صَــدْمَةُ الفجْــعِ.. يَــا لَهَــا! أيَعْنِــي.. "بَريــدُ الــرَّاحلِينَ" الــذي عَنَــى؟

أُحَدِّثُ نَفْسِي: الشَّيْخُ بَلَّعْمَش.. الــذي...؟ فيرْتَــدُّ رجْــعُ النّعْــيِ.. يَحْرِمُنِــي المُنَــى:

هَــوَتْ مِــنْ سَــمَا شِــنْقِيطَ.. مِئْذَنَــةُ الــرُّؤَى بَكى النخْلُ -مَفْجُوعًا- علَى شَـاعِرِ الـدُّنَا!

لقــد ضــاقَ.. بــالقبْحِ.. الهــوَانِ.. وشَــاقَه سَــنَا المَــلأ.. الأعْــلى.. فحَلَّــقَ.. في السَّــنَا!

سَــلَامٌ.. شَــهِيد القُــدْسِ.. موْتُــكَ ثــوْرَةٌ عَــلَى مُنْحَنَــى التــاريخِ ذَا.. شَــاهَ مُنْحَنَــى!

سَلَامٌ.. شهِيدَ القُــدْسِ.. عِشْــتَ.. قصــيدةً ومــتَّ.. نشــيدَ الخُلْــدَ.. يَحْلُــو بــكَ الغِنَــا!

أخِي.. يا ابْنَ أمِّ الشِّعْرِ.. يَــا ابْــنَ أَبِي العُــلا وَصِنْوَ المَبَــادِي.. أنْــتَ مــنْ مــتَّ؟ أمْ أنَــا؟

مع تعازي إلى الأسرة الكريمة، واعتذاري لأن هول الصدمة أخرسني، فلم أستطع كتابة أي تدوينة من يوم وفاته.. رحمات الله تغاديه، وتماسيه، في الفردوس الأعلى.

أيها العبقري..
أبدلك الله بسرير المرض.. مُتبَوَّأ العَافِيَّةِ

أخي الدكتور الشاعر الباحث العبقري: محمد بن عبدي..

طِيلَةَ مَرَضِه.. تَعَوَّدْتُ أنْ يَأتِينِي صَوْتُه.. قَوِيًّا.. بإيمَانِه، ونُبْلِ جوْهَرِه.. وتَفَاؤُلِه، وإشْرَاقَةِ رُوحِه الطيبَة.. المَعْهُودَةِ.. البارحةَ... تفاجأتُ بخبَرِ مُلازَمَتِه سَريرَ المَرَضِ، فوجَدْتُنِي أَهَمْهِمُ بهذه الهَمَسَاتِ، مُنَاجِيا سَيِّدَ الكَلِمَاتِ:

أيُّهَـــا العَبْقَـــرِيُ.. هَبْنِـــي.. كَلامَـــا	نحْـــوَ علْيَـــاكَ.. فِي السَّـــمَا.. يَتَسَـــامَى
إنَّ للْحَـــرْفِ.. مُـــذْ مَرِضْـــتَ.. أنِينًـــا	والرُّؤَى.. مُـذْ مَرضْـتَ.. تَشْـكُو السّـقَامَا
سَـــيِّدَ الحَـــرْفِ.. زَارِعَ الحُـــبِّ.. فينـــا	كُلُّنَـــا.. قَلْبُـــه.. حَوَالَيْـــكَ.. حَامَـــا
القُلُـــوبُ التـــي تُحِبُّـــكَ.. تَـــدْعُو	لـــكَ.. رَبَّ السَّـــمَاءِ.. بَـــرْدًا.. سَـــلامَا
وشِـــفَاءً.. وصِـــحَّةً.. وهَنَـــاءً..	ومقامًـــا.. يَطُـــولُ.. طبْـــتَ.. مقامَـــا
ليْـــتَ كُـــلَّ النُّجُـــومِ.. طَـــوْعَ بَنَـــانِي	لتَرَاهـــا.. تزْهُـــو.. عليْـــكَ.. وِسَـــامَا
ليتنـــي أقطـــفُ الـــوُرُودَ.. جَمِيعًـــا	كـــي تُـــؤدِّي.. مِنِّـــي.. إليْـــكَ.. السـلامَا
ولـــو أنَّ الكنـــوزَ.. كانـــتْ.. بملْكِـــي	نثَرْتُهـــا.. كَفِّـــي.. عَلَيْـــكَ.. احْترامـــا

فارس الحرف.. ترجل:
تأبين د.محمد ولد عبدي

ودعتِ الساحةُ المُوريتانيةُ والمَشْهَدُ الثقافِي والأدَبي عُمومًا، هذا العامَ المُنْصَرِمَ، أحدَ عباقرة الشعر والنقد، وإذا كان "موتُ العالِمِ ثلْمَةٌ في الدِّين"، فإنَّ موتَ المُبْدِع ثلْمةٌ في المَالِ، وبما أن الدكتور محمد ولد عبدي –في نظري– يمْتلكُ الوصْفيْنِ، فقد تَرَكَ موْتُه فراغًا واسعًا في عالمِنا، فهو الشاعرُ المُبْدِعُ الرهيفُ، والناقدُ الأكاديمي الحَصيفُ، والإنسانُ الرائعُ الأَلِيفُ... فمِنْ أيْنَ يَبْدأ مُؤَبِّنُوهُ، وإلى أيْنَ يَنْتَهُون؟

إنه صاحب دواوين:" الأرض السائبة"، و" الرحيل"، و"برك الكلام"، وصاحب كتب: "ما بعد المليون شاعر"، "فتنة الأثر على خطى ابن بطوطة في الأناضول"، وأخيرا أطروحة " السياق والأنساق.. الشعر الموريتاني نموذجا" أحد أهم تطبيقات النقد الثقافي في الأدب العربي، هذا بغض النظر عما لم ينشر من أعماله الكثيرة.

لقد افْتَقَدْنا –فيه– صوْتَ الضمير المُوريتاني الحيِّ، المَسْكون بأفْضل قِيم هذا "المَنْكِبِ البَرْزَخِي"، المُرَتِّل "سُورةَ الأحْقافِ" منْ رمال هذه" الأرْض السائبة"، التي لمْ تَتَّسْعْ لِمَداراتِه، ولمْ تنْسجِمْ معَ رُؤاهُ، فتَأَبَّطَ أحلام الصعاليكِ النُّبَلاءِ المُبْدِعينَ، مُضْطَرًّا للتحْليقِ، بعيدًا، معَ الطيور المُهاجرة، حَاملاً معهُ ذلكَ الوَطَنَ المَهْجُورَ، في شِغَافِ قلْبِهِ، زارعًا نخْلَه وقَتَادَه، مشاتلَ بيْنَ حُروفِ قَصِيده، مَازجًا رَحيقَ صَمْغِه ومِدَادِه بمِجْرَي دِمائه، فكانَ خيْرَ سُفراء الثقافة الشنقيطية، بوَجْهَيْها؛ المُوغل في الأصالة رسوخًا، والمُتَشَبِّع بالحَداثَةِ شُموخًا، مُجَسِّدًا بذاك عنْوانَ جَدَلِيةِ المَغْرب والمَشْرق" شاعرا أنَّه كلَّما أمْعَنَ في "الرحيل" فُصولاً، يقْتربُ أكثرَ من جَوْهَر موريتانيا التي نَفَتْه، عبْر جَدَلِ "سياقاتها، وأنْساقِها"، ليُعيدَ تشْكيلَ بنْيَتِها، منْ خِلالِ مُقارَبَةِ مُنْجَزِها الشِّعْري، مُتَلَمِّسًا بصْمتَها الثقافية المُميزة، مُسْتَشْرِفًا حتَّى أُفُقَ "ما بعد المليون شاعر".

ولقد كتبتُ في تأبين فقيد الخُلق والإبداع، القصيدة التالية، تحت العنوان أعلاه:

بـــــأيِّ آلاءِ رَبِّ الحَـــــرْفِ.. أرْثِيكَـــــا ... وكُلُّهَــا.. قَـدْ نَعَاهَــا.. اليَـوْمَ.. نَاعِيكَــا؟

يا فارِسَ الحَرْفِ.. لا حَـرْفٌ.. عـلَى شَـفَتِي ... قـد أبْـدعَ الشِّـعْرُ.. صَـمْتًا.. فِي مَعَانِيكـا!

كـلُّ الحُـرُوفِ.. ثَكَـالَى.. والـرُّؤى.. لُغَـةٌ ... غَصَّــتْ.. بِمَأْتَمِهَــا.. مَفْجُوعَــةً.. فِيكــا!

إنِّي أفَـــتِّشُ.. عَنِّـــي.. فِيـــكَ.. أفْقِـــدُنِي ... يــا تَـوْأمَ الـرُّوحِ.. أرْثِينِـي.. أم ارْثِيكَــا؟!

يــامَنْ تَأبَّطْــتَ هــذي الأرضَ.. مُرْتَقِيــا ... مَعَــارِجَ الــرُّوحِ.. مــا أسْــمَى مَراقِيكــا!

خَمْسُـونَ عَامًـا.. تُغَنِّـي الحُـبَّ.. ترْفـعُ أهْــ ... رامَ الجَــــمَالِ.. بِكَــــوْنٍ.. لا يُواتِيكــــا!

ظـلَّ "الرَّحيـلُ".. فُصُـولاً.. أنْـتَ تكْتُبُهـا ... حَتَّــى رَسَــا.. بِجِنَــانِ الخُلْـدِ.. رَاسِـيكا

فيا ابْنَ عَبْـدِي.. تَرَكْـتَ "الأرْضَ سَـائِبَةً" ... و"فِتْنَـــة الأثَـــرِ".. البَـــاقِي.. تُنَادِيكَــا:

من "للسِّـياقِ".. وللأنْسـاقِ".. يبْحَـثُ فِي ... نَقْـــدِ الثَّقافَـــةِ.. تَنْسِـــيقا.. وتَفْكِيكـــا؟

الأرْضُ.. ثَكْـــلَى.. فلَـــوْلا اللهُ يُمْسِـــكُها ... مَــادتْ.. بنــا.. حَزَنًــا.. رُحْمَــى بأهْلِــيكا

كـلٌّ.. مُعَـزٍّ.. مُعَـزَّى.. كـمْ قـد اتَّـسعتْ ... عَــلَى مَــدَى حُبِّــكَ.. النَّامِي..تَعَازِيكــا

عَلَيْـــكَ رَحْمَـــةُ ربِّ العَـــرْشِ.. وَاكِفَـــةٌ ... وألْهَـــــمَ اللهُ -سُـــــلْوَانًا- مُحِبِّيكَـــــا

2014/12/29

مع فقيد الخلق والإبداع:
د محمد ولد عبدي

بعد نقاش أطروحة صديقي محمد ولد عبدي وحصولها على مرتبة الشرف الأولى، مع التوصية بالطبع، بادر الدكتور بتقديم أطروحته للنشر، عبر دار نينوى، اعتمادا على خبرته بخصائص دور النشر التي خبرها، من خلال إشرافه المستمر على معرض أبي ظبي للكتاب، وحضوره الدائم لمعارض الكتب السنوية في الدار البيضاء، وغيرها...فصدر عمله 2008 في كتاب أنيق، تحت عنوان" السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية (الشعر نموذجا)"، تقرر تقديمه نقديا، في معرض الكتاب بالدار البيضاء 2009، وكم تنازعني التحمُّسُ والتوجُّسُ، حين اتصل بي الأديب د. حسن نجمي، من مديرية الكتب بوزارة الثقافة المغربية، ليخبرني باقتراحهم لي ضمن الأساتذة الذين سيقدِّمُون هذا الكتاب في دورة المعرض تلك، وافقت بالطبع منتصرا لدافع التحمس على وازع التوجس.. وقبيل المعرض جاءتني دعوة لحضور مهرجان الشعر الذي نظمه "أمير الشعراء" في موريتانيا،... ثم بادرت بالعودة إلى المغرب بعد انطلاق فعاليات معرض الكتاب بالدار البيضاء، حرصا على حضور نقاش كتاب "السياق..." وصلت قبل يومين أو ثلاثة من موعد جلسة تقديم الكتاب، وليست عندي نسخة منه، فذهبت للدار البيضاء للسلام على صديقي المؤلف، واستلام نسختي من كتابه، وفي اليوم الموالي ذهبت إلى المعرض، بعدما حاولت منذ الليلة الماضية تكوين صورة عن الأطروحة المنشورة من خلال بناء هندستها الفكرية، الذي استوحيته من فهرسها، وبإلقاء نظرة على إشكالات المقدمة، وخلاصات الخاتمة.

قابلت الدكتور المرحوم في رواق موريتانيا في المعرض مع ممثلي مكتباتنا وناشرينا، مثل الأستاذ سلاَّمي ولد أحمد المكي، والأستاذ محمد محمود، إضافة إلى الأديب الكاتب الصحفي محمد سالم ولد الداه، وكنت نصف محموم، إشفاقا على نفسي من تقديم مشاركة لا تشرف اسم بلدي، ولا تليق بمستوى الكتاب، ولا مقام الكاتب، ولا مكانة الأستاذين الكبيرين المناقشين:

د. محمد الظريف الذي قد تمرس بهذه الأطروحة، مشرفا أكاديميا، ومناقشا، ود. يوسف ناوري الذي حصل على نسخته منها في وقت كاف لإعداد مداخلته حولها.

بدأت الجلسة وكنت آخر المتدخلين، فوجدتني انخرط -ارتجالا- في استنطاق وحدات العنوان، استيحاء لبنيتيْها السطحية والعميقة، موضحا حرص الباحث على تأسيس "الأطروحة" بمفهومها الأكاديمي الإشكالي، الذي قل في السنوات الأخيرة وجوده في البحوث المنجزة بجامعاتنا، إذ البحث حِجاجٌ بطبعه، وقد كان الحِجَاجُ منذ فجر الفلسفة يقوم منطقيا على ثالوث: الأطروحة/ النقيضة/ الجدل بينهما، مستخلصا أن الدكتور قد استطاع أن يؤسس أطروحته، على أنقاض نقيضتها التي لم تصمد أمام بنائه المعرفي السليط، مستعينا بترسانة من المقومات قد لا تتكامل في غيره: خبرة المثقف الموسوعي، وبصيرة الناقد الحصيف، وحنكة العالم المتمرس، ورؤية المفكر المصلح، ورهافة الشاعر المبدع، وذكاء الفنان المقتدر....

ثم حاولت أن أضع هذا العمل في مداره البحثي الموريتاني، ملاحظا أن الدكتور: عبد الله بن احميده، قد تكفل ببحث تأسيسي، لمشغل النشأة الغامضة في الشعر الموريتاني الفصيح، والدكتور جمال ولد الحسن، قد تكَفَّلَ بوصْف الخصائص الأسلوبية المائزة لأهم مدونة الشعر الشنقيطي القديم، في حين أنَّ الدكتور محمد بن عبدي بنى فوق الطابقين طابقا ثالثا، تجاوز فيه مشغليْهما، إلى موضوع دراسة السياقات والأنساق في مدونة الشعر الموريتاني الحديث، إسهاما في إعلاء صرح البحث الأكاديمي في شِعْرِيَّتِنا، منبها إلى هذه الروح التجاوزية التي تسكن هذا الباحث هي سر تميزه، في التنظير، والإبداع معا، وقد تجلت باكرا منذ تخطَّى أسطورة المليون شاعر المتداولة، إلى "ما بعد المليون شاعر، " من خلال بحث له بهذا العنوان، فاز به في جائزة النقد لدائرة الثقافة بالشارقة 1999، دشَّن عبْره بناء النماذج النقدية النظرية، متجاوزا تصنيفات المدارس الأدبية، التي حاول بعض أسلافه من أدباء موريتانيا تطبيقها على شعرنا، حيث قسَّم مُدَوَّنَتَه إلى ثلاث تيارات شعرية متمايزة:استرجاعي-وشاهد- استشرافي، وكأنه كان مستحضرا فيها، زمن الفعل النحوي: ماضيا -حاضرا- مستقبلا، إضافة إلى أنه قد كان في عنوانه يستبطن أن مشروعه النقدي قائم على التجاوز المستمر، حيث لم يعتبر هذا الكتاب ذاته إلا "مدخلا لقراءة الشعر الموريتاني". مما يعني عقده العزم على المضي أبعد فأبعد، إذ كانت فكرة التجاوز تتلبَّسُه مبدعا وناقدا ومفكرا، ومن هنا جاءت أطروحة "السياق والأنساق في

الثقافة الموريتانية"، عصارةً لمشروعه الكبير، فكانت متجاوزة لسابقاتها تصنيفا وتوصيفا، ومقاربة.

وقد أكدتُ -ومازلتُ- مطمئنا أن الباحث لو لم ينجز إلا خطاطته العجيبة التي اختزل فيها ثمرة بحثه لأغنت عن مئات الصفحات، حيث نحَتَ فيها هَرَمَ أطروحته الأكاديمية بحكمة الفراعنة، بانيا نموذجه النظري على مقاس روح هذه الأطروحة الثاوية في بنيات السياقات والأنساق، الكامنة وراء الخطاب الشعري، والمؤثرة فيه أيضا، حيث إن إقامة النماذج النظرية النقدية لا يجيدها من العرب إلا أفراد أفذاذ، فهي لا تتأتَّى إلا بعْد قراءة معمقة في النقد عموما، وفي المدونة المدروسة خصوصا، حتى ينبثق منها النموذج، ويستوعبها في الوقت ذاته.

وعلى ضوء هذا صَمَّمَ الباحثُ العبقري محمد ولد عبدي علاقاتِ التراشح عموديا وأفقيا بين جميع أبنية أطروحته، جاعلا الحقب الثلاث: التأسيس والتأصيل- الاستعمار وإرادة التحصين- الدولة وإرادة التحديث/ تتفاعل مع سياقات ثلاثة: اجتماعية- ثقافية - أدبية/ ومع أنساق ثلاثة: دينية تناسب (التقليد) - وثقافية، تناسب (التجديد)- واجتماعية، تناسب (الحداثة). تكون فيها مرجعيات المبدع ثلاثا أيضا هي على التوالي: (المماثلة) - (المشابهة) - (المخالفة)، تفرز من أنواع التلقي الشعري ثلاثة: (التأثيم) - (التعظيم) - (التذميم)، تناسبها أيضا من أنماط القراءة ثلاثية: (التحقيق- التعليق- التطبب).

وهكذا كان (المنهج) المناسب لروح الأطروحة، وعمق تصورها، وتركيب بنائها، منافيا -بطبعه- للأحادية في النظر التي تقود إلى عمى ثقافي، أكثر مما تهدي إلى سواء السبيل، فاقترح الناقد المتمرس (استراتيجية) بحثية تتقصد اكتشاف النسق المختفي وراء الخطاب الشعري، عبر (منهاجية نسقية)، لا تضيع في ركام التفاصيل، ولا تتيه في معالجة كتلة من العناصر المتناثرة، ولا تحلل دون تبني إبدال معين، كما يقول. ولهذا كله كان (المنهج الثقافي) هو الأنسب لمقاربة هذه الأطروحة القائمة على تداخل السياقات والأنساق، وتأثير بعضها في بعض؛ حيث لا ترى إمكانية قراءة الخطاب الشعري دون استثمار حواضنه الثقافية.

كل ذلك عبر (أسلوب) أدبي، يجمع بين الشاعرية المُتَوَهِّجَةِ، والأكاديمية المُتَبَصِّرَةِ، ويطوِّقُ عناصرَ موضوعه، وبنيةَ أطروحته، عنونة، وتصنيفا، وتوصيفا.

إنها أطروحة/ مشروع فكري تستكنه أسرار التراشح (تأثير وتأثرا) بين مكوناتها، تصيُّدا للوصل بدل الفصل، وكانت تستبطن هدفا كبيرا هو نحت "بنية العقل الموريتاني"، على غرار

مشروع "بنية العقل العربي"، للمفكر المغربي: محمد عابد الجابري، وهذا الهدف الكبير يندس في تضاعيف المتن، وإن لم يصرح به في بنية العنوان، ربما لتواضعه المعهود.

تلك أهم ملامح مداخلتي يومها.. والتي لا شك أنني غششت في ترجمتها الاسترجاعية هذه، لأنني سبق أنْ أعدتها بشكل أكثر تحضيرا، وتنسيقا، في ندوة "مرايا الحلم والكتابة"، التي نظمها الباحث الرصين والشاعر المبدع، صديقنا معا: الدكتور المرابط ولد متالي، بالتعاون مع اتحاد الكتاب والأدباء الموريتانيين، في انواكشوط 2012، تكريما لمنجز محمد ولد عبدي، وربما تأبينا مسبقا له، وهو حاضر معنا بكامل صحته وألْمَعِيَّته. وقد أسفر ذلك التكريم/ التأبين عن كتاب نشره الدكتور ولد متالي، خجلتُ من إدراج مداخلتي فيه، رغم إلحاحه، لأني لا أراها على مستوى ما أريد أن أكتبه عن أطروحة محمد ولد عبدي ومشروعه، رغم إبدائهما معا للإعجاب بها، ورغم إعجاب الجمهور الذي سمعها لأول مرة في الدار البيضاء، فأنا لا أراها إلا تداعيات مختزلة، ما مكان نشرها الأنسب إلا هذا الفيس بوك، البعيد عن الأكاديمية. ولا مقامها الأمثل إلا وحي حديث هذع الصور التي أتملَّى فيها الآنَ استرجاعا لحلاوة زمان الوصل، في ظل مرارة زمان الفصل، بعد رحيل أعز أصدقائي، ومشاركيَّ همومي الثقافية، وطموحاتي الإبداعية، ومشاغلي الأكاديمية، وأشواقي الروحية...ومنافي الصعاليك الأحرار...تغمد الله روحه بوارف رحماته، وبوأه أعلى الجنان، مع الأنبياء والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

وصلت أصداء الجلسة النقاشية لكتاب "السياق والأنساق... في الثقافة الموريتانية..." التي تحدثت عنها أمس، إلى أشخاص يقدرون المبدع، وهو حَيٌّ، ويُعَبِّرُونَ لَهُ عن ذلك ملءَ سمْعه وبَصَره، ولا يَطْمسُونه حيًّا، ثمَّ يُغْرقونه ميِّتًا بدموع التماسيح.

كانت هناك الدكتورة العالية ماء العينين، ضمن من حضروا تلك الأمسية، وهي مثقفة كبيرة، وأستاذة أدب بامتياز، ومن دوحة علم وإشعاع روحي واسع الانتشار، فحملت انطباعها الإيجابي، إلى أبيها القاضي الأديب ماء العينين ماء العينين، فما كان منه إلا أن بادر بدعوتنا إلى بيته العامر، وبالغ في التكريم، حتى أنه لم يرسل لنا أنا والدكتور محمد ولد عبدي أحد سائقيه، وإنما أرسل إلينا نجله الكريم الدكتور سعد، وهي لفتة لم تفتْنا أبدًا، ولم يدْعُ معَنا إلا أستاذنا الدكتور المغربي محمد الظريف، وأستاذ عراقي كبير، متخصص في المخطوطات، وتاريخ المطبوعات الحجرية، ولم يقتصر الأمر على تلك اللفتتة، بل أضاف إليها لمسة فنية

وخُلقية رائعة؛ حيث كانت كاسات الشراب مزخرفة ببيت من شعر والده الشاعر العالم الشيخ محمد الإمام، يفوح معناه بكرم الضيافة المعهود، وعندما لاحظنا ذلك نسب الأب الحنون فكرته لكريمته الدكتورة العالية...

كانت ليلة.. باذخة بها لذ وطاب وسما من موائد الأرواح والأشباح، وكانت فاتحة دعوات وصداقة... لم تؤثر فيها فواصل الزمان ولا المكان، حتى أن الأب وكريمته لم يكد أحد يسبقهما لتعزيتي في فقيدنا الغالي.

اغسطس:
شهر نكبة الإبداع الفلسطيني

فلسطين والنكبة أصبحتا كلمتين مترادفتين في أذهاننا، مع الأسف الوجيع، لكن فكرة هذا العنوان، والمقال... فرضت نفسها علي، حين توالت على روحي -في هذا الشهر- ذكريات وفيات أهم مبدعي فلسطين في عهد النكبة المتمادي، زمانيا، وإنسانيا، والمتواسع مكانيا، في جغرافيا البلاد العربية، وفي جغرافيا الأرواح، طارقة بقوة نواقيس، الحرف الجريح، في الوطن الجريح.

فخلال هذا الشهر أعلنت النكبة الفلسطينية عن وجهها الإبداعي الأليم، ففي يوم 9 اغسطس مرت ذكري رحيل، أيقونة الشعر الفلسطيني المعاصر: محمود درويش، وفي يوم 20 اغسطس، مرت ذكري وفاة توأمه الإبداعي والنضالي: قيثارة شعر المقاومة والصمود: سميح القاسم، وفي خاتمة الشهر ستمر ذكرى اغتيال الرسام المدجج بـ"ريشة الفن"، "حنظلة " الخلود، ناجي العلي، لتفقد القضية الفلسطينية، وروح المقاومة، في هذا الشهر ثالوثا إبداعيا عجيبا، جعل من القلم والريشة، أروع الأسلحة، ونزف -عبرهما- عُصارة المأساة المُرَّة رحيقا إنسانيا فنيا خارق التأثير.. والفاعلية... في صميم الأرواح، وفي مجَسَّات الذائقات الجمالية... فأي صدفة عجيبة، جعلتك -يا شهر اغسطس- موسما لنكبة الإبداع الفلسطيني، مزروعة كل من ثلاثية عشرياتك، بذكرى فقدنا لواحد من هذا الثالوث الاستثنائي في عبقرياته الشعرية والفنية؟

على كل حال... رفض الشاعر الذي يسكنني إلا أن يكتب "مرثية لقلوب الشعراء"، عندما اضطر قلب محمود درويش، للتوقف عن النبض، شعرا، وحبا، مستنكفا من عبث مباضع الجراحين، بأسرار ملكوته الروحية الجميلة... فنفث في روعي وصيته الأخيرة، التي كتبتها هكذا بتصرف:

درْويشُ -بَعْدَ المَوْتِ- أوْصَانِي:
بأنَّ قُلُوبَ أهْلِ الشِّعْرِ

- لُطْفاً -

لا تطِيقُ مَبَاضِعَ الجَرَّاحِ!

وبِأنَّ فِيها مِنْ جِرَاحِ الدَّهْرِ

ما يَكْفِي..

وفِيها

مِنْ لحاظ الغِيدِ..

أيّ جِرَاحِ!

وبأنَّها خَضْراءُ..

مُرْهَفَةَ المَشَاعِرِ..

إنْ يَحُمْ جُرْحٌ.. علَيْها..

تَنْزِف الحِبْرَ.. الجَمِيلَ.. مُعَتَّقًا..

لله جُرْحٌ.. نازِفٌ بِالرَّاحِ!

وبأنَّها..

- إمَّا تَوَقَّفَ نَبْضُها-

لا قَلْبَ.. يُمْكِنُ زَرْعُهُ..

عِوَضًا لَها..

إذْ نَبْضُها سِرٌّ.. غَرِيبٌ..

إسْمُهُ الشِّعْرُ.. المُوَقِّعُ

لِلْحَيَاةِ نَشِيدَها.. المَعْزُوفَ..

بالأفْراحِ..

والأتْراحِ!

....

فبها كُنُوزُ الغَيْبِ..

تَزْدَحِمُ الرُّؤَى.. فيها..

بِها الصَّبَوَاتُ بِكْرٌ..

سِرُّها حَرَمٌ..

-عَلَى غَيْرِ القصيدةِ -

دُونَها مِفْتاحِ!

ما يَبْتَغِي الجَرَّاحُ

فِي قَلْبِ القصيدة ؟

إنَّها المَنْفَى المُقَدَّسُ..

إنَّها الوَطَنُ الذي نَحْمِيهِ..

ما بَيْنَ الفَواصِلِ..

إنَّها مَلَكُوتُ رَبِّ العِشْقِ..

رَبِّ الشِّعْرِ..

قِفْ..

يَا مِبْضَعَ الجَرَّاحِ..

قِفْ..

لَكَ عَالَمُ الأَشْبَاحِ..

هذا عَالَمُ الأَرْوَاحِ

وعندما رحل سميح القاسم، عزفت في توديعه، "لحن خلوده"، -في مقام الذهول- تحت عنوان "قيثارة الشعر المقاوم":

أَسَـمِيحُ.. غَادَرَنـا؟ رَحَلـتَ.. سَـمِيحُ؟! وَا يُـتْمَ هـذا الشِّـعْرِ! كيْـفَ يَصِـيحُ؟!

قِيثـارَةُ الشِّـعْرِ.. المُقَـاوِمِ.. مَـنْ لَهَـا؟! "الأَرْضُ ثكْـلَى".. والغُيُـومُ.. الـرِّيحُ!

العَـازِفُو "لَحْـنِ الخُلُـودِ".. بِهَـا.. مَضَـوْا: "تَوْفِيقُ".. "درويشٌ".. وأنتَ "سميـحُ!"

فــ"أَنَـا" فِلِسْـطِينٍ.. يُسَـائِلُ: مَـنْ أَنَـا؟ والحَـرْفُ -فِي الـوَطَنِ.. الجَـريحِ- جَـرِيحُ!

سميح القاسم:
وداعا.. "سميح" الروح.. "قاسم" الحب والإبداع

بِبَالِغِ الفَجِيعَةِ.. تَرَجَّلَ -البَارِحَةَ- الفَارِسُ العَنِيدُ، الْمُدَجَّجُ بأجمَلِ ألقاب الإبداع، وأبْهَى صِفاتِ الفُتُوَّةِ وأسْمَائِهَا الحُسْنَى، رَحَلَ آخِرُ آبَائِنَا منْ كِبَارِ الشُّعَرَاءِ العَرَبِ، وتَرَكَ سُلالَةَ مَنْ "هُدُوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَولِ"، مثلَ الأيتَامِ عَلَى مَآدِبِ اللِّئام..

وبما أنَّ حُشُودَ مُؤَبِّنِيه، سَيَسْلكُونَ في ذلك "طَرَائقَ قِدَدًا"، فإنَّني، سَأَسْتَعِيرُ منْه صَوْتَه، وقَلَمَهُ، لأرْثِيهُ بِلِسَانِه، ناحِتًا له تِمْثالاً، مِنْ كلماتِ عَناوينِ دَوَاوِينِه، التي هي هَرَمُ الخُلودِ الفَنِّي، الذي يَجتَهِدُ الشاعرُ -طُولَ حَيَاتِه- عَلَى إبدَاعِ هَندَسَتِهِ، باعتِبَارِهِ مُسْتَودَعَ رُوحِه، وبَرْزَخه الخاص..

وهكذا سَتَنْبَثُّ عَنَاوِينُه، في بنْيَةِ خِطابِي، جَوَاهِرَ تَتَأَلَّقُ، بيْنَ مُزْدَوجَتَيْنِ، مُحْتَفِظًا لِصَائِغهَا الْمُبْدِعِ بِضَمِيرِهِ الْمُتكَلِّمِ، غيْرَ مُتَصَرِّفٍ فِيهَا إلاَّ عَلَى مُسْتَوَى الحَرَكَاتِ، وفْقَ مَا يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ الإعرابي، راجيا أنْ تسَامِحَنِي رُوحُه السَّمْحَاءُ، تَجَرُّئِي على هذه الخُدْعَةِ التَّعْبِيرِيَّةِ.

ومِنْ أيْنَ لِي بِلُغَةٍ -غيْر كَلِماتِه- تُنَاسِبُ الاحْتِفَاءَ بِبَاذِخِ حُضُورِ غِيابِه الطاغِي، الذي لاَ يَلِيقُ المَأْلُوفُ في مَقامِه الجَليل.

وبما أنَّه كانَ ثالِثَ عَبَاقِرَةِ الشِّعْر الفِلِسْطِينِي الحَدِيث، إضَافَةً لِرَفِيقَيْهِ: تَوْفِيق زياد، ومحمود درويش، فإنَّه قد رَفَضَ -خِلافًا لهُما- مُغَادَرَةَ أرْضِهِ، ولوْ تَحْتَ الاحْتِلاَلِ، فلَمْ يَسْتَهْوِهِ قَوْمُه "الرَّاحِلُونَ"، عبْرَ تِيهِ المَنَافِي، فأثْبتُ في مُسْتَنْقَعِ المَوْتِ رِجْلَهُ وقالَ لها: مِن تَحْتِ أخْمُصِكِ الحَشْرُ وظَلَّ يَصْرخُ، بِعِنَادِ الْمُناضِل، وكبْرِياءِ الْمُقاوِم -مِلْءَ حنْجرَتِه- في وُجُوهِ سَجَّانيه، وجَلاَّديه: "لن أسْتَأْذِنَ أحَدًا"، وسَأَبْقَى "مُنْتَصِبَ القَامَةِ.. أمْشِي"، مَهْمَا "خَذَلَتْنِي الصحْرَاءُ"، فوْقَ "أَرْضٍ مُرَاوِغَة"، بيْنَ "مَوَاكِب الشَّمْسِ"، البَاذِلِينَ أرْوَاحَهم "قَرَابِينَ"، مُرَدِّدًا "أغَانِي الدُّرُوبِ"، جَاعِلاً "دَمِي عَلَى كَفِّي قَصَائِدَ"، تَبْعَثُ رميم "دِيوان الحَماسَةِ"، متجددا في نفوس

المُقَاومِين ، ولوْ عَبْرَ "الذَّاكِرَةِ الزَّرْقَاء"، فِي دَوَّامَةِ "دُخانِ البَرَاكِينِ"، و"حَسْرَةِ الزَّلْزَال"، و"عَجَائِبِ قَانا"...

نَعَمَ،"أنَا مُتَأَسِّفٌ"، لِشُهُودِي "سُقُوطَ الأَقْنِعَةِ"، ولكنْ، "لا تُوقِظُوا الفِتْنَةَ"، يَا إِخْوَةَ يُوسُفَ، وأَنْتَ يَا أَيُّهَا الخَصْمُ الأَلَدُّ "مِنْ فَمِكَ أَدِينُكَ"، وأَنْتِ يَا أَرْضُ "أحِبُّكِ.. كَمَا يَشْتَهِي المَوْتُ"، وسَأَختَرِقُ إِلَيْكِ كُلَّ" الجُدْرَانِ"، بيْنَ "رَمَادِ الوَرْدَةِ، ودُخانِ الأغْنِية"، مُسْتَرْشِدًا بِقَلْبِي بُوصَلَةً، تَعْرفُ "جِهَاتِ الرُّوحِ"، مُتَأَبِّطًا "كِتَابَ القُدْسِ"، مُتَمْنطِقًا بـ "حِزَامِ الوَرْدِ النَّاسِفِ"، أرَتِّلُ " قرآن الموْتِ واليَاسمِين"، لأنْسَخَ آيَاتِ"الكِتَابِ الأَسْوَدِ"، آمِلاً قبْلَ "المَوْتِ الكَبِيرِ"-مَهْمَا كانَ "الجَانِبُ المُعْتِمُ مِنَ التُّفَّاحَةِ"- "...أنْ يَأتِي طائرُ الرَّعْدِ"، لأَرْسُمَ بِرِيشَتِه" الصُّورَةَ الأخيرةَ منَ الألبُوم"، فأَنَا حَتْمًا "سَأَخْرُجُ مِنْ صُورَتِي ذات يَوْمٍ"، لأَتَحَوَّلَ أيقونةً خَالِدَةً، فِي"هَوَاجِسِ طُقُوسِ الأحْفَاد"..

وداعًا.. "سَمِيحَ" الرُّوحِ.. "قَاسِمَ" الحُبِّ والإِبْدَاعِ.. صَدَقْتَ أيُّها "المُتَنَبِّي" العَظيم، خَرَجْتَ -فعْلا- من صُورَتِكَ، أمس يوم 20-8-2014، فَنَمْ.. فِي الخُلد..قَرِيرَ العَيْنِ.. بأَنَّك ستبَقَى خالدا في "طُقُوسِ الأحْفاد"، أبَدَ الآبِدِينَ.. واسمَح لِي أنْ أخُطَّ عَلَى شَاهِدَةِ قبرِكَ، هذه الأبياتَ ، لتَمْنَحَها شَرَفَ الخُلُودِ، أيُّهَا المَيِّتُ الحَيُّ:

أسَـمِيحُ.. غَادَرَنـا؟ رَحلـتَ.. سَـمِيحُ؟!   وَا يُـتْمَ هـذا الشِّـعْرِ! كيْـفَ يَصِـيحُ؟!

قِيثـارَةُ الشِّـعْرِ.. المُقَـاوِمِ.. مَـنْ لَهَـا؟!   "الأَرْضُ ثكْـلَى".. والغُيُـومُ.. الـرِّيحُ!

العَـازِفُو "لَحْـنِ الخُلُـودِ".. بِهَـا.. مَضَـوْا: "توْفِيقُ".. "درويشٌ".. وأنـتَ "سـميحُ!"

فــ"أنَـا" فِلسْـطِينٍ.. يُسَـائِلُ: مَـنْ أنَـا؟   والحَـرْفُ -فِي الـوَطَنِ.. الجَـريحِ- جَـريحُ!

عزوا عمود الشعر
(رثاء لشاعر العرب: عبد الرزاق عبد الواحد)

يوْمَ 8 نوفمبر 2015.. اسْتَشْعرتِ العربيةُ ضرْبةً في صَميمِ كيْنونَتها.. اخْتلَّتْ البنْياتُ المَنْطقيةُ لسلاسلِ أبَجدِيتها، ماعَ حِبْرُها، تفكَّكتْ روابطُ جُمَلها.. حَشْرَجَتْ أصواتُها اللغوية.. جَمدَت الأسماءُ.. بُنَيتْ الأفعالُ للمَجْهول.. انْحرفتْ الحُروفُ.. استترتِ الضمائرُ البارزةُ.. خَجَلاً من انقطاع مُتَّصِلِها...

تَشَعَّثَتْ شِينُ الشِّعْرِ العَرَبِي، نَضَبتْ ينابيعُ عيْنه.. رجَفَتْ رَاؤه.. تناشَزَتْ أصْداءُ القوافي.. انتَهكتِ الزِّحافاتُ والعِلَلُ إيقاعَها... تاهتْ بوصلةُ القصائدِ عنْ مَقْصدِها.. ثَكِلَتْ بناتُ أفْكارها.. تبَلَّدتْ عَواطِفُها.. غامتْ رُؤاها.. كَلَّ خَيالُها...انْهَدَّ بيْتُ قصيدها.. دانتْ دواوينُها باليُتْم الرهيب..

توقَّفَ قلبْ العراق... وَجَمَ الرافدانِ...صَمَتَ حفيفُ النخيل.. تناوَحَتْ حمائمُ الأيْكِ.. انْتَحَبَ البُومُ في خَرائِبِ بغْداد.. انْتَصَرَ هولاكو وأبناء العلقمي.. اسْتعَادَ كسْرَى" المَدَائِنَ" من سعْدٍ.. وخالد.. والرشيد.. احْترَقَت شِعِابُ وادي عبْقرَ.. وَلْوَلَتْ "التوابعُ والزوابعُ" نادبةً في مَأتم الشِّعْرية.. في مَنْدَبَةِ العُروبة.. في مقبرة الحضارة.. أعلنت النجومُ -في أفلاكها- مَنَاحَتَها الكبْرَى: مات شاعرُ القادسية".. أيقونة الإبداع.. شاعر العرب: عبد الرزاق عبد الواحد..

تَكَثَّفَتْ كُلُّ هذه الانْفاعلاتِ.. في هَاجِسِي.. فوْرَ سَماعِ نعْي الرَّجُل.. فانْبَجسَ هذا القصيدُ.. على شفتي.. يَكْتبني قبْلَ أنْ أكتُبَه (-8-11-2015).

عَزُّوا..عَمُـــودَ الشِّـــعْرِ.. هُـــدَّ بَيَانُـــه! بَيْـــتُ القَصـــيدِ.. تزَلْزَلَـــتْ أرْكانُـــه!

وبُحُـــورُه جَفَّـــتْ.. وجَـــفَّ الرَّافِـــدَا نِ.. تَفَجَّعَـتْ.. مِـلْءَ النَّخِيـلِ.. جِنَانُـه!

وتَلَمَّسَـــتْ شَـــفَةُ العِـــرَاقِ.. لِسَـــانَه فــإذَا العِــراقُ.. اليَــوْمَ.. مَــاتَ لِسَــانُه!

قد مَـاتَ "عبْـدُ الواحِـدِ".. الشِّـعْرُ انْتَهَـى فهْـــوَ القصـــيدُ.. ونبْضُـــه أوْزَانُـــه!

وخَيَالُـــــه آفَاقُـــــه.. أحْلامُـــــه أفْنَانُـــــه.. آلامُـــــه نِيرَانُـــــه!

يـــا ضَـــيْعَةَ العَـــرَبِ.. البَيَـــانُ شِـــعَارُها وبمَـــوْتِ شَـــاعِرِهَا امَّحَـــى عُنْوانُـــه!

لكنَّـــه.. إنْ يَنْطَفِـــئْ.. جَسَـــدًا.. فَفِـــي رُوحِ القَصَـــائدِ.. خالـــدٌ.. لَمعانُـــه!

لهْفِـــي.. عـــلَى قـــبْرٍ.. ببـــاريسَ.. انْتَفَـــى وَدَّتْ.. وَوَدَّ.. تَضُـــــمُّهُ.. بَغْدانُـــــه!

جَسَـدٌ.. مـنَ امشـاجِ العِـرَاقِ.. مُؤَسْـطَرٌ قــد مــاتَ.. يَرْجُــو.. عَــوْدَةً.. جُثْمَانُــه!

والــرُّوحُ.. مــا بَــيْنَ القَــوَافِي.. والمَنَــافي لَمْ تَـــــزَلْ.. ألْحَانهـــــا.. ألحَانُـــــه!

هَـــذا الـــذي كتَـــبَ العِـــرَاقَ.. مَلاحِمًـــا حتَّـى ازْدَهَـى -مِـلْءَ الفَضَـا- دِيوَانُـه!

مـــا اخْتَانُـــه.. وَطَـــنُ الأسَـــاطيرِ.. الألَى وأتَـــى العِـــرَاقُ.. الطـــائِفِي.. يَخْتانُـــه!

رثاء محمد علي كلاي:
بيْن بلاغة الكَلِمات واللَّكمَاتِ

مازالت الكلماتُ تثْبتُ يوما بعد يوم، أنها الأقوى من اللكمات، وسطْوة العبارات، ستبقى وحْدَها القادرةَ على أنْ تخْتزلَ فائض العَبَراتِ، ومازالت سطْوةُ الروح، وبَسْطةُ العلْم، تُهَيْمِنَانِ على قوة العضلات، وبَسْطَةِ الجِسْمِ، فعندما ماتَ بطلُ العالم للملاكمة، "مُحمد علي كلاي"، اتضح أنَّه لم يخْلُد في التَّاريخ، بعضلاته ولَكَماته، بقدْر ما خلَّدَتْه مبادئُه وكلماتُه، وإذا كانت اللكَماتُ لا تصلح في رثاء أرْباب الكلمات، فإنَّ العَكْسَ هنا صحيح؛ حيث أحْببتُ -عبْر زاويتي هذه- أنْ أرْصدَ بعْضَ مَراثي الفقيد الخالد، العظيم المتواضع، مع الاعترافِ -مبدئيا- بأنَّ بلاغةَ النثْر هنا تفوَّقتْ كثيرا على بلاغة النظم، وأنَّ بلاغةَ الرؤساء، تجاوزت بعيدا بلاغة الأدباء، فقد كان خطاب الرئيس الأمريكي أوباما، أروع مرثية رأيتها للرجل، إذ استدلَّ على عظمة البطل الراحل، بأنه "كبَّلِ البرْق، ووضع الرعْدَ في السجْن"، وهذه استعارة شعرية، في منتهى الروعة،ثم استطرد: أن الملاكم الأسطورة محمد علي "قاتل من أجلنا"، مضيفا: "معركته خارج الحلبة كلفته لقبه ومكانته، خلقت له الأعداء، يسارا ويمينا، وجعلته منبوذا، وكادت ترسله إلى السجن. ومع ذلك، تمسك بموقفه، ونصره ساعد في اعتيادنا على أمريكا التي نعرفها اليوم."....."محمد علي كان الأعظم. نقطة على السطر... لكن ما جعل البطل بهذه العظمة، ما يفرقه حقا عن الآخرين، هو أن الجميع يقول عنه تقريبا الأمر ذاته."

غير أنَّ "أوباما" لم يكتف بقدراته البلاغية المعهودة، بلْ رأى-ضِمْنِيا- أنَّ بلاغة كلماتِ ربِّ اللَّكَماتِ، هي خيرُ ما يرثى به؛ فاقتبسَ من "محمد علي" فقرة من أحد خطاباته الشهيرة: "أنا أميركا، أنا الجزء الذي لن تتعرفوا إليه. لكن يجب أن تعتادوا علي. (أنا الشخص) الأسود، الواثقُ بنفسه، المعتدُّ بنفسه. اسمي، ليس من شأنكم. ديانتي، ليست من شأنكم. أهدافي، تعنيني أنا وحسب. اعتادوا علي".

ورغم بلاغة البطل العالمي الراحل هذه، اعتبر الرئيسُ الأميركي: أنَّ "عليًّا الذي تعرَّفتُ عليه" لم يكن "ماهرا كشاعر خلف المذياع، بالقدر الذي كان عليه كمقاتل في الحلبة، لكنه رجلٌ قاتلَ من أجْل الحق. رجلٌ قاتلَ من أجْلنا. وقفَ بجانبِ (مارتن لوثر) كينغ، (والرئيس الجنوب إفريقي الراحل نيلسون) مانديلا. دافعَ (عن الحق) عندما كان ذلك صعْبا. رفعَ الصوْتَ عندما فضَّلَ الآخرون التزامَ الصمْت".

واستمرارا في التقاط المُفارقات، التي استرعتْ انتباهي في خِضَمِّ مَراثِي "كلاي"، وجدتُ أنَّ الشعْرَ العربي التقليدي، لم يقبلْ أنْ يتركَ مَقْعَدَه في حفْل التأبين الدولي شاغرًا؛ فقاربَ الرثاءَ من زاوية البطولة الإيمانية للرجل بالدرجة الأولى، حيث رثاه الشاعر العربي: سلطان إبراهيم:

نَـم يـا "كـلايُ" فكَـم ظلِلـتَ تُحـامي ... عـــن ديـــنِ ربــكَ شِرعــةِ الإســلامِ
مــن يــومِ أن ســلكَت خُطــاكَ طريقَــهُ ... وقـــدِ امتثلـــتَ الهـــديَ في إعظـــامِ
أســـلمتَ وجهـــك للإلـــهِ مُفـــاخراً ... بـــالحقِّ، لم تـــركَن إلى الظُّـــلامِ
قــد عشــتَ حــرًّا مــا ارتضـيتَ بذِلَّــةٍ ... لم تســـتجب للحـــربِ في فيتنـــامِ
أعلنـــتَ أنـــك ســـوفَ تبقـــى دائـــماً ... خلـــفَ النبـــيِّ ومِـــن دعـــاةِ ســـلامِ
لله درُّ محمـــــــــدٍ في صــــــــدقهِ ... وثباتـــهِ مهـــما رمـــاهُ الرامـــي
أســـدٌ هصــــورٌ في اشـــتدادِ نِزالـــهِ ... وهـــوَ الرقيـــقُ القلـــبِ كالأنســـامِ
وهـــوَ النبيـــلُ ولم يـــزل متخلقـــاً ... بخَـــلاقِ أحمـــدَ ســـائرَ الأيـــامِ
والآن تبكيـــكَ القلـــوب بحرقـــةٍ ... في كـــل أرض العُـــرْبِ والأعجـــامِ
تـــدعُو المليـــكَ بـــأن يكـــون قـــرارُهُ ... في الخلـــدِ دارِ الفضـــل والإنعـــامِ

ومن بلاد المليون شاعر، سجل الأديب الموريتاني الظريف: محمد فال عبد اللطيف، حضوره، في المأتم البطولي:

سـحائبُ رُحْمَـى.. وَرَيَّـا.. وَرِيْ ... وغيْـثُ.. مـن الـرُّوح.. مـا فيـه غَـيْ

عَـلَى جَـدَثٍ.. حَلَّـه.. آمِنـا ... مُحَمَّـدُ عَـالِي المَعَـالي كَـلِيْ

فتًـى.. عَـاشَ.. كالليْـث.. مـا رَاءَهُ ... هزَبْـرٌ.. فَيَلْـوِي عَـلَى أيِّ شَيْ

فكـمْ بطَـلٍ.. صَـكَّهُ.. صَـكَّةً ... بهـا شـهِدَتْ صَـكَّةٌ مـنْ عَمِـيْ!

وآخَـرُ.. قـدْ تَلَّـهُ.. تَلَّـةً ... أَرَتْـهُ -زوَالًا- نُجُـومُ الثُّـرَيْ

وآخَـرُ.. غَـادَرَهُ.. جـاثِمًا ... فـلا هُـو ميْـتٌ.. ولا هُـو حَـيْ

وَكـانَ -عـلَى بَأْسِـه- سَـيِّدًا ... ومـا كـانَ فِي تلْـكَ هَـيَّ ابْـنَ بَيْ

أَلمْ تَـرَ -فِي البَـرِّ- أمْوالَـه ... شـآبيبُها أمْطـرَتْ كـلَّ حَـيْ

وِمَـا شِـيبَ -فِي الله- إيمانُـه ... بـلامِ الجُحُـود.. ولا لامُ كَـيْ

هنيئـا.. لـكَ.. اليـوم.. عَـلِي كَـلِيْ ... مَـآثِرُ مَنْشُـورَةٌ.. دُونَ طَـيْ

عليْـكَ لـوَى التـاجَ ربُّ الـورَى ... فيَـا حُسْـنَ تـاجٍ.. ويَـا حُسْـنَ لَيْ

شاعر يرثي نفسه:
فكرة مجنونة اقترفتها

الشعراء كائنات غريبة الأطوار، يحتاجون إلى من يتفهم شطحاتهم، غير المنضبطة لمواضعات المجتمع دائما، لأن رهافة حسهم تجعل شعورهم الطاغي بالحب والجمال والحياة والموت والوجود أقوى وأعمق من أن يتكيف مع منظومات السلوك السائدة، ولعل أكبر هاجس يشغل بالهم هو جدل الفناء والخلود، الذي لا يملكون من سلاح لمواجهة التحدي المزدوج لطرفيه، غير الكلمة الساحرة التي غالبا ما يريد المجتمع منهم أن يستغلوها لتخليد مآثر الآخرين، مدحا ورثاء وفخرا جماعيا، أكثر من استغلالها في تخليد مآثرهم الخاصة بهم مديحا ورثاء لذواتهم، أو فخرا بها.

وهكذا نجد بعض الشعراء العرب -منذ الجاهلية الأولى- قد أرَّقهم هاجسُ الفناء، استشرافاً للموت وهُمْ في كامل صحتهم، أو هذياناً بين يديه حين يُواجهونه مباشرة.

ولأن الإنسان العربي عموما -والشاعر خصوصا- يقدر القيم، ويستمدُّ منها مَعْنَى حياته وموته، فقد كان يَرُوق له أنْ يودِّعَ الحياة، وقد ترك فيها لنفسه"لسانَ صِدْقٍ في الآخرين"، ومن هنا يُرْوَى أنَّ عبدَ المُطلب حينَ حَضَرَتْهُ الوفاةُ دعَا بَناتِه، وطلبَ منهنَّ أنْ يرْثينه واحدةً واحدةً، وهو يستمع، ليموت راضيا عن نفسه..

وعلى ضوء هذه الرؤية نجد أكثرَ من شاعرٍ عربي في الجاهلية، وفي العصرين العباسي والأموي، يردِّدُ لاَزِمَةً في شِعْره تتكرَّرُ هكذا:

(إذا متُّ فانْعينني بما أنا أهله....)، على لسان كل من طرفة بن العبد، والفرزدق، وعبد الله بن المعتز...

كما تَتَرَدَّدُ لازمةٌ أخرى على أَلْسنةِ الشُّعَرَاءِ القُدَماء، تتمَثَّلُ في قوْلهم، حين يستحضرون الموتَ:

تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فلمْ أجِدْ

سوى السيْف والرُّمْح الرّدَيْنِي بَاكيا

وإذا كان الشاعرُ من غير أرْباب الكتائب، يُغَيِّرُ المُسْتَثْنَى، وفْقَ مِهْنَتِه؛ فيجعلُ الكتبَ والأقلامَ والعلومَ هي البَواكي عليه، مثل العلامة محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي....

ونظراً لإيماني القديم بهذه الرُّؤْية، وجَدْتُ نفْسي فجْرَ يوم 25/ 6/ 2012م -وأنا أدْمِنُ تغرُّبي وراءَ بعْض المَطامح العالقة- رَهينَ فِكْرَةٍ تلبَّسَتْنِي، تقولُ لي: صحيحٌ أنَّ الموتَ ليْسَ وسْواساً قهْرياً بالنسبة لديْكَ.. رغْمَ أنَّه لا يَكادُ يَغيبُ عن ذِهْنِكَ في جميع حرَكاتك وسكناتك، باعتباره قَدَراً مَوْقُوتاً، لا تدْري مَتَى يَأتِيكَ.....

ولكن هلْ فَكَّرْتَ أنَّك قدْ لا تجِدُ مَنْ يرْثيكَ، بعْدَما يأتي هذا الضيفُ..الذي يكْرَه مُجْتَمَعَك حتى الحديث عنه، ويتشاءَمُون من جرَيَان اسْمِه على طرَفِ لِسَانِ الحَيِّ، وكأنَّ ذِكْرَه وتَوَقُّعَه يسْتعْجلانه قبل وقته المَكْتوب...؟؟؟

ألَحَّتْ علي الفكرةُ المجْنونة: قد لا يَنْبَعِثُ أحدٌ من "المليون شاعر" لرثائك، فيبْتلِعكَ الزمنُ في دوَّامة النسيان، وقد لا يَكُونُ حَصَادُ عُمْرك الزهيد كافياً لتخْليدكَ في سجل التاريخ، فلماذا لا تكتبُ -وأنتَ-لله الحمدُ- في كامِلِ قواكَ العَقْلية والبدنية- قصيدةً ترْثي بها نفْسَك، وتُخَلِّدُ هذه الإحْساساتِ الإنسانية -على الأقل- إنْ لمْ تُخَلِّدَكَ؟

لم أفِقْ من غيْبُوبتي في هذه الهواجس إلا والقصيدةُ المَجْنونة تتَشَكَّلُ فوْق البياض، لكنني لم أتَجَرَّأْ منذُ عامٍ ونصْفٍ على إعْلانها للجمهور، وقد قلتُ في ختامها:

سَــفَهٌ.. جُحُــودُ المَــرْءِ.. حَيًّــا.. فَضْــلَهُ　　والجُـــودُ.. بعـــد المـــوتِ.. بـــالتَّثْمِينِ

لا تَطْــوِنِي.. حَيًّــا.. وَتَنْـــشر مَيِّتِـــي　　فَمَـــدامِعُ التِّمْســـاحُ.. لا تَعْنِينِـــي

قُــلْ لِي: أُحِبُّــكَ.. مِــلْءَ وَجْهِي..صــادقًا　　طَــرِّزْ.. حَمِيــدَ الــذِّكْرِ.. فَــوْقَ جبينــي

تَحْيَــا الفَضــائِلُ.. إنْ تَضَــوَّعَ نَشْــرُهَا　　وتَمُـــوتُ.. كَالأزْهـــار.. بـــالتخْزين

قُــلْ.. مَــا تَشَــاءُ.. مُــؤَبِّنِي.. أوْلاَ تَقُــلْ　　فَلَقَــدْ أمِنْــتُ الصَّــمْتَ.. أنْ يَطــوِنِي

الآنَ.. أرْقُــدُ.. هَانِئًــا.. لا أخْتَـــشِي　　عَـــدَمَ الرِّثَـــاءِ.. قَصِـــيدَتِي تَرْثِينِـــي

يوسف العصر:

من جحيم اغوانتانامو.. إلى جنة الحب والشعر

بعـد خمـس عـشرة سـنة، مـن يوميـات جحـيم اغوانتانـامو اللعـين، خـرجَ يـوم 17/ 10/ 2016م السجينُ الموريتاني الاستثنائي، المهندس: محمدو الصلاحي، مودِّعا رِحْلَـةَ عذابٍ روحي وبدني، عاشها، في مُسْتَقَرِّ هذا السجْن، وفِي توابِعه، التي مـرَّ بهـا قبْـل الوُصـول إليْه، وللقرَّاء، كل القراء، أنْ يتخيَّلوا كيف مرَّتْ هـذه السـنينُ الطويلـةُ بطيئـةً رتيبـة، سـاحقةً ماحِقة على رُوح شاب، انتزَعَ من أحْضانِ أهْله فجْأة، ومن بحْبُوحة أحْلامِ النَّجاحِ التي تُرَاوِدُ المهندسَ العبقريَّ الخِرِّيجَ لتوِّه من أرْقي مَدراس ألمانيا، ليجدَ نفْسـه في جَحـيم اغوانتانـامو... حيْث لا أمَلَ في البراءة، ولا في الخُروج من بَراثين العَذاب الأليم.... مهْـما جمَـحَ بنـا الخيـالُ في رسْم يوميات ذلك السجْن، المَنْبُوذ خارجَ العَـالَم، لـن نسـتطيعَ أنْ نُجَـارِي سرْدَ هـذا الرجـل لِمذَكِّراته، التي سمَّاها: "يوميات اغوانتانامو" التي أبتْ لصـاحِبها عبْقريتُـه الاسـتثنائية، إلا أنْ يُضيفَ للعَربية، لغةِ قوْمِه، والفرنسيةِ لغَةِ تكوينه الأول، والألمَانية لغَةِ تخرُّجِه، اللغةَ الإنجليزية لغَةَ مُعْتَقَلِه الكريهِ، لدَرَجَةٍ اسْتطاعَ بها ترْجَمَة مُعاناتِه، وكوامِنِ شُعُوره، وتفاصـيل عذاباتـه... باعتباره السجين الوحيد الذي ملك من الطاقاتِ الروحية، ما مَكَّنَه من كتابات يوْمياته في هذا السجْن الأثيم، الأليم، عبْر466 صفْحة، ثم خضعَ النصُّ للرقابة، داخلَ المُعْتَقَلِ، حتى أفْـرِجَ عنْه(أي النص) سنة 2013م، بعْدَ حذْفِ بعْضِ المَقاطعِ، وعندما نُشِرَتْ هذه المذكراتُ، التـي أعلن فيها -بسماحته اللامحدودة- استعدادَه لشرْب الشاي مع جَلاديه، زعزعـتْ أبْـوابُ هـذا السجْن، وقرَّبَت الفرَجَ البعيدَ، حيث تكلَّمَتْ مُعَانَاتُه القَاسِية بـأكثرَ مـن عشْرـينَ لُغَـةً عالميـةً، ترجَمَتْ إليْها يوْمياتُه، فجَلبَتْ له التعـاطُفَ والمُنـاصرَةَ، مـن داخـلِ أمريكـا وخارجهـا، حتـى انتزعتْ له الاعْتراف ببراءَتِه الطبيعية، وحَمَلَتْه هذه الحُروفُ العجيبة، على أجْنِحَتِهـا، بعيـدًا إلى أجْوَاءِ الحُرِّيةِ، التي كانت مُسْتحيلَة، تاركًا وراءه فلْمًا هليوديا، يُنْجِزُه عنْها المُنْتِجَان السـينمائيان الدوْليان: "لويد ليفين، ومايكل برونر، لتتحَوَّلَ إلى ادراما تراجيدية في القريب المنظور...

وغير بعيدٍ من إيمانِ هذا المُهنْدِس السجين، بالقوَّةِ الناعمةِ للحرْفِ، وبسُلْطَتِه القَاهِرة، كان يُمازِحُ جلاديه بأنَّه عليْهِمْ أنْ يُوَقِّرُوه، خشْية لِسانِه، لأنَّه من "بلاد المليون شاعر"، ولهذا ما كاد يعود إلى وطنه، حتى غمَرَهُ شعراءُ هذا البلد، بفيوض القصيد، الدافئة، ابتهاجا بحريته، لتتطهر روحه الطيبة الصبورة من وشوم العاذابات الطويلة، ولتعمَّرَ جنباتُها بمَشاعِرِ المَحَبَّةِ الصادقةِ الصافيةِ، حتَّى لتنْسى فراغاتِ الفقْد، وتطفِئ لهيبَ الشوْق والحَنين...إلى الوصال المستحيل.

وهكذا تحوَّلَ بيتُ السجين، القادم من وراء القضبان، من وراء الغيوم، من وراء التخوم، إلى بيت للقصيد، إلى "عكاظ "، ما كاد يتغيَّبُ عنْها أحَد من شعَراءِ البَلد، وكتَّابِه ومشاهيره، وقد كنت من السبَّاقين، إلى كتابة هذا النص فور انطلاق الرجل:

"خارج القفص":

يَحُـــومُ الطــــيْرُ.. مــــنْ فَــــنَنٍ	إلَى فَــــــــنَنٍ.. إلَى فَـــــــنَنِ!
فــــإنْ يُحْــــبَسْ.. يَمُــــتْ كَمَــــدًا	فكيْـــــفَ الحُــــرُّ.. إنْ يُهَــــنِ؟!
حيَــــــــاةٌ.. دُونَ حُرِّيَــــــــةٍ	مَمَــــاتُ الـــــرُّوحِ... والْبَـــــدَنِ!
وأصْــــعَبُ.. مَــــا يَكُــــونُ.. أذًى	سَــــجِينُ الخَــــوْفِ... وَالظُّـــنَنِ!
فَقُــــلْ لِي.. يَــــا ابْــــنَ صــــلاّحِي	وكيْــــفَ.. تَقُــــولُ؟ وَاحَــــزَنِي!
وأنْــــتَ تَعُــــودُ.. مِــــنْ سَــــقَرٍ	تَجُــــرُّ مَواجِــــعَ الــــزَّمَنِ!
تُفَــــتِّشُ.. عَــــنْ يَــــدَيْ... أمٍّ	ويَــــا لَــــلأمِّ.. لمْ تَــــبِنِ!
تُفَــــتِّشُ.. عَــــنْ حِمَــــى وَطَــــنٍ	أضَــــاعَكَ.. يَــــا الفتَــــى الحَسَــــنِي!
تَغَــــيَّرَت الوُجُــــوهُ.. هُنَــــا	لِطُــــولِ السِّــــجْنِ.. والمِحَــــنِ!
وأَوْجُــــهُ ظُلْمِــــكَ.. القَــــاسِي	بمَــــلْءِ الــــسِّرِّ.. والْعَلَــــنِ
فَمِــــنْ وَطَــــنٍ.. إلَى سِــــجْنٍ	ومِــــنْ سِــــجْنٍ.. إلَى وَطَــــنِ

إنها رحلة يوسف العرب: من الجب إلى الحب (2016).

سَـــــلامِي.. يُوسُـــــفَ العُـــرْبِ   لقـــــدْ ألْقَـــــوْكَ.. فِي الجُـــــبَّ!

رَمَـــوا.. بِـــكَ.. فِي يَـــدَيْ ذِئْـــبٍ   عَـــــديم بَـــــرَاءَةِ الـــــذئْبِ!

فَـــــأيِّ بَنِـــــي أبٍ؟ تَبًّـــــا   ويَـــــا ألْفًـــــا.. مِـــــنَ التَّـــبِّ!

لقـــدْ لَطَخُـــوا.. دمًـــا.. كَـــذِبًا   بِثَوْبَـــــيْ.. نَاصِـــعِ الجَيْـــبِ!

فَقُلْـــتَ: السِّـــجْنُ.. لِي. أشـــهى   مِـــــنَ الكُفْـــرَانِ.. وَالعَيْـــبِ!

وقُلْـــتَ: سَـــتَعْرِفُ الدُّنْـــيَا   أنَـــا.. مَـــا خُنْـــتُ.. بِالغَيْـــبِ!

ولمْ تَرْضَـــخْ.. لـــــأمْريكـــا   لـــ "عُـــزَّى "الـــشَّرْقِ..والغَرْبِ!

وقُلْـــــتَ: اللهُ.. يَفْـــتَحُ.. لي   لهَـــــــــــــمْ رَبٌّ.. وَلِي رَبِّي!

وحارَبْـــــتَ العِـــــدَا.. حُبًّـــــا   ويَـــــا للحُـــــبِّ.. فِي الحَـــــرْبِ!

رَدَدَتَ السُّـــــوءَ.. بالحُسْـــــنَى   رَدَدْتَ المُـــــرَّ.. بِالعَـــــذْبِ!

سَـــــلَلْتَ يَرَاعَـــكَ.. المَـــاضِي   هَـــــدَمْتَ السِّـــجْنَ.. بالكتْـــبِ!

وصَـــــحَّحْتَ المِثَـــالَ.. عَـــلَى   بَنِـــــي الإسْـــــلامِ.. والعُـــرْبِ!

خَرَجْـــــتَ.. بغَـــيْرِ تَثْرِيـــبٍ   ولا لَـــــوْمٍ.. ولا عُتْـــــبِ!

ونَاجَيْـــتَ.. ابْـــنَ يَعْقُـــوب: كِلانَـــــا.. يُوسُـــفٌ.. حَسْـــبِي!

فبَعْـــدَ الكَـــرْبِ.. قَـــدْ عُـــدْنَا   إلى أهْـــــلٍ.. إلَى صَـــــحْبِ!

لقـــدْ دَارَت بِنَـــا الـــدُّنْيا   مَـــدَارَ رَحًـــى.. عَـــلَى قُطْـــبِ!

فَمِـــنْ حُـــبٍّ.. إلى جُـــبٍّ   ومِـــنْ جُـــبٍّ.. إلَى حُـــبٍّ!

المسـابقــات الشعـرية:
بين الذهب والأدب

لست كثير اللهاث وراء المسابقات الشعرية، لكنني أترشح أحيانا لبعضها، بدوافع متعددة بعضها مادي، وبعضها معنوي، ولا عيب في ابتغاء هذا وذاك معا، مادامت المسابقات مضمارا لتنافس العبقريات، ومادامت نزيهة، ومهنية، وشفافة، ومادامت الكلمة الجميلة هي رأس المال الوحيد الذي أملكه، وأستثمره في سوق الشرف، بعيدا عن الابتذال، والمتاجرة بها في السوق السوداء، مهما شحت الموارد، وضاقت ذات اليد، لكن العيب، حين تنحرف هذه المسابقات -في تسييرها- عندما تتحول إلى تهافت على الذهب، أكثر منها تساميا في مدارج الأدب، وقد جربت خلال السنوات الماضية، أنني كثيرا ما أحصد المراتب الأولى حين تكون المسابقات أدبية بحتة بدون مردودية مالية منتظرة، وكثيرا ما أقصى منها حين تكون الجوائز المرصودة للمسابقة كبيرة ومغرية، وقد حاول بعضهم أن يفسر لي ذلك -بشكل مُغْرِض، بعْض الشيء- حين أرجعَ السبب إلى أن الشعراء الكبراء لا يشاركون إلا في المسابقات المغرية ماديا، ولكني أرى أن السبب الحقيقي، هو ضمور الضمير في " حلف الشر" الرابط بين المنظمين، والمحكمين، في أغلب الأحيان، وحتى لو كان الأمر وفق ما تصور صديقي الشاعر في تحليله الماكر، فإن ذلك ليس كذلك في "مسابقة " شاعر الدورة "، ضمن فعاليات المهرجان الدّولي للقصيدة العمودية الذي تشرف عليه جمعيّة الصالون الأدبي بقابس منذ سنة 2013، والتي أحرزت ورقة التأهل في تصفياتها الأولية، مؤخرا، شارك فيها عشرات الشعراء الكبار، رغم عدم مردوديتها المادية الكبيرة، ومن مختلف الأقطار العربية، وما ذلك إلا لثقتهم في أنه -حسب منظميه- "حدث ثقافيّ عربيّ كبير ، ومشروع أدبيّ، وهدف حضاريّ وسياحيّ، من أهداف الجمعية، بولاية قابس التونسيّة، باعتباره أحد أهمّ المهرجانات الشعريّة العريقة في العالم العربيّ التي تستلهم التراث الثقافيّ العربيّ وتهدف لاستعادة روائع الشعر والأدب العربي وإحياء الموروث الثقافي ، وتحفيز الحراك في مشهد الشعر العربيّ المعاصر ، وهو مهرجان سنويّ يتوّج بالإعلان عن فوز شاعر من المشاركين فيه بلقب شاعر الدّورة ، وقد نجح المهرجان

خلال الثلاثة مواسم السابقة في الكشف عن عشرات الشعراء والنقّاد المبدعين من أغلب البلدان العربيّة، محاولا "أن يزيل الصدأ عن مفهوم المهرجانات الثقافيّة والأدبيّة والشعريّة المعتادة، وهو مفهوم عانى كثيرا من التنميط والجمود وغياب الجماهريّة، فقد أكّد المهرجان الغايات النبيلة في استعادة قيمة الشعر العربيّ وقامته العملاقة المعبّرة عن تراث حضاريّ أصيل وإنجاز فكريّ وشعريّ ذي قيمة أدبيّة عالية، وإعادة الحضور والهيبة للغة العربيّة. كما تحوّل المهرجان إلى جسر للتواصل الثقافيّ والفكري بين الشعراء والنقاد والإعلاميين في كلّ الدول العربيّة حتّى أنّه ساهم في تطوير الثقافة الشعرية لدى العامة، وتوفير الفرصة لتقديم الشعراء والنقاد بالشكل الصحيح للجمهور الذي بات يعتبر المهرجان مساحة ثقافيّة واسعة ترضي الأذواق الجماهريّة كافة لتعدّد فقراته وتنوّعها (أمسيات شعرية وموسيقية، ندوات فكريّة، معرض للخطّ العربيّ، معرض الإصدارات الجديدة لضيوف القصيدة، تكريم المبدعين، لوحات فنّية استعراضيّة ...).

هذا الجو الإبداعي الأكاديمي الثقافي المغري، سأختبره -إن شاء الله- في أكتوبر القادم، حيث سأتنافس مع نخبة من شعراء الوطن العربي، بعيدا عن بهرجة الإعلام والإعلان، وضوضاء "التصويت"، عبر الرسائل الهاتفية، منجذبين لبريق الأدب، محلقين -عاليا- عن بريق الذهب.

اكتشاف المواهب:
بين الشعرين الفصيح والشعبي

هناك بعض الأصوات الثقافية، في الخليج العربي، تعتبر أن اكتشاف المواهب الشبابية في مجال الشعر الشعبي "النبطي"، أكثر من اكتشافها بنفس العمر والمستوى في الشعر الفصيح، ضاربة المثل ببرنامجي "شاعر المليون، و"أمير الشعراء"، وغيرها من المسابقات الإبداعية، والبرامج الشعرية التلفزيونية المشابهة، هنا وهناك، وأنا أرى هذا الأمر غير مفاجئ بالنسبة لي، فالموهبة الشعرية، معطى فطري، ينشأ إحساسا روحيا، يبحث عن لغة يعبر بها عن نفسه، ومن هنا يبدأ الاختلاف بين من يعبر ب "لغة الأم" الدارجة، لغة الفطرة، والنشأة والبيئة والتداول اليومي، التي لا تكلفه مجهودا إضافيا، وبين من يعبر بـ"اللغة الأم" العربية الفصيحة، التي يحتاج تقمُّصُ الحالة الشعرية بها إلى اكتساب ترسانة من الأدوات المعرفية، المصاحبة لها، ومادام الإنسان لا يفكر إلا باللغة، فإن ترجمة دفْق الإحساس الشعري المكثَّف، لا يمكن أن تترجمه إلا اللغة الأقرب للروح، والأطوع في التعبير... وهذا المعطى طبعا لصالح الشعر الشعبي، الذي يستبطن مبدعوه بلاغته، وإيقاعاته، وأخيلته، دون حاجة لدراسة العلوم العديدة والمهارات الكثيرة، التي تتطلبها كتابة القصيدة العربية في مرحلة الاختمار: تـخييلا، وتفكيرا، وفي مرحلة التنفيذ: تصويرا، وتعبيرا.

زد على ذلك أن هذه المسابقات الشعرية، عموما، تمثل بجاذبيتها الإعلامية، والإشهارية، مدارس مسموعة ومرئية لكل من الناشئتين الشعريتين، غير أن جاذبية مسابقات الشعر النبطي، الأكثر دعما وتشجيعا، داخل البيئة الخليجية الحاضنة، أقوى من جاذبية أخواتها مسابقات الشعر الفصيح، رغم دائرتها العربية العالمية، كما أن سهولة اكتساب أدوات الإبداع من مدارس المسابقات النبطية، لا تقارن -أبدا- بإمكانية امتلاك أدوات الإبداع الشعري الفصيح المعقد، عبر مسابقاته التلفزيونية، حيث يصعب اكتسابها على من هو في عمر الفئة المكتشفة من مبدعي الشعر النبطي.

وهنا أود أن أشير إلى أننا في موريتانيا كنا نلاحظ في العقود الأخيرة عزوفا للشباب عن الشعر الحساني، الشعبي، لضعف ناشئة المدن في اللهجة الحسانية، غير أننا تفاجأنا عبر برنامج مسابقة "البَدَّاع"، الذي تزامن مع الموسم الأول من "أمير الشعراء"، بظهور مواهب شبابية، ممتلكة -بكل جدارة- لأدوات التعبير الحساني الشعبي، ومازالت تعلن عن نفسها مع تزايد مثل هذه البرامج التلفزيونية الشعرية، كما أننا لاحظنا بالموازاة مع ذلك تزايد اكتشاف المواهب الشعرية الفصيحة، في ذات الفئة العمرية، أو قريبا منها، كلما اتسعت دائرة الضوء الإعلامي، مما يعني أن القضية تعود في محصلتها النهائية -حسب نظري- لخلق بيئة شعرية حاضنة للشعر، ومشجعة له، وتزايد دائرة الضوء الإعلامي، المسلط على المناطق الشعرية، التي ما تزال مجهولة...لأن ذلك يحفز على اكتساب مهارات الشعرين، ويختزل فترة اكتساب أدواتهما.

مسابقتا أمير الشعراء، وشاعر الرسول:
بين العتبة والعقبة

إنّ المُسابقاتِ الإبداعيةُ عموما ينْبغي أنْ يُنْظَرَ إليْها باعْتبارها مِضْمارًا للعبْقَريات، لأنَّ النفوسَ البشرية -في الغالب- كسولةٌ، تحتاجُ إلى مُحَفِّزات، إنْ لم تنبثقْ من داخل المبدع، تهْبط عليه من الخارج، ويختلفُ تأثيرُ تلك المُحَفِّزاتِ على المبْدعين، بحسب اختلافِ أنواعها المتعددة، وبحسب اختلاف ذِهْنياتِ أربابِ الإبداع المُسْتهْدَفين، فهناكَ من تسْتثيرُه المُغْرياتُ الماديةُ، وهناكَ من تسْتَحِثُّه المُغْرياتُ المَعْنَويةُ، وهناكَ من تَسْتَنْفِرانِه معًا.

وخلال هذا الأسبوع المنصرم شهدنا نهاية مسابقتيْن شِعْريتيْن، حيث أُسْدِلَ الستارُ على خاتمة حلقات الموسم السابع، من "أمير الشعراء"، محافظا على جدلية إيجابياته، وسلبياته، بكل ما رافق هذا البرنامج، منذ النشأة الأولى، من جدل حول مصداقيته، تحكيما وتصويتا، مع الاعتراف له، بأنه- على علاته- مضمار لتنافس العبقريات والتجارب، والمدارس الشعرية، ومعرض لاكتشاف مواهب الشباب، ومنصة إعلامية لعبور الأجيال الشعرية، من دائرة محليتها الضيقة، إلى فضاء العالمية العربية على الأقل، غير أن الأجدر بالاهتمام، والمناقشة، هو كون هذا البرنامج تحول -بالنسبة للشعراء- إلى مآلين، أحدها إيجابي، والآخر سلبي:

1- عقبة، تعترض مسارهم الإبداعي؛ في حالة إحباطهم نتيجة الفشل في تجاوزها، وحتى في حالة نجاحهم فيه، عندما يتعرضون -في دائرة الضوء- لإشعاع إعلامي أكثر من طاقاتهم الإبداعية، أو حينما يغترون، ببارج المنصة، وهيلمان التتويج، فيخيل إليهم أن معراجهم الشعري، وصل إلى سدرة المنتهى، وأن "ليس في الإمكان أبدع مما كان"...فكم من شاعر اختفى صوته الشعري، وانقطع مدده، ومداده، عند هذه العقبة، "وما أدراك ما العقبة"!

2- عقبة، وذلك حين يعتبر الشعراء، أن مرورهم بهذا البرنامج -سواء نجحوا فيه، أو أخفقوا- مجرد محطة، في المسار الإبداعي، لا تكسر عزيمة الشاعر في حالة الإخفاق، ولا تبطره

في حالة النجاح... لأن آليتيْ: التحْكيم، والتصْويت، غير الشَّفافيْن، في نظر الكثيرين، لا تمْنَحَان الشَّاعرية لفاقدِها، ولا تمْنَحانِها لواجدِها.

وفي نهاية الأسْبوع ذاتِه، أعْلنتْ "كتارا" عن الفائزين في تصفياتِها النِّهائية، ومع أنَّ بعْض الشعَراء، -كالعادة- لا يكتم تحفظه على آليةِ لجنة فرز القصائد خلف الكواليس، فإن إدارة الجائزة الناشئة، حسَّنت آليتها في موسمها الثاني، حيث صرَّحت بأنَّ الفرْز-هذه السنة- مُورسَ على النصوص، بعيدا عن أسْماء الشُّعَراء، سعْيا للشفافية، كما أنها تجنَّبتْ خطأَ تأبيد لجنة واحدة للتحكيم، معتمدة -حتى الآن- تغييرها مع كلِّ موسم، الأمر الذي يخلق مسابقة في التحكيم النقدي، موازية لمباراة قرائح الشُّعَراء، حيث يُفْتَرَضُ أنْ تحْرِصَ كلُّ لجْنة لاحقةٍ، على تحْسين أدائِها مُقارنةً معَ سابقاتِها، كما أنَّ هذه الديناميكيةَ التَّحْكِيمِيَّة في الوقْتِ الذي تسْمَحُ باكْتشافِ القُدَرَاتِ والخبرات النقْدِية العربية بشكْلٍ أوْسَع، لا تَسْمَحُ بكَسْر حَوَاجِز التحفُّظ بيْن أفْرادِها، حتى يتاحَ لهم التفكيرُ الجماعي بصوْتٍ مسْمُوعٍ، حولَ مُوازنات الفوز، والمُحاصَصَةِ الشخْصية والإقليمية للفائزين؛ حتى يتحول التحْكِيمُ إلى تحَكُّمٍ.

والحقيقة أن مسابقة شعرية حول مديح نبينا صلى الله عليه وسلم تتطلب من احتياطات الشفافية، أكثر مما تتطلبه أية مسابقة شعرية أخرى، رغم ضرورة النزاهة والعدل مطلقا، نظرا لأن قداسة مسابقة" شاعر الرسول" تتنافى مع ما يشوب غيرها من هفوات الحيف والتقصير؛ يبْقَى السؤالُ المُلِحُّ الذي يَطْرَحُ نَفْسَه هو: ماذا ينتظرُ مِنَّا رسُولُنا الكريمُ في الجّائِزَةِ المُتَشَرِّفَةَ بِاسْمه؟ أعْتقدُ أنَّه ينْتَظر من جميعِ أطْرافِ الجَائزةِ دقة في التنظيم، ونزاهة في التقويم، وإبْداعًا فِي القَصِيدِ، وإخْلاصًا فِي القَصْدِ.

أما بالنسبة للشعراء والجمهور، فلهما أقول:

إن الشاعر الحقيقي عليه أن يطور ذاته، وتجربته وخبرته.. باستمرار، ولا يقنع في مغامراته الإبداعية بما دون النجوم.

وللجمهور الذي كثيرا ما ينشغل بالمفاضلات العقيمة بين الشعراء الذين مرُّوا عبْرَ هذه المسابقات، دون مراعاة شروط المفاضلة الصحيحة، حيث تتحكم الأهواء والأضواء، أقول إنَّ الشاعر الحقيقي طاقة متجددة، لا يمكن أن يحاكم بمنتجه القبْلي الذي مرَّتْ عليه سنوات، حيث ينبغي أن يكون مثل رجل الأعمال الناجح، الذي كلما سألوه عن حجم ثروته المتنامية بسرعة، يجيبهم: حجْمُها قبل السؤال، أم بعده؟

جائزة شاعر الرسول... أفق الانتظار

جائزة (شاعر الرسول)...التي أطلقتْها كتارا هذا الأسبوع، وكرمتني بأن كنت -مع الدكتور الشاعر عبد الرحمن العشماوي- ضيفي شرف أمسيتها الافتتاحية، جاءت -حسب نظري- في سياقها المناسب، حيث كثُرَ مؤخرا تطاوُلُ المستهزئين الجُدد، من سفهاء العالم، على الجنابِ النبويِّ الكريم، فكان لا بُدَّ من توْجيه طاقاتِ الأرواحِ الشعْريةِ الجميلةِ، إلى هذا المناخ المُقَدَّسِ؛ لتتطهَّرَ فيه كلماتُهم من كلِّ دَنَسِها، عنْدما تُحَلِّقُ في عَلْيَائها، وروحُ القُدُسِ يَحُفُّها، فتعْرُج هِمَمُهم، عن السِّبَاحَةِ، في مُسْتَنْقَعَاتِ الجوائزِ الماديةِ البحْتةِ، إلى مُرْتَقى روحِي، يَجْمَعُ بين الربْح الدنيوي والأخْرَوِيِّ، فالكتابةُ في مناخ المَديح النبَوِيِّ، ينبغي أنْ تكونَ مُتْعَةً للنفوسِ، بدَلَ أنْ تكونَ مُجَرَّدَ تَصَيُّدٍ للفُلوسِ، (تَعِسَ عبْدُ الدرْهم والدينار).

ولكنَّ الشعراءَ، اليوْمَ في المَديح النبوي، يُواجِهونَ تَحَدِّيا إبداعيا، يتوجَّبُ عليْهم الوعْيُ به، من أجْلِ كسْبِ رِهَانِه الصعْبِ، فكُلُّ غرَضٍ شِعْرِي، كرَّسَتْ له سيْرُورةُ المُمَارَسَةِ الإبْداعيةِ "عَمُودًا"، يُمَثِّلُ خُلاصَةَ تَرَاكُمِ الذوْقِ الجَمَالي في زمَنِه، ولكيْ ننْجَحَ في هذا التحدِّي، لا بُدَّ أنْ ننْظرَ إلى أيِّ "عَمُودٍ" إبْداعِي، نظرةً تعْتبرُه بنْيَةً مُتَغَيِّرَةً أكْثرَ منْها ثابتةً، تُحَوِّلُ سيْرُورتَه المُسْتمِرَّةَ، إلى صيْرُورَةٍ، مُتَحَوِّلَةٍ، وهذا ما دعَوْت إليه -ذاتَ مرَّةٍ- عبْر مَقالٍ منْشورٍ، بعنْوانِ: "من عَمُودِ الشِّعْرِ.. إلى الأعْمدةِ المُتناسخَةِ"، إذ اعتبرْتُ أنَّ كلَّ فتْرةٍ لها عَمُودُها، الذي لا ينْبَغِي أنْ تسْعَى إلى ترسيخه، بقدْرِ مَا تسْعَى إلى تغييره باسْتِمرارٍ، بلْ إنَّ كلَّ شاعرٍ مطالبٌ بتجْديدِ تجْرِبَتِه، وتغْييرِ مَلامِحِهَا الفنِّيةِ، في كلِّ مُمَارَسَتِه الإبْداعيةِ.

ومن هنا فإن هذه الجائزةَ، وكلَّ المشاريع المماثلةَ، لنْ تمثِّلَ إضافةً نوْعيةً، تُنَاسِبُ سُمُوَّ الغرَضِ وقداسَته، إلا إذا اجْتهدَ الشعراءُ في ضَخِّ رُوحٍ جديدةٍ في بنْياتِ القصيدةِ المديحية التقليدية، وتوفَّرَ لهم التحْكيمُ النقْديُّ، الخبيرُ النزيهُ؛ فنحنُ هنا بحاجةٍ إلى قصيدةٍ تنبثق من مناخِها الراهِنِ بكلِّ مكوناتها، باحثةً عن بُرْدَةٍ نبويةٍ وفْقَ مَقاساتِ ذوْقنا العصْري، لاسيما أنَّ

أفقَ المَجَازِ في المَدِيحِ النَّبَوِيِّ مفتوحٌ على ما دُونَ الألُوهِيةِ، فأنا مثلا حينَ كتبْتُ قصيدتي التالية، حَاوَلْتُ أنْ أتحَرَّرَ منْ أسْرِ النموذج الفنِّي المُهَيْمِنِ، لـ "مِيمية" البوصيري، و"ميمية"، أحمد شوقي، رغْم وحْدةِ الغرَضِ، والبحْرِ، والقافية، والروِيِّ.. حيثُ عشتُ تجْربتي الرُّوحيةَ، والفنيةَ الخاصةَ، في غمرة:

صلوات القوافي

لبَّيْكَ.. داعِي الهُدَى.. لبَّيْكَ.. ها قَلَمِي ... تَكَادُ تُورقُ.. فِي أحْشائِهِ.. كَلِمِي!
وَيَزْدَهِي الشِّعْرُ.. مِلْءَ الرُّوحِ.. مُنْبَجِسًا ... بِالحُبِّ..مِلْءَ دَمِي.. بِالسِّحْر.. مِلْءَ فَمِي!
صَلَّتْ عَلَيْكَ القَوَافِي.. أنْتَ مَعْبدُهَا ... مَنْ زَفَّهَا لَكَ.. سَاقَ الهَدْيِ.. لِلْحَرَمِ!
لِمَنْ -سِوَاكَ- يَنِزُّ المَدْحُ.. مِنْ كَبِدِي ... وَيَصْطَفِي نَايُ رُوحِي.. أعْذَبَ النَّغَمِ؟!
وَتَصْعَدُ الكَلِمَاتُ.. الغُرُّ.. مُخْبِتَةً ... كَيْمَا تُنَاجِيكَ..طَهَ.. فِي المَدَى الحَرَمِ!
فَفِيكَ.. يَرْقَى مَجَازُ الشِّعْرِ.. ألْفَ سَمَا ... وَسِدْرَةُ المُنْتَهَى.. فِي الوَصْفِ.. لَمْ تُرَمِ!
عُذْرًا.. فَمَا البُلغاءُ.. اللُّسْنُ.. بَالِغَةً ... أمْداحُهُمْ فِيكَ.. طَهَ.. أخْمَصَ القَدَمِ!

ثم كتبت قصيدة أخرى على النسق ذاته، بحرا ورويا وغرضا، لكني أصررت على خلخلة العمود المكرس لميميات المديح النبوي، والانزياح عن نمطيته الطاغية الآسرة.. فتجاوزت حتى ذاتي في قصيدتي الميمية السابقة، فجاءت اللاحقة مختلفة تتخذ من إرادة التجاوز الإبداعي المستمر مدخلها الخاص، حيث كتبت تحت عنوان: ملحمة الميلاد:

يا مُلْهِماتِ القصيدِ.. انْفُثْنَ.. مِلْءَ دَمِي ... سِحْرَ البَيَانِ.. بسِرِّ "النُّونِ والقَلَمِ"
تَكلَّلِي.. لُغَتِي.. تاجَ المَجَازِ.. ويا ... سِرَّ البَلاغةِ.. فَجِّرْ نَبْعَهَا.. بدمِي
يا "سِدْرَةَ المُنْتَهَى".. مُدِّي ثِمارَكِ.. لِي ... إذا انْتَهَى أوْجُ مِعْراجِي.. إلى الحُلُمِ
يا عالَمَ الرُّوح.. ضُخَّ النُّورَ.. فِي خَلَدِي ... وعَطِّرِي.. حَضَرَاتِ القُدْسِ.. بَوْحَ فَمِي
الآنَ.. فِي حَرَمِ الوَادِي المُقَدَّسِ.. لِي ... نَجْوَى.. مَعَ المُصْطَفَى.. وَا هَيْبَةَ العِظَمِ!
يا نُوحُ.. فُلْكَكَ.. طُوفانُ المَديح.. طَمَى ... هلْ لِي.. بجُودِيِّ شِعْرِي.. أيُّ مُعْتَصَمِ؟!

ويــا مَــزامِيرَ داوودَ.. انْفُخِـــي.. رِئَتِـــي بشَـجْوِكِ.. القُـدُسِي.. يَسْـبِ الـدُّنَا نَغَمِـي

ويــا سُــلَيْمانُ.. قُــلْ للــرِّيحِ.. تحْمِلُنِــي إلَى فَضَــاءٍ.. مِــنَ الإبْــدَاعِ.. لَمْ يُـــرَمِ

مُوسى.. أعِرْنِي العَصَا.. تَعْنُ الشَّـوَارِدُ.. لِي بِهَــا.. أهُــشُّ.. عَـلَى الافْكـارِ.. والهِمَـمِ

يَدَ المَسِيحِ.. امْسَحِي صَدْرِي.. فَمِـي.. قَلَمـي تَفِــضْ -مِــنَ اليَــدِ- رُوحُ اللهِ.. فِي كَلِمِــي

أحْتـاجُ.. كُـلَّ بَلاغـاتِ الوُجُـودِ.. وكُـلّ المُعْجِــزاتِ.. لِمَــدْحِي "قِيمَـــةَ القِـــيَمِ"

أمير الشعراء.. والوصايا العشر

أخي العزيز.. حينَ تقتربُ حلقتُك تفرغْ لنَصِّكَ.... حتى تحفظه جيدا، وتتمثَّله، وتتصورَ أفْضلَ الطرُق لأدائه، صوْتيا بالتنْغيم، وحركيا بالتهويم..

وحين تخْطو إلى ركح "شاطئ الراحة"، اترك القلق والتوتر خلف ظهرك في الكواليس، وامش واثق الخطوة، مستهديا بالله، رافع الهامة في تواضع لله. باش الوجه للجمهور العالمي الذي يستقبل طلتك.

انس لجنة التحكيم أمامك، فكر فقط بشاعريتك، ووطن يتماهى بك في تلك اللحظة، ضابطا نبض كل قلوبه وفق نبض قلبك، متلبسا جهازه العصبي بجهازك العصبي، إحساسا، وأنفاسا، وتفكيرا، وتعبيرا...

تذكر أن لجنة التحكيم، وأصوات الجمهور لا يمنحان شاعرية لفاقدها، ولا يمنعانها لواجدها، وأنت بحمد الله تملك موهبة شعرية فذة، قبل أمير الشعراء، وستبقى بعده بإذن الله، فأملي فيك ألاَّ تحترق في أتون أضواء النجومية التي تكتنفك الآن، بحيث تتخذ هذا البرنامج مجرد عتبة للانطلاق، ومنصة للإقلاع بعيدا بتجربتك الشعرية، والإنسانية، بدلا من أن تعتبره عقبة، يموت عندها المحبطون، ويتلاشي فيها المغرورون بصناعة الزيف، و يحترق بها من نال من الأضواء الإعلامية، فوق طاقته

معك الله...ثم معك الشعر، وجمهور يحبك، ويحب الشعر..... دام التوفيق حليفك أبدا!!

وهنا تذكر أن التصويت له أوجه عديدة، فقد يكون سلعة يشتريها التاجر، وهذا لا ينبغي أن يفخر به الشاعر، وقد يكون تعبيرا عن تعاطف الجمهور، بدافع الحمية الوطنية، أو الجهوية أو القبلية.. وهذا أيضا انتصار للشاعر أكثر من شعره، وأخيرا قد يصبح موقفا نقديا معادلا للجنة التحكيم، حين يكون للجمهور ذائقة فنية عامة، تدرك الجمال الشعري، الذي يتجاهله التحكيم النقدي، فينتصر له بالتصويت، ليعدل كفة ميزان النقد المائل، وهذا هو

التصويت للشعر المستحق، بعيدا عن دوافع الولاءات الأخرى، وبهذا يحق للشاعر أن يفخر، إن أراد.

وفي إطار تجربتي الخاصة، عندما طلب من المتأهلين لنهائيات موسم أمير الشعراء أن تكون قصائدهم وصفا لرحلتهم عبر المسابقة، فعنونت قصيدتي بـ "إسراء إلى إمارة الشعر"، غير أن الجمهور كانوا يسمونها "آتي".

وفي ذلك إدْراكٌ نَقْدِيٌّ لِسِرٍّ فَنِّيٍّ لمْ أَشْرَحْهُ منْ قبْلُ، وهو أَنِّي بَنَيْتُ قافيةَ القَصيدةِ ورَوِيَّها علَى «آتِي»، وكَرَّرْتُها حَتَّى فِي بِدَايَاتِ الأبْياتِ قبْلَ نِهاياتِها، نِكَايَةً وتَحَدِّيًا للَجْنَةِ التَّحْكِيم، لَيْلَةَ التَّتْويج، أَقُولَ لهمْ عبْرَ هذه اللاَّزِمَةِ: لقدْ أَجْهَدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ في إقْصائِي -ظلْمًا وعدْوَانًا- طِيلةَ أَشْهُر البَرْنامِج، خِدْمَةً لِمُحَاصَصَاتٍ، بعيدة عنْ نَزاهَةِ النَّقْدِ، ولكِنَّني كنْتُ «آتِي»، فِي كلِّ مَرَّةٍ، على أَجْنِحَةِ ملْيُونِياتِ الأصْوات التي يَمْنَحُنِي إيَّاها الجمهور، تكرُّماً، ومحبة خالصة، دون أنْ اسْتجْدي صَوْتًا من أَحَدٍ، حتَّى جَعَلَتْ مِنِّي أصْواتُهم «طائرَ فِينيقٍ»، كُلَّما أَحْرَقه التحْكيمُ، ينْبَعِثُ من رَمَادِه، صائحًا -في نهاية كُلِّ حلقة-: ها أنا «آتي..آتي.. وهكذا يَتَجَلَّى أَنَّ الرَّوِيَّ والقافيةَ والإيقاعَ، والمُعْجَمَ، والترْكيبَ، والتصْوير.. كلها ينْبَغِي أنْ تَقُومَ في النص بوظيفتِها التعْبيرية، وأنْ لا تكُونَ مُجَرَّدَ تقْلِيدٍ، يُمارَسُ لِذَاتِه، ولا يَعْدُو كوْنَه فُسَيْفِسَاءَ شكْليةً بَاهِتَةً على جَسَدِ القصيدةِ، لا تُمَثِّلُ نَسِيجًا حَيًّا ناميا من مادَّتِها العضْوية، الحَيَوية الفعَّالة:

سـبْحانَ مَـن بي أَسْرَى.. والـبُراقُ.. رُؤًى	لِســدْرَة المُنْتَهَــى.. بــيْنَ الإمــاراتِ
مِنْ مَلْجَـإِ الضـادِ.. أرْض الشِّـعْر.. مَعْـدن	شِــنْقيط.. كَعْبَــة ألــوانِ الثقافــاتِ
آتي.. ومِــلْءَ فمِـــي.. إمــارَةُ الشُّــعَرا	تُضــيءُ.. للحُلُــمِ المَوْعــودِ.. أبْيــاتي
آتي.. وخَلْفِــي.. تُنــادِي.. كُــلُّ مِئْذَنَــةٍ:	الله أكْـــبَرُ.. لا تَخْــشَ الغَــدَ الآتي
آتي.. وخلفـي صُـفوفُ النخْـل.. تَرْقبُنِـي	عِــزُّ الجِبــالِ.. العَــوالِي.. مُلْهِــمٌ ذاتــ
آتي.. وبِي رَمَــضُ الصَّــحْراءِ يُشْــعِلُنِي	عَزْمًــا.. أمَــامَ التحَــدِّي.. في الرِّهانــاتِ
آتي.. ونَــبْضُ دَمِــي - بالشِّــعْر- مُتَّــزِنٌ	قَــدْ أوْرَثَتْنِيــهِ أجْــدادي.. وجَــدَّاتي
ملْيُــونُ قَلْــبٍ غَــرَامُ الشِّــعْر يَسْــكنُهُ	رَغْـمَ العَوائِــقِ.. هُــمْ -لِلْفَــوْزِ- مِرْقـاتي
أنَــا -بِهِــمْ- طــائِرُ الفِينيــقِ.. تَحْرِقُنــي	ومِــنْ رَمَــادِ احْتراقِــي.. هَــا أنَــا آتي
	فَكَيْــفَ تَحجبُنِــي فِي النَّقْــد مِــرْآتي؟

قطر.. سباقات الفصاحة العربية

الآن يطغى -على الواجهة الإعلامية في قطر- الحديث عن سباقات النثر والشعر، عبر برنامجي: "فصاحة" الذي ينظمه تلفزيون قطر، ومهرجان: "جائزة كتارا لشاعر الرسول"، الذي أسدل الستار على موسمه الأول، نهاية الأسبوع الماضي،

ولكن من الإنصاف، أن نُعرِّجَ على الخطوات التأسيسية لسباقات الفصاحة في قطر، فهناكَ قناةُ "براعـم" التي خدمت الفصاحة العربية عبر ناشئة الأطفال، وحققت في هذا المجال ما لم تستطع أي مؤسسة تعليمية أن تحققه، حتى داخل فضاءات العالم الإسلامي، غير الناطق بالعربية، لدرجة أن الأطفال أصبحوا يتقنون الحديث باللغة العربية، والحوار بها، أفضل من الكبار الذين تخرَّجوا من مؤسسات التعليم العتيقة والحديثة معا، وحتى ذوي الشهادات الجامعية؛ حيث صنعت بيئة لغوية، شبيهة ببيئة العرب الأقحاح التي كانت تُخَرِّجُ الأجْيال من أبناء العرب والعجم معا، لأن معايشة الوسط اللغوي الطبيعي، كانت ولا زالت أفضل طريقة لكسب الفصاحة من منابعها الأصيلة، حتى تتحول سليقةً، لأنَّ السمع هو القناة الأولى لتعلم اللغات، ولهذا كان أبناء العصر الأموي والعباسي، يرسلون ناشئتهم إلى البوادي العربية، بعد تلوث النقاء اللغوي في المدن الإسلامية، نتيجة اختلاط الشعوب، واللغات، في مختبر الدين الإسلامي، وها هي مدارس اللغات الحديثة، تتبع-اليوم- توفير معايشة الوسط اللغوي الطبيعي، لمن يريد تعلم لغة ما، عبر السَّكَن داخلَ أسْرَة ناطقة بتلك اللغة المسْتهْدَفَة.

كما تعتبر "قناة الجزيرة" الفضائية دعامة إضافية لتمرُّن الأذُنِ العربية على الفصاحة، بالنسبة للمستمعين الكبار، وذلك نظرا لابتعادها عن اللهجات الدارجة في خطها التحريري، في نشراتها، وحواراتها، وبرامجها، فانسياب اللغة العربية على الآذان، باستمرار، هو أفضل وسيلة لتشرُّب أساليبها، وانطباع قواعدها في الأذهان، وهذا هو الدور الذي لعبه القسم العربي من إذاعة البيبسي بلندن، طوال عقود ما بعد الستينيات، بالنسبة لمدمني الاستماع إليها من العرب، قبل توفُّر القنوات العربية الفضائية.

وقد تعزَّز هذا الاتجاه في خدمة الفصاحة العربية، عبر الدور الذي يقوم به "مركز قطر للمناظرات"، فهو ينمِّي مَلَكَة الفصاحة والحِجَاجِ معًا، بالنسبة لطلاب المدارس والجامعات، محليا، وعالميا....

فكلُّ هذا اللبنات، يمكن أن تعتبر مرتكزات لبرنامجي: "فصاحة"، الذي يفاضل بين عبْقريات المتسابقين، في ارتجال النثر، إنشاء وأداء، ومهرجان "جائزة شاعر الرسول" صلى الله عليه وسلم، الذي يفاضل بين المتسابقين في شعر المديح النبوي، إنشاءً وإلقاءً.

زد على كل ذلك أن ترسيم اللغة العربية في تدريس جميع المواد، بكل المؤسسات التعليمية، وبمختلف مستوياتها، من الابتدائية إلى الجامعة، هو قرار سيادي، ينسجم مع ضرورة الحفاظ على الهوية العربية الأصيلة، المهددة -في عقر دارها- من طرف قوة المؤثرات الوافدة، التي تزدحم في سوق العمل، والعلم معا، وتتغلغل في نسيج المجتمع، المنغلق بطبيعته الذاتية المحافظة، والمنفتح بحكم حاجاته التنموية المتكاثرة، تبعا لوتيرة تقَدُّمِه الحضاري المتسارع.

وبالإضافة إلى كل ما تقدم، لن أنسى منظمة النهوض باللغة العربية، ومعجم الدوحة التاريخي، فكلاهما مؤسسة تخدم من موقعها - اللغة العربية.

إن المتتبع لهذه الخطوات، سوف يكتشف أن هناك خيطا ناظما لما يتبدَّى من شتاتها الموهوم؛ حيث تترابط وحداتها، في نسق تدبير حقل الهوية العربية، بحكمة، وتخطيط، وتبصُّر.

وأنا -مثل كل محبي العربية، الغيورين على فصاحتها وبلاغتها- لا يمكن إلا أن أشجع كل خطوة تدعم ترسيخ قواعد اللغة العربية، وتُجَلِّي بيانها المشرق، المتوضِّئ بنور القرآن.

مع الجزيرة

كانت قناة الجزيرة، -منذ نشأتها-ولازالت- مثيرة للجدل، باعتبارها اسما على مُسَمَّى، فهي "جزيرة" انْحَسَرَ عنْها الطَّمْيُ فجأةً، فِي محيط إعلامي، كله زَبَدٌ، لا دُرَّ في أعماقه، ولا عُذوبَة في مَذاقه، ولا نُزْهَة في شواطئه، وقد انطلقتْ تحت شعار: "الرأي، والرأي الآخر"، مدشنةً بِدْعَةَ حُرِّيةِ الإعلام، عبْرَ "الاتجاه المُعاكس"، فأثبتتْ أنَّ هناك "أكثر مِنْ رأْي"، في عالم أحاديِّ الصوْتِ، والرأي، والرُّؤْيَة، ورفعتْ سقْفَ الحُرِّيةِ عاليا، و"بلا حُدود"، لدرجةٍ يقالُ إنَّها أذهلتْ المرْحومَ محمد حسين هيكل، حينَ اتفقتْ معه على برنامجه الشهير: "مع هيكل"، لتنْزيلِ شريطِ ذاكرَتِه الغنِيَّةِ، عبْر شاشتِها، فسَألَ رئيسَ الشبَكة، عن سَقْفِ الحُرِّية المسْموحِ به، فأجابَه بأنْ لا خَطَّ أحْمَر هنا، ولا سَقْفَ للحُرِّية، تحْت سقفِ الجَزيرَةِ، فهي سُلْطَةٌ "فوْقَ السُّلْطَة"، فتعَجَّبَ هيكل كثيرا -والعُهْدَةُ هنا علَى الرَّاوِي- لأنَّه خَبرَ العَديدَ منْ وسائلِ الإعلامِ الشرْقية، وحتى الغرْبية، ولم يَعْرِفْ حُرِّيَّةَ رَأْيٍ بهذا الحجْم.

إنها "الحرية"، هِبَةُ قَطَر لهذا المْشروع، ومَكْمَنُ الفرْق، وكلمةُ السِّرِّ لنجاحه؛ حيث تشترِكُ معها القنوات الأخرى في وفرة الدعم المالي.. من هنا كانت الجزيرةُ خيْرَ "شاهد على العصْر"، ناصبةً للأخبار مَراصِدَهَا، منْ "حديث الصباح"، حتى "الحصاد" مساءً، وظلتْ "مِرْآةُ الصحافة" التي ترَى فيها وجْهها عبْرَ العالم، ترْصدُ "الواقع العربي"، والدولي، حيث لا يكادُ يُوجَدُ موْقعٌ مُهِمٌّ إلا وللجزيرة فيه "مُرَاسِلُون"، يحلِّلون "المَشْهَد العِرَاقِيّ"، في مشرق عالمنا، ويقدمون "النشْرة المغاربية"، و"من واشنطن"، ولا ينسون حتى "عرب أمريكا اللاتينية"...

إن "عين الجزيرة" هي عين العرب الراصدة؛ التي تقرأ "ما وراءَ الخَبَر"، و"ما بيْنَ السُّطور"، وتنقِّبُ في خبايا "إرْشِيفهمْ وتاريخنا"، وتُقَلِّبُ الصفحاتِ الداميةَ في ملفات "الجريمة السياسية"، وتستعرضُ التاريخَ الأسْوَدَ لجُيوشنا العربية المنقلبة على شعوبها، من

خلال فيلم "العساكر"، التراجيدي، وتكشفُ كلَّ "سِرِّيّ للغايَة"؛ مُقْتَحِمَةً كلَّ "نقطة ساخنة"؛ لأنَّ رسالتَها أنْ تضعَ كلَّ المَسْكوتِ عنه "تحْتَ المِجْهَر"، فرغْمَ سَرْدِهَا الشَّهْرَزادي للأخبار عبْر "يُحْكَى أنَّ..."، ظلت تدرك أن "للقصة بقية"، جديرة بأنْ تطاردَها، لتكتملَ الصورَة، مُرَكِّزَةً على ما هو "في العُمْقِ"، عبر "حوار مفتوح"، أو "زيارة خاصة"، أو "لقاء خاص"، أو عبر "المقابلة"..

كما كان من مُهمتها أنْ تتابعَ العلاقةَ الجدلية بيْن "الشريعة والحياة"، وبيْن "الاقتصاد والناس"، و تتعَقَّبَ آثارَ الثقافة العربية، ومُبْدِعِيها، أيْنما كانتْ وكانوا، عبْر خُطَى "المَشَّاء"، المَسْكون برُوح أرسْطو وفلسفة مَدْرَسَتِه المَشَّائية، مِثْلَمَا اقتنصتْ هذه "الجزيرة"، "رُوحَ المُبادَرَة"، داخِلَ أوْطاننا الكَسُولة، وتتبعتْ خُطَى مَنْ فَرُّوا مِنْ جَحِيمِ هذه الأوْطانِ، التي ضيَّعَتْهمْ، ليُبْدِعُوا في مُختلفِ مَجالات الحياة، وهم "مُغْتَرِبُون"، لتأخذ مشاهديها -معَها- إليهمْ، أيْنَمَا كانوا في شتَّى مَنافِيهمْ، عبْر "مَوْعِد في المَهْجَر"..

وبعد هذه الرحلة الخاطفة، في دهاليز شبَكَة "الجزيرة"، ومعالم خريطة بَرْمَجَتها، نكتشفُ سِرَّ تعَشُّق الشعوب العربية المقهورة لها، باعتبارها عيْنَهم التي بها يُبْصِرونَ واقعَهم المَأزوم، وأذْنَهم التي يسمَعُون بها أخْبَارَ ما بيْنَ أيْديهمْ وما خلْفَهم، ولسانَهم المَسْلولَ منْ غمْد الكبْت الصَّدِئ، ورِئَتَهم التَي يتنفَّسُون بها هواءَ الحرية المُسْتَعْذَب، داخلَ الفضاءِ العرَبِيّ المُلوَّثِ بسُمُومِ الاسْتبداد المُتَفَشِّية هنا وهناك عبْرَ القُرُون... إنها مدرسةٌ توعية، وتثقيفٍ، وتنوير، قامتْ لجماهير مُشاهديها بالدوْر الذي كان يقومُ به القسْمُ العربي لإذاعة البيسي البريطانية، خلالَ النِّصْفِ الأخير منَ القرْن الماضي، حيث بدأتُ -في أواخره- القنواتُ الفضائيةُ العربيةُ الفاشلةُ تغْزو المُشاهدين العرب، وتدَجِّنُهم أكْثر، فانْبَثَق "ماردُ الجزيرة" من عُمْقِ الصحراء...ليسدَّ الفراغ، ويَقْلِبَ المُعادَلة.

ومهْمَا تكن المآخذُ على هذه التجربة الإعلامية العالمية الرائدة، فإنَّ أغْلبَ جمْهورها العريض، عبْر العالم، لا يساورُه أدْني شكٍّ في أنَّ مُنافَسَتَها -عربيا- مُسْتَحِيلة، وإيجادُ بديلٍ يسدُّ مَسَدَّهَا أكثرُ استحالة، وكلُّ جمْهورها ذلك لسانُ حالِه يَهْتفُ لها اليوم معي:

إنَّ الجَزِيرَة.. صَوْتُ مَنْ لا صَوْتَ لَهْ　　عَيْنٌ.. وأذْنٌ.. ترْصدانِ المَرْحَلَهْ

شَمْسٌ.. تَغُوصُ البَحْرَ.. تشْرِبُ سِرَّهُ　　وتَعُودُ.. بالإشْرَاقِ.. تُوقِدُ مِشْعَلَهْ

زرعتْ.. بهذا الشرْقِ.. أوَّلَ بذْرَةٍ　　للحُرِّياتِ.. فأيْنَعَتْ: كمْ سُنْبَلَهْ!

رَأْيٌ.. برَأْيٍ.. مِنْبَرٌ.. مُتَفَاعِلٌ　　إعْلامُنا –دُونَ الجَزِيرَةِ– مَهْزَلَهْ

أبْواقُ تضْليلٍ.. غِنَاءٌ كَالبُكَا　　رَقْصُ الذَّبِيحِ.. مَدَارِسُ السَّفَهِ.. البَلَهْ

قنَوَاتُنَا.. عَمْيَاءُ.. صَمَّا.. بَبَّغَا　　قد أحدثتْ فيها الجزيرةُ زَلْزَلَهْ

فاسَّاقَطَتْ.. أوْثانُها.. صَنَمًا.. عَلى　　صَنَمٍ.. عَلى... فاسْمَعْ.. هُنَاكَ.. الوَلْوَلَهْ!

في خضم بحور الشعر..
تستكشفُ "الجزائرُ" نفسها

"شمْسُ (الشِّعْر) تُشْرِقُ من الغرْبِ"، ذلك هو "القادمُ.. الجديدُ".. القادمُ.. اللُّغْزُ".. الذي بدأتْ تُعلنُ عنْه تلفزيونُ" الشُّروقِ" الجزائرية، حيث تآزَرَ ثالوثٌ إبْداعيٌّ، يتمثلُ في أكبرِ قُطْبٍ إعْلامي هناك، وصَفْوةِ شعراءِ البلد وأدَبَائه، وخِيرَة أرْبَابِ المَالِ والأعْمالِ فيه، على إنْتاجِ برْنامج شِعْرِي رائدٍ، خُططَ له بمِهنيةِ الخُبراء، وبحَصافةِ وتبَصُّرِ الحُكماءِ، وبجُموحِ طُموحِ الشُّعَراءِ...

إنَّه القادمُ.. المُنْتَظَرُ: "شاعرُ الجزائر"، الذي سَتَبْدأ تصْفياتُه في القريبِ العاجل.. مُؤسِّسًا لتجْربةٍ جديدةٍ وجادَّةٍ، من إنتاج برامج المُسابقاتِ التلفزيونية الشِّعْرِية، التي بدأتْ منْذُ فترة في المَشْرِق العربي، سَاعيا للاستفادةِ من النقاطِ المُضيئةِ في تلك البَرامجِ، وتَجاوُزِ "الثقوبِ السوْداء" فيها.

"شاعرُ الجزائر" عنْوانُ برْنامجٍ يليقُ بهذا البَلَدِ، الذي اكْتشفْتُ فيهِ -عبْر العقْد الأخِير- شَغَفا كبيرا بتلقي الشعر، ووفرةً إنتاجية فيه، وجودةً عاليةً في صناعته، وتفرُّدًا في بصْمَتِه، وليس هذا البرنامجُ / القادمُ إلا نتاجًا طبيعيا للْحرَاكِ الشِّعْرِي الكبيرِ الذي كنتُ أتابعُ أميرَ القوافي: محمَّد جرْبوعة، ورفاقُه، يَضعُونَ لَبنَاتِ صرْحِه، واحدةً.. واحدةً.

"شاعرُ الجزائر"..إنَّهُ الزِّلْزالُ.. الأدبيُّ.. الجَمِيلُ.. الذي يُنْتَظَرُ مِنْهُ أنْ يُحَرِّكَ هامِداتِ الهِمَمِ، ويُشجِّعَ خامداتِ العبْقرياتِ، ويَحْسِرَ الطَّمْيَ عن "جزائر الإبْداع" المَجهولةِ، أو المَنْسيةِ، ويُغَيِّرَ خرائطَ التصنيفاتِ النقْديةِ، والذوْقية الجَاهِزةِ النَّاجِزَةِ، ويكسرَ جِدَارَ الجَليدِ بيْن الشاعرِ والجمْهور، ويَضَعَ الشعرَ في مَدار الصناعة الإعلامية، ويُدْرِجَ الرأس مال الرمْزي في دائرةِ الاسْتثمارات الوَطنية، ويرْقَى بالنُّفوسِ إلى سِدْرَةِ مُنْتَهَى المَعارجِ الرُّوحِيةِ، بعيدًا عن مُسْتنقَعاتِ الإسْفافِ المادي والأدبي، ويَصْرِفَ العيونَ عنْ مَنَاظِرِ القُبْحِ والدمَارِ، ويُعَوِّضَ الآذانَ -عن دَوِيِّ القصْف والتفْجيرِ- بسِحْرِ النَّغَمِ الشجِيِّ البديع.. حتى تنْبعِثَ الحياةُ.. منْ

رُكامِ المَوْت، بقُدْرَةِ شاعرٍ، أوْ ساحِرٍ، لا فرْقَ.

أجلْ.. إنّ المُسابقاتِ الإبداعيةُ عموما –و "شاعرُ الجزائر" أحدها– ينْبغي أنْ يُنْظَرَ إليْها باعْتبارها مِضْمارًا للعبْقَريات، لأنَّ النفوسَ البشرية –في الغالب– كسولةٌ، تحتاجُ إلى مُحَفِّزات، إنْ لم تنبثِقْ من داخل المبدع، تهْبط عليه من الخارج، ويختلفُ تأثيرُ تلك المُحَفِّزاتِ على المبْدعين، بحسب اختلافِ أنواعها المتعددة، وبحسب اختلاف ذِهْنياتِ أربابِ الإبداع المُسْتهْدَفين، فهناكَ من تسْتثيرُه المُغْرياتُ الماديةُ، وهناكَ من تسْتَحِثُّه المُغْرياتُ المَعْنَويةُ، وهناكَ من تَسْتَنْفِرانِه معًا.

"شاعرُ الجَزائر".. القادمُ.. ذلك الزلْزالُ.. الأدبيُّ.. الجميلُ.. المُنْتَظَرُ.. لن يُحقق مُبْتغاهُ، إلا إذا أصَرَّ على أنْ يكونَ مُسابقةً –أولاً– وقبْلَ كلِّ شيْء– بيْن المنصَّةِ إخْراجا وتنْظيما، والنصِّ عمْقا وتهْويما، والنقْدِ تقْويما وتحْكيما، والدعْمِ تشْجيعا وتكْريما، ليُعْطي رسالةً واضحةً وصادقةً وعميقةً، بأنَّ العَدالةَ المَفْقودةَ المَنْشُودَةَ، يُمْكِنُ أنْ تتحقَّقَ –على الأقلِّ– في دوْلةِ الشِّعْر والحُبِّ والجَمالِ...

وهُنَا.. لا بُدَّ أنْ أهِيبَ بالشعراءِ أنْ يَعْتَبِرُوا المُسابقاتِ دائمًا، مُجَرَّدَ عَتَبَةٍ للانطلاقَ إلى الأمام، إلى الأجْمل، والأكْمَل، وأنْ لا يعْتبروها عقَبَةً، تعْترِضُ مَسارَهم الإبْداعي؛ في حالةِ إحْباطِهم نَتيجةَ الفَشَلِ في تَجاوُزِها، وحتَّى في حالةِ نَجَاحِهم فيها، عِنْدما يتعَرَّضُون – في دائرةِ الضوْء– لإشْعاع إعْلامي رُبَّما يكونُ أكثرَ من طاقاتِهم الإبداعيةِ، أوْ حينَما يغْترُّونَ، ببَهارجِ المِنَصَّةِ، وهيْلمانِ التتْويجِ، فيُخيَّلُ إليْهم أنَّ مِعْراجَهم الشعْري، وصَلَ إلى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وأنْ "ليْسَ في الإمْكانِ أبْدعَ مما كانَ"...فكمْ من شاعرٍ اخْتَفَى صوْتُه الشِّعْري، وانْقطعَ مَدَدُهُ، ومِدَادُه، عنْد هذه العَقَبَةَ، "ومَا أدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ"!

إنَّ الشاعرَ الحقيقيَّ عليْهِ أنْ يُطوِّرَ ذاتَه، وتجْربتَه وخبْرَتَه.. باسْتمرار، ولا يَقْنَع في مُغامَراتِه الإبْداعيةِ بما دُونَ النُّجُومِ.

إنَّني آملُ– بعْد نجاح" شاعر الجزائر"–القادم.. المُنْتَظر– على مُخْتَلفِ مُكوِّناتِ إنْتاجه، ومُتعدّدِ أهْدافِه، أنْ تتنافَسَ كلٌّ من المَغْرب، وتونس، وليبيا، وموريتانيا، في إنْتاج برْنامجها الشعْرِي المُماثِلِ، حتَّى إذا اسْتَوَت التجاربُ الخَمْسُ على سُوقِها، ونجَحتْ في تحْقيقِ كيْنونَتها الفرْديةِ، انْفتحتْ على بعْضِها، واتَّحدتْ في عُكاظِها المَغاربية الكُبْرَى:" شاعر المَغْرِبِ العَرَبي"، لنُبَرْهنَ على أنَّ الثقافةَ واصِلَةٌ، لَما قطعْتُه السياسةُ الفاصِلةُ.

الشعب يريد الاتحاد المغاربي

جدل سياسة الفصل وثقافة الوصل

لقد تردد شعار: "الشعب يريد... " سنة2011م، ربما أكثر من أي جملة أخرى، لدرجة يستحق معها أن يكون شخصية هذا العام بامتياز، وهكذا أصبحت إرادة الشعوب هي المسند إليه الموحد، الذي تتعدد مسنداته، بحسب تعدد المطالب المرادة، فـ" الشعب: يريد إسقاط النظام"، و"يريد إسقاط الفساد"، ويريد -أيضا- إسقاط الحدود الوهمية، وبناء الوحدة التاريخية على أنقاضها. وإذا كان دور الساسة هو وضع الحدود والجدران بين الكيانات، استفرادا بكل منها على حدة، فإن دور الشعوب كان -ولا يزال- هو إسقاط هذه الجدر والحدود، وخير مثال على ذلك -في الأمس القريب- جدار برلين، الذي نهشه الشعبان الألمانيان بأظافرهما، ليثبتا للساسة أن ألمانيا ستظل -في الصميم- موحدة الوجدان، بغض النظر عن صفتي الشرق والغرب المفتعلتين.

ومن الواضح أن وحدة الشعوب العربية -عموما- متوفرة المقومات، أكثر من الوحدة الأوربية، التي لا تكاد يتوفر من مقوماتها إلا الإطار الجغرافي "أوربا"، رغم اختلاف المعتقدات أحيانا، واللغات غالبا، وحساسية الخلفيات التاريخية المثخنة بالعداوات المزمنة، وهذا كله خلاف لحالة العالم العربي عموما، والمغاربي خصوصا، فالتاريخ واحد، والمجتمع واحد، والدين واحد، والمذهب الفقهي والعقدي المغاربي واحد، واللغة واحدة، والاقتصاد غني ومتكامل، وحتى الجغرافيا لم تضع بين دول المغرب الكبير أي حدود طبيعية، لا جبلية، ولا بحرية، وإنما أرادت مشيئة الله أن تجعل كل الحدود بين هذه الكيانات المتواشجة العلاقات حدودا رملية، وتلك إشارة إلهية يجب أن تفهم، فالرمل -بطبيعته - متحرك عبر الصحراء منذ الأزل، في سيرورة تتأبى على الترسيم.

وهذه المرونة للحدود المغاربية خصوصا، والعربية عموما،هي التي سهلت -في القديم- لأبناء هذه المنطقة أن ينْبَثُّوا في "مسالكها وممالكها"، ذارعين الصحراء الكبرى

بالقوافل، {رجالا وركبانا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق}، سعيا وراء مصالحهم المتشابكة والمتشاركة اقتصاديا، وثقافيا، ودينيا، وحتى سياسيا...

والواقع أن انسيابية الرمل وحركيته الدينامية -المتأبية على التحكم فيه داخل حيز محصور هنا وهناك- لا يضاهيها إلا انسيابية الثقافة المتفاعلة في القديم والحديث، بين هذه الكيانات المتحدة في بنيتها العميقة، إذ "لا توجد أصلا في العالم ثقافة مغلقة"، كما يقول الأديب الإسباني اخوان غويتيسلو.

وهكذا كانت الثقافة -ولا تزال- أهم مقومات تلك الوحدة المغاربية الموجودة تاريخيا، والمفقودة سياسيا، والمنشودة جماهريا عبر التاريخ، ولاسيما في راهن الربيع العربي، الذي اختل التراكم الطبيعي الطويل المدى لتنامي الثورات، ففاجأ المراقبين والمتنبئين، والمنجمين، بتنزله حيث لم يكن متوقعا، لا مكانيا، ولا زمانيا، ولا إنسانيا، وباستخدامه آليات جديدة، وظفت تكنلوجيا التواصل الاجتماعي، وأعادت الطاقة السحرية لشعار الكلمة، بعدما تحول إلى جعجعة بلا طحين، على يد مستهلكيه من النخب السياسية المفلسة، والنخب الثقافية الببغاوية، المتاجرة بالأفكار والخناجر، فكان صناع هذه الثورات العربية، المخصبين لربيعها الزاهر في جدب الصحراء الكبرى، هم فتية -من صميمم الشعب، ونبض شبابه- آمنوا بربهم، وبأمتهم، وبمبادئهم، وبطاقاتهم، وصدق نياتهم وإراداتهم، فلم ينسحبوا إلى الكهف ليناموا فيه نومتهم الأبدية، وإنما واجهوا الواقع الفاسد بصدورهم ووجوهم، وثقافتهم، فاجترحوا المعجزة الثورية، التي جاءت أشبه ما تكون بالزلزال الذي لا تتوقعه أرقى تقنيات الرصد المتطورة.

فمن كان يتوقع أن تنبثق هذه الثورات -فجأة- من حمأة الديكاتوريات المعشثة والمفرخة في تربة العالم العربي، والضاربة بأطنابها الحالكة فوق بلاده وعباده، منذ عقود وعقود؟

ومن كان يتوقع أن تنكسر أسطورة المركز المشرقي، لتندلع شعلة التحرر من تخوم المغرب الكبير؟ جاعلة من تونس الخضراء " فاتحة" الثورات، وأمَّ كتابها المقدس، وسارقة نارها من براثين آلهة الأساطير، وباعثة روح الشاعر أبي القاسم " المتنبي":

إذا الشــــعب يومــــا أراد الحيــــاة فــــلا بــــد أن يســــتجيب القــــدرْ
ولا بــــد لليــــل أن يــــنجلي ولا بــــد للقيــــد أن ينكــــسرْ

وإن التهاب هذه الأنشودة على شفاه الجماهير-عبر كل التظاهرات الثورية، في دول المغرب الكبير وغيرها- لخير تعبير عن دور الثقافة عموما، والشعر خصوصا، في تجسير الهوة المفتعلة بين هذه الشعوب المتحدة الإنسان، والروح والوجدان، واللسان، والإيمان والمكان.

ولعله ليس من قبيل الصدفة أن نجد "إرادة الحياة"، وإرادة وحدة المغرب الكبير، حاضرة بقوة لدى مجايلي أبي القاسم الشابي من رواد جيش التحرير، ساسة، وأدباء، ومفكرين، وشعراء، كما أنها ظلت تطل برأسها بين الفينة والأخرى، على ألسنة شعراء معاصرين، استبقوا -بحسهم المرهف، وحدسهم الاستشرافي- شعار: "الشعب يريد..."، المرفوع أيقونة لهذه الثورات العربية الجديدة، فالشاعر الموريتاني الكبير أحمدو ولد عبد القادر -في أواخر الثمانينيات- حدد ما نريده، وما لا نريده، من "اتحاد المغرب" المأمول:

نريـــــده صـــــفعة للأمــــس توجعـــه	إذا الغـــــد الأبلـــج البســـام وافانـــا
نريـــــده غرســـــة للمجـــــد واحـــــدة	دوحـــا يكلـــل عـــري الأرض تيجانـــا
ولانريـــــــد مواثيقـــــــا.. مطـــــــرزة	تعـــيش في الـــورق المنـــسي أردانـــا
ولا نريـــــــد ابتســـــامات مؤقتـــــة	تغشـــى الوجـــوه وتغـــدو بعـــد نكرانـــا

وحتى أنا -وأعوذ بالله من"أنا"- وجدت نفسي ذات لحظة شعرية، في سنة 2006م، متلبسا برسم "خريطة طريق" لإرادة الحياة الكريمة التي نريدها في موريتانيا، حيث كنا يومها نمر بمرحلة انتقالية، توهمنا أنها ستعبر بنا من مستنقع الانقلابات الآسن،إلى شاطئ النجاة الديمقراطي، وبما أن كل عناصر هيكل النظام الفاسد كانت فاسدة، فقد جعلت القصيدة ترتاد أفق الخيال العلمي الأدبي السياسي، مانحا إياها عنوان: "مصنع الأحلام السياسية"، لأن الواقع هنا لا يغلبه إلا الحلم، ولو بآلات سحرية شبيهة بـ "ربوهات"، تُشَغِّلُ نفسها من تلقاء نفسها، حيث عبرت -خلال عشرة مقاطع- عن ما أريده، باسم الشعب طبعا.

فأنا أريد عصا شرطي لا تقمع غير الظالمين، وأريد مدافعَ لا تتجه لغير نحور العدو، وأريد خزائنَ تصعق أبوابُها كلَّ يد سارق تلامسها، وأريد زنازينَ لا تنفتح إلا للمجرمين، وأريد منابرَ تلعن تجار الحناجر، وأريد صُحُفاً ترفض حِبْرَ النفاق يلوث طُهْرَ بياضها، وأريد عمائمَ بحجم رؤوس ذويها..توافق لون سرائرهم، وأريد كراسيّ حُكْمٍ تأبَّى على غاصبيها، وأريد صناديقَ تعرف معْنى انتخابٍ..تتوب من الحشو دون حساب... وفي ختام قصيدة "مصنع الأحلام السياسة" هذه، أصرخ في مهب الإحباطات:

أريدُ..أريدُ..ويا ما أريدُ!!

فيا ليت موسى.. تعودُ عصاهُ!! تُحَقِّقُ لي ما أريدُ..تَلَقَّفُ ما يأْفكُونَ...

لَعَمْرُكَ..إنَّ مصانعَ حُلْمي..لتحْتاجُ مُعجزة مِنْ نبيٍّ

وإلاَّ فهَبَّة شعْبٍ.. أرادَ الحياةَ..بعزْمٍ قويٍّ

فأيقظَ ما ماتَ مِنْ رُوحِه العَبْقريِّ

ومادام عهد المعجزات النبوية قد ولىَّ إلى غير رجعة، فإن الجزء الثاني من حلمي الأخير، هو الذي قد تحقق -بعد نصف عقد من الزمن- على يد هذه الثورات العربية، التي انبثقت من إرادة الشعب للحياة الكريمة، تجاوبا مع هذه الإرهاصات الشعرية المتنبئة بميلاد جديد حتمي للشعوب العربية، ولو من رمادها، كما هو حال طائر الفنيق الأسطوري.

ولعل إحساسي بأن حلمي الشعري الثوري، الذي طالما بشَّرْتُ به، وبَنَيْتُه هَرَمًا من الكلمات، في زمن صمْت الأحرار، ونقيق الضفادع، قد بدأ يتخلق فوق الأرض، مع انبثاق هذه الثورات الشعبية العربية، هو ما جعلني أصر على تماهي أناي الشخصي بالأنا الجمعي لهذا الشعب الثائر من المحيط إلى الخليج، حين كتبت قصيدتي"أنا سيد الثورات".

ومهما يكن فإن هناك أمثلة كثيرة تنتصب حججا -غير داحضة- على دور الشعر والثقافة معا في التوحيد الوجداني لكل مكونات هذا الفضاء المغاربي، وما الظاهرة الخلدونية -في هذا السياق- منا ببعيدة، حيث عاش هذا العالم الرمز مغاربيته بامتياز، ولهذا لا يزال متنازع الانتماء بين أغلب دول المغرب الكبير، وحتى إسبانيا"الأندلس"، ومصر، هذا مع العلم أن ابن خلدون يشاركه -في هذه الهوية المغاربية المتنازعة- أغلب أعلام الشعراء والأدباء والمفكرين، الذين نشأوا في الفضاء المغاربي المفتوح، قبل قيام الدول القطرية الحديثة، وانتصاب حدودها الوهمية بين أجزاء الجسم الإقليمي الذي كان يستشعر وحدته الحميمة، لدرجة أن الشاعر والعالم الموريتاني باب ولد الشيخ سيدي -في تلك البلاد السائبة، بأقصى التخوم الجنوبية للمغرب الكبير- كانت تتراءى له هذه الوحـدة حتى في تركيبة الشاي، حين يصف إحدى جلسات "الإمتاع والمؤانسة"، خلال السمر على كؤوسه الشهية، بقوله:

يقـيم لنـا مـولاي.. والليـل مقمـر وأضـواء مصـباح الزجاجـة تزهـرُ
كؤوسـا مـن الشـاي الشـهي شـهية يطيـب بهـا ليـل الـتمام.. ويقـصرُ
تُخُـيّرَ مِـنْ تُجَّـارِ طنْجَـةَ شـايُها وخِـيرَ لَهَـا مِـنْ تلْـج وَهْـرانَ سُـكَّرُ

فهذه اللفتة الأدبية يستوحى منها أن السوق المغاربية كانت قائمة، بدون اتفاقيات ولا معاهدات، فهذا المشروب المحبب إلى سكان الفضاء المغاربي، كان سكره مستوردا من الجزائر، وشايه مستوردا من المغرب، ومستهلكه -هنا- وشاعره من بلاد شنقيط " موريتانيا"، بلاد المليون شاعر.

وعلى ذكر ابن خلدون وطنجة ووهران، نستحضر هنا أن أعلام تلك الأمكنة والأشخاص وحتى الأشجار، ظلت على ألسنة الشعراء المغاربيين رموزا لوحدة هذا الفضاء العريق الوشائج، الضاربة في أعماق التاريخ، حيث يقول أحمدو ولد عبد القادر في قصيدته السابقة "وادي الأحبة":

يـا غرسـة المجـد هـل تسـقيك أغنيـة مـن وحـي أوراس تـبري الكـون ألحانـا
نَبِّــهْ لهـا عُمَـرَ المختـار.. وادعُ لهـا عبـدَ الكـريم.. بـما صـانا.. ومـا زانـا
ونـاد شـنقيط.. واسـتنفرْ منابعهـا والقـيروان.. وتطوانـا.. وفزانـا

ويتجلى إصرار المثقفين المغاربيين على تهديم الجدر والحدود، المفتعلة بين مكونات هذا الشعب الواحد، الموزع ضمن خمس خرائط، لا يفصل بينها في الواقع إلا خطوط ملونة "بدم كذب"، حيث نجد أن النشاطات الثقافية المنظمة من قِبَل فعاليات شعبية، هنا وهناك، كانت دائما تجمع -فوق طاولاتها، وحول موائدها، وعلى منبرها، بكل حب وحميمية- مبدعين مغاربة من الأقطار الخمسة، في الوقت الذي تستشري فيه القطيعة بين ساسة أغلب الدول الخمس، إن لم أقل كلها، مما يعني أن ضمائر المثقفين كانت وستبقى " ضمائر وصل"، بينما ضمائر السياسيين -للأسف- تحرص أن تظل "ضمائر فصل".

وفي هذا السياق أذكر، على سبيل المثال -من ضمن فعاليات كثيرة- مهرجان الحكايات الذي نظمته جمعية " لقاءات" برئاسة الأستاذة نجيمة طاي طاي، في الرباط2010م، حيث صمم مسرحه على شكل قلعة للحكي، مكونة من خمس خيام بعدد دول المغرب الكبير، فكانت كل خيمة تستأثر بليلة خاصة بها، تستعرض فيها فلكلورها، وتقص حكايتها،

باستضافة فارس، يمثل شهريارا غير سَفَّاكٍ، يصغي كل ليلة في إحدى تلك الخيام الخمس إلى شهرزادها، ثم يتزوجها، وينتقل في الليلة الموالية إلى خيمة جديدة، وشهرزاد أخرى، وهكذا دواليك، لينتهي به مطاف السيناريو، وقد أنجب خمسة أبناء، أخوة لأب، من خمس أمهات، مجسدا بذلك لحمة الإخاء بين هذه الشعوب المغاربية، وقد كتبت انفعالا بهذا الجو البديع أبياتا، بعنوان: حكاية واحدة بخمسة ألسن:

هُنا..تَعانَقَ خَمْسُ المَغْرب العربي ... يَدًا.. إذا قُبِضَتْ.. مَرْهوبةَ الغَضَبِ

كَمْ إصْبع -ضِمْنَها- يَهْفو لإخْوَتِه ... مَنْ قالَ: خَمْسَتها.. مَشلُولة العَصَب

في مَهْرَجانِ الْحِكاياتِ ازْدَهَى عَجَبٌ ... سَبْعًا.. ليَالي.. كانتْ غايةَ العَجَب

ففِي خَمِيم لِقاءاتِ الثقافةِ.. قدْ ... عِشْنا بأرْوَاحِنا..في عَصْرنا الذهَبي

نَزورُ خَمْسَ خيامٍ.. قَلْعَةً.. حَبَكتْ ... نَسيجَ وِحْدَتِنا.. في عَالَمِ الأدَبِ

يُسَافِرُ الحَكْيُ.. فيها.. دُونَ تذْكِرَةٍ ... بَيْنَ الخِيام.. فيَزْهُو خَامدُ النَّسَبِ

إذْ كُلُّ رَاوٍ.. صَدَى رَاوٍ.. حِكَايَتُنا ... تُرْوَى..ب ألْسِنَةٍ.. خَمْسٍ.. أبًا.. لأب

فَكُلُّ قُطْرٍ.. هُنَا.. مِرْآةُ صاحبِهِ ... يَرَى بهِ ذاتَهُ.. مَكْشوفَةَ الحُجُبِ

فَزَّانُ.. وَهْرانُ.. فاسُ... القيْرَوَانُ ... ..وشِنْقيطُ.. الحُدودُ.. هُنا.. لَوْنُ الدَّم الكَذِبِ

مَنْ ذا يَفكُّ نسيجًا.. حاكَ لُحْمَته ... دِينٌ.. دَمٌ.. لغَةٌ.. أرْضٌ.. مَدَى الحِقَبِ؟!

تلك -إذن- هي حكاية اتحادنا المغاربي بين السياسة الفاصلة، والثقافة الواصلة

أكادير-2011

ثقافة المشرق والمغرب:
عودة جدل المركز والأطراف

كنت أظن أن العُقدَ القُطْرِيَّة، وأدْلَجَة الجهات، وتفتيتَ جوهر الثقافة الواحدة إلى ثقافات، قد أصبح متجاوزا، وأن صريرَ أقلامه قد سكتَ إلى الأبد، لكنني تفاجأتُ بانفجار هذا الجدل البيزنطي، في عز هذا الشهر الكريم، حين لامسَ الناقدُ المصري الدكتور صلاح فضل، في حوار معه، صاعِقَ هذه الحساسية؛ فانفجرت، حين قال:

"أعرفُ وأنَا على علاقةٍ صداقةٍ حميمةٍ ببعْض النُّقَّادِ المَغاربة والتُّونسيين والجزائريين، أنَّ بعْضَهم مولعٌ بالغموض الشديد جدا؛ فأبْسطُ المَناهج اليسيرة الجميلة تتحَوَّلُ في قلمه إلى لوغاريتم يصعبُ فكُّ لغزه، وبعضُهم الآخرُ ليستْ لديْه قدرةٌ كبيرةٌ على الاسْتيعابِ النظري والتطبيقِ العمَلي، وهم يفتقدون في المغرب العربي عموما -وهذا نقدٌ لهم- لرصْدِ الظاهرة وفْقا لبصيرةٍ نقديةٍ تطبيقية، أما المبْدعون منهم فيحْتاجون إلى مُثقَّفين مَشارقَة لكيْ يُضِيئوا أعْمالَهم، لأنَّهم قد يتَمَلَّكونَ زِمَامَ الأفكارِ الكبْرَى لكنَّهم لا يعْرفونَ -في مُجْمَلِهم- كيْفِيَّةِ تَبْيئتِها ولا تطبيقها على الواقع الإبداعي".

وقد تصدَّى له -بانفعالٍ- الشاعرُ المغربي: صلاح بوسريف، فكانَ من ضمْنِ رُدوده الأقلِّ حدَّة، قوله:

" المَغارِبيُون، في ما راكَمُوه من دراساتٍ حديثَةٍ، وفي ما ترجَمُوه من أعمال كُبْرَى، وما عَقَدُوه من حوار مع الغَرب، هُم من أتاحُوا للنقد المشرقي، أن يَخْرُجَ من تاريخ الأدب الذي كان غَرِقَ فيه، ومن نَقْدِ المضامين، والحديث عن الكُتَّاب، بدل النُّصُوص، وهُم من تَرْجَمُوا المفاهيم الكبرى بِدِقَّةٍ، احْتَرَمُوا فيها السِّياقات المعرفية والتاريخية التي تَشَكَّلَتْ فيها هذه المفاهيم".

وبعيدا عن نيْله من شخْصِ الدكتور صلاح فضل وأكاديميته، يقولُ في مَقالٍ آخر، أكثر هدوء:

"فَما جاءَ في تَصْرِيح الدُّكْتُور المصري صلاح فضل عن قُصُور المغارِبَة في اسْتِيعابِ وفَهْمِ ما يَكْتُبُونَه من نَقْد، أو ما تَرْجَمُوه من مفاهيم، وحَاجَة مُبْدِعِيهِم إلى النَّقْد المَشْرِقِيّ، هو عَوْدَة بنا إلى ماضٍ انْتَهَيْنا مِنْه ولَمْ يَعُد يَعْنِينا إلاَّ باعْتِبارِه تارِيخاً ولَحْظَةً من لَحَظاتِ حاجَتِنا إلى المعرِفَة، أو إلى تراكُماتِ المعارف التي عَرَفْنا، دُون صَلَفٍ، كَيْفَ نَهْضِمُها دُونَ حاجَةٍ إلى أَسْنانٍ اصْطِناعِيَة تَلُوكُ أكثر مِمَّا تَهْضِمُ وتأكُل. وقد كانَ صديق فضل، الدكتور جابر عُصْفور، غير سعيد بأُطْرُوحَة الجابرِي في بعض كُتُبِه، وبَيْنها كتاب "نحن والتراث" الذي كان فِيه الجابِرِيّ حَرِيصاً على تَفْنِيد سُلْطَة وهَيْمَنَة المشرق على المغرب، في سياق عَوْدَتِه بالأمُورِ إلى سِياقِها التَّارِيخي والمعرِفِيّ. وهذه إحْدَى مَطَبَّاتِ مَنْ مازَالُوا يَعْتَبِرُونَنا قاصِرين، أو يَرَوْنَ أنَّ الشَّمْس لا تَطْلُع إلاَّ من "المَشْرِقِ"!

وأخيرا دخَلَ على الخَطِّ أستاذُنا الدكتور سَعيد يقطين، مُحَلِّقًا بالمَوْضُوع إلى رَحَابَةِ" إنْسانِية الثقافة العربية" عنوانًا لِمَقَالٍ له، قائلاَ: إنَّ "الثقافةَ العربيةَ ليستْ مَشْرِقية ولا مَغْرِبيَّة، كما أنَّها لا تَتَلَوَّنُ بالأقطارِ العربيةِ حديثةِ النشْأة، والتي لا عَلاقَةَ لها بأصَالَةٍ تلك الثقافة وتاريخِيَّتِها وعُمْقِها وتَعَالِيها على هذه الجُغْرَافِية الجديدةِ والوليدةِ. إنَّها ثقافةٌ عربيةٌ شاملة، يُساهِمُ فيها المَشْرقي والمَغْربي في تفاعلٍ دائمٍ ومُسْتَمِر، بدون أنْ يَخْضَعَ ذلك إلى تَخْطيطٍ مُسبقٍ، أوْ تدْبيرٍ مُوَجَّهٍ، ومنْ أيِّ جِهَةٍ كانت".

ثُمَّ عَقَّبَ بمَقالٍ أخَر، مُعَنْونًا إيَّاهُ باسْتفهامٍ إنكارِي: "أثَمَّةَ مَشْرِقٌ وَهُنَاكَ مُغَرِّبٌ"؟

وقد انطلقَ منَ مَقُولَةِ "كيبلنغ": الشرْقُ شرْقٌ، والغرْبُ غرْبٌ، ولنْ يَلْتَقِيا. وأمَامَنا التاريخُ والجغْرافيا، وتضارُبُ الذهْنيات والتصوُّرات حوْلَ العالَم، وهي جميعًا تؤكِّدُ ذلك.. ففنَّدَها قائلا:

"تطوَّرَ التاريخُ العربيُّ الحديثُ، وغدَت المُشارَكةُ الثقافيةُ لا تقتصرُ علَى قطرٍ عرَبي دون آخر. وبدأ البسَاطُ يسْحَبُ من القاهرة، وصارتْ مُخْتَلف العواصم العربية ومُخْتَلفُ مُدُنِها تنْخَرطُ في هذا العطاء. ولا يُمْكِنُ لهذا التفاعُلِ الإيجابي إلا أنْ يؤدِّي إلى التطويرِ والإغْناءِ الذي

يتجاوَزُ المَرْكزَ الذي كان الأنْموذجَ إلى عهْدٍ قريب. وفي هذا النطاقِ، لا يُمْكِنُنَا سوى الاغْتباطِ ببُروزِ نجيب محفوظ آخر من سَلطنة عمان، أو ظهور طه حسين من تونس... ولا يمكنُ لهذا الظهور إلا أنْ يَفْرَحَ له المصْريون، ويُصَفِّقَ له العراقيون، ويَهْتَمَّ به المَغاربة. هذه الصورة التفاعليةُ بيْن مَشْرقِ الوطن العربي ومَغْرِبه هي نفْسُها التي نجدها في أوروبا...

نَجِدُ مَرْكزيةَ الثقافة الفرنسية بدأتْ بالتقلُّصِ أمامَ عطاءاتِ السُّلافِ والجرْمانِ والأنكلو أمريكان.

إنَّ ترْهينَ التَّمايُزِ المَشْرِقي المَغْرِبي، الآنَ، مِنْ لَدُنْ بَعْضِ المُثقَّفينَ العَرَبِ نَزْوَةٌ مُثَقفِيَّةٌ وَقُطُرِيَّةٌ عابرَة؟".

الشام والشعر.. بين الثلج والنار

على أيِّ شيْء -غير القصيدة- يتكئُ الشاعرُ، حين تنْهارُ أمَامَه مَعابدُ الجَمَال، ومَلاحِمُ التاريخِ، وأسَاطيرُ الحَضارة؟

كلٌّ ينْفقُ ممَّا عنْدَه، حُكَّامُ سورية، المُسْتأسِدينَ بحلْفهم الدوْلي الشرِّير، يَصَبُّون حقْدَهم على الشام وشعْبِه الذي ملَّ تَحكُّمَهم، بَراميلَ متفجرَّةً، لمْ يُقَدِّمْها أسْوأ الحُكَّام -قبْل "الأسد"- لشعْبِه، باسْتثناء "نيْرُون"، حَاكِم رُومَا وحَارِقِها، في الوقْت نفْسه.... وأبْطالُ الشَّامِ يقدِّمُون أرْوَاحَهم فداءَ له، في معارك الصمود الأسطوري، أمامَ قوى الشرّ المُتكالِبَة عليْهم فوْقَ أرْضِهم... والعالمُ العربيُّ يتفرَّجُ على المَأْسَاةِ الإنسانية، عاجزًا عنِ الفعْل الحضاريِّ المَسْؤول... وأنا وأمثالي من العُزَّلِ المُدَجَّجِينَ -في مَعْمَعَان الحُرُوب- بالحُروف، نَرشُّ رَذاذَ الشِّعْرِ، النازفِ من صَمِيمِ مشاعرنا الملتهبة، على الحَرائقِ التي تلتهم سوريا وطَن الجَمَال، ومدْرَج النبوءات، ومُسْتَوْدَع الحضارات... صارخين... في وجْهِ طُوفان الدم، الذي يَجْتاحُ "خرائطَ الوجَع العربي":

الشَّـامُ.. يَنْـزِفُ.. والجُنَـاةُ.. هُـمُ.. هُـمُ حَلَـبٌ.. دَمٌ.. حِمْـصٌ.. دِمِشْـقُ.. دَمٌ.. دَمُ!

فَكِّــرْ.. بِأبْشَــعِ صُــورَةٍ.. لا تُرْسَـــمُ! بَصَـمُوا.. عـلَى القـتْلى.. ظِـلالَ وُجُـوهِهِمْ

تَــالله.. مِــنْ نَــيْرُونَ.. أنــتمْ أشْــأَمُ! يَــا حَــارِقِي مُــدُنِ الجَــمَالِ.. وأهْلهَــا..

وعبثا، كنت -سابقا- قد عزفتُ سمفونية "النفير" الحزينِ، على "مَقام" نزيف الوطن الجريح:

الشَّــامُ.. يَنْـزِفُ.. وَا قَلْبِـي.. عَـلَى الشَّـام! أوَّاهُ.. يَغْـــــرقُ.. فِي مُسْــــــتَنْقَعٍ.. دَام!

أنْهَارُهُ.. السَّـبْعُ.. ذُقْ.. مـا طَعْـمُ سَلْسَـلِها إلاَّ نَزِيـــف دُمُـــوعٍ.. أوْ دَم.. هَـــامِ؟!

القَلْـبُ.. مِنْ "بَرَدَى".. قَدْ ذَابَ.. مِنْ كَمَدٍ أنّي سَـــيَبْردُ نَهْــرٌ.. مَـــاؤُهُ ظَـــامِ؟!

وَا كِبْرِيــا نَهْــرِهِ "العَــاصِي".. يُجَلِّلُـــهُ ذلاًّ.. "دَمُ الأخَوَيْنِ".. المُهْـرَقُ.. الطَّـامِي!

دِمَاءُ "قَابِيلَ".. معْ "هَابِيـلَ".. صـارِخَة: مَــنْ قَاتِــلٌ؟ مَــنْ قَتِيــلٌ؟ كُلُّنَــا شَــامِي

***

أوَّاهُ.. يَــا مَلَكُــوتَ الحُسْــنِ.. بَابِلَــهُ يــا جَنَّــةَ الحُــبِّ.. يــا يَنْبُــوعَ إلْهَــامِ!

وَا قَاتِلَ "الحُورِ".. و"الوِلْدَانِ".. مَا ارْتَجَفتْ كَفَّــاهُ.. نَــافِيهُمَا.. "أيْــدِي سَــبَا" العــامِ!

وَا غَاصِــباً.. بَسَــمَاتِ الفُــلِّ.. مُبْتَهِجــاً للْعَــــابِرينَ.. جِنَــــانَ الله.. فِي الشَّــــامِ!

وَا كاتِمًــا.. نَفَحَــاتِ اليَاسَــمِين.. بــه إذا تَــنَفَّسَ.. لَــيْلاً.. عِطْــرَ أحْــلامِ!

وَا جَــاعِلاً رَقَصَــاتِ الشَّــعْبِ.. مَأتَمَــهُ وسَــارِقًا -مِــنْ غِنَــاهُ- طِيــبَ أنْغــامِ!

لكن، ما أصْعَبَ أنْ يَجِدَ الإنسانُ نَفْسَه في مَأزِقِ الخِيار بيْنَ "أمْرَيْنِ أحْلاهُمَا مُرٌّ".. بين الثلج النار!

ذلك هو وضْعُ لاجِئِي الشَّام، الذينَ تلاعَبَتْ بهِمْ ثُنَائِياتُ الحَيَاةِ المُتَضَادَّةُ، ففَرُّوا مِنْ نَارِ الطَّواغيتِ، التي أحْرقتْ جَنَّاتِهِم الفَيْحَاءَ، إلى نَارِ المَنَافِي والمَلاَجِئ الجَرْدَاءِ، ليَجِدُوا أنْفُسَهُمْ هذا الشتاءَ الرَّهيبَ أمَامَ عاصفةٍ ثلْجيةٍ، لا عَهْدَ للمنْطِقةِ بمِثْلِها، فشِلَ العرَبُ حتَّى في تَسْمِيتِها:"هُدَى"، مثْلَ فشَلِهم الذريعِ في التصَدِّي لها بما يُناسِبُها من الدعْم والمُسانَدَةِ للمَلايينِ من إخْوانِهِم المَنْبُوذِينَ بالعَرَاءِ.. عُرْضَةً للتَّجَمُّدِ تحْتَ عواصِفِ الصَّقِيعِ العَاتِي.

لكنَّ مالا يُدْرِكُه القُرَّاءُ بالبَدَاهَةِ، هو أنَّ هذا الوضْعَ الخَارجيَّ المَأزُومَ، ليس أصْعَبَ من الوضْعِ الداخِلي الذي تَفاعَلَ في وجْداني الإنساني أمامَ هذه المَأسَاة، إذ كيف لِشاعرٍ يَتبَنَّى "الشِّعْرَ الحَارَّ" خَطًّا فَنّيا، ورُؤْيَةً إبْداعِيةً، أنْ يُغْرِقَ قَلَمَهُ في جِبَالِ الثَّلْجِ ليَكْتُبَ "شِعْرًا حَارًّا"، ينسجم مع أطْروحته؟

حَاولتُ أنْ أفَلْسِفَ المَوْضُوعَ لِذَاتِي، فقلْتُ إنَّ جَدَلَ الأضْدَادِ -مِثْلَ الحَرَارَة والبُرُودَةِ- سُنَّةٌ كوْنيةً، وناموُسٌ حيويّ، لا غِنى عنْهُ لِنِظَامِ الوُجُودِ، غيْر أنَّ كُلَّ واحدٍ من طرَفَيْ الثُّنَائياتِ الكوْنِيةِ هذهِ، "إذَا تَجَاوَزَ حَدَّهُ انْقَلَبَ إلى ضِدِّهِ"، حَسَبَ قَوَاعِدِ المَنْطِقِ؛ ومنْ هُنا لا غرَابَةَ أنْ يَتَحَوَّلَ صَقِيعُ الطقْسِ الخَارِجِيِّ، إلى بُرْكَانٍ شِعْرِيٍّ في داخِلي، فالبرَاكِينِ تَتفَجَّرُ فِي أعْمَاقِ البِحَار.

وعندما بدأتُ أقتنِعُ شيْئًا مَا بِهَذه الفِكْرَةِ، اسْتَدْرَجْتُ شَيْطَانَ شِعْرِي لأكْتُبَ قصيدةً حوْلَ المَأسَاةِ، فألْهَمَنِي بيْتًا وحِيدًا:

وا نَــازِحَ الشَّــامِ.. بــيْنَ الــثلْجِ والنَّــارِ! بِــذا يَمُــوتُ.. وذا.. يــا رَحْمَــةَ البَــارِي!

ثمَّ تَجَمَّدَ نَزِيفُ القَصِيدَةِ.. عنْد هذا المَطْلع اليَتِيم؛ حيْثُ تَجَمَّدَ العفْرِيتُ المُلْهِمُ، لأنَّ الشَياطِينَ -في مَاهِيتِهم- كائناتٌ نارِيةٌ، اقْتَضَتْ حِكْمَةُ الله أنْ يُعَذِّبَهُمْ ب "الزَّمْهَرِيرِ"، الذي هو الطبَّقَةُ الصَّقِيعِيةُ من نَارِ الله المُوقَدَة، بيْنَمَا يُعَذِّبُ بِجَحِيمِهَا الأنَاسِينَ، الذين هُمْ -في أصْلِ تكْوِينِهمْ- مِنْ المَاءِ.. تَنَاسُبًا بيْنَ كُلٍّ منْهُمَا ونَقِيضَ جَوْهَرِه.

غير أن شلل الشاعرية، المَصْلوبة ملء برزخ المأساة الشامية، بين المَوْت حرْقا، والمَوْت برْدا، لم يطل كثيرا، أمَامَ مواجهة عاصفةٍ ثلْجِيةٍ، لا عَهْدَ للمنْطِقةِ بِمِثْلِها، استفزَّني فيها فشِلُ العرَبُ حتَّى في تَسْمِيتها: "هُدَى"، مع فشَلِهم الذريعِ في التصَدِّي لها، بما يُناسِبُها من الدعْم والمُسانَدَةِ للمَلايينِ من إخْوانِهم المَنْبُوذِينَ بالعَرَاءِ.. عُرْضَةً للتَّجَمُّدِ تحْتَ عواصِفِ الصَّقِيعِ العَاتِي، وبعْد كثيرٍ من تَفاعُلاتِ المَأسَاةِ الثلْجِية المُلْتَهِبَةِ في وجْدَانِي، دَبَّ الدِّفْءِ قسْرًا في شيْطانِ شِعْرِي، فانْتَفَضَ منْ تحْتِ الجَلِيدِ، صَارِخًا باسْمِي:

يا ثَلْجَنا الأعْمَى! "هُـدَى"؟! أيْـنَ الهُدَى؟	يــا أيُّهــا القــاسِي.. ألا تَغْــزُو العِــدَا؟!
مــا لِلْخِيــامِ.. الخَافِقــاتِ.. سُجُوفُــها	نَهْــبَ المَنَــافِي.. والمَــآسِي.. والــرَّدَى؟!
أيـوتُ.. مِـنْ بَـرْدٍ.. ومـنْ جُـوعٍ.. هُنَـا..	أطْفَالُنَــا.. والمُتْخَمُــونَ.. مَـدَى المَـدَى؟!
همْ.. أثْخَنُوا شِعْري.. بحشْرَجَةٍ.. صَـدَاها	في نَزِيــفِ مَشَــاعِرِي.. يــا للصَّــدَى!
أنّي تُعَرْبِــدُ.. يــا صَــقِيعُ.. بِلاجِئــي الـــ	ـعَرَبِ.. الذينَ.. النَّفْطُ..فـيهِمْ.. عَرْبَـدا؟!
المَحْرَقــاتُ.. المَجْمَــداتُ.. تَسَــاوَتَا!	مِــنْ ذِي.. أفِــرُّ.. لِهَــذِهِ! أيْــنَ الفِــدَا؟!
النَّفْطُ.. يَجْمدُ.. إنْ يَفِـضْ دَمْعـي.. دَمِـي!	والـثلْجُ.. يَحْـرِقُ.. وا بَيَاضًــا.. أسْــودَا!
تـــالله.. مــــا القُطْبَـــانِ.. زارا شَـــامَنَا	بــلْ ثلْــجُ إحْسَــاسِ العُرُوبَــةِ.. أزْبَــدا!
يـا ثلْجَنـا.. القـاسِي.. أتَيْـتَ.. تُعِـينُ أعْـــ	ـــدائِي.. لِكـيْ يَبْقـى شِـتائي.. سَرْمَـدا؟!
أوَ لَسْتَ تَخْجَلُ.. مِنْكَ.. إذْ تَغْتَـالُ.. شّعْـــ	ـــبًا.. مُسْــتَهامًا.. بــالعَرَاءِ.. مُشَرَّــدا؟!
أهْطلْ.. عَـلَى الطَّـاغِي.. وزَلْـزِلْ.. عرْشَـه	حتَّـى نَـرَى القصــرَ.. الحَصِـينَ.. تَجَمَّـدَا!
انْحـتْ لـهُ.. مِـنْ نَفْسِـه.. مِـنْ قَصــرِه..	هَرَمًــا.. لفرْعَــوْنَ.. الــذي لــنْ يَخْلُــدَا!

الغوطة:
الجنة/ الجحيم

الغُوطة بيْن الماضي والحاضر، غوطتان: جنة.. ونار، عَمارٌ.. ودَمَارٌ، ويا شتَّانَ ما بيْنَ الغوطتَيْنِ، هذه التي نَرَاها جَحيما على شاشات الفضائيات، وتلك التي نقرأ عنها في صفحات الكتب، باعتبارها الرَّبْوَة ذاتَ القَرَارِ والمَعِينِ، التي ذَكَرَ اللهُ في قُرآنه الكريم أنَّه آوَى إليْها مريمَ وابنَها المسيحَ عليه السلام، تلك التي تُصَنِّفُها كتُبُ الأدَبِيَّات البُلْدانية باعْتبارها أجْمَلَ جِنَان الأرْض الأرْبَع المُتَوَاتَرِ علَى تَفَوُّقِها على غيْرها، حيث يقولُ ياقوتُ الحَمَوِيُّ: إنَّ "الغوطة: هي الكورة التي منْها دمشق، استدارتُها ثمانية عشر مِيلا، يُحِيطُ بها جِبالٌ عالِيةٌ من جَميعِ جِهاتِها...ومِياهُها خارجةٌ من تلْكَ الجِبَالِ وتَمُدُّ في الغوطة في عِدَّةِ أنْهُرٍ، فَتَسْقِي بَساتِينُها وزُرُوعُها ويَصُبُّ باقِيها في أجمَةٍ هُناكَ وبُحَيْرَةٍ، والغوطةُ كلُّها أشْجارٌ وأنْهارٌ مُتَّصِلَةٌ... وهي بالإجْمَاعِ أنْزَهُ بِلادِ الله وأحْسَنُها مَنْظَرًا، وهي إحْدَى جِنَانِ الأرْضِ الأرْبَعِ: وهي الصّغدُ والأبلّةُ وشِعْبُ بوّانَ والغوطةُ، وهي أجَلُّها".

يا ليْتَ هذا "الحَمَوِيَّ" يطلُّ من صفحات "مُعْجَمِ البُلْدَانِ".. ليَرَى دِمَاءَ أبْنَاءِ الغوطةِ، فاضتْ بَدَلَ أنْهَارِها الجاريةِ، التي كانوا يقولون: إنَّ "مَخْرَجَ مائها.. أوَّلَ ما يَخْرُجُ مِقْدَارُه ارْتِفاع ذِرَاعٍ في عرْض بَاع، ثمّ يَجْرِي في شُعَبٍ تتفَجَّرُ فيها العُيونُ (والأنهار).. فيُفْضِي إلى قُرَى الغوطةِ، وَيَجْرِي المَاءُ فِي عامَّةِ دُورِهم وسِكَكِهم وحَمَّامَاتِهم".

انظروا -أيُّها المُؤرِّخون والجغْرافيُّونَ- لترَوْا تلكَ الدُّورَ العامِرَةَ أنْقاضًا فوْقَ جُثَثِ أهْلِها، التي لمْ يَعُدْ يَسْقِيها غيْر شَلالاتِ دِمائِهم النَّازفة.

مَنْ يُخْبِرُ أبَا الفرَج البَبَّغَاءَ أنَّ هوَاءَ الغوطة النقيَّ المُنْعِش، قدْ لوَّثَته الغازاتُ السامَّة، ودُخَان حَرائقِ القصْف، ورائحةُ الموْت، فلمْ يَعُدْ مثْلَما كانَ يَراهُ "هِبَةَ الدَّهْرِ"، حينَ قال:

ويـــوْمٍ كـــأنَّ الـــدهْرَ ســـامَحَني بِـــه   فصـارَ اسْـمُه -مَـا بيْننـا-   هِبَـةَ الـدَّهْرِ
بحَيْـــثُ هَـــوَاءُ الغُـــوطتَيْنِ مُعَطَّـــرُ الـــ   ـــنَّسيمِ بأنْفـــاسِ الريَـــاحِينِ والزهْـــرِ

هنا التاريخُ السَّلْبِيُّ -وحْدَه- يُعِيدُ نفْسَه، فالرئيسُ السُّوري، يتمثَّل الآنَ مَوْقِفَ" اليزيد" حين كانَ مُعْتَكِفا فِي "دير مرَّان" -بالغوطةِ هذه- يُعاقِرُ نَزَوَاتِه، فأُخْبِرَ ببْعْضِ مَصائبِ رَعِيتِه على يَدِ الرُّومِ، فرَدَّ عليْهم، سادِرًا في غيِّه:

ومـــا أبَـــالِي بـــمَا لاقـــتْ جُمُـــوعُهم   بالغذقذونـــة مِـــنْ حُمَّـــى ومِـــنْ مُـــومِ
إذا اتَّكَـــأتُ عـــلَى الأنْـــماطِ مُرْتَفِقـــا   بـــبطْنِ مـــرَّانَ عنْـــدِي أمُّ كلْثُـــومِ

أَيُّها التاريخُ الزاهرُ فِي الشَّامِ عُمُومًا، وغُوطَةُ دِمِشْقَ خُصوصًا، لماذا لا تُعِيدُ أنت أيْضا نَفْسَكَ، يوْمَ قالَ عبْدُ الله بن قيْس الرُّقيَّات:

أجَلَّـــكِ اللهُ.. والخليفـــةُ.. بالـــ   ـــغوطةِ.. دارًا.. بهـــا بَنُـــو الحَكَـــمِ
المـــانِعُو الجـــارِ.. أنْ يُضـــامَ.. فـــمَا   جَـــارٌ.. دَعَـــا فِـــيهمُ.. بِمُهْتَضَـــمِ

أمْ أنَّك أيُّها التاريخُ العَرَبِيُّ لمْ يَعُدْ يَرُوقُ لكَ اليَوْمَ منَ الشِّعْرِ إلا غَرَضُ البُكاءِ على الأطلال، لأنَّ علم السياسة الساري المفْعول الآنَ بيْن حُكَّامِنَا له خاصيةٌ كيميائية، ذاتُ قُدْرَةٍ سلْبِيَّةٍ، عَلَى تغْييرِ التاريخ والجغرافيا، والدِّيمغرافيا، والحَضَارَةِ، وتحْويلِ كلِّ الجَنَّاتِ إلى نِيرانٍ، فهذه "الغوطة" التي كان الخوارزميُّ يقول عنْها: (طفْتُ جوانبَ الأرضِ الأرْبَعَةِ، فكانَ فضْلُ غوطةِ دمشق عليْها كفَضْلِها على غيْرِها، كأنَّها الجَنَّةُ صُوِّرَتْ علَى وجْهِ الأرْض)، لم يَعُدْ يَصْدُق عليْها في هذه الأيام، غيْر قوْل ابْن قيس الرقيات نفْسِه:

أقْفَـــرَتْ مِـــنْهُم الفـــراديسُ.. فـــالغُو   طَـــةُ ذاتُ القُـــرَى وذاتُ الظِّـــلالِ
فضـــميرٌ.. فالمـــاطرُونَ.. فحـــورا   نَ.. قِفَـــارٌ.. بَســـابِسٌ الأطْـــلالِ

أجَلْ، إنَّ الشَّامَ عُمومًا مسْكونَةٌ بجَدَلِ الأضداد، في كيْنُونَتِها، ممَّا يُعْطِي مَشْرُوعِيةً ومِصْداقِيةً لاقْتِراحِ هذا العنْوان المَحْكُوم بثنائية الجنَّة والنَّار، وكما أنّه "من الحُبِّ ما قتلَ"، فإنَّ من الجَمَالِ -أيْضا- مَا قتلَ، وكما يَمُوتُ أبْناءِ الشَّامِ اليَوْم بجَحِيم السياسةِ، كانوا -تاريخيا- يَمُوتُونَ بنَعِيم الجغْرَافِيا، حيث "كانت العربُ تقول: مَنْ خرجَ إلى الشَّامِ نَقصَ عُمرُهُ، وَقَتَلَهُ نَعيم الشام، وأنشد ثعلب:

يقولون:

إنَّ الشـــــامَ يقتــــــلُ أهْلَـــــــه فَمَــــنْ لِي إنْ لمْ آتِــــهِ بِخُلُــــودِ"؟!

إنَّه جَدَلُ الفَنَاءِ والخُلُودِ.. إنَّها "الشَّامُ صفْوَةُ اللهَّ مِنْ بَلادِه"، التِي "يسْكُنُها خِيرَتُه من عِبَادِهِ"، كما تقولُ بعْضُ الرِّوَاياتِ الدينية، تبْدُو اليوْمَ نَاشِبةً بيْنَ بَراثِنِ" الأسد السُّوري"، و "الدُّبُّ الرُّوسِي"، يُحاوِلانِ فيها -معَ بَقِيةِ وُحُوشِ الغَابَةِ- تَحْوِيلَ "الجِنَاسِ الناقِصِ" الشّرّيرِ بيْنهما، إلى "جِناسٍ تَامٍّ" مُسْتحيل.

فهلْ هُناكَ منْ بَصيصِ أمَلٍ للنصْر، في آخر النَّفَق المُظلم، قبْل الوعْد الإلاهيِّ بنزول عيسى -عليه السلام- بغوطة دمشق، مَهْبطه المُنْتَظَر، باعتبارها -حَسَبَ الحديث النبوِيِّ-" هي فسْطاطُ المُسْلِمينَ يوْمَ المَلْحَمَةِ الكُبْرَى"؟

وفي انْتظارِ الحَلِّ المُنْبَثِقِ منَ الأرْضِ، أو النَّازِلِ منَ السماءِ، نُدَنْدِنُ معَ الشاعر الصنوْبَرِيِّ، سُؤالَه المُتَلَهِّفَ:

مَتَـــــى الأرْحُـــــلَ مَحْطُوطَـــــهْ وعِــــيرُ الشــــوْقِ مرْبُوطَـــــهْ
بــــــأعْلَى "ديــــــر مَــــــرَّانٍ فــــــــدَارَيَّا إلى الغُوطَــــــــهْ
فشَــــــطَّيْ بَــــــرَدَى فِي جَنْــــــبِ بُسْــطِ الــرَّوْضِ مَبْسُــوطَهْ؟!

موريتانيا.. والسودان:
توأمة أزلية

سعدنا مساء الخميس الماضي -في الدوحة- بالاستماع إلى تجربتي الصحفيين المتألقين، هرمي "الجزيرة": بيْبه ولد امهادي.. وفوزي بشرى، الذين يدرَّس في الكليات الإعلامية أسلوب كل منهما في مجاله، باعتبارهما ظاهرتين صحفيتيْن، فريدتيْن، وهما خير من يمثل، التوأمة الأزلية، بين الشعبين العريقين، الطيبين، وكانت أجواء الإخاء الحميم، والخلق العظيم، تبث الدفء.. من بوابة الاستقبال والتسليم، إلى منبر ومنصة التقديم، وحتى داخل قاعة الجمهور الكريم.

إنها الحفاوة نفسها، التي كان السودانيون يستقبلون بها، ركب الحجيج الشنقيطي قديما، فيرافقونه إلى الحرمين ذهابا، حتى يعودوا به إيابا، ليستبْقوا من رموز أجلائه من استطاعوا، وكم أفلحوا في استدراج خيرة علماء" الشناقيط"-كما يسومنهم- للبقاء معهم، بجاذبية كرم الضيافة، والأريحية، والبساطة، والتلقائية، مع عزة النفس، وإباء الضيم، والتدين، وحب العلم وأهله، حيث كانت هذه المنظومة الأخلاقية، تمثل المشترك بين الشعبين، إضافة لتقارب البيئتين، لدرجة تكاد تكون كل منهما مرآة للأخرى، حيث النهر عندنا، يؤاخي النيل عندهم، ومحيطنا الأطلسي، يساجل بحرهم الأحمر، والواحات هناك، تناغي الواحات هنا، والصحراء تنافس الصحراء... والفضاء يماثل الفضاء...وهكذا تجاذبت الأرواح المتعارفة.. أزلا، في برازخها العليا، وتلاقحت المعارف، أخذا وعطاء، بين الوافد، والأصيل، وتفاعلت العادات، والأعراف، وحتى الأزياء، بين الضيف والمضيف...حيث لا زالت الملاحف مشترك الزي النسوي هنا وهناك، والعمائم والفضفاضات البيض، مشترك الزي الرجالي بين الشعبين.

وفي "لقاء التجربة" بين هرمي الصحافة والثقافة ذينك، رأينا التاريخ يعيد نفسه، فيقارب ما باعدته الجغرافيا، حيث، وصل الأحفاد رحم الأجداد، وأحيوا عريق الوداد،

فتجسدا في الضيفين النجمين: "بيه"، و"فوزي"، وفي المستضيفين: "المنبر الموريتاني الثقافي"، منظم اللقاء، و"المركز الثقافي السوداني" بالدوحة، محتضن الحدث.

وقد رأيت في نهاية هذا اللقاء أن الشعر لا ينبغي أن يغيب عن أي منبر مشترك بين موريتانيا، والسودان، باعتبار أن حب الشعر، وحرارة التفاعل معه، كانت -هي الأخرى- قاسما مشتركا بين الشعبين، حسب ما برهنت عليه مواسم برنامج "أمير الشعراء"، حيث كان مدرج "مسرح شاطئ الراحة"، في أبوظبي، لا يمتلئ بشكل عفوي، إلا في ليالي المشاركات الموريتانية والسودانية، ومؤشرات التصويت -أيضا- على الشعراء لا ترتفع -بشكل مذهل- إلا على فرسان المسابقة من البلدين، وهكذا بادرت عندما حظيت بالوقوف بين بين ذينك الهرمين الصحفيين، بإلقاء هذه الومضة الشعرية المرتجلة:، متقمصا فيها عميق الصلات العريقة بيننا معا:

شـــنْقيطُ.. والسُّـــودانُ.. كانَـــا تَوْأمـــا   أحْـلى الخِصـالِ.. سـيَبْقيانِ.. هُـمـا.. هُـمـا!

نَهْـرَانِ.. فاضَـا.. فِي الوُجُـودِ.. قصـائدا   ومحامدا.. تشْـدُو.. بهـا.. الأرْض.. السَّـما!

صوْتان – رغْم البُعْـد.. مـا اخْتلفَـا صَـدًى   مِـــلْءَ المَنَـــابِرِ.. يُعْرِبَـــان... المُعْجَـــمَا!

رمْــزَانِ.. للعمْــق البسـيطِ.. تَواضُـــعا   والويْـــلُ.. كـــلّ الويْـــلِ.. إنْ لمْ يُكْرَمَـــا!

أفْــدِي.. مَلاحِفَنَــا.. عَمائمَنَــا.. مَعًــا   فلــنعْمَ.. تيــكَ.. مَلاحفــا.. وعَمائــما!

مـا تحْـتِ.. تلْـك.. سِـوَى جَمَـالٍ.. طَـاهِرٍ   مـا تحْـتَ.. ذِي.. إلا تقـى.. ومَكارمَـا!

قمة موريتانيا.. انتماؤنا العربي المغدور

إن موريتانيا حسمت جدل عروبتها، وتجاوزت شفرة الجينات، بقول شاعرها:

إن لم تقـــمْ بينـــاتٌ أننـــا عَـــرَبٌ ففـــي اللســـان بيـــانٌ أنَّنـــا عَـــرَبُ

وقد ارتبطت -قدَرَا- بالشعْر واللغة العربية، وعلومها، وبصمتْ هُويتَها -في الذاكرة الجمعية- بذلك أكثر من أي قطر آخر، مهْما كان تأصله في البيئة العربية، ومهْما كان بُعْد منتبذها القصي، في تخوم الخريطة هناك، غير أنها -بعد استقلالها عن المستعمر الفرنسي- وجدت معارضة قوية لانضمامها لجامعة الدول العربية، من طرف بعض أخواتها، لدرجة أنها انتسبت للأمم المتحدة قبل انتسابها لهذه الجامعة، يا للعار!

وأخيرا، حين سئم العالم العربي من قممه المنعقدة/ المنحلة/ بلا جدوى، وبقيت قمته السابعة والعشرون معلقة في الهواء، لا تجد من يستضيفها، أشرعت موريتانيا خيمة ضيافتها المفتوحة لأشقائها العرب، لتنقذ الموقف، وسمَّتْها ب"قمة الأمل"، مع أن لا أملَ في تمَخُّض أي من قممنا عن قاعدة عربية مهمة؛ ومع ذلك تحركت غريزة أخوة يوسف في دماء بعض أشقائها، فسخر الوفد اللبناني -مثلا- من أهلية بنيتها التحتية الهشة لاستضافته، وكأنه قادم من كوكب غير بيروت، التي كان حسنا العربي الإنساني الأصيل يرى ركامها ونفايتها وأشلاءَها -في لحظات النكبات- بعين الشاعر المرهف الذوق، العميق الانتماء لأبناء وطنه العربي الكبير، أينما كانوا، وكيفما كانوا، حتى أنه يهتم بالقضية الفلسطينية خصوصا، والقضايا العربية عموما، أكثر من تفاعله مع قضاياه الداخلية، فذاكرتنا الأدبية مدجَّجة بنصوص شعرية موريتانية كتبت على إيقاع اجتياح بيروت 1982م، تتماهي فيها بيروت، مع القدس، ومع كل الشام، وكل البلاد العربية، حيث يقول شاعرنا ومفكرنا الخليل النحوي، في قصيدة طويلة، بالمناسبة النازفة:

بــيروت أنــت القــدس.. أنــت ديارنــا أنـــت الشـــآم.. وكـــل أرضي شـــام
في كـــل قلـــب منـــك نـــبض عاصـــف وبكـــــل صـــــدر أنّـــــة وســـــقام
وبكـــل جســـم منـــك جـــرح نـــازف أنـــت الجـــراح.. وكلنـــا أجســـام
فـــإذا ركعـــت فأنـــت حـــرّ وجوهنـــا وإذا هويـــت فأنـــت منـــا الهـــام
بـــيروت صـــبرا يـــا أعـــزّ أســـيرة في كـــل بيـــت.. والبيـــوت ركـــام

والحقيقة أنَّ الشعراءَ ينظرون إلى المستقبل من وراء ستْر رقيق، فكأنَّ شاعرَنا الآنفَ الذكْر، كان يستمع إلى سخرية الوزير اللبناني من البيئة الصحية في موريتانيا، ومن خيمتها المضيافة، التي التأم تحتها -في النهاية- شمل العرب الشتيت، الذي غلبت فيه جموع التكسير جمعي المذكر والمؤنث السالمين، فقال:

لم يبـــــــق في الصـــــــحراء إلا أرزة لم يعـــــــدها ظـــــــل ولا أنســـــــام
لم يبـــــق إلا خيمـــــــة عربيـــــــة لم يبـــــق إلا صـــــهوة وحســـــام
لا تيـــأسي.. لا تيـــأسي.. فلنـــا عـــلى علاتنــــا همــــم ســــمت وذمــــام
فلــــرب قارعــــة تنبــــه نــــائما ودم جــــرى فتفتقــــت أكــــمام

وعلى كل حال، فتحت موريتانيا صدرها الجريح، للإخوة اللبنانيين، وأفردت لهم جناحيها بترحيبها المعهود، وأشعرتهم أن ظل خيمتها وارف لكل مؤتمري القمة العربية، بدفء المحبة والكرم، وأرت صحافتهم المقصورات الفخمة التي كانت معدة لضيافتهم، وكأن لسان حالها يقول لهم:

ومتـــى نكـــف عـــن البكـــاء.. فإنـــه غـــاض الكـــلام.. وجفـــت الأقـــلام
آلامنـــا رحـــم العـــلى ومخاضـــها فمتـــى ســـتنجب هـــذه الأرحـــام؟
بـــيروت أنـــت قصـــيدنا ونشـــيدنا كـــل الهـــوى إلا هـــواك حـــرام

إنّني إذا عرجت على لبنان، في هذه الزاوية، ولو عبر وقفة طللية، فأنا أستجيبُ لصوْت كبير شعرائنا المعاصرين: أحمد بن عبد القادر، الذي هتف بنا منذ مجزرة "صبرا وشاتيلا " 1982م:

عـــرِّجْ بلبْنـــانَ واذْرِ الـــدَّمْعَ مُنَســـجما واشْـــكِ الهُمُـــومَ.. ولا تَسْـــتَنْهِض الهِمَـــما

عاد الوفد اللبناني، وهو محرج -في عمق روحه- بعدما تجلت له موريتانيا أفضل على الأقل مما كان يتصور عنها، ولو كنت في وداعه لهمست في أذنه بمقطع قصير من قصيدتي حول "قانا" 2006م:

آهِ.. يا لبْنانَنَا!

يا طائرَ الفينيقِ!

عُدْ لي من رَمادِكَ.. وانتفضْ..

رفْرفْ.. على الأنْقاضِ.. والأشْلاءِ..

وانثرْ سِحْرَكَ الفتّانَ..

تمْحُو القبحَ.. والموتَ المُعَانَى!

ريـــادة شنقيـط المجهـــولة
للنهضة العربية الأدبية

إنها ظاهرة تستحق منا وقفة استغراب وعتاب، تلك هي تغييب الدور الموريتاني في تأسيس النهضة الثقافية العربية، حيث إننا إذا رجعنا إلى المقررات الدراسية في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج لا نجد لموريتانيا موقعا في خارطة الدراسات التي تتناول النهضة الثقافية الحديثة في هذا الوطن، ابتداء من دخول نابليون لمصر وحتى الآن، هذا على الرغم من أن الواقع لا يُثبتُ تحققَ المُساهمة الموريتانية في هذه النهضة فحسب، وإنما يُثبتُ ريادة بلاد شِنقيط لهذه النهضة زمانا ومكانا وكما وكيفا.

ومها يكن حجم الصدمة الناشئة عن الانتقال من جهل مشاركة موريتانيا في هذا السياق، إلى دعْوى ريادتها بشكل حاسم، فإنَّ لكلِّ دَعْوَى بَيِّنَة، وذلك ما سنستعرضه في هذه العجالة:

أولا: الريادة من حيث الزمان والمكان

وهنا نرى الدكتور محمد المختار بن أباه قد تتبع مُنْحَنَى رحلة الإبداع في حضارة العرب وأدبها عبر فضاءيها المكاني والزماني، فإذا هي "قد نشأتْ وتفجَّرتْ في قلب الجزيرة قبل ظهور الإسلام وبعده، وتفتقتْ أزهارُها في العِراق والشام خلال القرن الرابع والخامس، وازدهرتْ في السابع والثامن في مصر وأفريقية والأندلس، واحْتضَنها المَغرب الأقصى في القرنين التاسع والعاشر، وقبْل أنْ تعودَ إلى المَشرق من جديد، فإنَّ صحراء شنقيط من مُنْحَنَى النيْجر، إلى ضِفاف الأطلس، قد حملتْ لواءَها وأعادتْ لها نضرة الشعْر الجاهلي ومتانة أسلوبه، وزخرفة الآداب العباسية ومالها من حسن البيان، وغذتْها بقيمها الروحية، فانصهرتْ عناصرها في أدب متكامل وغني".

ولقد أدرك د/ طه الحاجري -بشيء من الاستغراب والاندهاش- أن واقع الأدب الشنقيطي في هذا الصقع العربي البدوي النائي خلال تلك الحقبة الحالكة من تاريخ أدبنا

العربي، كان يمثل استثناء منقطع النظير، يكسر سيادة مفهوم الانحطاط أو الضعف المهيمن على الأدب العربي في مشمول زمانه ومكانه من سقوط بغداد، وحتى دخول نابليون لمصر، فقال: إن الصورة التي أتيح لنا أن نراها لشنقيط في هذين القرنين 12 و 13 هـــ جديرة بأنْ تُعَدِّلَ الحُكم الذي اتفقَ مؤرِّخُو الأدب العربي على إطلاقه في هذه الفترة التي يغطيها كتاب "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط"، مؤكدا أنه إذا كانت صورة الأدب العربي الذي أطلق عليه هؤلاء حكمهم، تبرر ذلك "بما تمثل من الضعف والركاكة والفسولة في صياغته وصوره ومعانيه"، فإن صورة الأدب الموريتاني كما يقول: "تمثل لنا الأدب في وضع مختلف يأبى هذا الحكم أشدَّ الإباء" ولكي نضعَ النقاطَ على الحروف، في سياق استثناء موريتانيا من سيادة عصر الضعف، وريادة الأدب الشنقيطي للنهضة العربية الحديثة، يذكرنا الأستاذ الخليل النحوي في كتابه (شنقيط المنارة والرباط) بأن الشاعر سيد عبد الله ابن رازكة رائد الشعر الشنقيطي ومُحْيي الشعْر الأندلسي البعيد عن الانحطاط، قد توفي سنة 1731 م قبل ميلاد البارودي بـ107 سنوات، كما انبرى د/ أحمد بن الحسن (جمال) في أطروحته عن الشعر الشنقيطي في القرن 13هـ لدعم وجهة نظر الحاجري بمعطيات تاريخية دقيقة، حيث أثبت أن الشاعر محمد بن الطلبة مُحْيي الشعر الجاهلي في موريتانيا، قد ولد سنة 1774 أي قبل البارودي بـ64 سنة وتوفي عام 1856 والبارودي يومها ابن 18 سنة، وذلك قبل ميلاد شوقي بـ13 سنة ، كما أن ابن الشيخ سيديا –وقد طرح في قصيدته العينية المشهورة إشكالية التجديد والتقليد– توفي سنة ميلاد أحمد شوقي 1869

ثانيا: من ناحية الكم

لقد استطاع أحمد بن أمين الشنقيطي نزيل القاهرة مع غياب مراجعه ووثائقه أن يُدَوِّنَ في كتابه (الوسيط في تراجم أدباء شنقيط) نماذج شعرية لـ82 شاعرا من أبرز شعراء البلاد خلال القرنين 12 و 13 هـ، أورد لهم حوالي 4500 بيت، ثم أضاف الأديب اللبناني يوسف مقلد إلى ما جاء في الوسيط نماذج لـ25 شاعرا ضمن كتابه (شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون)، فارتفعت مدونة الشعر الشنقيطي المنشور بصدور كتابه إلى نحو 6000 بيت، كما أضاف د/ محمد المختار بن أباه في كتابه (الشعر والشعراء في موريتانيا) ستة آلاف بيت أخرى موزعة بين 94 شاعرا، 53 منهم لم يذكرها الوسيط، ونحن هنا ننبه إلى أنه ما تزال –في

البلد– نصوص لم تُدَوَّنْ، ولم تنْشَرْ، قد تَصِلُ بهذه الْمُدَوَّنَةِ إلى أضعاف حجمها المنشور حتى الآن.

ثالثا: من ناحية الكيف

إذا كان رُوَّادُ النهضة في الأدب العربي قد اكتسبوا صفة الريادة من احْتذائهم لنماذج الشعر العباسي وغيره، والعودة بالشعر إلى تلك الحِقَب الْمُضيئة، والارتفاع به عن درك الإسفاف الذي كان يتردَّى فيه طيلة ما سُمِّي بعصر الضعف، فان في المقولات السابقة ما يشهد على عودة شعراء نهضتنا الشنقيطية الرائدة إلى أجمل هاتيك العصور، حتى صنف نقادنا مدونتنا الشعرية على أساس انطباعها بالبصمات الفنية لتلك الحقب، فكانت هناك المدرسة الجاهلية بريادة ابن الطلبة، والمدرسة الأندلسية بريادة بن رازكه... مع أن معظم النقاد حرصوا على أن يُبَيِّنُوا أنَّ علاقة هؤلاء الشعراء بالتراث في عصوره المختلفة لم تقتصر على التقليد الحرفي، وإنما أضافت إلى قوالبه ومضامينه بصماتها الذاتية المتميزة. وفي هذا المضمار يقول الأديب العراقي عبد اللطيف الدليشي في كتابه (من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة: الشيخ محمد أمين الشنقيطي): "إن الدارس قد يعجَبُ لكثرة ما يجد من الأعداد الْمُتزايدة من هؤلاء الشعراء الفُحول الْمُجيدين العريقين في الجزالة اللغوية، والصور الشعرية الجميلة الرائعة المبتكرة، في شتى الأغراض... إن هؤلاء الشعراء الشناقطة شعراء فحول لا يَقِلُّونَ مُسْتَوًى عن أمثال المتنبي والبحتري وشوقي والرصافي". وقد يكون هذا الإحساس موجودا لدى الشعراء الشنقيطيين أنفسهم، وهو ما يمكن أن نجد له صدًى واضحا في النقاط التالية:

ظاهرة المعارضات الشعرية

تلك الظاهرة التي سادت الشعر الشنقيطي، وتزعَّمَها الشاعر محمد بن الطلبة، الذي عارض ميمية حميد بن ثور، وجيمية الشماخ بن ضرار، ولامية الأعشى، وكان يثق بالتفوق على هؤلاء المتقدمين العباقرة، في هذه الْمُبارزة الفنية، ويستشرف إصدار الحُكْم الفصْل من قِبَلِ لجْنة تحكيمٍ من أهْلِ الجَنَّة "في دار الحق" لا يَتَطَرَّقُ إلى حُكْمِها الرَّيْبُ، وهنا يجدر التنبيه إلى أن الأستاذ سيد احمد بن الدَّيْ، سفير موريتانيا السابق في تونس، لم يستبعدْ أنْ يكونَ أحمد شوقي –في معارضاته للشعراء القدماء– قد تأثر بابن الطلبة، في معارضاته هذه، وخصوصا أن كتاب الوسيط قد نشر في مصر سنة 1911.

إشكالية التقليد والتجديد

وهي مربط الفرس في النهضة الثقافية الحديثة، وقد طرحت إشكاليتها المؤرقة أوضح ما تكون -قبل البارودي- عند الشاعر الشنقيطي الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيديا في قصيدته العينية، التي تشخص أزمة الإبداع بعمق، منطلقا مما حام حوله عنترة في قوله: (هل غادر الشعراء من متردم)، حيث يقول شاعرنا في ثقة مطلقة بذاته:

يا معشرَ البُلغاء هلْ منْ لوْذعي يُهْدِي حِجاهُ لِمَقْصَدٍ لمْ يُبْدَعِ إني هممتُ بأنْ أقولَ قصيدةً بكْرًا فأعْياني وُجُودُ المَطْلَعِ لكمُ اليَدُ الطُّولَى عليَّ إن أنتمُ أَلْفَيْتُمُوهُ بِبُقْعَةٍ أَوْ موْضعِ ... إنَّ القَريضَ مَزَلَّةٌ مَنْ رامَهُ فهو المُكَلَّفُ جَمْعَ مَا لمْ يُجْمَعِ إنْ يِتْبَعِ القُدَمَا أعَاد حَدِيثَهمْ بَعْدَ الفُشُوِّ وَضَلَّ إنْ لمْ يَتْبَعِ

الخلاصة

الواقع أن ريادة بلاد شنقيط لهذه النهضة العربية الثقافية لم تقتصر على مجال الشعر، وإنما امتدتْ إلى غيره من الحُقول، حيث يقول الأديب العراقي عبد اللطيف الدليشي:"من الشناقطة علماء قد لا نغالي إذا قلنا عنهم إنهم لا يَقِلُّون أهمية عن جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشاد رضى، وأبي السناء الألوسي، وعثمان بن سند، وأضرابهم".

ولعل مثال ابن التلاميد والمجيدري وغيرهما حاضرة في الذاكرة المشرقية، وعلى الرغم من هذا كله فان الإسهام الشنقيطي في هذه النهضة ظل مغيبا، مما جعل الدكتور أحمد بن الحسن (جمال) يقول: "إن الأحكام المتداولة في تاريخ الأدب العربي قائمة على تدوين ناقص، ينطلق من المركز، ويتجاهل الأطراف" وانتهى إلى التساؤل المشروع:"هل يؤدي بنا هذا إلى القول إن النهضة الحديثة في الأدب العربي بدأت في بلاد شنقيط، ولكنها كانت ضحية مؤامرة صمت"؟!

ولعله من الإنصاف أن نوضح هنا مع د/ محمد المختار بن أباه أن المسؤولية عن تغييب هذا الأدب وإدماجه في سيرورة النهضة، هي مسؤولية مشتركة، "فيظلمه أبناؤه من موريتانيا إذا لم يجتهدوا في التعريف به، ويظلمه العربُ إذا أعرضوا عن التعرُّف عليه".

وقد لخص الأستاذ الخليل النحوي ذلك، حين دعا مؤرخي الأدب العربي إلى توسيع دائرة اطلاعهم ما أمكن، واعتبر أن الشناقطة لم تتهيأ لهم الفرص الكافية للنهوض بقسطهم، ولعل الدليشي كان أكثر صراحة في هذا المجال حين قال: "إن للأقطار العربية خاصة والإسلامية عامة أنْ تُدْخِلَ في برامج مدارسها دراساتٍ وافيةً ضافيةً عن علماء وشعراء وأدباء شنقيط".

ولكن من المُفارقات المُخْجلة أنْ يعلمَ الدليشي أنَّ القطر الموريتاني نفسه أحوجُ إلى أنْ توُجَّهَ إليه هذه الدعوة، فنحن -ويا للأسف- لا نضَعُ أدَبَنَا في مُقَرَّرَاتنا الدراسية بشكل كاف، فأبناؤنا يعرفون عن جمال الدين الأفغاني، والبار ودي وغيرهما ما لا يعرفون عن ابن التلاميذ وابن الطلبة وسواهما من أدبائنا.

فإلى متى تبقى المسؤولية عن تغييب دور موريتانيا في هذه النهضة مشتركة بين أبناء البلد وإخوانهم من العرب؟ وهل تجد هذه الصرخة صدى في داخل موريتانيا وخارجها، حتى نتلافى مؤامرة الصمت المزدوج؟

1995

بلاد المليون شاعر:
أسطورة الواقع.. وواقع الأسطورة

استمرارا لتداعياتِ أسْماءِ مُوريتانيا الكثيرةِ المُتَغيرَة، وتَعَدُّدِ الخَلْفياتِ الكامِنَةِ وراءَ ذلك، حَسَبَ ما توَقَّفْنا أمَامَه، في الحَلقَةِ الماضية، واعْتبارًا للْمَقولَةِ المَأْثُورَةِ: "كلُّ شَيء حَظٌّ من اسْمِه"، فإنَّني أعْتقدُ أنَّ تسْميةَ هذه الدوْلة "بلادَ المليونِ شاعِرٍ"، يَسْتَحقُّ -رُبَّمَا أكْثَرَ من غيْره- وقْفَةً خاصةً، لاسْتِجْلاءِ مَالَهُ ومَا عَليْهِ.

فصِفَةُ المِلْيُونيةِ مُبَالَغَةٌ قديمةٌ مُتَجَدِّدَةٌ في الإعْلامِ العَرَبي الحَديثِ والأحْدَثِ، حيْثُ وصفَ العراق بأنَّه "بَلدُ المليونِ نَخْلةٍ"، والجَزائر"بلَدُ المليونِ شَهيدٍ"، ثُمَّ وُصِفَتْ موريتانيا بأنَّها"بَلَدُ المليونِ شَاعِرٍ"، واليوْمَ تتنافسُ مُظاهَرَاتُ الثوراتِ العربيةِ بالمليونيات، وكلُّ هذه الإطْلاقاتِ الإعلاميةِ مُبالغاتٌ مجَازيةٌ مُؤَسْطَرَةٌ، بِدُونِ شَكٍّ" إلاَّ أنَّ الأسْطورَةَ لاَ تَنْبتُ مِنْ فَرَاغٍ، فلاَ بُدَّ لَها منْ وَاقِعٍ قابِلٍ لِلأَسْطَرَة، وهذا مَا تُمَثِّلُه العَلاقَةُ الحَمِيمَةُ بيْنَ المُوريتانِي والشِّعْر، الَّتِي جَعَلَتْ بعْثَةَ مجَلَّةِ " الْعَرَبي" الكويتية 1967م تُطْلِقُ هذه التَّسْمِيةَ عَبْرَ تقريرها المُعَنْوَنِ بـ "انواكشوط: أحْدَثُ عاصِمَةٍ ثقافية، فِي أقْصَى مَنْطِقَةٍ منْ وَطَنِنا العَرَبي"، فَعِنْدَمَا زارَتْ مُوريتانيا، انْبَهَرَتْ بانْتِشارِ الثقافةِ الشِّعْريةِ بيْنَ المُواطنينَ الموريتانيينَ إنْتاجاً، أوْ رِوَايَةً، أو اسْتِشْهَادًا، أوْ تَمَثُّلاً، فسَأَلُوا عنْ عددِ سُكَّانِ الدَّوْلَة، فَقِيلَ لهمْ: مليون نَسْمَة، فقالوا: إذنْ أنتمْ مليونُ شاعِرٍ، لأنَّ كلَّ السُّكَّانِ يَتَعَاطَوْنَ الشِّعْرَ بطرِيقَةٍ أوْ بِأخْرَى.

ومِمَّا يَدْعَمُ هَذا الأساسَ الواقِعِي لأسْطَرَةِ العلاقةِ بيْنَ مُوريتانيا والشِعْر، أنَّ الانْبِهَارَ الذي حَدَثَ لِمَجَلَّةِ "العربي" قدْ حَدَثَ قبْلَها حَتَّى لِلْمُسْتَعْمِرِ الفَرَنْسِي، حِينَ دَخلَهَا، وهو يَتَصَوَّرُهَا بِيئَةً مُناسِبَةً لاخْتِراقِ هُوُيتِها الثقافيةِ، كبَقِيةِ مُسْتَعْمَراتِه الإفْريقية، التي لمْ يَجِدْ صُعُوبَةً

فِي الهَيْمَنَةِ عليْها وفرْنَسَتَها، لاسِيَما أنَّ موريتانيا"شنْقيط" كانَتْ -يَوْمَئِذٍ- مُجَرَّدَ إقْليمٍ، بَدَوِيٍّ، مُتَسَيِّبٍ من أيِّ سُلْطَةٍ مَرْكزية، والبَدَاوَةُ رَدِيفَةٌ للجَهْلِ، حَسَبَ نظرية ابْنِ خُلْدون، وغيْره منْ عُلَمَاءِ الاجْتِماعِ والإنْترْبُولوجيا، إلاَّ أنَّ هؤلاءِ المُسْتَعْمِرينَ تَفَاجَأوا -خلالَ تَقْريرٍ لهمْ سنة1937م- بأنَّه "لا يُوجَدُ مُجْتَمَعٌ بَدَوِيٌّ بلَغَ مَبْلَغَ البِيضَانِ، وهمْ المُوريتانيون، فِي العِلْمِ بالعَقيدة، والتاريخ، والأدَب، والفقْه، وعلوم العربية، إنَّهمْ يَتَحَدَّثُونَ العَرَبيةَ الفُصْحَى، بِسُهُولَةٍ ويُسْرٍ، أفْضَلَ مِنْ تونسَ والقاهرة، ولا يَنْدُرُ أنْ تَجِدَ بيْنهمْ رَاعِي إبِلٍ-منْ أبْسَطِ الرُّعَاةِ- يَتَغَنَّى بالشِّعْرِ الجاهلي".

والحَقِيقةُ أنَّ مُبَرِّراتِ أسْطَرَةِ هذه العَلاقة بيْنَ الموريتانيين والشِّعْر ما تزالُ ساريةَ المَفْعُول، حيثُ يُزَكِّيها تفَاعُلُهمْ الخَلاَّقُ، والمُنْقَطِعُ النَّظِيرِ، مَعَ شُعَرائِهمْ، حتَّى فِي بَرامِجِ المُسابَقاتِ الشِّعْريةِ الدوْليةِ والمَحَلِّيةِ، التي لا تَسْتَطِيعُ البُلْدانُ العَرَبيةُ الغَنِيةُ، ولا الكَبِيرةُ عَدَدًا، أنْ تُجاريهمْ في التَّصْويتِ بسَخَاءٍ علَى الشُّعَرَاءِ المُتَسَابقينَ، خِلالها، حتَّى لَتَرَى العَجُوزَ الذي لا يَعْرِفُ كيْفِيةَ التَّصْويتِ، يطلبُ ممَّنْ يَعْرِفُ ذلكَ أنْ يُصَوِّتَ بالنِّيابَةِ عنْهُ منْ هاتِفِه، وحَتَّى الأطْفالُ الصِّغارُ -في ضَواحِي المُدُنِ- كانُوا يُخَطِّطُونَ ليْلاً -فيما بينهم- للتَّسَلُّلِ صباحاً إلى المَدِينَةِ لمُتابَعَةِ حَلقَاتِ بَرْنامج "أمِيرِ الشُّعَراء"، في مَواقِيتِها.

ولكنْ هذا كلُّه وكثيرٌ آخر غيرُه، لا يَكْفِي في هذا السياق، إذْ تَبْقَي هُناكَ عَوامِلُ أخْرى، لا تدْعَمُ مَشْرُوعيةَ أسْطورة "المليون شاعر"، حيثُ لا يَتَنَاسَبُ حَجْمُ الإشْعَاعِ الخارجي للشِّعْرِ المُوريتاني، وحَصِيلتَه النِّهائيةَ مَعَ دَوِيِّ هذا اللَّقَبِ.

ومِنْ هُنَا تكُونُ أسْطورة "بلاد المليون شاعر"، هي أكْبَرُ وَهْمٍ يُعْمِينَا في الداخِلِ عنْ إدْرَاكِ حَقِيقتنا الإبْداعيةَ، وأخْطَرُ مُشَوِّشٍ علَى أفُقِ انْتِظارِ المُتَلَقِّي العَرَبِي لِشِعْرِنَا، حيْثُ يَسْتَقْبِلُه وقدْ هَيَّأَتْهُ المَقُولَةُ الرَّائِجَةُ والمُتَرَسِّخَةُ لِشِعْرٍ مُؤَسْطَرٍ كَمًّا وكيْفاً، فإذا صُدِمَ بِقِلَّةِ المَنْشُورِ منَ المُنْجَزِ الشِّعْرِي كَمِّياً، وتَوَاضُعِ الكَثِيرِ مِنْهُ كيْفِيًّا، كانَ رَدُّ فِعْلِهِ مُحْبَطًا ومُحْبِطًا.

ومنْ هُنا أَقْتَرِحُ أنْ تكونَ عَلاقتُنَا بهذه الأسْطورَةِ -وغيْرها- عَلاقَةَ بِنَاءٍ وتَأسِيسٍ فِعْلِيٍّ، ولَيْسَتْ مُجَرَّدَ عَلاقةِ اسْتِعَارَةٍ وانْتِحالٍ، حسَبَ مَا أَشَرْتُ إليْه بِقَوْلِي فِي قصيدةِ" نشيد الشاعر المُهاجر":

تأَبَّطْــتُ مِـــنْ أرواح "مليـــون شـــاعر"   أســـاطيرَ.. أبْنيهـــا.. ولا أسْـــتعيرُها

أجلْ، بِنَاءُ هذه الأسْطورة، وتجْسيدُها واقعاً، لنْ يُحَقِّقَهُ الشُّعَرَاءُ، بِمعْزلٍ عنْ خُطَّةٍ رَسْمِيةٍ، تَضَعُها الدوْلةُ، وتُضَحِّي بالغالِي والنفِيسِ منْ أجْلِ إنْجازِها، حتى لا تطْغَى أسْطورَةُ الواقِع، على واقعِ الأسْطورَة، متَى ذلك؟ الله أعلم.

2013

تنشئتنا الشعرية

لأن هذه العلاقة استثنائية، ينبغي أن تتناول بشكل استثنائي، فهي ليست علاقة تعلم أو دراسة فن الشعر من قبل أطفال ما، في مدرسة ما؛ بل إن تلقي الطفل الموريتاني للإيقاع الشعري يبدأ من قبل وجوده، إن صح التعبير؛ حيث إن الدراسات التربوية العلمية اليوم تثبت أن الجنين -في الرحم- يتأثر بالبيئة الخارجية لأمه، وبطقسها النفسي خصوصا، ومن هنا لابد أن يكون الجنين الموريتاني، يتسرب إليه رنين الشعر، من الجو الخارجي للأسرة، التي قلما تنفك عن تعاطي الشعر، ولو في شكل تعاويذ، وأدعية، ومرويات ترددها الأم، في طقس تَدَيُّنِيٍّ خاص، وحتى لو كانت أمِّية لا تقرأ ولا تكتب، لأن هذه التعاويذ انحدرت إليها -هي الأخرى- مُعَنْعَنَةَ التلقين الوراثي عن أم، عن جدة، عن....

وهنا لا أستبعد أن تكون الصرخة الأولى للمولود الموريتاني، فور خروجه إلى الحياة، منغمة على إيقاع الشعر، مضبوطة الوزن والقافية، مع أنه ما يكاد يطلقها حتى يتلقى الشهادتين، في أذنه الأولى، وربما تعويذة شعرية في الأذن اليسرى، لتعزيز توأمة العلاقة بين الإيمان، والشعر، منذ اللحظة الأولى، لفتح أول صفحة بيضاء من فطرة هذا المولود، وهذا ما أستحضره في قصيدتي: "أمِّي نَشيدُ الكوْن":

أمِّــي.. رَضَــعْتُ أَنَــايَ.. مِــلْءَ حَلِيبِهَــا ... فَــالفَنُّ.. والإيــمَانُ.. تَــوْأمُ مُرْضِــعِ

كانــــتْ تهَدْهِــــدْنِي.. بــــذِكْرِ الله.. فِي ... أذْنٍ.. وفِي الأخْـــرَى بشِـــعْرٍ.. مُبْـــدَعِ

"قُــلَ اعُــوذ ".. مَازَالــتْ يُرَتِّلُهَــا دَمِــي ... ومُعَلقَــاتُ الشــعْر.. تسْــكُنُ مَسْــمَعِي!

وهكذا يكون تحلل عصارة القوافي، في حليب الرضيع الموريتاني، شبه حتمي، حيث قال شاعرنا الشنقيطي القديم ابن عينينا الحسني:

لنـــا العربيـــةُ الفُصْـــحَى، وإنَّـــا أحـــقُّ العـــالمينَ بهـــا انْتفاعـــا

فمُرْضَـــعُنا الصـــغيرُ بهـــا يُنـــاغي ومُرْضِـــعُنا تُكَوِّرُهـــا قِنَاعـــا

والحقيقة أن علاقة الطفل الموريتاني بالشعر، تواصل تعززها المبدئي، حتى عبر الطقوس الاحتفالية بميلاده، فهناك تكريس قوي لغرض "ترقيص الأطفال" العريق في الشعر العربي، منذ الجاهلية الأولى، حيث يمارسه -عندنا- كل من يقرض الشعر من أقرباء الوليد، وأصدقاء أهله...سواء كان ذلك بالشعر الفصيح، أو بالشعر الحساني الشعبي، الذي كان يَسَمِّي هذا الغرضَ قديما بـ "التمْتِلِي"، الذي يعني باللهجة المحلية الترقيص والتدليل، وأصبح يسمى اليوم "البَتُّ" الذي يجمع على "ابتوتة"، تُمَجِّدُ الموْلودَ، وتَتَنَبَّأُ له بمخايل النجابة، والتخلُّقِ بأمْجاد أسرته، وقومه.

وإذا رجعت -في هذا السياق- إلى أسرتي، على سبيل المثال لا الحصر، فسأجد أن "آدب" جدنا الذي تحمل عائلتنا اسمه حتى الآن، كان كلما ولد له ابن يستقلبه شعريا، فور ميلاده، تلقينا وتنشئة، "فجعلها كلمة باقية في عقبه"؛ إذ ربما كان ذلك هو السر وراء كون بيته ظل أحد "بيوتات الشعر" العريقة، في موريتانيا، يتوارثونه كابرا عن كابر.... فعندما يكبر الطفل، وتروى له هذه الطقوس الشعرية الاحتفالية بميلاده، سوف يجد روحه قد ضبطت، على برمجةٍ، كلمةُ السرِّ فيها (شـ عـ ر).

وكلما تقدم به العمر تدريجيا، وخرج إلى تنشئة ما خارج البيت، لن يجد نفسه في أغلب مراحل تكوينه، بعيدا عن الشعر، مهما اتجه إلى الكُتَّابِ والمَحْظَرَةِ، أو إلى الروضة، والمدرسة، فأينما يولي وجهه فثم الشعر...

في التعليم المحظري، هناك من يفضل البداية بتعلم العربية، قبل القرآن، باعتبارها المفتاح لفهم القرآن نفسه، مفضلا اكتسابَها على التفرغ لعبادة الله، كما هو منطوق فتوى العلامة ابن متالي، وحتى لو بدأ بالقرآن، وبغيره من العلوم الدينية، فإن أغلب فنونهما ومعارفهما، منظوم بالشعر، أو حاضر في تفاصيله، ومفاصله، استشهادا، وتمثلا، وتدليلا.. وتربية، وتوجيها، وترفيها، وترويحا....

وفي التعليم العصري، يحضر الشعر -كذلك- أناشيد للطفولة المبكرة في (الروضة التمهيدية)، ومحفوظات في (الابتدائي)، ونصوصا في (الإعدادي...) ... وهكذا دواليك، حتى لو ذهب الطالب في (الثانوية)، إلى تخصص علمي، في الرياضيات، أوفي العلوم الطبيعية الأخرى، فقد كان مقرر العربية والشعر يرافقه هناك... وحتى لو ذهب باختصاصه العلمي البحت، في جامعات بلده، أو حتى في جامعة أجنبية، فإن الشعر سيظل ثقافة اجتماعية عامة، لا انفكاك للفرد الموريتاني عنها...

بالنسبة لي كنت في بداية تعلمي للقراءة المسترسلة للمطبوعات، عندما أفتح كتابا أبدا بتتبع الصفحات التي فيها شعر، حتى أنتهي منها، لأعود لقراءة الكتاب من أوله إلى آخره، عادة مازالت تلازمني...

الخلاصة: هي أن الشعر قَدَرُ الموريتاني، يتخلق معه، في رحم أمه، ويتقاسمُ معه مَهْده، وثَدْيَه، ومدارجَ صباه، ومَسارحَ لعِبِه ولهْوه، ومَعاهدَ تكوُّنِه، وتَعَلُّمِه، ومراعي حيواناته، يَتَسَوَّرُ عليه حتى مَحاريبَ عبادته، ومكاتبَ عمله، ومراكز تجارته....

الشعر والشاي لدى الموريتاني:
جدل الكؤوس والطقوس

كان المجتمعُ الشنقيطي، يَسْبَحُ في صحاريه، مُنْتَجِعا مواقعَ الماء والكلأ، حاملا معه مدارسَه وجامعاتِه" المَحاظِرَ"، أيْنما حلَّ وارْتَحل، ترافقُه مَكْتباتُه المَوْسوعيةُ، على الظهور، وفي الصُّدور، مُتَّخِذا من تراتيل القرآن، تعاويذَ تمْنَحُه طمأنينة القلوب، في جوِّ التوَجُّسِ السائدـ في تلك "البلاد السائبة"، من حكْم أيِّ سلْطة مرْكزية ضابطة، وباحثا في أناشيد الشِّعْر، عن سلْوى ترطِّبُ شظَفَ الحياة البدوية، المتَصَحِّرة في مُجْمَلِها، وبيْنما هو هكذا، لا يعرفُ مشروبًا ألذَّ من الماء واللبن، إذ فاجأتْه القوافلُ القادِمةُ من الشمال، 1875م، بمشروب الشاي الأخضر، الذي تعشَّقه، وأسْقطَ عليه كلَّ ما ترسَّبَ في مخْزُونه الشِّعْري من صور للخمْر في دواوين العَرَب، فأصبحَ هذا الوافدُ الجديدُ، هو خمْرة الصحراء، التي يُدْمِنُها الواجدُ، ويتُوقُ إليْها الفاقدُ، وأصبحَ هو والشعْر توأميْن في "بلاد المليون شاعر"، لدَرَجَةٍ من التماهي لا يكادُ يعبِّرُ عنها إلا هذا العنوان المُقْترحُ: "شايٌ في شِعْرٍ، وشِعْرٌ في شَايٍ"، فهذه الخلْطة السحْرية بيْن شِين الشاي، وشِين الشعر، تفاعلتْ في عُصارتها، حُروفُ الأبجدية، مُنْتِجةً -ضمْن مُدَوَّنَةِ الأدب المُوريتاني- غَرَضًا خاصا بوصْف هذا المشْروب المَعْشوق، بالشعْر الفصيح، والشعبي، وبالنثر، غير أنّي هنا سأقتصر على بعض تجليات الشاي في الشعر الموريتاني الفصيح، متلمِّسًا بعْض النقاط الأكثر أهمية:

بداية علاقة الشينيْن: تفاعل الرحيقيْن

لقد كان الشعرُ سابقَ الوجود على الشاي طبْعا، إلا أنه ما كادَ هذا الأخيرُ يظهرُ، حتى احْتضنَه الأولُ، عبْر علاقةِ حُبٍّ حميمة، بيْن مُكَوِّنَيْنِ وُجُوديّيْن، بالنسبة لأبناء هذا الإقليم،

وهكذا كانتْ جلسةُ الشاي، عنْدنا سَبَّاقَةً إلى تجْسيد فكْرة "الاتحاد المغاربي"، منذ نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، من خلالِ توْحيد عناصره لأغْلب دول هذا المغرب الكبير، تجاريا على الأقل، فالشايُ قادمٌ من طنْجة (المغْرب)، والسكرُ منْ وهْرانَ (الجزائر)، والُمستهلكون من شنْقيط (موريتانيا)، والشِّعْرُ هو عاقدُ هذا الرِّباطِ الوحْدوي المُقدَّس، حيث يقول الشيخ سيدي الصغير رحمه الله، واصفا لنا كؤوسا من هذا الشاي:

تُخِـــيِّرَ مـــن تُجَّـــارِ طنْجَـــةَ شـــاهُها وخِـــيرَ لهـــا مـــن تْلْـــجِ وهْـــرَانَ سُـــكَّرُ

عناصره وأدواته: ترف البداوة

تتكوَّنُ عناصرُه أولا من الشاي الذي يسمونه عموما، بـ "الورَقة"، و يُحَرِّفُونَه، إلى "الشاه"، و "أتايْ"، و"الأتاء"، ويقسِّمُونه -حسب- أنْواعه القديمة، إلى "المفتول"، و"الوندريز"، و"النميلة"، إضافة إلى السكر، الذي يسمُّونه بـ "التلج"، تحريفا للثلج، الذي يشْبِه قوالبَه القديمة، بياضا، وتماسكا، دونَ أن ننْسى الماءَ طبعا، وحزمة من النعناع ترَفا، أمَّا أدواتُه فأهمُّها صينية معْدنية، وإبْريقُ شاي، وكؤوسٌ، ومجْمَر، وإبْريق لغَلْي الماء، وقنْديلُ إضاءة، إن كان التحْضير ليلا، ولم يفُتْ الشعرَ الموريتاني أنْ يسجِّل لوْحة دقيقةً مُرَكَّبَةً، "لطقم" الشاي هذا، الذي نسمِّيه(أتَايْ)، مستلهما سورة يُوسُفَ عليه السلام، في صورة يُوسفَ مُحَضِّر هذا المشْروب المحبب، حيث يقول أحد شعرائنا القدماء:

أتـــايُ يوســـفَ لا شـــالتْ نَعامَتُـــه نَعْنَاعُـــه.. أبَـــدًا... يَفُـــوحُ رَيَّـــاهُ
كـــأَنَّ إبْرِيقَـــهُ - فِي دَوْرِ أكْؤُسِـــهِ مِـنْ تَحْـتِ مِشْـكَاتِهِ -في الليْـلِ- رُؤْيَـاهُ!

فالإبْريق، والمشكاة، يمثِّلانِ الشمسَ والقمَرَ، في رُؤيا يوسُفَ عليه السلام، والكؤوسُ الدائرةُ، تمثِّلُ الأحَدَ عَشَرَ كوْكبا التي رآها سَاجدةً له، وهنا نجد الشاعرَ سيد الأمين ولد سيدي ولد بابا الجكني، يصفُ وضْعية "مَواعِين" الشاي أيضا، مُشبِّها سيادة الإبريق على الكؤوس، بسلطة الجَمَلِ بين شوْله، في مَنْزَعٍ بدَوِي، مُعَرِّجًا على وصْف الصناعة في بعْض الأدواتِ، التي ينسبها للهنْد، تعبيرا عن انْبهاره الكبير بإتقانها:

جلــوسُ كــؤوسٍ فــوْق أمِّ الــدعائمِ   يهــيِّجُ مــا قــدْ هــاجَ طيْــفٌ لنَــائمِ
تُـــرّوَّى مــنَ الإبْريــقِ، وهــو كَأنَّـــه   عــبَنٌّ يــذودُ العِــيطَ بــيْنَ الــضراغمِ
وقـــد أتعَـــبَ الهنـــديُّ في صـــنَعَاتها   ورصّـــــعَ كــــالمؤلودِ داني الـــتمائمِ
فهـــذا نعـــيمُ الـــدهْر لـــوْ كـــانَ دائـــما   ولكـــنْ نعـــيمُ الـــدهْر لـــيْس بـــدائمِ

إتقان التحضير: طقوس الكؤوس

لقد رصَدَ الشعر الموريتاني –بدقة– طريقةَ تحْضير هذا العصير السحْري، في طوْر خلْط مُكَوِّناته، وعلاجه، وتدويره بيْن الكؤوس، حتى يصبحَ كُمَيْتَ اللون، مُعتَّقا، مُزَّ الطَّعْم، بين مرارة الشاي، وحلاوة السكر، تتوِّجُ كاساتِه عمائمُ بيْضاءَ من الرغْوة..... ولعلَّ أروع نص موريتاني في وصْف هذا الطوْر من الشاي، هو قول ولد حبيب الرحمن، من شعراء النصف الأول من القرن العشرين:

ومُعَتَّـــقٍ.. بـــاكرْتُ.. عنْـــد المَطْلـــعِ   والشـــمْسُ –بَاديـــة السَّـــنَا– لمْ تطْلـــعِ
فسـعيتُ –فيــه– بحِيلتِــي.. حتَّــى أتَــى   جَــبْرَ الخــواطِرِ.. كالعصـــيرِ المُنْقَـــعِ
وَتنَازَعَتْـــــهُ.. حَـــــلاوَةٌ.. ومَـــــرَارَةٌ   كِلْتَاهُمَـــا –عـــنْ شَـــأوِها– لمْ تنْـــزَعِ
كلْتاهمـــــا لمْ تُـــــزْرِ بـــــالأخْرَى..   ومَـا شُرْبُ الأماجـدِ غـيْرَ تـيْنِ بِمُقْنِـعِ!
شِرْبٌ.. إذا مـــا صُـــبَّ.. في كاســـاتِهِ   تُكْسَـــى احْمِـــرَارًا كالخِضـــابِ بِأصْـــبعِ
وعَـــلَى احْمِـــرارِ الكـــأسِ تعْلـــو رغْـــوَةٌ   فتخالهـــا شـــيبا.. بهامـــة أصْـــلَعِ

وفي هذا السياق يقول الشاعر الشيخ أحمد ولد آدب:

وشَـــــايٍ بـــــماءٍ رَنَّحَتْـــــه غمامـــــةُ   عـــلى كـــلِّ كَـــأْسٍ منْـــه تبْـــدو عمَامَـــةُ
وبـــ "الوَنْـــدَرِيزِ" الصّـــرْفِ أتْقَـــنَ مزْجَـــه   مـــعَ الـــتَّلْجِ مَـــنْ راقـــتْ لدَيْـــهِ الإقامَـــةُ

مجلس المنادمة: بين النخبوية، والعمومية

يُجْمِعُ الموريتانيون على أنَّ الشاي لا يطيبُ إلا في طقْسه الجماعي، وهذا ما كرَّسُوه، بقانون الجيمات الثلاثة، المُشْترَطِ تَوَفُّرُها للشاي النموْذجي، التي تتجسَّدُ عندهم في: الجماعة

-الجَرّ (طول التحْضير)- الجَمَر، الذي يُساعد -هو الآخر- على إطالة أمَدِ الجلسة، المُنْعَقِدَةِ، حوْل الشاي، والتي لا يُرادُ لهَا أنْ تنْفَضَّ بسُرْعة.. غير أنَّ ما يخْتلفُ عليْه الموريتانيون هو نوْعية الحُضور، وطبيعة جلسات الشاي، هل هي مفتوحة أمام العموم، أم هي جلسات نخْبوية خاصة بأهْل الأدب والمعرفة، والمكانة الاجتماعية المعتبرة، حيث إنَّ هذه الجلسات، يريد لها هذا التيارُ أنْ تكونَ صالونات ثقافية، تدورُ فيها المُطارحات بيْن الفنانين، والأدباء، والعلماء، والظرفاء، ولا مجال لتسلل من لا يمكن أنْ يُحَلِّقَ في هذا الجوِّ الرفيع، فهذا العالم الشاعر أبو مدين الديماني رحمه الله، يحرص على الانتقائية في جلسة الشاي:

ألا فاسقني كاساتِ شايٍ ولا تَذَرْ بساحَتِها مَنْ لا يُعِينُ علَى السَّمَرْ
فوقْتُ شَرابِ الشَّايِ وقْتُ مَسَرَّةٍ يُزُولُ به عن قلْبِ شاربِه الكَدَرْ

وبما أن وقت شرب الشاي، تريد له النخبة أن يكون وقْت مسرَّة ومُسامَرَة، فإنه يُفَضَّلُ أنْ يكونَ الجوُّ العام مناسبا لذلك، حسبما يصفُه الشيخ سيدي الصغير:

يُقيمُ لنا مولاي والليلُ مقمرٌ وأضواءُ مِصباح الزجاجة تُزْهِرُ
وقد نسَمَتْ ريحُ الشمال على الرُّبى نسيمًا بأذيال الدُّجَى يتعَثرُ
كؤوسًا من الشاه الشهيِّ شهيةً يطيبُ بها ليْل التمام ويقْصرُ

وعلى طابع "الإمتاع والمؤانسة"، لمجالس الشاي، يلحُّ الشاعرُ الأديب؛ محمد ولد احمد يوره، رحمه الله.

أتايُنا منْه فمُّ المَرْءِ يَحْترِقُ قد قد طابَ سُكَّرُهُ والمَاءُ والورَقُ
باتَ المُبارَكُ يَسْقِينَا علَى مَهَلٍ واللَّهْوُ مُجْتَمِعٌ والهَمُّ مُفْترَقُ
خِلْتُ الجُمَانَ عَلَى جِبَاهِ فتْيَتَنَا كلُّ تَحَدَّرَ منْ جَبِينُهُ العَرَقُ!

وهنا لا بُدَّ أنْ يكونَ مجلسُ الشاي النموذجي هذا "مجلس أنْسٍ" مخصصا، كما يقول الشيخ أحمد ولد آدب، لكل أديب:

وشادٍ بإنْشادٍ لشِعْرٍ مُهَذَّبٍ بمجْلسِ أنْسٍ ليْس فيه سَآمَةُ
يميلُ إلى وصْفِ القُدُود.. وتارةً لوصْفِ خُدودٍ قدْ علتْها القَسَامَةُ

ومن هنا لا غرابةَ أنْ ترى أحدَ هؤلاء النخبة يتأفَّفُ من تمييع الطقْس الجماعي، لمجلس الشاي، وفتْحه أمامَ كلِّ من هَبَّ ودَبَّ، ممنْ لا يُتْقِنُ إلا شرْبَ الكؤوس، مع أنَّ شرْب الشاي ليس غاية في حدِّ ذاته، بل هو مُجَرَّدُ وسيلةٍ للأنْس، والمُسَامَرَةِ والمُثاقَفَة:

يـــا ويـــحَ للشـــاي لا تصْـــفو مَشـــاربُه ... لِشـــــاربِيهِ لأنَّ الكَهْـــــلَ شَـــــاربُه

والطفْـــــل شـــــاربُه منَّـــــا وشـــــاربُه ... مِنَّـــا الـــذِّي هُـــو مـــا إنْ طُـــرَّ شـــاربُه

إن مجلس الشاي هنا يأخُذُ طابعَ جوِّ المُنادَمَةِ الحلال، وعلى ضوْء ذلك لا بُدَّ من صيانتِه من العرْبَدات غير اللائقة، مع العلم أنَّ هذا المشْروب، ليست له تأثيرات عقلية، وإنما يخافُ من مُجرد تدَنِّي مستويات الحديث، والتجاوزات اللفظية والفعلية، العادية في مطارحات العامة، حيث يقدِّمُ بعضُهم مسوغات إقلاعه عن تناول هذا المشروب، جاعلا من بينها:

وخشـــــيةَ أنْ أجـــــالِسَ كـــــلَّ نـــــذْلٍ ... يَجُـــــرَّ إليَّ مَنْقَصَـــــــةً وهُونَـــــــا

لكن هذا الاتجاه النخبوي في جماعية الشاي، هناك من يناقضه، بدعوته لفتح مجلس الشاي للجميع، باعتباره خيرا يجب تعميمه، فهذا الشيخ سعد أبيه، يقول:

فيـــــشربه مـــــن عنـــــدنا الحُـــــرُّ والعبْـــــدُ ... نُعَمِّمُـــــه مثـــــلَ المطـــــاعِمِ عنـــــدنا

وقفة أخيرة: جدل السلوى والتقوى

لأنَّ الشاي مشروبٌ وافدٌ على صحْراء شنْقيط، العالمة، المتديِّنة، كانَ لا بُدَّ أنْ يُثيرَ داخلَ المجتمع جدَل الحلال، والحرام، وبما أنَّ علَّة السُّكْر، مَنَاطَ تحْريم الخمْر، منتفيةٌ عنه تماما، فقد التمَسَ الجانحون إلى التعفُّفِ عنه، عِللا أخْرى، مثل إضاعة المال، وإهدار الوقت، غير أنّ مُدْمِنِيه لمْ يُقَصِّرُوا في دحْض كلِّ الشُّبُهَات، المُثارة حوْل مشْروبهم المُحَبَّبِ، فهو من الطيبات من الرزْق، التي لا سُلْطانَ لأحَدٍ على تحْريمها، ما دامَ الله قد أحَلَّها لعباده، وعلى العَكْس من إضاعة الوقْت رَأوْه مُساعدا، على الدراسة والعبادة، والأذكار، كل تلك السِّجالات كانتْ تدورُ بلُغة الشعْر، لُغَةِ القوْم ، المُهيْمِنَةُ على كل الخطابات الفقهية، والعلمية، والتاريخية...، فهذا أحَدُ الشعراء المُدْمِنينَ، يجعل العِلْمَ والشايَ شرْطيْ وُجُودٍ، للحياة الطيبة، ويعتبرهما معًا مترابطيْن وجودا وعدما:

فـــلا عـــيْشٌ يطيـــبُ بغـــيْرِ عِلْـــمٍ وكـــأسٍ في العِظَـــامِ لهـــا دَبيـــبُ!
فلـــوْلا الكـــأسُ مـــا شُرِحَـــتْ صُـــدورٌ ولـــوْلا العِلْـــمُ مـــا عُـــرِفَ اللَّبيـــبُ!

وهناك آخرُ، يرُدُّ على مُسَفِّهِي الإنْفاق عليْه، مُعتَبِرًا بذْله فيه لكلِّ ما جمعتْ يداهُ هو عيْن الرشاد، مُصِرًّا على تَمَادِيه، في تعاطيه، مهْما يكنْ:

إنْ تُسْـــلِنِي عنْـــه فلسْـــتُ بِمُنْسَـــلٍ أوْ تـــدْعُنِي عنْـــه فلسْـــتُ بِمُنْـــدَعِ!

وهذا البيت الأخير، يجسد صوت أغلب الموريتانيين، حتى الآن.

الشعر الموريتاني:
جدل التقليد والتجديد

النقد ليس اتهامات يرجم بها فريقٌ فريقاً، ولا سلاحا إيديولوجيا، يُشْتَبَكُ به في سُوح الجِدال والنِّزال، وإنما هو خطاب على خطاب، يصف ويحلل الظاهرة الإبداعية، في حد ذاتها، بعيدا عن كل الخلفيات غير الفنية، كما أن الحداثة معطى حضاري وثقافي، ناتج عن سيرورات تاريخية كبرى، تفعل فعلها -قسرا- في كينونة الفرد، والجماعة معا، وهي-وفق هذا التصور- قدَرُ الجميع، مهما تفاوتت نسبها، تبعاً لدرجات كسْبِ هؤلاء، وهؤلاء، من ثمرات تلك السيْرورات، كثرةً، وقلةً، وعمْقاً وسطْحيةً، والذي ينغلق دونها مطلقا، يُعاند نواميسَ الكوْن، ويَحْكُمُ على تجْربته بالإعدام، لأنَّ ضَخَّ الدَّم الجَديد، وتنَفُّسَ الهواء الجديد، ضروريان لاسْتمرار دوْرَة الحياة، ولعلَّ مَرَدَّ أزمة الحَداثة يكْمُن في ما يُسَمَّى بـ "الحَداثة الكاذبة"، و"متاهات الغموض"، فالوصْفُ الأول يعني افْتعالَ الحداثة، بدَلَ الانْفعالِ بها، واسْتيرادها، دون معايشتها، وخَوْضَ تجْريبها بدل تجْربتها، فكل هذه الحيثيات المختلة، ربما ترتَّبَ عنْها الوصْفُ الثاني، الذي هو الإيغالُ في "مَتاهات الغُموض"، حتى يَتَجاوَزَ تكثيفَ الصُّور المُحَبَّب، والمُعَبِّر عن عُمْقٍ في الرُّؤْية، ونُضْجٍ في الفلسفة، وخُصوبةٍ في المِخْيَال، إلى شَطَحَاتٍ وهَلْوسَات، غير واعية بذاتها، فهنا يكمن الفرْقُ -حسب نظري- بين الحداثة المرغوبة،

و"الحداثة المعطوبة"، كما يسميها -في بعض كتبه- الشاعر المغربي، الدكتور:محمد بنيس، أحد أقطابها إبداعا وتنظيرا.

والحقيقة أن الشعر الموريتاني ليس استثناء من الشعر الإنساني عموما، ولا الشعر العربي خصوصا، فلا يُوجَدُ أي مُنْتَجٌ إنْساني أزَلِيٌّ، لا يَحتاجُ التجديدَ أبَداً، بل ربما كان الشعر الموريتاني أحوجَ إلى التجديد من أغلب أشعار الأقطار العربية الأخرى، لأنه -في عمومه- يرْتكنُ على خلْفيةٍ ثقافيةٍ "مَحْظَرِيةٍ"، أكثر أصالة وعمْقا وصلابة من خلفيات نظرائه من الآداب العربية، نظرا لاختلاف طبيعة التكوين الثقافي والتربوي، هنا وهناك، ولكنه -رغم كل ذلك- لم يعش عزلة عن المؤثرات الثقافية الكبرى، لا قديما ولا حديثا، لأنَّ الإنسانَ الموريتاني-بفطرته- مُطالعٌ نَهِمٌ، ومُنْفَتِحٌ، مع تقليديةِ ذائقتِه الشِّعْرية المُتَجَذِّرَة، المَبْصُومَة بالنموذج الشعري القديم، وهذا ما يجعله يعيش-في ذاته- تقاطباً بين الأصالة والحداثة، فمِيراثُه الثقافي الثقيلُ يشدُّه إلى الماضي، وحصادُ اطلاعه المُنْفَتِحُ يخْترق-حتْماً- جِدارَ التقليدية المَضْرُوب على ذائقته، وفي مناخِ هذا الجَدَل الوجودي المُحْتَدِم في كيْنُوته، تتمُّ عمليةُ التلقِّي الإبْداعي والنقْدي للأدب عموما، والشعر خصوصاً، ويبقى التفاعلُ بين الاتجاهين صِحِّيا، ما لمْ يَغْلُ المُتعصب للتقيدية، لدرجة الانغلاق، أوْ يُسْرِف المُتعصب للحداثة، لدرجة القطيعة.

ولعلَّ أخْطرَ ما فِي الاتجاهين، هو اخْتِزالُ المفْهوميْنِ، في بُعْدهما الشكْلي البَحْتِ، وإفْراغهما من رُوحَي الأصالة والتجديد، اللتيْن تتكاملان، ولا تتناقضان، وذلك ما لن يتحقق إلا بتوازن الروافد المعرفية في تكوين الأجيال ثقافيا، عَبْرَ عملية ترْبَوِية واعية بأهدافها، ومَنْهَجٍ عِلْمِي وأكاديمي حَصيفٍ، وبَنَّاءٍ، يَسْتَظِلُّ بهُوية، "أصْلُها ثابتٌ، وفَرْعُها في السَّماء".

الخلاصة: أن المهم -في نظري- ليس هو الجَدَلُ العَقِيمُ بين شعْرٍ قديم، أو حَديث، أو عمودي، أو حُرٍّ، فكلُ هذه المُصْطَلَحات اخْتلاقاتٌ شكْلانيةٌ -في غالبها- عَديمةُ الكفايَةِ الوصْفية، إنَّما المُهِمُّ هو أنْ يَكونَ الشعْرُ مُتَّصِفاً بالحَرَارة الإبداعية، التي كاد يَقْضِي عليْها التجْريبُ والافْتعال والتقليد، هنا وهناك، بَدَلَ التجْربة والانْفعال والتعبير، إنَّ "الشعْرَ الحَارَّ"، الذي أنَادِي به يخْترقُ كُلَّ جُدُرِ التصْنيفاتِ الجَوْفاء، ويتَحَقَّقُ أيْنَما تَحَقَّقَت الشِّعْرية ذاتُها، لأنَّه رَدِيفُها بالضبْطِ.

تجربة الشعر في موريتانيا.. تنتظر النقد

لم تسمح لي بالتتبع الدقيق لمسار هذه القصيدة، إلا أن الملاحظة العامة التي يمكنني تسجيلها هي أن هناك تجددا وحيوية في سيرورة الأجيال، فالشعر اليوم يتدفق على ألسنة الشباب، أكثر منه عند أجياله خلال السبعينات والثمانينات والتسعينات.

فمنذ العقد الأول من هذه الألفية الثالثة انتعشت الملكات الشعرية الشبابية في بلدنا بوتيرة أسرع، وبمستويات جيدة في غالبها، إلا أن المطلوب في هذه الطفرة -هو عدم استسهال الشعر،لأنه "صعب وطويل سلمه..."، ولا يكفي فيه الموهبة الفطرية، بل لابد من تعزيزها بخبرة واسعة متجددة بثقافة الشعر، وامتلاك محكم لأدواته، إضافة إلى الحرص على تَمَيُّز كل صوت شعري عن الآخر، لأن إعجابنا بعضنا ببعض، لا يقتضي أن نكون نسخا طبق الأصل، فالبصمة طابع وجودي "صبغة الله" المميزة في أصابعنا، وعيوننا وأصواتنا وحركاتنا التي لا يطابق بعضها بعضا، ولهذا يجب أن نبصم تجربتنا الخاصة بميسم ذواتنا كتابةً ورؤيةَ وإلقاءً.

الحركة الشعرية في موريتانيا منذ القدم كانت متقدمة أشواطا على الحركة النقدية الخجولة، التي لم ترافقها يوما بشكل جدي،أحرى أن تقودها وترتاد لها آفاق الإبداع، وأغلب ما يمارسه الموريتانيون اليوم من النقد هو أعمال جامعية، لا يتوخى منها أصحابها -في الغالب- إلا لتخرج ولو بميزة مقبول، ومع الاعتراف لبعضها بالجودة والجدية، إلا أن أصحابها لم

يواصلوا الممارسة النقدية الأكاديمية الاحترافية،بل النقد السائد لدينا مجرد انطباعات شفوية متسرعة في البرامج التلفزيونية، هذا إضافة إلى مقالات نادرة يغلب عليها طابع المجاملات لهذا، أو تصفية الحسابات مع ذلك، وكلا الوجهين مرفوض أكاديميا.

ولعل أهم الأعمال النقدية الموريتانية الجادة -بعد أطروحتي ابن حميدة وجمال ولد الحسن حول الشعر القديم:نشأة وأساليب، ودراسة المختار ولد الجيلاني حول أجرومية النص الموريتاني الحديث- هي أطروحة الدكتور: محمد ولد عبدي، حول: السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية "الشعر نموذجا"، حيث حاول هذا الأستاذ -ولا زال يحاول- رصد التجربة الشعرية الحديثة في موريتانيا عبر سيرورتها الإبداعية، وتصنيفها ضمن نماذج نظرية مبتكرة قادرة على استيعاب تنوعها وتمايزها، كان قد دشنها في كتابه "ما بعد المليون شاعر"، عندما صنف أجيال الشعراء في تيارات، إلا أن دراسته للسياقات والأنساق مثلت ذروة عطائه حتى الآن، إذ ابتكار النماذج النظرية النقدية لا يحسنه من العرب إلا نقاد قلائل، كأستاذنا د.محمد مفتاح مثلا، ولا يتأتى إلا بعد قراءة معمقة في النقد عموما، وفي المدونة المدروسة خصوصا، حيث ينبثق منها النموذج، ويستوعبها في الوقت ذاته.

وعندما تتواطأ عدة جهود في هذا الاتجاه، مركزة على الخصوصية المحلية لإبداعنا، يمكن أن ننتج -بعدئذ- ما تصح تسميته بالنقد الموريتاني المنتظر. وفي هذا الصدد نتوقع من الأستاذ الشيخ ولد سيدي عبد الله أن يكشف لنا الحجاب -بجديته المعهودة- عن مجهول النقد الموريتاني القديم تصورا وممارسة، من خلال أطروحة دكتوراه حول هذا الموضوع، ليسد فراغا معرفيا ظل قائما، ويضيف حلقة كانت مفقودة إلى سلسلة أعمال سابقيه 2014 .

بين الوطن المُسَجَّى.. والوطن المرجى

في جَوِّ الذكْرَي السابعةِ والخَمْسينَ لاسْتقْلالنا الوطني، أعترفُ أنَّ عُمْرَ نصْفَ قرْنٍ ليس كثيرًا في قياس بناءِ أسُسِ الدُّول ومُقوماتها، لاسيما أنَّ الانطلاقَ إليه من الصِّفْر صعْبٌ جدا، لكنَّ الحقيقةَ الأخْرَى أنَّ دوْلتنا تمْلك ثرَوَاتٍ غنية، ومتنوعة، تكْفِي لانطلاق صاروخيٍّ في اتجاه المستقبل الأجمل والأمثل، حتى في هذا العُمْر، قياسًا على دول عربية شاركتها الانطلاقَ منَ الصفْر والبَداوة والفقْر، وحققتْ عبْر عُمْرها القصير، تقدُّمًا مُذْهِلاً، فهل نقَفُ وقفةً تأمُّلٍ صادقةً مع ذواتنا، لنعرف مكمن الخلل؟

أعرفُ أنَّ هناك مُتشائمِين لا يروْنَ إلاَّ نصْفَ الكأس الفارغ، وأعْرفُ أنَّ هناكَ أبْواقًا شبْهَ بشَرية، تؤجِّرُ حناجرَها، ونزيفَ أقلامها، للمُبالغة في تمْجيد مُنجزات كلّ فتْرَة حُكْمٍ يُوالونها، وتضْخيم نِسَبِها التنموية، و" نفْخ " أرْقامِها، عبْر منطق "كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها"، وبما أنَّني لستُ من هؤلاء، ولا هؤلاء، فإنَّ كلَّ ما أريدُ قوْلَه هنا، وسط ضجيج هذه الذكرى، هو "أن في الإمْكان –قطْعا– أبْدَعَ مما كان"، وأن من لا يملك طموحا كبيرا، لا يمكن أن يبني أوطانا كبيرة، وخلاصة ذلك أنني استقلُّ الاستقلالَ، ولمن شاء أن يقول: "شاعرٌ مجْنونٌ نَتَرَبَّصُ به رَيْبَ المَنُون"!

أنا أدرك حجْم أزمة الشاعر المُهاجر، في علاقته مع أوطانه، أنَّه إنسانٌ حالمٌ، سقْفُ خَيالِه أعْلى بكثيرٍ منْ مَنْطِقِيَّتِه، ومِثَالِيَّتُه بعيدةٌ منْ واقِعِيَّةِ السياسي، وطمُوحُه لوطنِه المَنْشُود أكبرُ منْ حَجْم وطنِه المَشْهُود، لكنَّه -مع كل ذلك- شديدُ الألفة، لفَضَاءاتِه الحَمِيمَة، وحتَّى لوْ كانتْ أطْلالاً بلاقِعَ، وهذا ما يُفاقِمُ أزمة مُواطَنَتِه، فبلادُه تسْكُنُه، وإنْ لمْ يَسْكُنْها، وتُهَاجِرُ فيه، إنْ هاجرَ عنْها، فهو يفِرُّ منْها إليْها، في رحْلةٍ سِيزيفيةٍ، لأنَّ ضمِيرَه "ضميرٌ مُتَّصِلٌ" بالأرض وإنسانها، مهْما تضافَرَت العواملُ على جَعْلِه "ضميرًا مُنْفَصِلاً"، فيظلُّ يُغَنِّيها، في حين تُعَنِّيهِ، ويُدْنِيها، حين تنْفيه، ولذلك يحلو لي دائما أن أدندنُ أناشيدَ هجْرتي، ومزامِيرُ غربتي:

وَطَنِـي.. عَـلَى كَتِفِـي.. حَمَلْتُـكَ.. مِـنْ ...	إنِّي أُفَـتِّشُ.. عَنَـكَ.. فِيـكَ.. إلَى مَ..لا...؟
إلَى ...	نَـبْضُ الضَّـمِيرِ.. المُشْـتَهي أنْ يُوصَـلا

وكيف يحْدَثُ الوصْلُ بيْنَ ضِفَّتَيْ واقِعِ الوطَنِ المَوْجُودِ، وَحُلُم الوَطَنِ المَنْشُود:

وطنـي المُرَجَّـى: جَنَّـةٌ.. مفْقـودةٌ	للحُـبِّ.. للإبـداعِ.. للإيمـانِ
أفٍّ.. عـلى زمَـنٍ.. يُبَلِّـدُ حِسّـهُ	زَبَـدٌ.. يُغَـطِّي الجَـوْهرَ الإنْسـاني
وطنـي المُرَجَّـى.. إنْ تَفُتْنـي واقعـاً	فأنَـا أحُـجُّ.. إليْـكَ.. في وجْـداني
سـأظَلُّ أركُـضُ.. خَلْـفَ حُلْـمٍ أزْرَقٍ	مَهْـما تَنَـاثَرَ.. مِثْـلَ خَـيْطِ دُخَـانِ
أنَـا.. مَـنْ يُطـارِدُ نَفْسَـهُ.. في نَفْسِـهِ	ويَفُوتـه الإنْسـانُ.. في الإنسـانِ

وحين تطول مُطارَدَة هذا الحلم/ خيط الدخان، وتصْدمنا وتؤلمنا الأوطانُ التي لا يُحْسِنُ السِّياسيون كتابتَها فوْقَ أرْض الوَاقِع، يحاوِلُ الشاعر الحالم الذي يسكننا إعَادَةَ كتابتها وصناعتها -بأعْيننا- في فضاء خيَاله الفنّي، على الأقل:

أهَـاجِرُ عنْـكَ.. يَهْجُـرُني السُّرُورُ	فَحُبُّـكَ فِي دَمِـي بَحْـرٌ يَمُـورُ!
وَمَهْـمَا صـغَّرَتْكَ يَـدُ المَـآسِي	فإنَّـكَ -فِي الهَـوَى- الـوَطَنُ الكَبِـيرُ!
أنَـا.. وَطَنِـي القَصِـيدَةُ، حَيْـثُ ابْنِـي	بُيُوتًـا.. لَا تُضَـاهِيهَا القُصُـورُ!
هُنَـا وَطَـنُ المَعَـانِي.. وَالأمَـانِي	جِنَـانُ الخُلْـدِ.. والأوْطـانُ بُـورُ!

وربما سئِمْت مناغاة الحُلُم الطوباوي، المُعَلَّق في سِدْرَةِ مُنْتَهَى الوهْم، مصلوبا بين الوطن "المُسَجَّى"، والوَطَن "المُرَجَّى"؛ فألجأ إلى استدراجه -بإلحاحٍ- للنزول إلى حيز المتحقق، محتجا:

وإلى مَ.. يـا وَطَنِـي المُرَجَّـى.. لا تُحَـرِّ   والحُمْـقُ.. فِـينَا.. يَسْـتَطِيلُ.. تَغَـوُّلا؟!
مـا للعُقـول.. بعِلْمِهـا.. قـدْ هُجِّـرَتْ   رُنِي.. مِـنَ الـوَطَنِ المُسَـجَّى.. هَـيْكَلا؟!

الحرب على الأدب قلة أدب

ما تزال حرب الحكومة الموريتانية على "الأدب" تتنامى طرديا مع تلاحق إرهاصات "الجمهورية الثالثة"، التي يبدو أن أهم ملامحها ستكون هي "قلة الأدب"، فبعد تصريحات رئيس الجمهورية المتكررة الطافحة بالسخرية من الشعر والشعراء، و"بلاد المليون شاعر"، وجميع العلوم الإنسانية، رأينا ظلاله من الوزراء "المتعالمين"، يكرسون -بكل سفه- خطابا رسميا، يعلن -باسم الرئيس- انحيازه، لثلاثة علوم بحتة لا وجود إلا لمسمياتها، ويضرب عرض الحائط بمنظومة من العلوم والمعارف الإنسانية الراسخة، التي لم تستغن عنها أي دولة في العالم، ممعنين في إهانة الشعب في صميم هويته، وكينونته، تطاولا على لغته وآدابه، ودينه، وتاريخها.... فهم لا يكتفون بترديد السمفونية المشروخة ذاتها، بل يتبجحون بإقصاء أصحاب هذه الاختصاصات من كل حقوقهم الوطنية، في التوظيف، والترقية، والتعيينات، ويعلنون -بقلة أدب- تماديهم في ذلك مستقبلا، مع سبق الإصرار والترصد، رغم أن حرمانهم من ذلك، ظلم قانوني، وتعسف في الحكم، وجور في التسيير، وتعصب مقيت لزبونية التخصصات، وتمكين لذواتهم، وخدمة لأجندة فرانكفونية خبيثة، وخطة ممنهجة لتجفيف منابع الروحانية، والأخلاق، والتدين، والتشريع، والقانون.. والقضاء على أغلبية الشعب

الموريتاني إقصاء، وحرمانا، وتجويعا، لتعيث شرذمة قليلة بمصالح وثروات البلاد والعباد، حين تصبح الدولة تقاد بربوتات ميكانيكية عمياء.. فارغة حتى من العِلْمِية التي تنحاز إليها، وتروج لها...

فهل سمعتم برئيس في العالم، يقبل-من باب السياسة فقط- أن تعلن حكومته رسميا نهارا جهارا، بأن الآلاف من حملة التخصصات الأدبية وما شابهها محكوم عليهم بالإعدام في دولتهم، وأن لا مكان فيها، ولا حظ في التوظيف، لمن لا ينتمي لاختصاص وزيرين أو ثلاثة دخلاء في عهده "الميمون"؟

وهل لأحد هؤلاء منجز علمي، يساعد في تقدم الوطن، والعالم، ويحق له ولنا أن نفخر به، في المحافل الدولية، مثل منجز يحي ابن حامد مثلا؟!

هل لديهم تجربة علمية أفضل من تجربة "فرن الغاز الوسخ"، الذي عرض مؤخرا أمام الرئيس، في إحدى جولاته داخل المدارس المتهالكة، دون أن يشمئز، هو، ولا الوفد الوزاري المرافق، ولا مستقبلوه، من قبح المنظر على الأقل، بعيدا عن سخافة المحتوى، مما يصدق حدسي للمسعى العام الممنهج، لتجفيف الذوق الجمالي، في روح هذا الوطن، أو حكومته على الأقل، أليس فيكم رجلٌ يتذوق الجمال؟ "القبح يؤلم مقلة الفنان"! و" الله جميل يحب الجمال"!

وأخيرا من أين جئتم ببدعة محاربة العلوم الإنسانية هذه؟

إن نهضات الغرب، الذي لم تأخذوا منه غير القشور التافهة، تقدس كل الاختصاصات العلمية وغير العلمية، وتنظر إليها نظرة تكامل لا تفاضل، وتعايش لا إقصاء؛ حيث لا علم يغني عن الآخر، ولا يسد مسده في بناء الأبعاد الإنسانية، والحاجات الحيوية، والحضارية المُرَكَّبَة، إلا عند قصيري النظر، أحاديي المنظور، عُمْي البصائر، ضيِّقِي الأفق، عديمي التجربة، عقيمي التفكير...

إن الدول الغربية المتقدمة بريئة من بدعتكم المختلقة هذه، فهي رغم تقدمها العلمي، وتطورها التكنولوجي، لا تفخر إلا بأدبائها، وشعرائها، وفلاسفتها، ومؤرِّخيها، ومشرِّعيها...... حيث يفخرون -في ماضيهم- بـ هيرودوت، وهوميروس، وأفلاطون، وسقراط...وفي الحديث يختزلون الهوية الفرنسية في "لغة موليير"، والهوية الإنجليزية "بلغة شكسبير"، والهوية الإسبانية "بلغة سيرفانتس"...والروس يتفاخرون بـ تلستوي، وغيره،

والألمان يفخرون بـالشاعر "جوته"، وكبار فلاسفتهم، فاسمحوا لي –بعد كل هـذا الاسـتفزاز لعواطفنا، والاستهتار بعقولنا وحقوقنا– أن أصرخ في وجوهكم: "من أنتم؟".

النشيد الكيمياوي للجمهورية الموريتانية الثالثة

مادامت الحكومةُ الموريتانية الحالية، لا تحبُّ العلومَ الإنسانيةَ عموما، رُبَّما انحيازًا للعلومِ الحيوانية أو الشيطانية، حيث لا تُوجَدُ فِي عَالَمِنا –حسَبَ تَصُوُّرِي– علومٌ غيرُ إنْسانيةٍ، إذِ الطبيعةُ لا تضَعُ لنفْسها علوما..

ومادامتْ تكْرَهُ الشِّعْرَ، رمْزَ "بلاد المليون شاعر"، وتسْخرُ منه، مُعْتَبِرَة أنه –وأخَوَاته من المَعارف– هو سِرُّ تَخَلُّفِنَا، الذِي لا سَبَبَ له حَقيقةً –في نَظري– غيْر الفساد المُسْتَشْرِي في الحكومات المُتناسِخَة..

ومادامَ النُّزُوعُ الإفرنكفوني، والمُيُولُ العِلْمِيةُ "العلْمانيةُ"، المَزْعُومَةُ، هي شِعَارُ هذه الحُكومَةِ، في أفقِ تَرْويجِها ودِعايَتِها للجَمْهُورَيةِ الثالثةِ السَّابِقَةِ لأوَانِهَا..

فلماذا لا تُكَمِّلُ تغْييرَها لرُمُوزِ الوَطَنِ، بِكِتَابَةِ نَشِيدٍ، تكونُ تفْعيلاتُه كيمياويةً، وحَرَكاتُه فيزيائيةً، ولُغَتُه رياضِيةً، وكلِماتُه قِطَعًا ميكانيكيةً، وبنْيَتُه هنْدسيةً مَدَنِيةً عسْكرِية، تعْكِسُ الْتِباسَ الصفَتَيْنِ في حَيَاتِنَا السَّياسِيةِ المَأْزُومَة..

وطبْعًا لنْ تكونَ اللجْنَةُ هنا إلا من "رِجَالٍ حوْلَ الرَّئيس"، تَوَاطأوا على التمْكِينِ لأنْفُسِهْم، بالدِّعايةِ لاخْتِصاصاتِهِم، وتسْفِيهِ اللغة العربية وأخَوَاتِها، والسُّخْرِيةِ من "الشِّعْرِ والشُّعَرَاءِ"، اسْتِغْلالا للتَّوَجُّهِ غيْرِ الأدَبِيِّ للرَّئِيسِ.

لقد كانَ مِنَ المُنَاسِب -فِي نَظَرِي- أنْ يَنْبَرِيَ منْ بَيْنِ أعْضَاءِ لجْنَةِ النَّشِيد، مَنْ يَطْرَحُ هذا الاقْترَاح.. يوْمَ اجْتِمَاعِها معَ الرئيسِ ومُقَرَّبِيهِ الذينَ زيَّنُوا له "عَدَاوَةَ الشُّعَرَاءِ".. ثُمَّ يَنْفَضُّونَ مِنْ حوْلِهِم.. تاركينَ إياهم يَصْنَعُونَ نَشِيدَهم المُقْتَرَحَ.. بعيدًا عن "الشِّعْرِ والشُّعَرَاءِ".

شعري.. ليس للمدح.. ولا للهجاء

في خضم الجدل المُثار حوْل تعيين "لجنة النشيد الوطني"، ذهب بعض المحللين لأسباب إشراك هذا فيها، وإقصاء ذلك منها، إلى استحضار سوابق بعض الشعراء في مدح الرؤساء، وسوابق بعضهم في هجائهم، وقد عدَّنِي بعض محللي " دولة المليون محلل" ممن هجا الرئيس فيما سمي مؤخرا بثورة الشعراء، ولم يستثنني -ولا غيري- بعضهم حين عمَّمَ حكمه بعدم وجود أي شاعر في موريتانيا لم يمدح أحد الأحكام المتعاقبة!!

والحقيقة أنه ليس هذا ولا ذاك بخُلُقٍ لِي، فأنا لم أمدح شخصا في حياته، ولم أهج شخصا في حياتي، لكني انتصرتُ -مع زملائي الأحرار- للشعْر والشعراء، حين تعرضوا للإهانة والسخرية، والتسْفيه، والتتْفيه، من طرف حكومة "بلاد المليون شاعر"، فقلت -بعيدا عن الهجاء: (/ 27/ 3/ 2017)

مملكة الشعراء

شـنْقيط.. مَمْلَكَـةُ الشِّـعْرِ الجَمِيـلِ.. ثِقُـوا! أنَّ السَّـلاطِينَ -دُونَ الشِّـعْرِ- مَـا خُلِقُـوا!

وأنَّنــــا.. أمَـــرَاء الشِّـــعْرِ.. سُــــلْطَتَنا عـلَى السَّـلاطِينِ-فـوْقَ الأرْضِ- تَنْطَبِـقُ!

وأنّ كـــلَّ كــــرَاسِي المُلْـــكِ.. أجْمَلُهـــا عـرْشٌ.. بِوُسْـعِ جَمـاهيرٍ.. لنَـا.. عَشِـقُوا!

وأنَّ ثَرْوَتَـــــنا شِـــــعْرٌ.. وَثوْرَتَنَــــا شِـعْرٌ.. ولسْـنَا.. بـذلِّ الشِّـعْر.. نرْتَـزِقُ!

وأنَّنَــــا نَمْـــــنَحُ الـــدُّنْيَا الجَـــمَالَ.. إذَا شِـئْنَا.. ونَسْـلُبُه.. أنّـى نَشَـاءُ.. ثِقُـوا!

ومَـــنْ يَكُـــنْ ذَا شُـعُورٍ.. مِـلْءَ خَـاطِرِهِ إنْ لمْ تَبُحْـــهُ القَـــوَافِي.. سَـــوْفَ يَخْتَنِـــقُ!

ومَـــنْ تقــاومْ.. جَمَــالَ الشِّـعْرِ.. طِينَتُــه فلْتَهْجُـرِ الـرُّوحُ.. حَيَّـا.. مَـا بِـه رَمَـقُ!

دعُـــوا بُحُــــورَ القــوافِي.. مَاؤُهــا حَــرَمٌ والخَائِضـونَ -بـلا فُلْـكٍ- بِهَـا.. غَرِقُـوا!

للشِّـــعْر.. فِي رُوحِـــه.. نَـــارٌ.. مُقَدَّسَـــةٌ لَـــوْ سَــاوَمَتْهَا يَــدٌ -بالــذُّلِّ- تَنْصَـعِقُ!

يـا حـاديَ الـرُّوح.. اعْـزفْ نايَهـا.. بـدَمِي إيقـاعُ نـبْض الـدُّنا.. مـعْ نبْضِـنا نَسَـقُ!

نحـنُ البلابـلُ.. شـدْوُ الكـوْن.. يُطْرُبُنـا ونكــــرهُ النــــاعقينَ.. حيْـــثُما.. نعَقُـــوا!

نشيد "المليون شاعر":
حالة طوارئ في وادي عبقر

علمت وكالة أنبائي من مصدر مطلع، ومأذون، أن جنيات وادي عبقر، قد استدعت كل "التوابع والزوابع"، من شياطين الشعر والنثر، لمعرفة مَن المتورط في وحي النشيد.. الخديج.. الهجين، الذي أقره -بتسرع متهور- مجلس وزراء موريتانيا (جمهورية الشعر)، بعدما تمخضت عنه اجتماعات شهر كامل للجنة معينة لهذا الغرض، مكونة من حوالي أربعين شاعرا وناقدا وغاويا، اختارتها وزارة الثقافة من "المليون شاعر"، وفق معيار" الولاء والبراء"، أساسا.

وقد كان جو الغضب للإبداع الشعري، وإلهاماته، هو سيد الاجتماع، حيث دافع -محقا- بعض أبناء الهوجل، والهوبر من سلالات شياطين الشعر العربي، بأن النشيد المذكور،

ليس أسوأ الأناشيد الوطنية للدول العربية.. الضعيفة المستوى.. في غالبها، فكان رد محكمة الشعر، في مملكة وادي عبقر، بأن هذا قياس مع وجود الفارق، لأن جميع الدول العربية لا تحمل اللقب الشعري المليوني، ولذلك.. فإن سر الغضب والاحتجاج هنا يتناسب طرديا، مع علو سقف التوقع، وسعة أفق الانتظار، من دولة توصف ببرازيل الشعر...

وبعد أخذ ورد، تجاوزت مداولات المحاكمة تشخيص المأزق، إلى ضرورة البحث عن حل، فانتهت إلى أن سبب تدني مستوى ذلك النشيد، لا يعود إلى ضعف في مستوى بعض أفراد اللجنة، بقدر ما يعود إلى تسييس اختيارها، وفق معايير غير خالصة للاصطفاء الإبداعي، وتسييس آلية عملها، مما أربك جن الشعر قبل إنسه، مع أن فيهم صفوة كل منهم قادر وحده على كتابة نشيد جميل.. وقد عقبت كبيرة الجنيات بأنه إذا كان من العادي أن يكتب الشعراء في بعض اللحظات مالا يرقى لمستواهم، فإن غير العادي هو تواتر اللجنة بكل من فيها من المبدعين على إجازة ذلك.

وهنا وسوس لهم أحد شياطين الشعر المغمورين، بأنه يعرف عددا من شعراء موريتانيا، خارج اللجنة المعينة، يستطيع كل منهم -أيضا- أن يكتب نشيدا رائعا، يليق باسم البلد وسمعتها، فقالوا له: إن لم توافنا بواحد من هؤلاء حالا.. فسوف نصدر حكما نهائيا غير قابل للاستئناف، ولا للنقض، بإسقاط لقب "بلاد المليون شاعر"، عن موريتانا، وإجبارها على الاحتفاظ بنشيدها القديم المبارك، أو أن يكون نشيدها صامتا بلا كلمات.. مثل بعض الدول الأخرى...وإن لم تنجح أنت أيضا في المهمة، فسوف يشطب اسمك من سِجِلِّ شياطين الشعر إلى الأبد.

ورَّطَ المسكينُ نفسَه، من حيث لا يعلم، فذهب يتخبط في الهزيع الأخير من الليل، يلتمس أن يصادف شاعرا مازال سهران، فلم يجد غيري بعد صلاة الفجر أضرب أخماسا بأعشار، استنزل الحلول لبعض مشاكلي العالقة، في غربتي المزمنة، وضياعي المستطيل، فقال لي: محكمة الشعر بوادي عبقر تستدعيك، ما دمتُ لم أجد غيرك.. فلما مثلتُ أمامها متوجسا: بادرتني سعلاة كبيرة، هي رئيسة المحكمة: ما علمك عن لجنة النشيد؟

فقلت لها: قسم أول: أعرفه شخوصا ونصوصا، وقسم ثان: أعرفه نصوصا، وأجهله شخوصا، وثالث: أعرفه شخوصا، وأجهله نصوصا، ورابع أخير: لا أعرفه شخوصا، ولا نصوصا.

فتبسمت اللعينة -بمكر-: وهل تركت احتمالا منطقيا؟!

ثم قالت لي: أمامك ساعة لتنقذ سمعة بلدك بنشيد شعري مقبول، وإلا.... فتمتمتُ: بشرطين:

أولا: أن يستحضر شيطاني معي نية الإخلاص للشعر والوطن، ومحفزات الإبداع الداخلية، بعيدا عن الإملاءات السياسية الخارجية، الفوقية، والإغراءات المادية.

ثانيا: أن يُخْلِيَ شيْطاني معي نيته تماما، من فكرة معارضة العلامة: الشيخ سيدي باب، وتحدي نشيده القديم المبارك؛ لأن هذين السببين كانا -في نظر أغلب المحللين- من أهم عوامل إخفاق النشيد الممسوس بلعنة ما.

أومأتْ: موافقة، فاختليتُ بشيطاني الشعري المغمور: "متمرد"، أستوحيه دفْقا من "الشعر الحار".. فأشار علي بنشر هذا الخبر، في انتظار ما ستسفر عنه "محكمة وادي عبقر"، لعل دعوات الأصدقاء.. تدعمني روحيا.. وها أنا أفعل.. ريثما يَتَنَزَّلُ النشيدُ المنتظر.

وهكذا تخلَّقَتْ مسودة نشيد افتراضي.. لجمهوريتنا الفاضلة، المعلقة في الخيال، بعيدا عن التنزيل على الواقع المستحيل، وبعيدا عن معارضة الشيخ سيدي باب، ذات العواقب الوخيمة، وهو مجرد تدليل على أن في الإمكان أبدع مما كان، على الرغم من تواضع مستوى المحاولة هذه:

اللهُ أكـــبرُ".. وَحَّـــدَتْنَا.. فِي الصَّـــدَى فتَناغَمَـــتْ أعْراقُنـــا.. طـــولَ المَـــدَى

وَطَنًـا.. بِحِضْـنِ الحَـاءِ.. والبَـاءِ.. ارْتَـدَى بِجَـــمَالِ.. مُورِيتَانِنَـــا.. نِعْـــمَ الـــرِّدَا!

نَبْنِيـــهِ.. صَرْحًـــا.. فِي السَّـــمَاءِ.. مُمَـــرَّدَا يَمْضـــي.. يَـدًا.. بِيَـدٍ.. كَـرِيمًا.. مُنْشِـدًا:

لا لَـــوْنَ لِلْـــوَطَنِيِّ.. لا.. كُـــلٌّ.. غَـــدَا شَـعْبًا.. تَوَحَّـدَ.. فِي العَقِيـدَةِ.. واهْتَـدَى

رَضَـعَ "المَنَـارَةَ.. والرِّبَـاطَ".. ومُنْتَـدَى لُغَةِ السَّمَا..."شـنقيطَ".. يـا لَـكَ.. مُحْتِدَا!

أَخْـــذَ الكِتَـــابَ.. بِقُـــوَّةٍ.. وَتَقَلَّـــدَا مَعْنَـــى البُطُولَـــةِ.. مـــدْفَعًا.. أوْ مسْـــجِدَا

عَشِـــقَ الرَّمَـــالَ.. الســـائِبَاتِ.. مُـــرَدِّدَا: الوَيْـــلُ.. لِلْعَـــادِي.. هُنَـــا.. قَـــبْرُ العِـــدَى

نَفْـدِي الصَّـحَارِي.. والمَرَاعِـي.. والكُـدَى والبَحْـرَ.. والنَّهْـرَ.. السَّـمَا.. نَحْـنُ الفِـدَا

لِـلأرْضِ.. أوْ لِلْعِـرْضِ.. أوْ نُـورِ الهُـدَى نَحْـــنُ الفِـــدَا.. فِي المُنْتَهَـــى.. والمُبْتَـــدَا

نَحْـــــــــــــنُ الفِـــــــــــــدَا.. نَحْـــــــــــــنُ الفِـــــــــــــدا

نَحْـــنُ الفِـــدَا..

2017-9-27

لكم النقود.. فاتركوا لنا النقد

وزراء حكومتنا الموريتانية.. بالله ربكم.. لا تجمعوا لنا بين "المُرَّيْنِ"، فقد جرَّعتمونا "صابا" في مجال الفعل والخطاب السياسيين، فلا تجرِّعُونا "مُرًّا" في الخطاب النقدي، ف

"الصابُ" و "المُرُّ" لا ضرورة -أصلا- للجمع بينهما، لأن أحدهما يغني عن الآخر، "وحسْبك من أمْرَيْن أحلاهما مُرُّ"، فما بالك بمترادفين هما المرارة عينها!

لن أناقشكم في النقد، والحكم على النصوص الشعرية عموما، وتحليلها، والمقارنة بينها، لأن ذلك ليس من اختصاصكم، والعلوم الإنسانية كلها -في نظر حكومتكم الخارقة- سخافات حكمتم على المختصين فيها، من مواطنيكم -باستثناء "التابعين غيْر أُلِي الإِرْبَةِ" السياسية المُخالفة- بالإبادة الجماعية، منذ أعلنت قلة الأدب حربها على الأدب.

كما أني لن أناقشكم في حكمكم النقدي علي شخصيا، لأني منذ تلمسي لخطواتي الأولى في كتابة الشعر -قبل 35 سنة- لم أعرض تجاربي، على أي شاعر هناك، ولا ناقد، ولا عالم... إلا العلامة الشيخ محمد سالم بن عدود رحمات الله عليه، فكيف بي اليوم وقد جاوزت حد الخمسين!

السيد وزير الثقافة المحترم.. أشكركم على رفعكم لي مكانا عليا -فوق ما أستحقه- بين الشعراء "الحاسدين" لأقرانهم، المغاضبين، أسفا على حرمانهم من المشاركة في "لجنة النشيد الوطني"، التي كانوا يشرئبون لعضويتها، حسب خطابكم مؤخرا أمام البرلمان، رغم أنكم أهْوَيْتُم بمستوي نشيدي المقترح... في مُنْحدَر سحيق عن "نشيد الجماعة"، لا كانت "قِرْنَ واحِد"، وليس لي الحق في الرد على أي رأي انطباعي غير مؤسس نقديا.

لكن ما وجدت نفسي مضطرا للرد عليه، هو أني -لله الحمد- لا مكان في قلبي للحسد، لاسيما بالنسبة للشعراء المبدعين، الذين اعترفت بمكانتهم العالية، وبأن كل واحد منهم قادر -بمفرده- على كتابة نشيد أفضل مما لفَّقت "الجماعة"، مع أني تفاجأتُ من تصريحكم بأن كل المشاركين، لم يوفق أي واحد منهم في كتابة نشيد على المستوى المرغوب، وقد أكدتُ -أيضا- أن "نشيد الجماعة" ليس أسوأ أناشيد الدول العربية، ولكنه دون ما تستحقه موريتانيا فقط، وما يُنْتَظَرُ من "بلاد المليون شاعر"، المُؤسْطَرَة في الذاكرة الجماعية.

وعلى كل حال، مَذهبي أن الحسد، اعتراض-بلا جدوى- على قسمة الله لمواهبه، كما أني شخصيا أرفض عموما، وفي شعري خصوصا، أن أكون صدى لأي صوت مهما كان جماله، ففطرة الله التي خصت كُلًّا مِنَّا ببصماته المائزة، تقتضي أن لا يكون أي شخص غير نفسه؛ فينبغي أنْ تكونَ حياةُ الإنسان عموما، والمبدع خصوصا، رحلةً مستمرةً للبحْث عن خصوصيته الذاتية، وفَرَادَتِه الفنية، بهذا آمنتُ، وبه كنتُ أنصحُ غيري من الشعراء: احرصْ

على أنْ تكونَ أنتَ أنتَ فقط، وقد أفردتُ أحد دواويني بعنوان: "بصمة روحي"، جاء في فاتحته:

أَنَــا.. لَسْــتُ أَقْبَــلُ.. أنْ أَكُــونَ سِــوَايَا مَهْمَا "أَنَـاهُ".. عَلَـتْ.. "أَنَـايَ".. "أَنَايـا!"

لُغَتِي.. وصَوْتِي.. لِي.. وحِبْرِي.. بَصْـمَتِي نَظَـرِي.. أَحَاسِيــسِي.. هَـوَايَ.. رُؤَايَـا!

نَبْضِي.. وأَنْفَـاسِي.. وخَطْـوِي.. لِي.. أَنَـا أَيَكُــونُ إِيقَــاعِي.. صَــدًى.. لِسِــوَايَا؟!

أَنَــا.. لــنْ أَسَــاوِمَ.. فِي صَــمِيمِ هُــوِيَّتِي مَهْــمَا تَنَاسَــخَت الــذَّوَاتِ.. مَرَايَــا!

فـاتْرُكْ صَـدَى غَــيْرِي.. إِذَا أَصْـغَيْتَ.. لِي واسْمَعْ.. صَدَى رُوحِـي.. بِحَـرْفِي.. نَايَـا!

عَنِّــي.. أَفَــتِّشُ.. فِيَّ.. وُسْــعَ عَــوَالِمِي مَـا اسْتَوْحَشَـتْ بِكْـرَ الـدُّرُوبِ خُطَايَـا!

فَــانْظُرْ.. إِلَيَّ.. بِــأَيِّ عَــيْنٍ.. شِــئْتَهَا أَنَــا.. هَكَــذا.. قَــدْ شَــاءَنِي.. مَوْلاَيَــا!

أما عن تهمة المُغاضَبة لعدم إشراكي في عضوية لجنة النشيد تلك، فقد كانت خلاصة أول تدوينة لي حول الموضوع، بعد إلحاح السائلين عن رأيي، هي:

"أني لن أعلق على اللجنة نفسها، أما عن عدم وجودي -شخصيا- ضمنها، فأنا سعيد به، وهو الطبيعي بالنسبة لي، ونقيضه هو الغريب العجيب...لأني أقف حيث يجب أن أقف.. ثم أتقبل تبعات موقفي المبدئي برضى وانسجام روحي مطلق، مهما كان. لقد قررتُ -بإمْلاء من سلطان منظومة الأخلاق التي أومن بها- أنْ أنتبذَ مكانا قصيا، عن مستنقعات كل الأحكام المتعاقبة على بلدي.. في انتظار أن يأتي الحكم الذي أجد فيه نفسي، ولا أجد غضاضة في التعامل معه.. وظني أنه لن يأتي.. في القريب المنظور على الأقل...".

وبخصوص قولك إن نشيدي قدم ليعتمد بديلا "لنشيد الجماعة"-لا كانت "قِرْنَ واحد"، فهذا -أيضا- ما مهَّدتُ به -حرفيا- لذلك المقترح، معتبرا إياه مجرد:

"مسودة نشيد افتراضي.. لجمهوريتنا الفاضلة.. في الخيال، بعيدا عن التنزيل على الواقع المستحيل، وبعيدا عن معارضة الشيخ سيدي باب، ذات العواقب الوخيمة، وهو مجرد تدليل على أن في الإمكان أبدع مما كان، على الرغم من تواضع مستوى المحاولة هذه".

ختاما.. أنا أعرف أنكم -أيها الوزير المحترم- قد قرأتم هذا كله، أو استنسخ لكم، من صفحتي على الفيسبوك، أو صفحات غيري ممن شاركوه، حيث ما يزال مدونا هنا، وهناك، وأعرف أن منشأكم في البيئة الحاضنة للغة العربية، المتمرسة بآدابها رواية ودراية، إضافة إلى

كسبكم المعرفي الشخصي، كلاهما يجعلانكم -بلا شك- تدركون بدقة ما عنيْتُه بـ""المسودة"، وصفة "الافتراضي".. و"الجمهورية الفاضلة"، المستهدفة، وكونها مُعَلَّقَة "في الخيال، بعيدا عن التنزيل على الواقع المُسْتحيل"، فهذا كله يؤكد أن هذه المسودة، لم تقدم لتعتمدها جمهوريتنا غير الفاضلة حاليا، بديلا عن "نشيد الجماعة"، ولم ألتمس منكم ذلك أبدا..

لكني أعرف أن منبر الناطق باسم الحكومة، مُرْتقًى صعْب، لاسيما في الدول الناقصة الديمقراطية، التي يكون الوزراء فيها رهناء، أكثر مما هم طلقاء، وتكون أولى مهمات الناطق الرسمي باسم الحكومة فيها، هي " تحريف الكلم عن مواضعه"، والتنجيم عن النيات، رجما بالغيب... وإلا....... لذلك أسامحكم.

نقيق الضفادع، والصمت/ الجريمة

لِكُلٍّ من الكلامِ والصمْتِ فَضِيلتُه، إذا تنَزَّلَ فِي مَوْقِعِه وسِياقِه المُناسِبِ، فَمَا كُلُّ كلامٍ منْ فِضَّةٍ، ولا كلُّ سُكُوتٍ منْ ذَهَبٍ، فالإفْصَاحُ ضَرُورَةً وُجُوديةً، ومن هنا كانَ البَيَانُ نِعْمَةً من الله مُرَادِفَةً لِنِعْمَةِ الخَلْقِ ذاتِها، فمِنْ رَحْمَتِه بِنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُه- أَنَّه عِنْدَما "خَلَقَ الإنْسَانَ

عَلَّمَهُ البَيَانَ"، وقد أعطانا أجْهِزَةَ الكَلام: لِسَانًا وشَفَتَيْنِ، وهَدَانا النَّجْدَيْن، لنقْتحمَ عقبة التعْبير الصادِق، حتَّى ولوْ كانَ ذلك مَحْفُوفًا بالَمخاطِرِ، ويتأكَّدُ هذا بالنِّسْبةِ لنُخَبِ الُمجْتَمَع الواعِينَ، أكْثرَ منْ غيْرهم، لاسيما عُلَماءُ الدِّينِ، العارفون بتقْديسِ أيِّ " كَلِمَةِ حَقٍّ عنْدَ سُلْطانٍ جائرٍ"، وباعْتبار "السّاكِت عَنِ الحَقِّ شيطان أخْرَس"، ولا يكونُ للصمْت أيّ فضيلةٍ، إلا إذا كانَ تأمُّلا، أو تعفُّفا عن الفجور، والبَذاءات.

وعلى ضوْءِ هذا كانَ السلاطينُ عبْرَ التاريخ، يعْرفون قوَّةَ سُلْطَةِ الكلمة، ويسْعَون دائما إلى توْظيفها لِخِدْمَتِهم، منْ خِلالِ تحْويلِها إلى تَطْبيلٍ وتزْمِيرٍ ونقيقٍ، مديحًا وتَمَلُّقًا، وإلا أخْرَسُوها، وكمَّمُوا أفْواهَ أصْحابِها، غيْر أنَّ أحْرارَ النُّخَبِ -غالبا- لا يَخْضَعُونَ للكبْتِ الُمتَسَلِّطِ، بل يتمرَّدُونَ عليْه، فيجْهَرُونَ بالُمعارَضَة تصْريحًا، حينَ يَجِدُونَ في التعْبيرِ عمّا يعْتقدُونَ أنَّه حقٌّ لذة، تتفوَّقُ على مَرارَةِ العُقُوبَةِ الُمنْتَظَرَةِ على ذلك، كائنةً ما كانتْ، أو تَلْمِيحًا حينَ لا يَمْتلِكونَ شَجَاعَةَ التصْريحِ والُموَاجَهَةِ، فيلْجَؤونَ للتعْبيرِ، بخِطابٍ مَرْمُوزٍ، سمَّاه جابر عصفور، في بعْضِ مَقالاتِه: " بلاغَةَ الَمقْمُوعِينَ"، التي يروْنَها مَنْزِلَةً بيْنَ مَنْزَلَتَيْ الصَّمْتِ الجَبَانِ، والتَّصْريحِ الجَريءِ.

وحَوْلَ جَدَلِ النَّقِيقِ، والصمْتِ السَّلْبييْن، نَسْتأنِسُ بالميثيولوجيا الشعبية، التي هي التفسير الثقافي للظواهر الطبيعية والأساطير، حيث نَجِدُ ثقافتنا الشعبية "الحَسَّانية" تُفَسِّرُ "نقيقَ الضفادع" تفسيرا إيمانيا، متشبِّعا بالتوَكُّل على الله، يري أنَّها تقول: "باق.. باقْ.. مولانا هو الرَّزَّاق"، بيْنما نَجِدُ الميثيولوجيا الأقدم كانت تفسُّرُ نقيقَها بأنَّه إمْعانٌ في الصمْت.. لأن شَرَقَها بنِعْمَة الَماء، يقتضي نِقْمَةَ التكْميم، عن التعْبير... وقد نَظَمَ أحدُ الشعراء القدماء -كما في كتاب "حياة الحيوان" للدميري- هذه الرُّؤية، في وَمْضَةٍ من شِعْر الحِكْمَة:

قالــــــت الضـــــفْدعُ قـــــوْلا صـــــــــــدَّقتْه الحُكَـــــــــــما:
في فمِـــــــي مـــــــاءٌ، وهـــــــلْ ينطـــــقُ مَـــــنْ فِي فِيـــــهِ مَـــــا؟!

فأصبحَ ذلك -عبْر التاريخ- مَثَلا للنُّخَبِ التِي تُقايِضُ-رغَبًا ورَهَبًا- صمْتَها عن إعلان الحقّ، بحشْو فمِها ذهَبًا، أوْ خبْزا، أو حتى تِبْنًا... في بعْضِ الأحيان.

أما التحليل السياسي المعاصر عندنا، فقد نقلَ "نقيقَ الضفادع" من خاصية الصمْت الجبان المدْفوع الثمَن، إلى الضجيج المأجور.. الذي يُناقُضها من جهة النُّطق، ويُطابُقها من

حيث الاشتراك في ارْتهانِ الحنْجُرَة.. لوَلِيِّ النِّعْمَة، أومَنْ يُخالُ كذلك، على الأقلِّ.. عبْر ما يُسَمَّى "أبْواقَ السُّلُطات"، وأنا أسَمِّيهِ "الحَناجِر المُؤَجَّرَة"، وقد خَصَّصْتُ له قصيدةً في أوَاخِرَ التسْعينيات، مُسْتوْحاةً من منْظر المُتَمَلِّقِين، وهم يَلْتَقِمُونَ الأبْواقَ فِي الحَمَلاتِ الانْتخابية، والدعائية، المُتَنَاسخة عنْدنا، بلا جَدْوَى.

كَما أعلنتُ رفْضَه، في قصيدةٍ أخرى، من تلك الفترة، تصورتُ فِيها مَقْعَدَ الوَظِيفةِ الرسْميةِ مقْعَدا أسْطوريا، فاقدا لوظيفتِه الطبيعيةِ، حيث لا يَجْلِسُ عليه المُوَظَّفِ، بقدْر ما يعْتَرِضُ في حَلْقِه، كَمَّامَةً، تُسْكِتُه، وطُعْما يَصْطادُه،؛ فقلتُ - في "نزيف مشاعري"، مفضِّلا حرية التعبير، والرأي، والخيار:

رمـضُ الرَّصِـيفِ.. أعَـزُّ.. لِي.. مـنْ مَقْعَـدٍ يَحْشُـو فَمِـي.. وا صرخـة الأوطـان!
في تَمْـتَمَاتِي.. ....مـا تـزال ....بقيـةٌ مـنْ كبْريـاءِ الحـرْف.. مِـلْءَ جَنَـاني!

الخلاصة: أني أدعو "النُّخَبَ العربية"-بمُخْتلفِ أطْيافِها- إلى العوْدة "بنقِيق الضفادع" -السائدِ اليوْم- إلى مَفْهومِهِ الإيمَانِي المُتَسامِي، في توَكُّلِه علَى الله، واسْترْزاقِه لله، الذي اخْتارُه أجْدادُنا مَلْمَحًا ترْبويا كريما، أرَادُوا أنْ يُورثُوه لأبْنائهم، عبْرَ منظومتهم الترْبوية الشعْبيةِ الحَسَّانية، "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ"، أضاعوا ثقافة " المُعْتزِّين بالله"، "المتوكلين على الله"، مهْما كانت الظُّروف، وتبَدُّلات الصُّروف، فَفِي فتراتِ الاسْتبدادِ، إنْ لمْ يكنْ صوْتُكَ مُتناغِما معَ جوقةِ أبْواقِ السُّلطان، ستنالُكَ العُقُوبَةُ عَلَى كُلِّ حالٍ، حتّى لوْصَمَتَ، فكنْ مُعَاقَبًا على "كلمة الحق"، لا على "السُّكوتِ/ المُدَان".

طلليات العرب الحديثة

يبدو أنَّ علاقتنا -نحن العرب- بالطلول أزلية أبدية، حتى بعدما ورثنا عواصمَ الحضارات العريقة، وأسَّسْنا نظائرَها، في عهد ازدهارنا القديم، وحتَّى ونحْن نعيش في مُدُننا الحائمةِ في أجواء السماء، والعائمةِ فوق سطح الماء، في عصرنا الراهن..ها نحْنُ كلَّ يوْم نشاهدُ

أطلال حياتنا، وحضارتنا، التي نُخَرِّبُها بـأيْدينا وأيْدي أعْدائنا.. تصرُخُ بأعْماقنا: " قِفَا نبْكِ من ذكْرَى حبيبٍ ومنزلِ...

لاحظتُ ذلك.. وأنا أراجِعُ بعْضَ المَقْطوعاتِ الشعْرية التي نثرتُها ملْحًا، على"خرائط الوجع العربي".. في وقْتٍ سابقٍ من هذه السنة:

الضياع الكبير

"بِـمَ التَّعَلُّـلُ؟ لا أهْـلٌ.. ولا وطَـنُ"! ... شُـعُوبُنَا.. غَـنَمٌ.. أوْطانُنَـا.. دِمَـنُ!

آهٍ.. "قِفَـا نَبْـكِ".. مَازالَـتْ "مُعَلَّقَـةً" ... لمْ يَمْحُهَـا "حَـائطُ المَبْكَـى".. ولا الـزَّمَنُ!

"قِفَا"–هُنَا– "نبك" –مِلْءَ الرُّوحِ– "مَقْدِسَـنَا" ... "عِرَاقَنَا".. "الشَّامَ".. آهٍ.. بَعْـدَهَا الـيَمَنُ!

عِقْدُ العَوَاصِـمِ – يَـا لَلْعُـرْبِ– قَـدْ نُثِـرَتْ ... حَبَّاتُـه.. مُـذْ سَرَى في نَظْمِهَـا الـوَهَنُ!

للْجَاهِليـةِ.. عُـدْنَا.. نَـازفٌ دَمُنَـا ... إرْثُ الحَضَـارَاتِ.. فِينَـا.. مَالَـهُ ثَمَـنُ!

فلمْ تزَلْ "دَاحِسُ".. "الغَبْرَا".."البَسوسُ".. هُنا ... تُغْـرِي.. بِنَـا.. فِتَنًـا.. فِي إثْرِهَـا فِـتَنُ!

أمْوالُنَـا.. "هُبَـلٌ".. وكُـلُّ سَـاقِطَةٍ ... "عُزَّى".. وأبْهَى الكَـرَاسِي.. فَوْقَهَـا وَثَـنُ!

ومَـا لَنَـا نُخَـبٌ.. إلاَّ "أبُـو لَهَـبٍ".. ... "أبُو رِغَال".. "أبُو جَهْلٍ".. أبو.... لُعِنُوا!

8 يناير 2015

سارق اليمن

هَا.. "سَدُّ مَأرِبَ".. عَادَ "الفَأرُ".. يَقْضمُه ... فأجَّتِ النَّـارُ.. فِي "طُوفُانِـه".. "العَـرِمِ"!

إذا اسْتَطالَ مَـدَى المَكْبُـوتِ.. مِـنْ غَضَـبٍ ... تلـبَّسَ المـاءَ.. "مَـا بالنَّـارِ.. مِـنْ ضَرَمِ"!

يا "للصهاريج".. مَا تَسْقِي.. ذُرَى "عَدَنٍ" ... إلا بِنَـزْفِ دِمَاهَـا.. العَـارِضِ.. الهَـتِنِ!

أوَّاهُ.. "صـنْعَاءُ".. تَـدْنُو.. كُلَّـمَا ابْتَعَـدَتْ ... كَـمْ ذا.. تَجَلَّلَهَـا غَـازٍ.. ولمْ يَـدُمِ!

أيْنَ الأَشَاوسُ.. و"الأذْوَاءُ".. مِـنْ يَمَـنٍ؟ ... "بِلْقِيسُ".. فِي "سَبَأٍ".. تُسْبَى.. بلا حَـرَمِ!

أوَّاهُ.. ذي كُلُّ "بِلْقِيسٍ".. بِهَـا.. "كشـفتْ ... عنْ سَاقِها".. رَهَبًا.. مِـنْ "لُـجِّ" بحْـرِ دَمِ!

فلْيَطْلُبِ.. الثَّـأرَ.. أحْفَـادُ "ابْـنِ ذِي يَـزَنٍ" ... فِي قَصْرِ غمْدَانَ.. يَرْعَى "سَـارِقُ الغَـنَمِ" !

الإلهام الشعري:
جدل الشيطاني والروحاني

الشِّعْرُ طلسمٌ إبْداعي، ظَلَّ -عبْرَ التاريخ- عَصِيا عَلَى "التَّعْريفاتِ"، فلمْ يَسْتَطِعْ "جامِعُها" أنْ يَقبضَ على ناصيةِ ماهيتهِ الزِّئْبَقِيةِ، ولمْ يَتَمَكَّنْ "مانِعُها" من منْعِ تَلَبُّسِه بِخَصَائِصِ هُوياتٍ أخْرَى، يَرْبطُها به جَدَلُ المُعَانَقَةِ والمُفارَقَةِ، والاتِّصالِ والانْفِصالِ، بِصُورَةٍ مُحيِّرَةٍ، أعْيَى الخُبَرَاءَ فَكُّ خُيُوطِ شَبَكَتِها.

ولأنَّ الشِّعْرَ سَلِيلُ ظواهِرَ رَوْحانيةٍ عَدِيدَةٍ، تَشْتَرِكُ في غموضِ المَاهيةِ، وصُعوبةِ تحْديدِ المَصْدَرِ الغيْبِي الذي تَنْحَدِرُ مِنْهُ، فإنَّ التَّنْظِيرات والتأويلات القديمة رَبَطتْ بَيْنَهُ معَ السِّحْرِ حِينًا، ومعَ الجِنِّ حِينًا آخَرَ، ومِنْ هُنَا نَبَتَتْ عِنْدَ أمَّةِ العَرَبِ الشَّاعِرَةِ فِكْرَةُ شَيَاطِينِ الشِّعْرِ، وأسْطورَةُ وادِي عَبْقَرَ، وثُنَائِيَةُ "التوابعِ والزوابعِ" التِّي بَنَى عليْها ابنُ شُهَيْد الأندلسي قِصَّتَهُ الخَيَالِيةِ الجَمِيلَةِ، التي تَرْتَادُ في -عالَمِها الافْتِراضِي- أوْدِيَةَ الجِنِّ، حيْثُ تَعِيشُ النِّسَخُ الأصْلِيةِ لِكُلِّ شُعَرَاءِ -وحتى كُتَّاب- العَرَبِ، الذين يُسَمِّيهمْ "توابع وزوابع"، كِنَايَةً عن أدَبَاءِ الجِنِّ الذِينَ يُلْهِمُونَ أدَبَاءَ العَرَبِ فَنَّيْ الشِّعْرِ والنَّثْرِ مَعًا.

وليْسَتْ إعَادةُ الشِّعْرِ إلَى تِلْكَ المَرْجَعِياتِ الغَيْبِيةِ، إلاَّ اعْتِرَافًا بِصُعُوبَتِهِ ورَوْعَتِه وجَمَالِه، لِدَرَجَةٍ يُسْتَكْثَرُ عَلَى الإنْسَانِ أنْ يَكُونَ مَصْدَرَهُ، رغْمَ أنَّهُ سَيِّدُ الأرْضِ، وخَلْيفَتُها المبجلُ منْ الله - جَلَّ وعَلاَ- بِمَلَكَةِ البَيَانِ العَجِيبَة.

ومَهْمَا يَكُنْ فإنَّ الشِّعْرَ يَسْتَمِدُّ هُوِيَّتَهُ الإبْدَاعِية منْ فَنِّيَتِهِ، أكْثَرَ مِمَّا يَسْتَمِدُها منْ مَوْضُوعِهِ، لِذَلِكَ لا دَخْلَ للنَّقْدِ الأخْلاقِي في صَمِيمِ النَّقْدِ الشِّعْري، والدَّلِيلُ عَلَى ذلك أنَّ القِيمَةَ الدِّينِيَّةَ والأخْلاقِيةَ للوَصَايَا والنَّصائحِ والزُّهْدِياتِ والتَّوَسُّلِياتِ -في تُرَاثِنا العَرَبِي-، لمْ تَسْتَطِعْ أنْ تَرْفَعَها إلى دَرَجَاتِ الإبْداع، كما أنَّ إبَاحِياتِ أبي نواس وخَمْرياتِه -مثلا- لمْ تَنْحَطَّ بِشِعْرِهِ إلى الدَّرَكِ الأسْفَلِ منْ الشَّاعِرية، لدَى الذائِقَةِ العَرَبِيةِ الجَمْعِيةِ التي كانتْ لا تُخْدَعُ عن الشِّعْرِ إذا كانَ شِعْرًا منَ المَنْظُورِ الفَنِّي، بِغَضِّ النَّظَرِ عنْ سُمُوِّ مَوْضُوعِه، أوْ خِسَّتِهِ.

ومنْ هُنَا لا يَكونُ إرْجاعُ الإبْداع الشِّعْري إلى مَصْدَرٍ شيْطانِي أو رَوْحَاني، حُكْمًا قِيمِيا فَنِّيًا، بِقَدْرِ مَا يسْتَبْطِنُ حُمُولَةً أخْلاقِيةً.

ويَبْدُو لِي أنَّ مُلْهِمَاتِ الشِّعْر -في عُمُومِها- يَتَجَاذَبُها الشَّيْطانِي والرَّوْحَانِي، لأنَّ الإنسانَ -في أصْلِ نَشْأتِه- مُزْدَوجُ التكْوينِ، بينَ الرُّوحِ السَّمَاوِي، والطينِ الأرْضِي، وعَلَى ضَوْءِ هذه

الازْدِوَاجِيةِ تَتَرَتَّبُ ازْدِوَاجِيةُ الإلْهَامِ الآنفةُ الذِّكْرِ، فالمُلْهِمَاتُ الشيْطانيةُ تَمُدُّ الشُّعَرَاءَ في غَيِّهِمْ، وتُزيِّنُ لهم سُوءَ أعْمَالِهِم، ولَكِنَّها قَدْ لا تَقْطَعُ عنهمْ مَدَدَ الإبْداعِ، وحتَّى لوْ جَرَّمَتْهم مَحْكَمَةُ الضَّمِيرِ الحَيِّ، إذْ تَجِدُ بَعْضَ الشُّعَرَاءِ، منْ بَاعَةِ الضَّمِيرِ المُتَزَلِّفِين السَّاقِطِي الهِمَّةِ، المُسْتَهْتَرِينَ، لاَ مُشاحَةَ فِي عَبْقَرِيتهم الإبْدَاعِيةِ المُبْتَذَلَةِ، أمَّا المُلْهِمَاتُ الرَّوْحَانِيةُ فهي الأخْرَى قدْ تَهْبطُ علَى حَمَلَةِ المُثُلِ عَدِيمِي الشَّاعِرِيَّةِ، فَلاَ تصْنَعُ منهم عَبَاقِرَةً، رغْمَ أخْلاقِيتهم، ولكِنَّها أحْيانًا تُصَادِفُ مَنْ يُوافِقُ جَمَالُ إبْداعِه جَمَالَ مُثُلِه، فَيَشِعُّ نُورًا على نُورٍ، وهُنَا قدْ تُعَزِّزُها في ذلك حَتَّى المُلْهِمَاتُ الشَّيْطانيةُ، حِينَ يُعْجِزُهَا أنْ تَسْتَزِلَّ هَذا النَّوْعَ منَ الشُّعَرَاءِ، فلا تَضنُّ عليهم -دائماً- بإلْهَامِها الإبْداعِي.

وأنَا مَثَلاً أعْتَقِدُ أنِّي وَفَيْتُ لِلْعَقْدِ الذي أبْرَمَتْهُ مَعِي رَبَّاتُ عَبْقَرَ، أمَامَ مَحْكَمَةِ الضَّمِيرِ الحَيِّ، وهي أيضاً لمْ تَخُنِّي، حيث أقول:

رَبَّـــاتُ عبْقَـــرَ قَاسَـــمَتْنِي مَوْثِقـــاً	إنْ ذَلَّ شِـــعْرِي.. ضَـــيَّعَتْ عنْـــواني
أقْسَـــمْتُ بـــالحَرْفِ الجَمِيـــلِ وسِرِّهِ	مَـــالي-بِهَجْـــرِ المُلْهِـــمَاتِ- يَـــدَانِ

وفِي هذا السياقِ مَازِلْتُ أذْكُرُ أنَّ وَاحِدًا منْ لجْنَةِ التَّحْكِيمِ في بَرْنامِجِ أمِيرِ الشُّعَراءِ، حِينَ سَمِعَنِي في قَصِيدَتِي هذه ("نزيف مَشاعِري) اسْتَمْطِرُ إلْهَامَاتِي -مَرَّةً- "مِنْ يَدِ الرَّحْمَنِ"، ومَرَّةً منْ "رَبَّاتِ عَبْقَرَ"، سَألَنِي: أيّهُمَا يُلْهِمُكَ الشِّعْرَ؟ الرحمنُ أم الشيطانُ؟ فقلتُ: -بِحُكْمِ تَجَاذُبِنَا الوُجُودي بيْنَ السماءِ والأرْضِ- هُمَا مَعًا.

2015

شياطين الشعر.. طلقاء في رمضان

مع إشراقة شهر رمضان المبارك، راق لي أن أقوم اليوم بجولة خاطفة، عبر صفحات بعض أصدقائي من شعرائنا خصوصا؛ لأتفقد "المليون شيطان"، الموزعة على "المليون شاعر"

هناك، هل صُفِّدَتْ -كبقية المَرَدَةِ، والعفاريت- في هذا الشهر، أم ما تزال حرة طليقة تمارس مهمتها الإلهامية لقرنائها من الشعراء، حتى في رمضان، وكم قد كانت المفاجأة، حيث وجدت عددا من أصدقائي، استقبلوا اليوم الأول من شهر رمضان بالشعر، وحول رمضان نفسه، مما جعلني أفهم أن بعض شياطين الشعر في "بلاد المليون شاعر"، مسلمون، وليسوا من "المردة"، الجديرين بالتصفيد، بل ربما كانوا، يصومون هذا الشهر، ويقومونه، أفضل من قرنائهم من الشعراء أنفسهم؛ وقد كان أول ما صادفني أبيات للسالكة بنت المختار فتاة من شاعراتنا، تحتفي ضمنها بضيف العام المعظَّم:

رمضــان.. أقبــلَ.. فاحــت النســماتُ	وتعبَّقــت -في عطرهــا- الزهــراتُ
رمضـان.. جـاءَ.. فـذي القلـوب كسـيرة	قــد أُشْرِبَــتْ مــن وجْــدها العــبْراتُ
شــهرُ العبَــادة.. والــذنوبُ كثــيرةٌ	يــا رحْمــةً.. ترْجــى بهــا الرحمــاتُ
تتبَتَّــلُ الأرواح صــوْبَ إلهِهــا	ترْجــو.. عَفُــوًّا.. كلُّهــا حسَرــاتُ
فبــذكْر ربِّ العــالمِينَ قلُوبُنــا	تصْــفُو وتفْــرَجُ كلّهــا الكربَــاتُ
تَسْــمُو النفــوسُ وترْعَــوِي عــنْ غَيِّهــا	تتســابَقُ الحَسَــنَاتُ والطاعــاتُ
أنــتْ الــرحيمُ فخُــذْ بنَــا نحْــو الهُــدى	وامــنحْ رضــاكَ لنــا بــه الجنَّــاتُ
وأعــدْ لنــا رمضــان يغســلُ همَّنــا	تتجــددُ الحســنَات والقُرُبــات

وقد جاراها -على صفحتها في الفيسبوك- يحيى سيدي، أحد أصدقائها، فكتب:

رمضــانُ أقبَــلَ فَــالنُّفوسُ تطيــبُ	قَــدْ جاءَهــا بعــدَ الغيــابِ حبيــبُ
هَــلَّ الهِــلالُ فللصِّــيامِ تجهَّــزوا	فــاللهُ يغفــرُ ذنبَنــا ويُثيــبُ
وتــذكَّروا كَــمْ في الــورى مِــنْ مُتْعَــبٍ	يرجــو الهــلالَ ويبتغيــهِ يغيــبُ

وعلى مقربة من النصيْن السابقين، تدخل الشاعر إبراهيم بن محمد أحمد، المغترب في ربوع الأندلس، مناجيا ليالي رمضان:

ليالي الصوم من طيب الزمان كعَرْف العطْر يعبق في المكانِ
ليائلَ لا يُطاولُها سواها تتيهُ بها الدقائقُ والثواني
ويزدهر الكلامُ بها سويّا لذيذَ الطعْم في وسْط الجفانِ
وتَعمُرُها التلاوةُ كلَّ حينٍ وقول الله في الغُرف الحِسانِ
وما يُجزَى الصيامُ فلا حسابٌ كريّان الدخول إلى الجِنانِ
فلو كانت ليالي الشهر حُورا فذاتُ القدْر تخفق في جناني
ولن ترضَى بشهر أيّ شهرٍ وألفٌ من خُطوبتها تُعاني

وفي الختام، اختبرت أنا إيمان شيطاني الشعر، فوجدته -في الحقيقة- إنسانيته ربما أكثر من تقواه، فإحساسه -في مواجهة بشائر رمضان- ينصب على "المعذبين في الأرض"، من بني أوطاننا العربية الشهيدة، حيث ألقى إلي قبل دقائق:

رمضانُ.. كنْ رُحْمَى.. لَمنْ ضاعوا جاءوا.. هُنا.. بيعوا.. وما باعوا
صاموا.. مَدَى المَنْفى.. بلا مَأوَى قَامُوا.. طوَابيرًا.. بَكَوْا.. جاءوا
هامُوا.. بلا زادٍ.. سِوى ذِكْرَى وطنٍ.. به ماتوا.. به ارْتاعوا
يَرْمِي -بهمْ- بَرٌّ.. إلى بَحْرٍ بَحْرٌ.. إلى بَرٍّ...لقدْ ضاعوا
رمضانُ.. كُنْ سِلْمًا.. وكُنْ علْمًا للجاهليةِ.. عَادَ أتْبَاعُ
انظرْ.. إلى اليَمَنِ.. العِراقِ.. إلى.. وإلى.. بِلَادُ العُرْبِ.. أوْجاعُ
مِنْ عهْدِ مَأْرِبَ.. لمْ يَزلْ عرَبٌ أيْدِي سَبَا.. مَا حَانَ إجْمَاعُ؟!
مِنْ حَرْبِ دَاحِسَ.. لمْ يزلْ دَمُنَا هدَرًا.. فهَلْ للْحُبِّ.. نَنْصاعُ؟

الإبداع.. في مواجهة الخوف:
الشعر نموذجا

يتنزل هذا الموضوع في سياق المواجهة بين ملكة البديهة، ومؤثر خاص من بواعث الإبداع النفسية المركبة الكثيرة، التي قد صنفت -منذ القدم- في منظومة:

1-(الرغب=الأعشى)، عندما يترك الباعث للجوائز المرصودة، أو لتحقيق الذات، أو لمجرد لذة استشعار الفوز في المنافسة.

2-(الطرب=امرؤالقيس)، حيث يكون الباعث على الارتجال عنصرا جماليا محبوبا.

3- (الكلب=عنترة)، حين يكون الباعث تحمسا أو غضبا.

4- (الرهب=النابغة) عندما يرتعب من نقمة المتسلط، أومن مرارة الإخفاق، أومن أي عواقب وخيمة.

فهذه كلها وضعيات تنخرط العبقريات -ضمنها- في مسابقات مباغتة، لم تمهد لها شروطها الموضوعية والذاتية، قبل اقتحام الحلَبة، إمعانا في اختبار القدرات الفنية للمبدع.

ولعل مؤثر الخوف (الرهب) -محور المقاربة- هو أخطر كل هذه البواعث، وأكثرها حرجا؛ فهنا إما أن يصبح الخوف غصصا يعترض ملكة التعبير، ويشلها، فيَحُولُ "الجَرِيضُ دون القريضِ"، كما قال الشاعر الجاهلي عبيد ابن الأبرص، حين استنشده المنذر بن ماء السماء، بين يدي سيَّافه، وإما أن تستنفر الذات كل طاقاتها الكامنة، في مواجهة التحدي الإبداعي، الذي قد يتحول إلى تحد وجودي، يكون النجاح فيه أو الإخفاق قضية حياة أو موت، أكثر منها قضية ربح أو خسارة ماديين أو معنوييْن، لاسيما عندما يصدر اقتراح الارتجال من سلطة عُلْيَا مُهَيْمِنَةٍ وقاهرةٍ وقادرة على إلحاق النفع والضرر معا، بمن شاءت، متى شاءت، وكيفما شاءت، بدون كبيرِ وازعٍ يتحكَّمُ في رغباتها أو نزواتها؛ فينبثق الرحيق الإبداعي المنبعث من دم القلب، في لحظة انفعاله المشحونة بالتوتر الأخطر، بعدما تستعيد النفس شيئا من توازنها المُخْتلِّ عند صدمة الهلع الأولى، وتنتصر إرادة الحياة، وغريزة حب البقاء، على شبح الرُّعْب المترَبص بالمبدع ريْبَ المَنُونِ، فينتضي "قوَّته الناعمة".

وهذا ما حدث حتى بالنسبة للشاعر"عبيد"، حيث اخترق قريضه -في النهاية- غصة جريضه، فأسعفته بديهته المرعوبة ببعض أبيات..سابقت الموت المحتوم، في يوم المنذر المشؤوم، وكذلك فعل الشاعر الإسباني "غارسيا لوركا"، فقد سابق إبداعُه إعدامَه، فانطلقت أبياتُ شعره الأخيرة، قبل أن تنطلق الرصاصاتُ القاتلة إلى صدره العاري. وإذا كان الإبداع هنا قد

انتصر بقدرته فقط على الميلاد من مأزق الموت المحتوم، فإن تميم بن جميل، لم تُسْعِفْه بديهتُه بارتجال جميل الشعر، وهو في قبْضة سَيَّافِ "المعْتصم" فحسب، بل اسْتَحْيَتْه كلماتُه، واسْتصْدرتْ له"صَكَّ غُفْرانٍ" من قاتله، بعدما قال:

أرى المــوت بــين النطــع والســيف كامنــاً فعفا عنه المعتصم، وأحسن إليه، وقلده عملاً

الخلاصة، هي أن كل المبدعين الذين واجهوا الموت بالإبداع، لفهم الفناء.. ولف من أرهبوهم، وبقي الإبداع خالدا يقهر الموت بقوة جماله الذاتي.

عكاظ في الفيسبوك:

شاعرة.. بين شاعرين

فيسبوكيات المثقفين عموما، والشعراء خصوصا، قد ترقى في أحيان كثيرة، وتسمو عن التفاهات، والسخافات، التي تغزو هذا الفضاء التواصلي الاجتماعي، في كثير من الأحيان، فتتحول إلى منتدى لتطارح الأفكار، أوعكاظا لتقارض الأشعار، فذات ليلة ماضية، جرت هذه المشاعرة العفوية، بين الشاعرة المغربية المبدعة: الأستاذة خديجة ماء العينين، والشاعر السوري القدير: جعفر أحمد حيدر، ثم ألتحقت بهما أنا، للنخرط -بعض الوقت- في لعبة ارتجالية ممتعة، حيث افتتحت الشاعرة خديجة:

عَـزفٌ عـلى الـوَتَرِ الحَسّـاسِ يَبْتَهِـلُ ... يـا حـادِيَ الشَّـوقِ أوتـاري لهـا سُـبُلُ
هـذي قـوافي المُحِبِّـينَ انتَضَـت مُهَجـاً ... عَـينُ الصَّـفاءِ بهـا إذ قَـرَّتِ المُقَـلُ

فأجابها المبدع: جعفر :

عـزفٌ ، أتـدرك أن الـوحي في لغـة ... عـلى مفاتنهـا عشـاقها وصـلوا
يـا حـادي الحـرف إني فيـك أمنيـة ... مثـل القصـيدة بيتـي الصـبح والأجـل

فتطفلت أنا عليهما:

عـزْفٌ.. عـلى وتَـر الأرواح.. ينْهَمِـلُ ... غمائـم الوجْـد.. في أحْزانِـه.. جَـذَلُ
يـا حـادي... الحَـرْف.. مزمـورا.. وقافيـةً ... إنَّـا -جميعـا- بـذاكَ الحَـرْفِ.. نَشْـتَعِلُ!

فبادرني جعفر:

يمـر وجهـك بالأشـعار محـتفلا ... والشـعر يضـحك والأيـام تحتفـل
أهـلا بِـآدي الـذي يختـار أحرفـه ... مـن السـماوات يمشـيها وينتقـل

فأجبته بديهة:

أهلا.. خديجَ.. وأهلا .. جعْفـرُ.. العَسَـل ... مِـنْ نُسْـغِ حـرْفيْكما.. تحْلـو بـه الجُمَـلُ
ومـا أنَـا غـيْر مَفْتـونٍ بسِـحْركما ... بخمْـر شِـعْركُما.. أهْـذي.. أنـا ثَمِـلُ

فأردفت خديجة:

عَـــزفٌ.. بقيثـــارة الآمـــالِ يَنتَقِـــلُ … والوَصـــلُ أذكـــاهُ بُعـــدُ الـــدّار والمَطَـــلُ
سَـنَعبُرُ البيـدَ خَيـلُ الشـوقِ مُـسرَجَةٌ … وحـــادِيَ الحَـــرفِ لا يَكبُـــو بِـــهِ الأمَـــل

فأجبتها.. مرتجلا:

عـــلى جنـــاحيْ بُـــرَاق الشِّـــعْر.. أرتحـــلُ … ما بيْن "حَاءٍ" و "بـاءٍ".. ربّ.. هـلْ أصـلُ
إلى متـــى.. ســـندبادُ التـــوْق.. يسْـــكُنني.. … وكلَّـــما ألمـــسُ الشُّـــطْآنَ.. تَرْتَحِـــلُ؟!

فاستخف جعفر:

هـــل في القصـــائد يـــا (أدِّي) لنـــا أمـــلُ … ويـــا خِديجـــة؟.. مـــاذا تفعـــل المثـــل؟
صرتـــم -عـــلى قســـمات القلـــب- أغنيـــة … يطـــير قلبـــي.. إلـــيكم.. وهـــي تبتهـــل

فلحقته خديجة:

تُهـــداكَ شـــاعرَنا مِـــن أحـــرُفي حُلَـــلٌ … مِـــن وَحـــي مـــا خَطَّـــهُ مِـــن قَـــولكم مَثَـــلُ
تَهــــذي ونَهــــذي جميعــــاً زارنــــا عَلَــــمٌ … أدّي مَنـــارُ القـــوافي حـــينَ تشـــتَعِلُ

فلحقتهما:

خديجـــةٌ.. جعفـــرٌ.. رفْقـــا.. أنـــا رَجُـــلُ … في ســـحْر حـــرْفيْكما مـــا لسْـــتُ أحْتَمِـــلُ
أنـــا.. قصـــيدٌ.. بـــلا معْنـــى.. بـــدونكما … لكننـــــي.. بكـــــما.. أزْهـــــو.. وأكْتَمِـــــلُ!

وعند هذا الحد لُذْتُ بالفرار من المَعْرَكة الجميلة، مُتسترا على الهزيمة بمراعاة فارق الوقت، وكان ينبغي أنْ قول إنني أقوم بانسحاب تكتيكي مراعاة لفارق الإبداع.

موضة القصيدة المشتركة:

تجليات العولمة

لقد عرف الشعر العربي القديم بوادر محدودة نسبيا لظاهرة القصيدة المشتركة، عبر ما كان يسمى بـ "الإجازة" و"التمليط"، حيث يلتقي شاعران فأكثر، فيقول أحدهم بيتا، أو شطرا، ويطلب من زميله تكميله، فتمضي قرائح الشعراء في مبادهاتها، حتى يتم النص، وفق شروط المناسبة الحافزة أو المقترحة مضمارا للعبقريات.

ويمكن –توسعا– في المفاهيم– أن تدخل قصائد "المعارضات"، عموما، ضمن مفهوم "القصيدة المشتركة، لأنها في إطارها العام تقتضي ارتهان القائلين، لذات الغرض، والبحر، والقافية، والروي... وهنا تبدو القصائد –مهما تعددت– كما لو أنها قصيدة واحدة.

لكن هذا العصر الالكتروني، سهل تفاعل الشعراء، بعد ما كسر حواجز الزمان، والمكان، ولهذا أصبحت موضة القصيدة المشتركة بين عدة شعراء، تجليا من تجليات العولمة، على مستوى الشعر، حيث يكفي الآن أن يعلن شاعر على صفحته أنه يقترح قصيدة مطولة في موضوع ما، محددا كم المشاركة لكل فرد، حتى تتحرك قرائح الشعراء في الوقت ذاته، لإنتاج القصيدة / المعلقة، أو القصيدة/ الملحمة، أو القصيدة الجدارية...حسب تعدد تسميات المقترحات التي شاركت فيها على الأقل، مثل معلقة القلوب الخضراء، التي اقترحها الشاعر الجزائري الكبير محمد جربوعة 2010م، في المديح النبوي، ومقترحات هذا الشاعر كثيرة في مجال القصائد المشتركة، بمفهوم المعارضات، التي يتواطأ عدد من الشعراء فيها على غرض، وبنية، موحدين، وغير بعيد من ذلك كانت "ملحمة العودة"، التي اقترحت حول موضوع عودة لاجئي الشتات الفلسطيني، فشاركت فيها– مع كثير من الشعراء، بمقطع عنوانه:

سؤال موطني وأنا جواب":

غَدًا.. آوِي لِحِضْنِكِ.. يا رحابي   فبي حَنَّ التُّرابُ.. إلَى التُّرابِ
وَفِي رُوحِي –لِرُوحِكِ– ألفُ توْقٍ   لقدْ ضَجَّ الغيابُ.. منَ الغيابِ
وَقدْ ضاقتْ–وَضِقتُ بهَا– المَنافِي   فكمْ مَنْفىً–لَمْنفىً– قدْ رَمَي.. بِي
وَبِي ظمَأٌ.. إلَى سَلسَالِ نبْعِي   فليْسَ –بغيْرِهِ– يَحْلو شرابي
وَبِي جُوعٌ.. إلَى غَلاّتِ حَقلِي   فطعْمُ سِوَاهُ –عِنْدِي– طعْمُ صابِ
سُؤالٌ مَوْطِنِي.. وأنا جَوَابٌ   ويا توَقَ السُّؤالِ إلىَ الجَوَابِ!
إلى مَ.. "غدًا".. تسَوِّفُنِي الأماني؟   أريدُ الآنَ –قبْلَ غدٍ– إيابي

وفي السنة الماضية أعلنت زميلتنا الشاعرة الأردنية المبدعة، د/ هناء البواب، "جدارية وطني– القصيدة"، سجالا شعريا حول الوطن/ الحلم.. الجميل، وكان سقف أملها أن يسفر هذا السباق الحر–في مضمار العبقريات– عن ألف بيت تشكل ديوانا مشتركا لعدد كبير من شعراء العرب، فرقتهم الحدود الوهمية، ووحدهم وطنهم الشعري، وكان من شروط المبادرة أن تكون جميع المشاركات، خمسة أبيات، على هذا الوزن والقافية، مع إمكانية أن يشارك الشاعر أكثر من مرة، وهذه إحدى خماسياتي فيها:

أهَـــاجِرُ عنْــكَ.. يَهْجُــرُني الســـُّرُورُ   فَحُبُّـــكَ فِي دَمِــــي بَحْـــرٌ يَمُـــورُ!

وَمَهْـــمَا صـــغَّرَتْكَ يَـــدُ المَـــآسِي   فإنَّـــكَ –فِي الهَـــوَى– الـــوَطَنُ الكَبِـــيرُ!

أنَــا.. وَطَنِــي القَصِــيدَةُ، حَيْــثُ ابْنِــي   بُيُوتًـــا.. لا تُضَـــاهِيهَا القُصُـــورُ!

هُنَـــا وَطَـــنُ المُعَـــانِي.. وَالأمَـــانِي   جِنَـــانُ الخُلْـــدِ.. والأوْطَـــانُ بُـــورُ!

وَمِــنْ "حَــاءٍ".. نُسَــافِرُ.. نَحْــوَ "بَــاءِ"   وَرَاءُ الحَـــرْبِ.. بَيْـــنَهُمَا.. كَسِـــيرُ!

وأخيرا شاركت مع بعض الشعراء الموريتانيين في قصيدة جماعية بعنوان: "معلقة الغضب"، تنتصر للشعر ضد من يستهين به في هذا العصر، فكانت مشاركتي قصيدة سابقة، بعنوان: "مملكة الشعراء"، مطلعها:

شـنْقيط.. مَمْلَكَـةُ الشِّـعْرِ الجَمِيـلِ.. ثِقُـوا!   أنَّ السَّلاطِينَ – دُونَ الشِّـعْرِ– مَـا خُلِقُـوا!

وأنَّنَـــا.. أمَـــرَاء الشِّـــعْرِ.. سُـــلْطَتَنا   عـلَى السَّـلاطِينِ –فـوْقَ الأرْضِ– تَنْطَبِـقُ!

وأنّ كــلَّ كـــرَاسِي المُلْـــكِ.. أجْمَلُهـــا   عـرْشٌ.. بِوُسْـعِ جمَـاهيرٍ.. لنَـا.. عَشِـقُوا!

"الحَفَّارَ".. في مَنَاجِم الشعر

لكلٍّ آلاتُ حَفْرِهِ، ومَجَالُ اشْتِغالِه، وأهْدافُه، ومَكاسبُه، وأنا –في الحقيقة– لن تَجْعَلَنِي أجْواءُ الحَمْلَةِ في بَلَدِي أدَّعِي مَا لاَ أمْلكُ، أو أظْهِرُ غيْرَ مَا أضْمِرُ، ومادامتْ يَدِي قاصِرةً ومُتَعَفِّفَةً عنْ تأجير حَناجِر الدَّعاية، في موْسِمِ النقيقِ، والمُكاءِ، والتَّصْدِيةِ، وليسَ هُناكَ مَنْ سَيَتطوَّعُ لي بذلك، فسوف أحُكُّ جِلْدِي بظفْري، وأعرب عن ميادين "حفري".

من هنا أعْتَرِفُ أمَامَكم تِلْقائيا، وبدون مُسَاءَلَةٍ، أنَّ مَنَاجِمَ الشِّعْر، أو حقولُ المَعْنَى، هي المَجالُ الذي يَسْتَهْوِينِي الحَفْرُ في أعماقه، فقد كنتُ منذُ بِداياتي الشِّعْرية، أنْزَعُ إلى هذا المَنْحَى، ثم أخَذْتُ أطَوِّرُ آلِيَّةَ حَفْرِي، بحثا عن خصوصيتي حتى مَرَدَ أنَايَ الشاعرُ، علَى التَّماهِي معَ أنَايَ الباحثِ، عبْرَ جَعْلِ موْضوعِ القَصِيدَةِ دائمًا منْجَمًا للتَّنْقِيبِ، واسْتِثْمارِ المَعَارِفِ الحَافَّةِ به، واسْتِقْطابِ التَّدَاعِياتِ المَسِيسَةِ الصِّلة بجَوْهَره، والتي تخْدمُ -كلها- بلْوَرة فِكْرَةٍ أو أطْرُوحَةَ هذه القِراءَةِ المُرَكَّزَةِ عَمُودَيًا، في عُمْقِ المَوْضُوعِ، بدَلَ الضيَاعِ في الشَّتَاتِ الأفُقِي، الذي دَأبَ عليْه جلُّ شعراءِ العَرَبِ القُدَمَاء، والمُحْدَثِينَ، ممَّا سَاعَدَ علَى هَيْمَنَةِ تَفَكُّكِ الوحْدَةِ العضْوَيةِ، وهَلْهَلَةِ الوحْدَةِ المَوْضوعِيةِ في قصائدهمْ..

وهكذا كانَ جُلُّ مُقارَباتِي الشِّعْريةِ -إنْ جَازَ التَّعْبِيرِ- تَحْكمُهُ ذِهْنِيةٌ، يُمْكِنُ أنْ أسَمِّيهَا: "قِرَاءَةً فِي...."، إذْ سَبقَ لي أنْ أدْمَنْتُ قِراءَةَ ما "بين الحاء والباء" من عوالمَ لا مُتناهية، وأسْرار مُطلْسَمَة، وقمْتُ بقراءةٍ في فُسَيْفِسَاءِ "الوُجُوهِ"، وتَلَوُّنَاتِها، وغصْتُ في عُمْقِ العيون، واسْتَقْرأتُ وحْيَها السِّحْري، كما قَدَّمْتُ -ضِمْنَ اسْتراتيجتي الشِّعْرية "الحفرية"- قراءةً أخْرَى "للكَفِّ"، وإيحاءاتِ خُطوطِ الأيْدِي، وحركاتها، وأسَّسْتُ من شُجُونِ الحَدِيثِ الشَّهْرَزادِي فرْعًا جديدا من الكيمياء، سمَّيْتُه"كيمياءَ الكَلِماتِ"، وهِمْتُ في أوْدِيةِ الشِّعْر، وغُصْتُ في لُجَجِ بُحُوره، تنْقيبًا عن ماهية كلٍّ من "الشِّعْر الحَّار"، و"قصائد الثلج"، باعْتبارهما وجْهيْنِ لعُمْلةٍ واحِدةٍ، ثم خصَّصْتُ لـــ "الناي" قِراءةً، جعلتْ تلك القَصَبَةَ الزهِيدَةَ تبْدو كائنًا وُجُوديا عظيما، شَبيهًا بـ "الصُّورِ"، من ثُقُوبِه، تُنْفَخُ الرُّوحُ وتُسْلَبُ.

هذا إضافة إلى" قِراءةٍ في الرَّمْلِ"، وفي "الأحْقاف شِعْرًا"، تأصيلاً لكِيانِ الإنسان، وأخْرَى في "النَّخْلة" أيضا، استقراءً لذاكِرَتِها الصَّحْرَاويةِ العَرِيقَةِ، المَشْحُونَةِ بأطيافِ العابِرينَ، وظِلالِ الأحْداثِ..إلى غير ذلك من القِراءاتِ.. والقِراءاتِ... التي نجحتْ خِلالَهَا آلاتُ حَفْرِي المُتواضِعةُ في اكْتِشَافِ مَنَاجِمِ المَعَانِي الدَّفِينةِ، ومُلامَسَةِ بُحَيْراتٍ جَوْفيةً من "ماء الشعر"إذا توضأت منها القصائد، دَبَّتْ فيها طاقةُ السِّحْر ...

وقد حرصْتُ أنْ تكونَ نتائج كلِّ حَفْرَياتي مُلْكًا مُشاعًا بعدالةٍ للجميع، ولم يَمَسَّها سُوءُ التسْييرِ الذي طالَ مَرْدُودِية مَنَاجِمِنَا الغنية، ولا عَبَثَ حَفْرِيَاتِنَا وتَنْقِيبَاتِنَا المَغْشُوشَة، لكِنَّنِي

-رغْمَ كلِّ هذه الدِّعايةِ الشخصية، المَجانيةِ- أرْجُوكم لا تَنْتَخِبُونِي، لا تَنْتَخُبُونِي.. فأنا لا أصلحُ "حَفَّارًا"، إلا في جمهورية الشعر، وأصْدَقُ مُرَشَّحِيكمْ -مَعَكمْ- مَنْ يَصْدَعُ فِي وُجُوهِكمْ اليومَ: لا تنْتَخِبُوني...لا تنتخبوني..

الشعر الحار.. رؤية*

إضاءة

بين يدي هذا الموضوع أحب أن أنبه إلى أن هذه التداعيات جاءت وليدة تراكمات أسئلة كثيرة وحوارات مستفيضة أو مقتضبة مع بعض الزملاء، وحتى الفضوليين، حول قضية

* - (أصل المقال مقابلة أجراها معي الأستاذ: محمد سالم ولد بمبه 2000).

الشعر الحار التي تبنيتها وجهة فنية وحول ما تستثيره من إشكالات، وهنا سأركز على المحطات الأساسية لتلك التساؤلات.

مفهوم الشعر الحار

هذا هو السؤال الملحاح الذي أصبح يطاردني، منذ أن أعلنت هذا المصطلح لأول مرة، في إحدى الملتقيات الشعرية حين سئلت: هل تقول الشعر الحر؟ فأجبت: أقول الشعر الحار.

وقد أثار المفهوم الجديد استفهام البعض، واستغراب البعض وسخرية بعض آخر، بل أصبح هذا المصطلح مطاردا في الشوارع والواجهات، كلما وضعت إعلانات أمسياتي الشعرية، فإذا بالمارة يفضل بعضها أن يقرأه بالحاد -بالدال عوض الراء- وهو تصحيف مقبول شيئا ما لتقارب الدلالتين.

والبعض الآخر يسلط قلمه على الإعلانات لكتابة الحر -بدل الحار- تصحيحا منه للخطأ المزعوم لأنه لا يعترف، ولا يتوقع غير ما ألفه.

وتأسيسا على هذا لابد -لأجل الإجابة على هذا السؤال- أن أقف وقفة متأنية أمام هذا المفهوم، مسلطا الضوء على مجمل المصطلحات التي تزدحم حوله، والتي كانت ولازالت تحتل قبله ذاكرة الأجيال القارئة.

فوسط غابة شجراء من المصطلحات تنزرع على طول خريطة القصيدة العربية، عبر فضائها الزماني المنداح ما بين الغابر والراهن، اخترت أن اسم تجربتي الشعرية الفتية باسم خاص هو "الشعر الحار" حيث وجدت أن ذلك السيل الفائض والرائج من المصطلحات ينبني على معايير هشة وغائمة، ولا يمكن أن ترتكن عليها تجربة شعرية تتلمس طريق النجاح، لأن معايير تلك المصطلحات غير لصيقة بماهية الشعر وكينونته، وأنا لست ملزما باجترارها، لأنها ليست ذات كفاية وصفية، ولأني لست ببغاء عمياء.

فمصطلح العمودي وضع في الأصل للدلالة على منظومة من القيم الفنية مثلت خلاصة ذوق حقب أدبية طويلة، ولكنه غير أزلي ولا سرمدي، بل إنني يمكن أن أتحدث عمّا أسميه: الأعمدة المتناسخة، إذ لكل مرحلة عمودها الخاص، حتى ليمكن أن أعتبر الشعر الحار أحد هذه الأعمدة المتجددة، لأن رحلة الحياة ما تزال مستمرة، وسفينة الإبداع ما تزال مبحرة، وتلك القيم التي كان ينبني عليها ذلك العمود أو هذا ليست نهائية.

وينضاف إلى ذلك أن مفهوم "العمودي" قد أفرغ اليوم من دلالته على تلك القيم الفنية، واختزل حديثا في الدلالة على النظمية الباردة والشكلانية الفارغة.

كما أن مفهوم الشعر الحر: تحرر من عمود الشعر العربي ليقع في تقليد عمود الشعر الغربي، وتبني "الحرية" شعارا ومعيارا حتى تحرر –بعضه– من الشاعرية نفسها، متناسيا أن الحرية المطلقة تتنافى مع الفن، فالحرية الفنية هي الحرية في ابتكار قواعد جديدة أو متجددة للإبداع الفني، وليست التحرر المطلق من القواعد والضوابط، فذلك يتماهى مع الفوضى العبثية، ودليلي على ذلك استقيه من سفر الحياة البديع، فالرياح النافخة في الفضاء الفسيح، العاوية في الفجاج الفيحاء، لا تنتج إيقاعا فنيا متناغما، ولكنها عندما تحشر في أنبوب أصم، ولا تترك لها سوى فتحات ضيقة تسدها وتفتحها أنامل نافخ الناي بين الفينة والأخرى، هنالك تولد قطعة موسيقية بديعة، تتخلق من جدلية تعاقب الحرية والتقييد، مما يعني أن التقييدات والضوابط قد تسهم في الإبداع أكثر من الحرية المطلقة العمياء.

ولدي دليل آخر على ذلك أستقيه من سفر الحياة نفسه، يتجلى في أن إيقاع خطوات الماشي الحر الطليق أقل فنية من إيقاع خطوات الراقص المقيدة بضوابط إيقاع خارجي وداخلي.

أما مصطلح الشعر النثري أو المنثور: فهو أكثر هذه المصطلحات التباسا وميوعة لما فيه من تمويه في التركيب، وشبه تناقض في الطرفين، إذ أن الشعرية –غالبا– نقيض النثرية، والإيقاع –في نظري– ليس مجرد صفة أو مكون أساسي من مكونات الشعر، بل هو أحد نواميس الكون السارية في نظام الوجود، وسيرورة الحياة.

فنبضات القلب، وعملية التنفس شهيقا وزفيرا، وخطوات الأقدام،وحركة البحر مدا وجزرا، وتعاقب الفصول... وجدلية الليل والنهار... ودوران الكواكب حول ذاتها أو حول بعضها كلها إيقاعات كونية، باختلالها تختل الحياة والوجود.

ومادام الشعر تجليا من تجليات الكون والحياة، فلا مناص من أن يتشبع بإيقاعاتها المتجذرة في صميمها. إلا أن إيقاعاته لا ينبغي أن تكون نظما، بل يجب أن تكون إيقاعات متجددة بتجدد التجربة، ومتنوعة بتنوعها.

أَضف إلى ذلك أن مصطلحي الشعر الجديد والحديث غير مقنعين ولا دقيقين لأنهما إذا ارتبطا بالصفة الزمانية، فلا علاقة لهما بالقيمة الفنية، وإذا ارتبطا بالقيمة الفنية فلا علاقة لهما

بالصفة الزمانية، فكم من شعر قديم زمنيا وهو حديث وجديد فنيا، وكم من شعر حديث زمانيا ولكنه قديم فنيا. وهكذا ندخل في دوامة تميع المفاهيم واختلاطها.

والآن بعد أن نفضت يدي من غبار أنقاض هذه المفاهيم الشعرية الجوفاء المتهافتة، التي كانت وليدة إطلاقات إعلامية، غير متأنية ولا واعية، رسختها أجيال تستقبل وتستهلك المفاهيم وصيحات الموضة، دون أن تنتقدها وتنتج لها البدائل، وجدت نفسي أتبنى مفهوم الشعر الحار: وهو من خلال هذا المنطلق يقوم على أنقاض هذه المفاهيم كلها، فلا هو عمودي، لأنه يرفض الانشداد إلى أي عمود من القيم الجاهزة، ولأنه يتعفف عن النظمية الباردة التي أصبحت -غالبا- سمة العمودي، ولا هو حر تلك الحرية الفوضوية العبثية التي تردى في دركها الشعر الحر، وفتحت نوافذ الحرم الشعري المقدس أمام الأدعياء والأقزام والمتسللين، ولا هو نثري تلك النثرية الباردة أو الميتة التي انتهت إليها أغلب نماذج قصيدة النثر في غثاءاتها وزبدها الذاهب جفاء. ولا هو قديم أثري متحجر، ولا هو حديث حداثة مائعة مأزومة.

إنه الشعر الحار

لأن الحرارة هي السمة المفقودة في أغلب هاتيك المصطلحات المنبوذة، ولأن الحرارة هي السمة الأكثر التصاقا بماهية الشعر وكينونة الإبداع، فأي شعر يفتقر إلى هذه الحرارة لا ينفعه كونه عموديا أو حرا أو نثريا أو قديما أو حديثا. وإذا تحققت لا يضره أيضا خلوه من تلك المواصفات العرضية الأخرى، لأن الحرارة جوهر الشعر في نظري.

وهي تتأتى من كون الشعر تعبيرا عن إحساس الشاعر، الذي سمي بهذا الاسم لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره. وهذا الإحساس المضاعف والانفعال الطاغي والعاطفة الجياشة والخيال الجموح، المتركزة كلها في بؤرة القلب النابض الخفاق، أكثر من عالم العقل، لابد أن يكون التعبير عنها تعبيرا حارا، بحيث يكون -كما أقول-:

شـــعرا يســـجل نـــبض قلبـــي نبضـــه ويـــــرج مقيـــاس الحـــرارة في دمـــي

لأنه "نزيف مشاعري" المنصهرة بهواجر "رحلة التوق" الأبدية عبر فضاءات الغموض المترامية ما (بين الحاء والباء).

فقد طالما زوّى الهجير جبيني "بلهيب الواقع المأزوم باختلالاته الجنونية، وكيف لا وأنا "المتأبط أو راقي..." دائما "فوق رمض الرصيف"، عاري الرأس، تحت ثقب الأوزون مباشرة، يكتبني طقس الصحراء العاصف القائظ:

فعزيـف هــذي الــريح هــوج عــواطفي ... وتــرمض الصــحراء يكتــب في فمــي:
ســفرا مــن الصــمت المجلجــل عازفــا: ... دقـــات قلـــب... حـــائر مســـتفهم:؟:
مـــا للعواصــــف لا تحــــرك ســـاكنا ... إلا قصــــيدا مـــن نزيـــف تـــأزمي؟.

ولم لا أتأزم؟

إني احترفـــت لهاثـــا... وانتعلـــت دمـــا ... خلف الســراب... فهـل للـري ميقـات؟

وهكذا تتقافز "الكلمات" الجمرات... إلى شفتي... ومن ذا الذي يستطيع أن يطبق شفتيه على الجمر؟ إنها حرارة الصدق الغلابة.

أحــــرف الحــــق تلتظــــي جمــــرات ... في فـــم الحـــر.... شـــزبا في الضــــلوع

وفي مثل هذه اللحظات المتوهجة تكون حرارة الدم والجسم، ملتهبة بأوار الكون الداخلي للشاعر الذي يتغلب عنصر النار في كينونة تركيبه على عناصر الماء والهواء والتراب، فتلتهب العناصر كلها.

وأي شعر يولد خارج هذا المناخ المشتعل، لا يعتبر -في نظري- شعرا، بل إنه لن يكون سوى كائن مفتعل بارد، لأنه مجرد قطع من الثلج رصفت في زمن شعري مزيف، إنه "طفل أنبوب".

الفنيات المميزة للشعر الحار

هي الحرارة في التجربة... في الإيقاع... في الصورة... في التركيب... في الإيحاء اللغوي، مع ضرورة التنبيه إلى أن تجربة الشعر الحار لا ترسم لنفسها مخططا بيانا مبيتا، ولا هندسة معمارية قبلية، ففنياته تولد معه، وتتلون بحسب طبيعة التجربة الشعورية الغلابة، وتتنوع وتتجدد تبعا لطقس الشعور الموّار.

فالشعور الموار إن هــــاج عصفـــــــــا ... في ضـــــلوع تنهـــار شـــتى الصـــدوع

وهل يستطيع الإعصار أو الفضيان أن يكيف قوة اندفاعه؟

وهل يستطيع البركان أن يحدد أبعاد فوهته بالمتر أو السنتمتر قبل أن ينفجر؟ إن درجة الاختزان الحراري هي -وحدها- المسؤولة عن ذلك.

وهل تستطيع الزهرة أن تحدد مسبقا طبيعة وشكل انبثاقها؟

في كل هذه الحالات تكون طبيعة الظاهرة نفسها هي التي تخلق قانونها.

والشعر الحار: إحدى هذه الظواهر الموقوتة الغلابة التي تمر بمرحلة اختزان حراري، واختمار شعوري، يتفاعل بطريقة تراكمية قد تكون طويلة المدى، حتى إذا أزفت الآزفة: لحظة الانبثاق: "لحظة الاندفاع..." لحظة الانفجار" أجد نفسي في حالة وجدانية غير واعية بذاتها كل الوعي، لأنها منفعلة أكثر منها فاعلة:

أنـــا إن تلبســـني القصـــيد رأيتنـــي   أرنـــو إليـــك... ولا أراك... أنـــاعم

أهـذي.. بصـحو المحـو.. تكتبنـي الـرؤى   فـــإذا حـــروفي غابـــة مـــن أنجـــم

علاقة الشعر الحار بلحظات الإبداع

هذه اللحظات تتمايز وتتداخل معا... خلال رحلة تخلق القصيدة الحارة، فلحظة الاختمار تستقل عن الكتابة والإنشاد مادامت مجرد إحساسات مبهمة، في طور الكمون الخامل، فإذا اشتد ضغطها وإلحاحها على الوجدان أخذت في التشكل اللغوي عبر كتابة التساويد المرافقة بإنشادها الصامت أو الناطق، إذ أن الإنسان يفكر باللغة... ويصور باللغة، وهذه هي لحظة تداخل اللحظات الثلاث. أما الكتابة المستقلة عن لحظة الاختمار فهي كتابة القصيدة بعد اكتمال تخلقها، وإن كانت هنا لا تكاد تخلو من إنشاد مسموع أو مستبطن خلال فعل الكتابة.

أما الإنشاد المستقل عن طور الاختمار فهو الموجه إلى المتلقين، مع أنه يظل متلبسا بالكتابة إذا اعتبرناه مجرد كتابة صوتية وحركية في الهواء.

الشعر الحار بين قواعد اللغة والضوابط الفنية

إن جمود اللغة وصرامة الضوابط الفنية لا يصمدان إلا أمام التجارب الشعورية الباردة أو الفاترة... التي يكتبها أصحابها غير ناظرين إليها.

أما أنا فلا أكتب قصيدة الشعر الحار إلا بعد أن يبلغ الاختزان الحراري للتجربة الشعورية درجة الانصهار والانفجار، حسب ما صورت سابقا.

وفي ظل مناخ كهذا لا تستطيع اللغة أن تحافظ على جمودها ولا الضوابط الفنية على صرامتها، لأنها لن تظل ساعتئذ كيانا مستقلا محايدا، بل ستندمج في عناصر المناخ الشعري الوجداني المتوهج أمام "لحظة تجلي الرب"، فلا تبقى الكلمات مجرد كلمات يابسة، وإنما تتناسخ ثمرات... جمرات... نغمات... حسب ما أقول في مستهل قصيدتي "فاتحة الشعر الحار":

إن يـــشرق اللهـــب المقـــدس في دمـــي ويهـــز جـــذع الـــروح مجـــد ينهمـــي

تساقط الثمرات...

والجمرات...

والكلمات...

والنغمات..

مالئة فمي

شـــعرا.. يســـجل نـــبْضَ قلْبِـــي نبْضُـــه ويَـــرُجُّ مقْيـــاسَ الحـــرارةِ في دَمـــي

وهكذا نلاحظ من خلال هذا القبس الشعري أن صرامة الضوابط الفنية قد تراخت وسط مناخ الشعر الحار، حيث انهارت وحدة البيت الصارمة والمقدسة في الشعر القديم أمام حرارة التجربة، لينداح الدفق الشعوري العاتي على مساحة ثلاثة أبيات كاملة، غير متوقف عند القوافي، ولا عابئ بإشارات المرور المتعارف عليها، لأن التجربة الشعورية في لحظة الإبداع هي الربان الذي لا يعترف بسلطان أو قانون خارج ذاته.

أنـــا إن تلبَّســـني القصـــيدُ رأيتنـــي أرْنـــو إليـــك... ولا أراك... أنـــا عَـــمِ

أهْذي... بصحْو المحْـو... تكتبُنِـي الـرُّؤَى فـــإذا حُـــرُوفي غابـــةٌ مـــنْ أنْجُـــمِ

هكذا أكتب الشعر الحار، فإذا لم تتوفر هذه الدرجة من الحرارة لتجربتي، وظلت على مستوى من الإلحاح والضغط يمكن تجاهله والسكوت عليه، أعرضت عنها وتناسيتها حتى تغلبني وتكتبني. وإذا كتبتها ولم تذعن صرامة اللغة والضوابط الفنية لحرارة دفق الشعور المؤّار، مزقتها، تبذتها، في مطرح القمامات، لأن الشعر الحار يستمد قانونه الذاتي دائما من كتاب الطبيعة الملهم، فهو يرتكز على نظرية أسميتها:

النظرية الإبريقية

حيث أن الإبريق عندما يملأ بسائل ما، ويوضع فوق موقد النار يأخذ في التفاعل مع درجة حرارتها، بدءا بالتبخر، ثم الغليان الصامت ما وسعه الصبر، فإذا ازدادت تراكمات درجات الحرارة، أخذ في الغليان الناطق، أزيزا واهتزازا حتى يجد من ينفس عنه، أو يتدفق من تلقاء ذاته.

وهذه هي حالتي مع الشعر، فأنا ألتزم الصمت مادامت درجة الحرارة الشعورية عادية، فإذا تفاقمت آخذ في الأزيز والاهتزاز حتى أوجد لها متنفسا إراديا أو يندفع الإحساس تلقائيا في لحظة الانفجار الكوني الكبير.

وهنا أشير إلى أن لغة الأزيز والاهتزاز الطبيعية التي يعبر بها الإبريق عن نفسه لحظة الغليان، لا تكاد تختلف عن اللغة التي تتلبس الشاعر في لحظة هذا التجلي الشعري، حيث لا يمتاح كلماته من لغة القواميس والمعاجم وكتب القواعد والدواوين والأنظام، بقدر ما يستعيد مع اللغة حالة الإنسان البدائي، يوم كان يصدر أصواتا مبهمة، أو يركب حروفا بطريقة طبيعية وليدة إحساسه الطاغي بالرغبة الملحة في تعبير يجسم انفعاله المستثار، تجاه ذاته، وتجاه الطبيعة والكون من حوله، مستلهما ما تكتنزه الكلمات والحروف من أسرار وأجراس وإيحاءات معبرة، مما يعني أن المرجع اللغوي المقدس الذي يرجع إليه الشاعر في مثل هذه اللحظات هو قاموس الإحساس والانفعال المبين، الذي يتدفق مع حرارة التجربة الشعورية، ولا يقف في وجهها أو يحد منها.

الشعر الحار بين لحظة الإبداع ولحظة النقد

الفرق بين لحظة الإبداع ولحظة النقد هو الفرق ذاته بين الشاعر والناقد، بين القلب والعقل، بين المحو والصحو.

مع أن العلاقة بين الطرفين -في نظري- علاقة جدلية أكثر مما هي حدية. فالشاعر في لحظة إبداعه يطغى لا وعيه على وعيه، بينما الناقد في لحظة نقده يغلب وعيه على لاوعيه. وترتيب العلاقة الطبيعية بين الطرفين يقتضي أن يكون الشعر سابقا والنقد لاحقا، فإذا انعكس هذا الترتيب، وأصبح النقد سابقا،والشعر لاحقا، اختلت المعادلة، وأصبح الشعر تمرينا

مفتعلا لا منفعلا. من هنا تتولد النظمية والبرودة. ومع هذا لا يوجد -حسب اعتقادي- شاعر مبدع لا يستبطن حسا نقديا، ولا يوجد ناقد مبدع لا يستبطن حسا شعريا.

وأنا عندما أكتب الشعر الحار... لا انطلق من رؤية نقدية جاهزة متبلورة المعالم شيئا ما، حسب ما أستعرض هنا.

لأني أكتبه وأنا أقرب إلى حالة المحو الصوفي، ولكن عندما أدخل في لحظة الصحو لاحقا، يستيقظ الناقد الذي كان مسحورا في وجداني، ليستعيد لحظة الغيبوبة الشعرية- ويضفي بعض اللمسات الواعية هنا وهناك، ويستنتج القوانين والمعايير التي استبطنها الشاعر، ويفتش عن مسوغات لشطحاته. وإذا صدقت في القول فإني أعترف بأني أطلقت مصطلح "الشعر الحار" في لحظة لم أكن -ساعتها- أعي حدود هذه التداعيات التي يكتنزها المفهوم، والتي بدأت أكتشفها شيئا فشيئا فيما بعد، عبر تراكمات التأمل والاستنتاج.

وأنا أتصور أن الشاعر يفهم الشعر ويتذوقه وينتقده أفضل من الناقد الأكاديمي، لأن معرفة الحائك للثوب لا تساويها معرفة البزاز، كما قال المتنبي لسيف الدولة، "وليس يعرف الشعر إلا من دفع إلى مضايقه" كما يقول ابن رشيق.

كما أنني أعتقد أن أي شاعر لا يستطيع الدفاع -نقديا- عن شعره، سوف تبقى تجربته دعية، تفتقر إلى الأب الشرعي، ضائعة في مهب الريح، تتلقى الصفعات تلو الصفعات، وهي خانعة راضية بالهوان، أو ستلجأ إلى ملجأ للأيتام "ميتم"، بحثا عن الحماية هناك.

السرقة الأدبية.. وبصمة الشاعر

السَّرِقَةُ سَرِقةٌ، مهْما كانتْ سطْوا على الْمُمْتلكاتِ الماديةِ، أو المَعْنَوِية، وهي -في الحالتيْن- فعْلٌ مُجرَّمٌ بلغة الشرائع والقوانين، وبرُوحهما أيضا، غَيْرَ أنَّ الملْكيةَ الفِكْريةَ أهَمُّ عند صاحبها من جميع ملْكِياتِهِ المادية، لأنَّ جهْدَه المَبْذولَ فيهَا أكْبَرُ وأشَقُّ، كما أنَّ فَخْرَه ونشْوَتَه بمُنْجَزِه

الإبْداعي أعْظَمُ من كلِّ لَذَّاتِ التَّمَلُّكِ الأخْرَى، لإدْراكِه أنَّ هذا المُنْجَزَ باقٍ في حِسابه الخاصِّ، أَبَدَ الآبِدِينَ، خِلافاً لتَرِكاتِه المادية التي سَتتوزَّعُها أَيْدِي وَرَثَتِه، فوْرَ مَمَاتِه.

والوَصْفةُ السِّحْريةُ للتسامِي عن هذا التصَرُّفِ الخَسِيس، هي رفْضُ المبدع أنْ يكونَ نُسْخَةً من غيْره، مهْما أعْجَبَه، ومنْ ثَمَّ سيُرَكِّزُ على اسْتثمارِ خُصُوصِيةِ بَصَمَاتِه التي فُطِرَ عليْها تَمْيِيزاً له عن غيْره، حتى تنْعَكِسَ بَصْمَةُ يَدِهِ على كِتابتِه، وبصْمةُ عيْنِه على رُؤْيَتِه، وبصْمةُ صوْتِه على لُغَتِه وإلْقائه، وبصْمةُ مشْيَتِه عَلى إيقاعِه.....

وخُلاصةُ الخُلاصَةِ أنَّ المُبْدِعَ لا يَجوزُ له من أنواع السرقاتِ إلا سَرقةُ نارِ ابْرُومثيوس إبْداعًا، وسرقةُ القُلوبِ إعْجابًا، وسرقةُ طاقاتِ عُمْرِهِ الفَانِي، لِتَشْييدِ هَرَمِ خُلُودِه الباقي. كما لا يجوز، له أبدا أن يكونَ نسخة من غيره، ولا صدى لصوته، ولا ببغاء لكلامه، لا قناعا لوجهه.

أخر قصيدة شعرية كتبتها كانت تدور في هذا الفلك، تمسكا بهويتي الخاصة، وبصمتي المائزة، بعنوان: بصمة شاعر:

أَنَــا.. لَسْــتُ أَقْبَــلُ.. أنْ أكُــونَ سِــوَايَا ... مَهْمَا "أَنَـاهُ".. عَلَـتْ.. "أَنَـايَ".. "أَنَايـا"!

اللهُ.. مُبْــــــدِعُنَا .. أرَادَ.. تَمَيُّــــــزِي ... إذْ خَــصَّ كُـــلاًّ.. صَــنْعَةً.. ومَزَايَــا

نَبْضِــي.. وأَنْفَـاسِي.. وخَطْـوِي.. لِي.. أَنَـا ... أَيَكُــونُ إيقَــاعِي.. صَــدًى.. لِسِــوَايَا؟!

لُغَتِي.. وصَوْتِي.. لِي.. وحِـبْرِي.. بَصْـمَتِي ... نَظَــرِي.. أحَاسِيــسِي.. هَــوَايَ.. رُؤَايَـا

2014/8/21

الملكية الفكرية.. الأمانة العلمية:

ليستا منتجا غربيا

لقد مرَّ اليومُ العالمي للملكية الفكرية(26-أبريل)، بصمْتٍ، ضائعا في ضجيج عصر السرقة والغش والتزوير، لكل المنتجات الفكرية، وغيرها، كما لو كانت هذه الذكرى إحدى

سمكات هذا الشهر المنذور للكذب دوليا، و لكن الطريف أنْ تكون الملكية الفكرية نفسها، لم تُرَاعَ فيها ضوابطُ الملكية الفكرية، والأمانةُ العلمية لم تتبعْ فيها قواعدُ الأمانة العلمية، فمن يطالع التنظيرات الكثيرة حول هذيْن المفهومين يظنهما من مبتكرات النهضة الغربية، المتمرْكزة حول ذاتها، فرغم اعترافهم بعدم جدة "الملكية الفكرية" مثلا، لا يعترفون لها بمرجعية أقدم من نهضتهم، حيث يعتقدون (أن شرارة نظام الملكية الفكرية قد أوقدت في شمال إيطاليا في عصر النهضة. وفى سنة 1474م، صدر قانون في البندقية ينظم حماية الاختراعات ونص على منح حق استئثاري للمخترع، أما نظام حق المؤلف فيرجع إلى اختراع الحروف المطبعية والمنفصلة والآلَة الطابعة على يد يوهانس غوتنبرغ عام 1440م. وفي نهاية القرن التاسع عشر، رأت عدة بلدان ضرورة وضع قوانين تنظم الملكية الفكرية. أما دولياً فقد تم التوقيع على معاهدتين تعتبران الأَساس الدولي لنظام الملكية الفكرية هما: اتفاقية باريس لحماية الملكية الصناعية 1883 واتفاقية برن 1886 لحماية المصنفات الأدبية والفنية).

لكننا عندما نرجعُ لبدايةِ حضارتنا الإسلامية، نجِدُ تحْريمَ وتجْريمَ الكذب، والغش، والتزوير، والتدليس، والانتحال.... في الحياة عموما، وفي المجال الفكري خصوصا، حيثُ انطلقَ مشْروع الأمانة العلمية، عبْرَ ترسيخ الدقة في العزو، والنقل، والرواية، والسند، وحتى في مجال اللغة والأدب والشعر، نقلتْ المعارفُ هنا، كما تنقلُ النصوصُ المقدَّسة؛ لأنَّ منظومة العلوم العربية كلها، نشأت تحت" شجرة القرآن"، وحول جذعها كانت تدور.

ولعلَّ أقرب مثال يحضرني الآن هو المؤرخ الرحالة المسعودي، من علماء القرن الرابع الهجري، حيث لا تكاد ترى مدى وعيه بحيثيات "الملكية الفكرية"، و"الأمانة العلمية"، إلا ظننت أنك أمام عالم معاصر، يعيش بيننا اليوم، ويقاسي هاجسَ الجريمة السيبرانية المتفاقمة، التي تؤرِّقُ عالَمَنا بدون جدْوى، فنراه يُهدِّدُ -في مقدمة كتابه وخاتمته- مَنْ يعتدي على ملكيته الفكرية، بالعقاب الإلاهي، في محكمتيْ الدنيا والآخرة، إذ يقول:

(وقد وسمتُ كتابي هذا بكتاب: "مروج الذهب"؛ لنفاسة ما حواه. وجعلته: "تحفة الأشراف"، لما قد ضمَّنْتُه من جُمل ما تدعو الحاجة إليه، وتنازعُ النفوسُ إلى علمه. ولم نترك نوعا من العلوم، ولا فنا من الأخبار، إلا أوردناه فيه: مفصلا، أو مجملا....

فمن حرَّفَ شيئا من معناه، أو أزالَ ركْنا من مَبْناه، أو طمسَ واضحة من معالمه، أو لبَّسَ شاهدة من تراجمه، أو غيَّره، أو بدَّله، أو انتخبَه، أو اختصرَه، أو نسبَه إلى غيرنا، أو أضَافه

إلى سِوانا، فوافاه من غضَبِ الله، ووقُوع نِقَمِه، وقوادح بلاياه، ما يعجزُ عنه صبرُه، ويحارُ فكرُه، وجعَله مثلةً للعالمين، وعِبْرة للمُعْتبرين، وآيةً للمتوسِّمين، وسَلَبَه اللهُ -تعالى- ما أعطاه، وحالَ بيْنه وبين ما أنعمَ به عليْه من قوة، ونعْمة مبتدعُ السموات والأرض، من أيِّ ملَلٍ كانَ، إنه على كل شيء قديرٌ. وقد جعلتُ هذا التخْويفَ، في أولِ كتابي، وآخره، ليكونَ رادعًا لمنْ ميله هوى، أو غلَبَه شقاءٌ، فلْيراقبْ أمْرَ ربِّه، وليحاذرْ سُوءَ منْقلَبِه، فالُمُدَّة يسيرة، والمَسافة قصيرة).

ولعل قوله: "من أيِّ مِلَلٍ كانَ"، فيه استشرافٌ نافذُ البَصيرَةِ، لمآلات أفكار حضارتنا القديمة، على يد منتحلي الملكية الفكرية، والأمانة العلمية، من عالم الغرب المعاصر.

فلسفة الإيقاع:
بين الكوْني والفَنِّي

الإيقاعُ -في نظري- ليْسَ مُجَرَّدَ صِفَةٍ، أو مُكَوِّن أَسَاسِي من مُكَوِّنات الشِّعْر، بل هو أَحَدُ نواميس الكوْن الساريةِ في نظام الوُجُود، وسيْرورَة الحَياة.

فنبَضاتُ القلب، وعمليةُ التَّنَفُّسِ شَهيقاً وزفيراً، وخَطَوَاتُ الأقدام، وحرَكَةُ البحْر مدًّا وجَزْرًا، وتعاقُبُ الفُصول... وجَدليةُ الليل والنهار... ودَورانُ الكواكب حوْلَ ذاتها، أوْ حَوْلَ بَعْضِهَا، كلُّها إيقاعاتٌ كونيةٌ، باخْتِلالها تَخْتَلُّ الحياةُ والوُجودُ.

وما دام الشعْرُ تَجَلِّيا من تَجَلِّيَاتِ الكوْن والحياة، فلا مَناصَ من أنْ يتشبَّعَ بإيقاعاتها المُتجَذِّرَةِ في صَمِيمها، إلا أنَّ إيقاعاتِه لا يَنْبَغِي أنْ تَكُونَ نظْمًا، بل يجبُ أنْ تكونَ إيقاعات مُتَجَدِّدَةً بِتَجَدُّدِ التَّجْربَة، ومُتَنَوِّعَةً بتَنَوُّعِها.

ومنْ هُنا تأكدَ عندي -عبْر دِراسَاتي حوْلَ هذا المَوْضُوع- أنَّ هناكَ إيقاعَ البَحْر العَروضي، وهو إيقاعٌ نَمَطِي، ميكانكي، جامد، بيْنما إيقاعُ الرُّوح الشاعِرة، هو الإيقاعُ المُتغَيِّرُ المُتَجَدِّدُ، وِفْقَ تَبَدُّلاَتِ طَقْسِ الحَالَةِ النَّفْسِية للشاعِر، حيث يَنْضَبِطُ علَى ذَبْذَبَاتِ تفَاعُلاتِه الدَّاخِلية، أكْثَر من انْضِباطِه على تَفاعِيلِ العَرُوضِ، ويَبْقَى الانْفِعَالُ هو الجِذْرُ الدَّلاَلِي الأصْلِي المُشْتَرَكِ بيْنَ التَّفْعِيلاتِ، والتَّفَاعُلاتِ، ممَّا جَعَلَنِي -خِلالَ تدْريسِي للعَرُوضِ- أرْبطُ لِطُلاَّبِي بيْنَ تقْطيعِ البَحْر علَى السبُّورَة، وبيْن تَخْطِيطِ القَلْب، حيث ترْتَفِعُ وتهْبِطُ مُؤَشِّراتُ النَّبْضِ هنا وهُناك، وفْقًا للْحَالَةِ النَّفْسِيةِ الغالِبَةِ، وهَكذا تَتَمَايَزُ التَّجَاربُ الشِّعْرِيةُ، وتَخْتَلِفُ قَصِيدةٌ منَ الكَامِلِ مَثَلاً، عن أخْرَى علَى البَحْر نَفْسِه، بقدْر الوَفَاءِ لِخُصُوصِية هذا الإيقاعِ الرُّوحِي، ولوْلا ذلكَ لَكَانَ إيقاعُ كُلِّ بَحْرٍ مُتَطَابِقًا تَمَامَ التَّطابُقِ بيْنَ كُلِّ قصائده.

إنَّ التَّفاعُلَ بيْنَ إيقاعِ الرُّوحِ المُتَموِّجِ، وإيقاعِ البَحْرِ العَرُوضِي النَّمَوْذَجِي المِعْيَاري، شَبيهٌ إلى حَدٍّ كَبِيرٍ بالتَّفَاعُلِ بيْنَ تِيَّارِ المَاءِ، ومَجْراهُ منْ قنوَاتِه، فكُلَّمَا اتَّسَعَ المَجْرَى، انْدَاحَ الماءُ، أو الشُّحْنَةُ الشُّعُورية، رَهْوًا، بِكُلِّ سَلاسَةٍ، وعندما تَضِيقُ قَنَاةُ المَاءِ، أو البَحْر العَروضي، عن تَيَّارِ المَاءِ أو العَاطِفَة، يبدأ الاحْتِكاكُ بيْنَ الإطارِ، والمُحْتَوَى، وهذا ما تَنجم عنْهُ تكَسُّراتٌ، وانْهِيَاراتٌ يُحْدِثُها التَّيَارُ المَائِي في حَافَاتِ قَنَاتِه،حيث يكُونُ انْدِفاعُه -كُلَّمَا ضَاقَتْ عليْه- أقْوَى، وصَوْتُه أعْلَى، وذلكَ نفْسُه هو ما يَحْدُثُ بيْنَ الشِّعْر، والبَحْر، وهو ما يُفَسِّرُ -في نَظَرِي- تَغَيُّراتُ "الزِّحَافَاتِ العِلَلِ"، الطارئة على النَّمَوْذَج المِعْيارِي للْعَرُوض، ورُبَّمَا كانتْ هذه العَلاقةُ الحَمِيمَةُ بيْنَ طبيعَتَيْ تَياريْ المَاءِ والشُّعُور-أيْضًا- تُمَثِّلُ خَلْفِيةً وَطِيدَةً لِتَسْمِيةِ الإطارِ العَرُوضِي بالبَحْر، إذْ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَدٌّ وجَزْرٌ.

وجدلُ هذا الاتِّساع والتضْييق، وما يَتَرَتَّبُ عَلى كُلٍّ مِنْهُما من إيقاعٍ يُناسِبُه، يعْني -في نظري- أن الحُريةَ المطلقةَ تتنافى مع الفن، فالحُرية الفنية هي الحرية في ابتكار قواعد جديدة أو متجددة للإبداع الفني، وليست التحرر المطلق من القواعد والضوابط، فذلك يتماهى مع الفوضى العبثية، ودلِيلي على ذلك أَسْتَقِيهِ من سِفْر الحياة البديع، فالرياحُ النافِخةُ في الفَضاء الفسيح، العاويةُ في الفِجاج الفيْحاء، لا تُنْتِجُ إيقاعًا فنِّيًا مُتناغمًا، ولكنها عندما تُحْشَرُ فِي أنْبُوبٍ أو قَصَبَةٍ، ولا تُتْرَكُ لها سوى فتحاتٍ ضيقةٍ، تَسُدُّها وتفتحها أناملُ نافخِ النَّايِ بيْن الفيْنَة والأخْرَى، هُنالكَ تُولدُ قطْعةٌ موسيقية بديعةٌ، تَتَخَلَّقُ من جَدَلِية تَعَاقُبِ الحُرِّية والتقْييد، ممَّا يَعْنِي أنَّ التقييداتِ والضوابطَ قد تُسْهِمُ في الإبداع أكثر من الحرية المطلقة العمياء.

ولديَّ دليلٌ آخَرُ على ذلك، أَسْتَقِيهِ من سِفْرِ الحياة نفسه، يتجلَّى في أنَّ إيقاعَ خطَواتِ الماشي الحر الطليق أقلُّ فنيةً من إيقاع خَطَوات الراقصِ، المُقيَّدة بضوابط إيقاعٍ خارجي وداخلي.

زدْ علَى ذلك أنَّ اللُّغَةَ التي يُكْتَبُ بها هذا الشِّعْرُ، تَسْتَبْطِنُ -فِي بنْيَتَيْها: السَّطْحِية والعَمِيقَة- إيقاعاتِها الداخليةَ والخارجيةَ، التي أَفَضِّلُ أنْ يُعَبَّرَ عنْها، بالإيقاعاتِ الصَّوْتِية والمَعْنَوية، حيثُ لا يَنْفَكُّ نِظَامُها عن جَدَلِه الدَّلالِي، بيْنَ "صوْتِ المَعْنَى" و"مَعْنَى الصَّوْتِ"، حسَبَ مَا يخْلصُ إليْهِ الناقدُ الفَرَنْسِي:"هِنْرِي مُوشِنِيه".

هندسة القصيدة:
بين التناظر والتفاعل

قصيدة البيت في الشعر العربي، استلهمت البيت اسما ومسمى، مبنى ومعنى، حيث الأخير ساكن، والأول مسكون، وعبر علاقة الجدل بينهما، جنحت بنية هذه القصيدة إلى هندسة التناظر، وهندسة التفاعل، فمثلت الأولى الثابت، ومثلت الأخرى المتحول، الشكل، والمضمون... ففي الوقت الذي استقرت فيه بنية الشطرين.. المتناظرين، في البيت الشِّعْري، ربما استلهاما من البيت الشَّعْرِي، الذي يقسم إلى نصف للحريم، ونصف للعموم.. حاول الذوق، والنقد العربي التقليدي أن يحفظ لكل شطر استقلاليته، عن الآخر، وللبيت -بشطريه- استقلاله عن بقية الأبيات الأخرى، معنى ومبنى، مثلما تستقل الخيمة عن الخيمة، ويترابط الجميع تجاورا وتناظرا، فكأن هناك تشبيها ضمنيا للقصيدة (مجمع الأبيات الشِّعْرِيةِ)، بالمخيم والحلة (مجمع البيوت الشَّعْرِية).. وقد جسدت مصطلحات العروض الخليلي، هذا التشبيه الضمني بين البيتين؛ حيث سميت عناصر البيت الصغرى (حركات وسكنات) بالأسباب (الحبال) والأوتاد، أدوات بناء الخيمة، كما سميت التفعيلة الأخيرة من الشطر الأول: "عروضا"، لأنها تنتصب بين الشطرين، محطة واستراحة بالنسبة للملقي، لأن جهاز النطق والتنفس مشترك، كما أنها تمثل محطة تقسيط للملفوظ الشعري، تيسيرا لاستيعابه عند المتلقي، حتى يتملى بجماله، على مهل، وهي هنا كالركيزة المعترضة وسط الخيمة، بين نصفيها، أما تفعيلة" الضرب" الأخيرة من كل بيت، فإنها تشكل نقطة الارتكاز الإيقاعي الموحد لتعدد الأبيات ...

كل هذه الحيثيات قد تكون من معززات هندسة التناظر الشكلية، باعتبارها تمثل بنيات قارة تأخذ مواقعها الثابتة في التوزع البصري لمعالم خريطة القصيدة التقليدية، لكن هندسة التفاعل هي الأخرى، لم تستسلم، ولم تضع أوزار حربها ضد الجمود البنيوي، باعتبارها تجليا للبنية الحية الدينامية للشعر، وقد فرضت صفة التفاعل الجوهرية في التجربة الشعرية الإبداعية مصطلحاتها النابعة من صميم خصوصيتها وهويتها، ابتداءً بمصطلح الشعر نفسه المقتبس اسمه من الشعور المَوَّار، وتثنيةً بمصلح التفعيلة المشتق من الانفعال الغلاب، وتثليثا بمصطلح "البحر" الذي يحيل على تفاعلات الطقس في جدله الطبيعي بين المد والجز، حين يبدو البحر رهوا في بعض الأحيان، ويثور ويهيج في أحايين أخرى، شأنه في ذلك شأن الطقس النفسي للكائن الحي عموما، وللإنسان خصوصا، وللشاعر بصورة أخص، لأنه لم يسم بهذا الاسم إلا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره..

زد على ذلك أن مصطلح"التصريع" في مطالع ومقاطع القصائد، بقدر ما يساهم في تكريس هندسة التناظر-فصلا- بين الشطرين، يعتبر-من جهة أخرى- ملمحا لهندسة التفاعل؛ باعتباره وصلا إيقاعيا، تملأ ذبذباته الفراغ الفاصل بين تفعيلتي "العروض"، و"الضرب"، ويجمع بين نهايتي الشطرين، كما يجمع مزلاج الباب بين بين مصراعيه المنفصلين في حالة إغلاق أبواب البيوت التي كانت مفتوحة..

كما أن مصطلح" التدوير"، هو مكافحة قوية ضد سلطة فلسفة الفصل في هندسة التناظر الأفقي.. لصالح فلسفة الوصل، عبر هندسة التفاعل، داخل القصيدة العربية التقليدية، حيث ينتقل بها إلى مدار "الدائرة العروضية" القائمة على البنية الإيقاعية الكلية، إذ ليس للدائرة -أصلا- بداية ولا نهاية، حتى تخضع للتجزيء، فهي تمرد وتحد لنظام الشطرين، حيث ينساح المبنى والمعنى متجاوزين حدود النهاية والبداية بين الشطرين المتناظرين، وفقا لمد موجة المعنى، التي ينبغي أن تتحكم في بنية المبنى، وليس العكس...إذ ليس الطقس النفسي-لا سيما في لحظة الانفعال الشعوري، والتعبير الشعري- ملازما دائما لحالة الجزر والجمود والسكون التي يقتضيها التحكم في الهندسة التناظرية..

وعلى هذا الأساس كان مصطلح "التضمين" -أيضا تمردا على نهاية وحدة البيت الأفقية المزعومة، والمدعومة من طرف هندسة التناظر، حيث مثَّل "التضمين" تغليبا للبنية العمودية للمعنى والمبنى التي يمكن أن تستمر سيولتها ودفقها الإيقاعي والدلالي على مساحة أكثر من البيت، وربما البيتين... إذ ينبغي أن نعترف أنَّ للبحر الشعوري، والشعري مده، كما له جزره.

ومن خلال هذه الرؤية يمكن إدراج مصطلحي الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية في النقد العربي المعاصر، ضمن هذا السياق...ويبقى باب المقاربة مفتوحا للمزيد.. من التوغل، ومغر بالمضي قدما في هذا المسار تعميقا، وتوسيعا، وتأصيلا، وتأويلا..

2018

الضرورة الشعرية الإبداعية

هُنَاكَ انتهاكاتٌ لِقوانِينِ اللُّغَةِ العرَبية، تُحْدِثُ اضْطِرابًا في قواعِد نُظُمِها الإعْرَابية، أو تَصَدُّعًا في بنْياتِها الصرْفيةِ، تحْتَ ضَغْطِ إكْراهاتِ سُلْطَةِ الوزْنِ، وضوابِطِ العَروض، المُهَيْمِنَة علَى ذائقةِ العَرَبِ الجَماعِيَّةِ، وأُذُنِهم المُوسِيقيَّة العَريقةِ، لدَرَجَةٍ يتساهَلُونَ -معَها- في مِعْيَاريَّةِ اللغَةِ، ويَستبيحُونَ قُدسِيَّتِها، باعْتِبَارِ الالْتِزَامِ بإشْبَاعِ الحِسّ المُوسِيقِي العَتيق، داخِلا في بَابِ "الضَّرُورَاتِ التي تُبيح المَحْظُورَاتِ"، حسَبَ مَنْطِقِ الشَّرْعِ والقانون.. لاسِيما بالنسْبة لمَنْ لمْ يُسْعِفْهُ ثَرَاءُ القامُوسِ العَرَبِيِّ الغَنِيِّ باشْتِقاقاتِه، ومُتَرَادِفَاتِه، في الْتِقَاطِ البَدائِلِ المُناسِبَةِ للكَلِمَةِ الناشِزَةِ في مَوْقِعَها...

وأَنَا هُنَا أحِبُّ أنْ أمِيِّزَ بيْنَ الضَّرُورَاتِ الشِّعْرِيَّةِ المَأْلُوفَةِ، التي لا تعْدُو كوْنَها عجْزًا لُغَوِيًّا، وفقْرًا في وَسَائِلِ الإبْدَالِ التعْبيريّ، أمَامَ جَبرُوتِ سُلْطَةِ الوزْنِ العَرَبِيّ القاهِرَة.. وبيْنَ الضَّرُورَتِ التي تأتِي خرْقا للقاعِدَةِ أجْمَلَ من القاعِدةِ نفْسِها، فهذه هي الضرُوراتُ الجَديرةُ -في نَظَرِي- بِصِفَةِ الشِّعْرِيَّةِ، والإبْداعِية، وما سِوَاها مُجَرَّدُ ضَرورِات وزْنية فقط.

ولَعَلَّ خيْرَ مِثَالٍ يَحْضُرُنِي علَى الخَرْقِ الأجْمَلِ من القاعِدَة، هو مَقْطَعٌ من نُونِيةِ أبي البقاء الرُّنْدي، في رِثَاءِ الأنْدلس، حيث صَرَفَ أسْماءَ حَواضِرهَا، التي كانت مَمْنُوعَةً من الصرْفِ -شَكْلِي- باعْتبارِ العَلَمِيِّة والعُجْمَة:

فسَـــلْ بلَنْسِـــيةً: مـــا شَـــأْنُ مرْسِـــيةٍ؟ وأيـــن شـــاطبةٌ؟ أم أيـــن جيـــانُ؟!

فهُنا قد صَرَفَ الشاعرُ-عمْدًا- كلَّ هذه الأسْماءِ، وبالتَّنْوينِ أيْضًا، تضْخِيما لصَدَى انْهِيارِ القوَاعِدِ، مُوحِيا -عَبْرَ ذلك- بأنَّ لِسُقُوطِ كُلٍّ من هذه الحَوَاضِرِ إيقاعَه الخاصّ في النَّفْسِ نصْبا، وجَرًّا، ورفْعًا.

وبعْدَ هذا العَبَثِ المَقْصُود بقواعِدِ العَرَبِيَّةِ، اسْتشْعَرَ أبو البقاء الرّنْدِيّ أنَّ أجْهِزَةَ التلقِّي لدَى قارئِيه من العَرَبِ -مَدَى التاريخ- تُحاصِرُه بالاسْتفْسارَاتِ عنْ سَبَبِ هذا التلاعُبِ بقواعِدِ الصرْف العرَبِيّ، فبَاغَتَهمْ بِجَوَابٍ خارِقٍ للقواعِدِ نفْسِها:

قَوَاعِـــدٌ.. كُـــنَّ أرْكَـــانَ الـــبِلادِ.. فَـــمَا عسَـــى البَقَـــاءُ إذَا لمْ تَبْـــقَ أرْكَـــانُ؟"!

وَفِي هذا الجَوَابِ/ السُّؤَالِ، الصَّارِفِ للمَمْنُوع احْتِجَاجٌ ضِمْنِيٌّ له مَنْطِقِيَّتُه، على صَوَابِ هذا الزّلْزَالِ الشِّعْرِي، حيث إنَّ بلنْسِية، ومرْسِية، وشاطِبَة، وأخَوَاتِها من الحَوَاضِر الأنْدَلُسِية،

كانت -فعْلا- قَوَاعِدَ حاضِنَةً للحَضَارَةِ الإسْلامية العَرَبِيَّةِ هُناك، عمْرانا، وأدَبًا، ولُغَةً، ونحْوا، وصرْفا...وما دامتْ هذِه القواعِدُ الحَضَارِيةُ الحَامِلَةُ لتِلْكَ الثقافَة، قدْ زَالَتْ، وانْصَرَفَتْ واقِعيا، وأصْبَحَت في خبَرِ كانَ "قواعِدُ كُنَّ أرْكانَ البِلاد"، فكيف المُحَافَظَةُ -بعْدَها- علَى سَلامَةِ القَوَاعِدِ العِلْمِيَّةِ المَحْمُولَة؟

أجَلْ، هذا النوْعُ من تكْسِيرِ طَوْقِ المِعْيَارِيَّة اللُّغَوِيَّةِ، هو الذي يَسْتَحِقُّ اسْمَ "الضرُورة الشِّعْرية"، ولاجْتِرَاحِ هذا الخرْقِ الأجْمَلِ من القاعِدةِ، أعْطَى الخليلُ بن أحمد الحُرِّيَّةَ المُطْلَقة للشُّعَرَاءِ "أمَرَاء الكلام"، مَا دَامَ انْزياحُهم تعْبيرا إبْداعيا، وليس مُجَرَّدَ إقْرَارٍ بالعَجْزِ اللُّغَوِيّ، فأكَّدَ أنَّ "الشُّعَرَاءَ أُمَرَاءُ الكلام، يُصَرّفُونه أنّى شاءوا؛ وجائزٌ لهم ما لا يَجُوزُ لِغَيْرِهم: من إطْلاقِ المَعْنَى وتقْييده، ومن تصْريفِ اللّفْظ وتعْقِيدِه، ومَدِّ مَقْصُوره، وقَصْرِ مَمْدُودِه، والجَمْع بيْن لُغَاتِه، والتفريقِ بيْنَ صِفَاتِه".

وَلَعَلَّ في هذا المَلْمَحِ تكْريسا مَشْرُوعا للخليل بن أحمد-فاتحا لحُرِّيةِ الإبْداع الشِّعْري، بَدَلَ تكْريسِه -ظُلْما وعُدْوانا- مُصَادِرًا لحُرِّيةِ الشُّعَرَاءِ، وقامِعًا لَمَلَكَاتِهم، ومُخْتَرِعًا لقُيُودِهِم، وعلَى ضوْءِ هذه الرُّؤْيَةِ سَبقَ لِي -عبْرَ هذه الزَّاوِية- أنْ تناولْتُ "فلسفة الإيقاع"، مُحاوِلا تعْميقَ التَّصَوُّرِ حوْلَ الضَّرُورَاتُ العَرُوضِيَّة، التي تُسَمَّى: "زِحَافَاتٍ" و"عِلَلا"، نازعًا عنْها صِفةِ "التمْريضِ" هذه؛ حيث قلتُ:

"إنَّ التَّفاعُلَ بيْنَ ايقاعِ الرُّوحِ المُتَموِّجِ، وإيقاعِ البَحْرِ العَرُوضِيّ النَّمَوْذَجِي المعْيَاري، شَبيهٌ إلى حَدٍّ كَبيرٍ بالتَّفَاعُلِ بيْنَ تيَّارِ المَاءِ، ومَجْراهُ في قنوَاتِه، فكُلَّمَا اتَّسَعَ المَجْرَى، انْدَاحَ الماءُ ، أو الشُّحْنَةُ الشُّعُورية، رَهْوًا، بِكُلِّ سَلاسَةٍ، وعندما تَضِيقُ قَنَاةُ النهْر، أو البَحْر العَروضي، عن تَيَّارِ المَاءِ أو العَاطِفَة، يبدأ الاحْتِكاكُ بيْنَ الإطارِ، والمُحْتَوَى، وهذا ما تنجمُ عنْهُ تكَسُّراتٌ، وانْهِيَاراتٌ يُحْدِثُها التَّيَارُ المَائِي في حَافَاتِ قَنَاتِه؛ حيث يكُونُ انْدِفاعُه -كُلَّمَا ضَاقَتْ عليْه- أقْوَى، وصَوْتُه أعْلَى، وذلكَ نفْسُه هو ما يَحْدُثُ بيْنَ الشِّعْر، والبَحْر، وهو ما يُفَسِّرُ -في نَظَرِي- تَغَيُّراتُ "الزِّحَافَاتِ العِلَلِ"، الطارئة على النَّمَوْذَجِ المِعْيارِي للْعَرُوض، ورُبَّمَا كانتْ هذه العَلاقةُ الحَمِيمَةُ بيْنَ طبيعَتَيْ تَياريْ المَاءِ والشُّعُور-أيْضًا- تُمَثِّلُ خَلْفِيةً وَطِيدَةً لِتَسْمِيةِ الإطارِ العَرُوضِيّ بالبَحْر، إذْ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَدٌّ وجَزْرٌ".

الحداثة المرغوبة والحداثة المعطوبة

النقد ليس اتهامات يرجم بها فريقٌ فريقاً، ولا سلاحا إيديولوجيا، يُشْتبَكُ به في سُوح الجِدال والنِّزال، وإنما هو خطاب على خطاب، يصف ويحلل الظاهرة الإبداعية، في حد ذاتها، بعيدا عن كل الخلفيات غير الفنية، كما أن الحداثة معطى حضاري وثقافي، ناتج عن سيرورات تاريخية كبرى، تفعل فعلها -قسرا- في كينونة الفرد، والجماعة معا، وهي -وفق هذا التصور- قدَرُ الجميع، مهما تفاوتت نسبها، تبعاً لدرجات كسْبِ هؤلاء، وهؤلاء، من ثمرات تلك السيْرورات، كثرةً، وقلةً، وعمْقاً وسطْحيةً، والذي ينغلق دونها مطلقا، يُعاند نواميسَ الكوْن، ويَحْكُمُ على تجْربته بالإعدام، لأنَّ ضَخَّ الدَّم الجَديد، وتنَفُّسَ الهواء الجديد، ضروريان لاسْتمرار دوْرَة الحياة، ولعلَّ مَرَدَّ أزمة الحَداثة يكْمُ في ما يمكن أن يُسَمَّى بـ «الحَداثة الكاذبة»، و«متاهات الغموض»، فالوصْفُ الأول يعني افْتعالَ الحداثة، بدَلَ الانْفعالِ بها، واسْتيرادها، دون معايشتها، وخَوْضَ تجْريبها بدل تجْربتها، فكل هذه الحيثيات المُخْتَلَّة، ربما ترتَّبَ عليها الوصْفُ الثاني، الذي هو الإيغالُ في «مَتاهات الغُموض»، حتى يَتَجاوَزَ تكثيفَ الصُّور المُحَبَّب، والمُعَبِّر عن عُمْقٍ في الرُّؤْية، ونُضْجٍ في الفلسفة، وخُصوبةٍ في المِخْيَال، إلى شَطَحَاتٍ وهَلْوسَات، غير واعية بذاتها، فهنا يكمن الفرْقُ -حسب نظري- بين الحداثة المرغوبة، و«الحداثة المعطوبة»، كما يسميها -في بعض كتبه- الشاعر المغربي، الدكتور: محمد بنيس، أحد أقطابها إبداعا وتنظيرا.

والحقيقة أن الشعر الموريتاني ليس استثناءً من الشعر الإنساني عموما، ولا الشعر العربي خصوصا، فلا يُوجَدُ مُنْتَجٌ إنْساني أزَلِيٌّ، لا يَحتاجُ التجديدَ أبَداً، بل ربما كان الشعر الموريتاني أحوجَ إلى التجديد من أغلب أشعار الأقطار العربية الأخرى، لأنه -في عمومه- يرْتكنُ على خلْفيةٍ ثقافيةٍ «مَحْظَريةٍ»، أكثر أصالة وعمْقا وصلابة من خلفيات نظرائه من الآداب العربية، نظرا لاختلاف طبيعة التكوين الثقافي والتربوي، هنا وهناك، ولكنه -رغم كل ذلك- لم يعش عزلة عن المؤثرات الثقافية الكبرى، لا قديما ولا حديثا، لأنَّ الإنسانَ الموريتاني -بفطرته- مُطالعٌ نَهِمٌ، ومُنْفَتِحٌ، مع تقليديةِ ذائقتِه الشِّعْرية المُتَجَذِّرَة، المَبْصُومَة بالنموذج الشعري القديم، وهذا ما يجعله يعيش-في ذاته- تقاطباً بين الأصالة والحداثة، فمِيراثُه الثقافي الثقيلُ يشدُّه للماضي، وحصادُ اطلاعه المُنْفَتِحُ يخْترق -حتْماً- جِدارَ التقليدية المَضْرُوب على ذائقته، وفي مناخِ هذا الجَدَل الوجودي المُحْتَدِم في كيْنُوته، تتمُّ عمليةُ التلقِّي الإبْداعي والنقْدي للأدب

عموما، والشعر خصوصاً، ويبقى التفاعلُ بين الاتجاهين صِحِّيا، ما لمْ يَغْلُ الُمتعصب للتقيدية، لدرجة الانغلاق، أوْ يُسْرِف الُمتعصب للحداثة، لدرجة القطيعة.

ولعلَّ أخْطرَ ما فِي الاتجاهين، هو اخْتِزالُ المفْهوميْنِ، في بُعْدهما الشكْلِي البَحْتِ، وإفْراغهما من رُوحَيْ الأصالة والتجديد، اللتيْن تتكاملان، ولا تتناقضان، وذلك ما لن يتحقق إلا بتوازن الروافد المعرفية في تكوين الأجيال ثقافيا، عَبْرَ عملية ترْبَوِية واعية بأهْدافها، ومَنْهَجٍ عِلْمِي وأكاديمي حَصيفٍ، وبَنَّاءٍ، يَسْتَظِلُّ بهُوية، «أصْلُها ثابِتٌ، وفَرْعُها في السَّماء».

الخلاصة: أن المهم -في نظري- ليس هو الجَدَلُ العَقِيمُ بين شعْرٍ قديم، أو حَديث، أوعمودي، أو حُرٍّ، فكلُ هذه الُمصْطَلَحات اخْتلاقاتٌ شكْلانيةٌ -في غالبها- عَديمةُ الكفايَةِ الوصْفية، إنَّما الُمهمُّ هو أنْ يَكونَ الشعْرُ مُتَّصِفاً بالحَرَارة الإبداعية، التي كاد يَقْضِي عليْها التجْريبُ والافْتعال والتقليد، هنا وهناك، بَدَلَ التجْربة والانْفعال والتعبير، إنَّ «الشعْرَ الحَارَّ»، الذي أنَادِي به يخْترقُ كُلَّ جُدُرِ التصْنيفاتِ الجَوْفاء، ويتَحَقَّقُ أيْنَما تَحَقَّقَت الشِّعْرية ذاتُها، لأنَّه رَدِيفُها بالضبْطِ.

حتى نقادنا عالة على "صندوق النقد الدولي"

الشعر العربي المعاصر يواجه تحديا كبيرا، قد لا يكون أغلب منتجيه يدركونه حق الإدراك، ويتمثل هذا التحدي في الحفاظ على نقاء الهوية.

ورغم إيماني بعدم إمكانية صفاء الهوية الفنية مطلقا، باعتبارها تركيبا مستمرا، وخصوصا في ظل هذا التفاعل المَوَّار ضمن دوامة العولمة الغلابة، فإني -أيضا- لا أقبل امِّساخ الذات وذوبان حدود الهوية في معمعان منجزات الآخر، حيث إن الخصوصية سنة كونية مركوزة في ذواتنا فطريا، إذ لكل شيء فينا بصمته المائزة، وبالوفاء لها يكون الإبداع تجربة ذاتية، وليس تجريبا مصطنعا، وبين التجربة والتجريب فرق شاسع، إذ تمثل الأولى التعبير عن الخصوصية النزاعة إلى التفرد والإبداع، بينما يمثل الثاني التقليد والببغائية.

وحتى لو تشابهت الأسباب والنتائج هنا وهناك، في عمومها، فإن استنساخ التجارب واستيرادها من سياق معين، إلى سياق آخر لا يطابقه كل المطابقة، لن يلبي أفق انتظار الخصوصية المستقبِلة، إذ ينبغي أن تبدع حداثتها وفق ما يشبع نبض هويتها المتميزة، ووفق شروطها الحضارية الذاتية.

ومهما يكن، فإننا لا ننفي إسهام ذلك الوعي بالتجارب الغربية الوافدة، في الالتزام بالقضايا العربية والتحولات الحاصلة عندنا، إلا أن جدوائية هذا التأثر تتوقف على مدى مطابقته للنسق الداخلي للتجربة العربية، بدل أن تلبس أفكارا لم تصمم على مقاساتها، وتقتات ثمارا لم تنبت في صميم واقعها.

وكما أننا مطالبون بالمحافظة على خصوصيتنا في التجربة الإبداعية عموما، فإننا مطالبون كذلك بالتركيز على هذه الخصوصية في الحركة النقدية المواكبة للإبداع.

وإذا كنا قد ننعي على جل الشعراء خضوعهم للتجريب التقليدي، بدل التجربة الإبداعية، فإن نقادنا لم يكونوا بمنجاة من هذا الارتهان لمنجز الآخر، حتى أنني استعرت للممارسة النقدية العربية -ذات مرة- اسم "صندوق النقد الدولي"، لغياب الخصوصية العربية في هذه الممارسة، فنحن نستورد المناهج النقدية الغربية، حسب تناسخ الموضات هناك، وقلما تصلنا التقليعة النقدية إلا بعد انتهاء صلاحيتها في الغرب.

هذا مع أن لنا شعريتنا الأصيلة القابلة للتجدد الواعي باستمرار، كما أن رؤيتنا البيانية العريقة قابلة -أيضا- للتطور، لو وجدت من ينحت لها آليات قراءة نقدية إبداعية أصيلة ومتجددة، تراعي مختلف جوانب النص المتعددة، دون اختزال المقاربة في منظور نقدي

أحادي، قد لا يضيء إلا زاوية واحدة فنية أو اجتماعية أو تاريخية أو نفسية.... ثم يترك زوايا النص الأخرى معتمة، حسب ما درج عليه أغلب المناهج النقدية السائدة، وهذا ما يعني أن منهج النقد الثقافي الرائج اليوم قد يكون أقرب إلى طبيعة الإبداع الأدبي العربي، غير أن الجدوى النقدية لن تتحقق إلا بالثقة بالنفس، والانفتاح على الآخر، واستلهام المنجز الإنساني، في حدود ما يخدم الذائقة الإبداعية الخصوصية ويطورها بشكل حصيف، لا يمثل نزوات طائشة، ولا قفزات في ظلام حالك.

وهنا لن أنسى التأكيد على أن ابتكار المناهج النقدية ليس مستحيلا على أفراد النقاد العرب، لأن المناهج الرائجة ما هي -في الأصل- إلا مقاربات شخصية لنقاد معينين، تبناها تلامذتهم، ومريدوهم، وحتى ببغاواتهم، فنشروها وكرسوها سننا متبعة، كما أنَّ نحت المناهج النقدية قد يكون بمجهود جماعي، عبر ورشات تفكير وتشاور مستمرة.

الأمن الذوقي

كثيرا ما نتحدث عن الأمن العسكري، والأمن الغذائي، والأمن الاقتصادي، والأمن الصحي، والأمن القومي، والأمن الوطني، والأمن الدولي عموما، ولكننا قلما نفكر في الأمن

الذوقي، أحرى أن نتحدث عنه، مع أن الذوق أصبح مهددا بهيمنة ثقافة القبح، والعنف، والرداءة، والسطحية....

والأدهى والأمرّ أن الذوق عنصر هلامي مركب، من تفاعل الذات الفردية، والذات الجمعية، مع عوالمها الخارجية، وهو يتشكل، ويتغير، وفق الثقافة السائدة، مما يجعل أَمْنَه ربما أصعب من جميع مواضيع الأمن الأخرى، الآنفة الذكر.. لاسيما في ظل انفلات روافد الثقافة، وقنواتها من كل سلطات الرقابة والضبط التقليدية...

ومهما كانت سعة مفهوم الذوق، وتعدد مكوناته، وتشعب موضوعاته، فإن علاقتي الشخصية والتخصصية بالأدب العربي، تفرض علي إثارة هذا الموضوع المترامي الأطراف من هذه الزاوية بالذات، باعتبار خطورتها تكمن في علاقتها اللصيقة بالهوية.

فاليوم قد ماعت الهوية القومية بمفهومها الشامل، رغم تكاثر حَمَلة الشهادات العلمية العليا التي كانت مفقودة -عندنا- بألقابها، وإن توفر محتواها، ومعناها، وأصبح استقبال الروافد الثقافية فوضويا، لا يخضع لصمام حضاري شامل، يتَّحِد في الحفاظ على ثوابت الأمة...فانْتُهِكَتْ عندها كل الهويات...هوية الفكر والشعر وغيرهما... ولم نعد حقيقة نعرف ما الشعر... الذي نكتبه.. ونتعاطاه، وساعد على ذلك تضرر النقد الأدبي بهذه الآفات ذاتها، حيث لم تستطع الذائقة العربية -للأسف- على امتداد أكثر من نصف قرن أن تبلور رؤية نقدية منبثقة من تربتها وبيئتها الطبيعة، وإنما ظلت تستورد المناهج النقدية، والموضات الأدبية، من الغرب، وبعد انتهاء صلاحيتها هناك، ودون مراعاة لاستحالة القياس مع وجود الفارق، مما جعلني- ذات مرة- أصف الممارسة النقدية عند العرب خلال هذه الفترة بـ"صندوق النقد الدولي" الذي يدمن كل العرب الاقتراض منه، حتى يظلوا دولا غنية، وشعوبا فقيرة، سواء على مستوى البنية التحتية "الاقتصاد"، أو البنية الفوقية "الثقافة"..

وهكذا تاهت بوصلة الإبداع، وانتهكت معايير الجودة والتميز، وطردت العملة الرديئة العملة الجيدة من السوق، ومُكِّنَ لكل ناعق بصرعة مستوردة، تمييعا للمشهد، حتى لا تظل للأمة نواتها الصلبة الضامنة لهويتها المتميزة، وخَلَّى المبدعون الحقيقيون سطح الحياة للأدعياء، حتى أصبح المشهد الإبداعي -باختصار- مثل البحر، الذي يحتل الزبد سطحه، وترسب اللآلئ في قعره، ومثل جبل الثلج ما خفي من كتلته أعظم من مما يطفو، وما يزال ذلك ساري

المفعول، فهناك دائما أدباء وشعراء ونقاد في الظل، في الهامش، أفضل ممن يحتلون دائرة الضوء، ويُمَكَّنُ لهم في واجهة الحياة.

والخلاصة: أن هذه الحركة الشعرية العربية لم تفرز-عبر نصف قرن- من عظماء الشعراء غير أسماء قليلة، لا تناسب امتدادها الزماني، ولا فضاءها المكاني، ولا تراثها الإنساني.

وقد أصبح الأدب مستثقل الظل في عهد طفرة الإعلام، وتعدد قنواته ووسائطه، حيث لم تعد الجهات الرسمية العربية تعطي أي عناية للأدب، وتمادت وسائلها الإعلامية في تقزيمه، وتهميشه، وتمييعه، وحتى الوسائل الإعلامية الدولية الناطقة بالعربية، والمستهدفة للإنسان العربي، تخلت عن معايير الجودة التنافسية، وساهمت في حملة التسطيح... فرحم الله زمانا كانت فيه إذاعة البي بي سي وحتى وسائل إعلام العرب في أجيالها الأولى مدارس ثقافية، وأدبية تكوَّن عبْرها حتى الكثير من الأميين، عن طريق سماع برامجها الهادفة والمفيدة والممتعة، أما الآن فقد قتل الإعلام السائد الذوق الأدبي، حيث ندر بين رعاته وجود الأدباء، وسادت الثقافة الإعلامية الهابطة، رقصا ومجونا وعريا، وخلاعة، والثقافة الإعلامية المتوحشة، تقتيلا وتدميرا وتخريبا والثقافة الإعلامية الجشعة رهينة حركة الأسواق والبورصات، والدعاية والإشهار التجاري...ولم يبق للإعلام الأدبي هنا مكان من الإعراب، إلا بقدر ما يتماهى مع هذه الخطوط التحريرية الثلاثة المهيمنة على مشهدنا الإعلامي المادي البحت..

رحم الله شيخ العربية محمود شاكر، حين قال:

"إلْفُ القبْح مُتْلِفٌ للإحْساس والعقل"!

ورحمني الله حيث قلت:

إن الوجـــود بـــدون عيْنَـــيْ شـــاعرٍ جـــدْبٌ.. كئيـــبٌ.. باهِـــتُ الألْـــوانِ
وأنـــا أحـــبُّ -مـــن الحيـــاة- جَمَالَهـــا القـــبْحُ يُـــؤْلِمُ مُقْلَـــةَ الفنَّـــانِ

صراع الإبداع والتلقي

هناك جدل أزَلي بيْن المُلْقِي/ "المبدع"، والمتلقي/ " القارئ"/ الناقـد، في ديناميـة عمليـة الإبْداع... لكني أحْبَبْتُ اليوم أنْ أثِيرَ إشْكَالَ التفاعُلِ بيْنهما، عبْرَ مَبْحَثَ طبِيعة علاقـتِهما، مـن حيث التطابُق والتنافُر، والتفاعُل والصراع...

فبعيدا عن الجدَل البيزنطي، حوْل البيْضة والدجاجة، أيّهما السابق على الآخر.. يُفْتَرَضُ أنَّ الإبداع كان هو الأول، لأن دلالته اللغوية تعني الاختراع، والابتكار.. على غير مثال سابق.. وبعد تراكم النماذج المسايرة له تبدأ ملامح فنه الخاص.. شعرا، ونثرا، ورسما، ونحتا، وموسيقي... تُشَكِّلُ لنَفْسِها "عَمُودا" من خصائصه الجماليةِ والبنائيةِ المائزة.. ومن ثمَّ تبْنِي ذائقةَ جمْهورها المُتَلَقِّي، الذي يألفُ شيئا فشيئا تلك الخصائصَ الفنية، فترْسمُ "أفقَ انتظاره"، الذي يتلقَّى من خِلاله ما يُقَدَّمُ إليْه من الفنون.

وبما أنَّ مفْهومَ الإبْداع وطبيعتَه.. يقْتضيانِ الانزياحَ المستمرَّ عن نمَطِيَّةِ النموْذج المُكَرَّس، ويَسْتَدْعيان الخلْخلةَ الدائمة لـ " العَمود" الفَنِّي المُرَسَّخ، فإنَّ ذلك يقتضي أيضا أنْ يَفْرِضَ المبدعُ -بسحْر وسُلْطة وسَطْوَة جمال فنه - أنْ يُواكبَ تطوُّرَ الإبْداع بتعْديلٍ مستمر في تشْكيلِ الذائقةِ الفنيةِ لدَى الجمْهور، وإعَادةٍ مُتجدِّدَة لرَسْمِ "أفق الانتظار" لدى المُتَلَقِّي... ومن هُنا لا تكونُ العَلاقةُ بيْن المُلْقِي والمُلْقَى إليْه عَلاقَة تطابقُ دائم، يُشْبِعُ فيها الفنُّ "أفقَ الانتظار" المَألوف، بلْ قد يُصْبِحُ إخْلافُ التوَقُّع، أجْمَلَ من إشْباعِه، ويَتأتَّى ذلك حينَ يُصْبحُ الانزياحُ الفنيُّ الواعي انزياحا مُزْدَوجا من طرف المُبْدِع والمُتَلَقِّي معا، وفي هذا السياقِ قد تتفوَّقُ الرُّؤْيَةُ الإبْداعيةُ للمُتَلَقِّي علَى أخْتِها لدَى المُنْتِج، فيُحاولُ تبادلَ أدْوَارَ التأَثُّرِ والتأْثِير مَعَ المُبْدِع، بحيْثُ يكونُ المُتَلَقِّي فاعلا غيْر مفْعول به، ومُؤَثِّرا في المُلْقِي، ومُعَدِّلا للذائقةِ العامَّة، وقائدا في عملية الإبداع غيْرَ مُنْقاد، داعيا إلى كسْر "أفق الانتظار" الجاهز السائد، ولا تكونُ لثوْرَةِ المُتَلَقِّي على سُلْطَة المُلْقِي مِصْداقيتها، وفاعليتها إلا إذا كانت مُؤَسَّسةً على أرْضيةٍ فنِّيَة ونقْدِيَّة صلْبَة وأصِيلة، بقدْر ما هي جديدة، أما الدعوَات الحداثية المُفْتَعَلة، فهي ليست إلا "عاصفة في فنجان"، لأنها مُجَرَّد نزْوة عابرة.. بلا هوية.. تتأرجَحُ.. مع مَهَبَّاتِ رياح المَوْضات الفنِّية المُتلاحِقة، القادمة من "وراء البحار"...

على كل حال.. تَجْدُرُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ ثوْرَةَ الْمُتَلَقِّي.. في سِياقها الإبـداعي هـذا.. قـد فرضـتْ عـلى النقـد -هـو الآخـر- أنْ يبـدِّلَ مَواقـعَ مَرْكَزِيَّتِـه، ويُغَـيِّرَ بُـؤَرَ اهْتِماماتِـه، فكـما انتقـــلَ اهتمامُـــه ذاتَ حِقْبَـــةٍ مـــن الْمُرْسِـــلِ/ الْمُنْتِجِ/ الْمُبْدِع (المـــنهج التـــاريخي)، إلى الرسالة/ الْمُنْتَج/ النص(المنهج البنيوي).. انتقـل لاحقـا إلى دراسـة الْمُرْسَـل إليه/ الْمُسْـتَهْلِك/ الْمُتَلَقِّي(نظرية التلقي)... ثم أدركَ -في النهاية- أنَّ الترْكيزَ على بُعْدٍ واحـد مـن أبْعـاد العمليـة الإبداعية الْمُرَكَّبَة يَظَلُّ "قِسْمَةً ضِيزَى"، غيْر عادلة، ويبْقى رُؤيةً جُزْئية غير شـاملة، ولا ناظِمَـة لِمُكَوِّنـات الإبـداع المتعـددة، فانتهـت الْمُقاربـات النقديـة أخـيرا إلى (النقـد الثقـافي)؛ مُحاوَلـةً استحداثَ منْظور أكثر شُمولية، في تصوُّره الإبْداعي، ومُقارَبته النقدية.

وهذه التحوُّلاتُ الْمُتلاحِقة في الذائقة الفنِّية العامَّة، تبعا لتغيرات سياقاتها الثقافية تاريخيا، هي التي جعلتنِي أكتبُ عنْها ذاتَ مرَّة تحْت عنْوان: "الأعْمِدَةِ الْمُتَناسِخَةِ"، التي تنقضُ أطْرُوحة أحَادِيَةَ "عمود الشعْر العربي"، معتبرةً أنَّ لِكلِّ حِقْبَةٍ حَضارية عمودها الشّعْري الخاص، الْمُعبَّر عنه -ضِمْنِيا- بالعصور الأدبية.

الشاعر والجمهور:

وجهان لعملة واحدة

الشاعر والجمهور وجْهانِ لِعُمْلَةٍ واحدةٍ، هي: الْمُلْقِي والْمُتَلَقِّي، وكلاهُما يشْعرُ بحاجتِه العضْويةِ إلى الآخر، بحيث إنَّ الشاعرَ إذا لمْ يجِدْ جمهورًا، يتَقمَّصُه، داخِلَ ذاتِه، فيُجَرِّدُ منْ نفْسِه مُتَلَقيا، فتراه يُلْقِي شعْرَه بصوْتٍ مسْموعٍ، وبأدَاءٍ مَسْرَحِي أمَامَ مِرْآةِ رُوحِه، وكذلك الجمْهورُ، عندما يفتقدُ الشاعرَ، يتقمَّصُ دوْرَه، فيُعَوِّضُ الشعْرَ إنْشاءً، بالشعْرِ إنْشادا.

ورغم قوةِ العلاقةِ العضْويةِ بيْن هذيْن الطرفيْن، لا أحَدَ يُنْكِرَ التصدُّعَ العميقَ الذي أصابَها اليومَ، فأصبحتْ -في الغالبِ- قاعاتُ الأمْسياتِ الشعْريةِ، خاويةً على عُروشِها، وبقدْرِ تعَدُّدِ أسْبابِ الوصْلِ، تتعدَّدُ أسْبابُ الفصْلِ، حسَبَ وجْهةِ نظَرِي.

وأنا أعتقدُ أنَّ حَرَارةَ التجْربَةِ الشعْريةِ، وصدقَها الوجْداني، وتميُّزُها الفنِّي، والانفعالَ بها لحْظةَ الأدَاءِ، هي أهمُّ عَوامِلِ التأثيرِ والتأثُّرِ في عمَليةِ إلْقاءِ الشِّعْرِ وتلقِّيه، بغَضِّ النظَرِ عنْ مُسْتَوَى الجمْهورِ؛ فالشعْرُ الذي يتمَتَّعُ بهذه الخصائصِ الجوْهَريةِ، يسْحرُ نفوسَ المُتَلَقِّينَ، وحتَّى لوْ لمْ يكونُوا مُدْرِكينَ -حقيقةً- للأبْعادِ الجَمَالِيةِ فيهِ، وبالْمُقابِلِ، تُعْتَبَرُ برُودةُ التجْربةِ الشعْريةِ، وتكَلُّفُها، واجْترارُ أسْلوبِها، وافْتعالُ أدائها، من أهَمِّ عوامِلِ القطيعةِ بيْنَ الْمُلْقِي، والْمُتَلَقِّي؛ فالفرْق كبيرٌ بيْن التجْربةِ والتجْريبِ، بيْن الانْفعالِ والافْتِعالِ....

ومن هنا، أعتقدُ جازمًا أنَّ الوُضوحَ والغُموضَ، ليس لهما كبيرُ دوْرٍ في جَدَلِ الوصْلِ والفصْلِ، بين الْمُلْقي والْمُتَلقي، كما يزْعُمُ الكثيرون، فليس كلُّ مَفْهُومٍ واضِحٍ، جَذَّابًا، وليس كلُّ غامضٍ، مُنَفِّرًا.

وعلى ضوْءِ هذه الرُّؤْيَةِ كنْتُ منْذُ التسْعيناتِ، أنادِي بما سَمَّيْتُه:" الشِّعْرَ الحارّ"، باعْتبارِ صِفَةِ الحَرَارَةِ -إذا توَّفَرَتْ- لا يَضُرُّ الشعْرَ أنْ يكُونَ "حُرًّا"، أو"عمُوديا"، أو "قديما"، أو "حديثا"...، وإذا فقدتْ، لا يَنْفَعُه -أيْضًا- انْتِسابُه لأيِّ واحدٍ من هذه المُسَمَّيَاتِ، مع تحَفُّظِي على كلِّ تلك المُصْطَلَحَاتِ المائعةِ، العديمةِ الكِفَايَةِ الوصْفِية، فبِغِيابِ الحَرَارةِ يُصْبحُ الشِّعْرُ التقْليدي مُجَرَّدَ نظْمٍ، ويُصْبحُ الشِّعْرُ الْمُعَاصِرُ مُجَرَّدَ نثْرٍ، وفي كِلْتَا الحالتيْن، يفْقدُ الشعْرُ أيَّ جَاذِبيةٍ له في نفوسِ الجماهيرِ.

وإذا رأيْتَ الجمْهورَ يَزْدَحِمُ على أمْسِيةِ هذا الشاعرِ، وينْفَضُّ عنْ أمْسِيةِ ذلك، فاعْرِفْ أنَّه صادقٌ في كُلِّ منْ موْقِفيْه، حيث يشْعُرُ بالُمشارَكَةِ الوجْدانيةِ هنا، ويفتقدُها هناكَ...

وعلى كلِّ حالٍ، أنا لا أنْظرُ إلى الجمْهورِ تلك النظْرَةَ الُمتعاليةَ، التي تقيسُ قيمةَ الشاعرِ، وشِعْرِه بدَرَجَةِ ابتعاده عن الجماهير، بلْ أعتبرُ الجمهورَ سيدَ النُّقادِ، فالقصيدةُ التي تستطيعُ أنْ يَتَوَحَّدَ حوْلَ جاذبيتِها جمهورٌ غيْرُ مُتَجَانِسِ الُمسْتَوَياتِ، ولا الخَلْفِياتِ، ولا الأهْواءِ، ولا الأذْواقِ، هي القصيدةُ الحَقيقيةُ، أمَّا القصيدةُ التِي تُرْضِي زُمْرَةً من النُّقَادِ، لأنَّهم يروْنَها مَعْرضًا لَمناهِجِهم النقْديةِ، أو مَتْحَفًا لرُؤاهمْ الفنيِّةِ، أوْ تُرْضِي مَجْمُوعَاتٍ من الجمْهورِ، لأنَّها تُخاطِبُ إيديولوجيةَ هذا، أو نزْعةَ ذلك، فهي القصيدةُ المَحْدُودَةُ النُّفُوذ.

الشعر والنقد.. عبر منبر الفيس بوك

القصيدة والفيس بوك -حسب وجهة نظري- بينهما خِصامٌ ووئامٌ، حيث إنَّ القصيدةَ وليدٌ يتَخَلَّقُ في وجْدان الشاعر، من أمْشاج تفاعلاتِ ذاتِه، مع العالَم من حوْلِه، وهذا ما يقتضي إعطاء فرصة مخاض طبيعي للتجارب، حتى تُولدَ مُكتملة النموِّ، خِلافًا لسُرْعَةَ التفاعل مع الفيس بوك، التي تقتضي مواليدَ مُخْتزلة المَخاض "خِدَاجًا".

ولكن الفيس بوك -من ناحية أخرى- يكفل للقصيدة انتشارا وسيرورة، لا توفرهما منابرها ووسائط نشرها التقليدية.

ومن استطاع الجمع بين إيجابياتهما معا، أحرز الحُسْنَيَيْن.

كما أنَّ النقد خطاب علمي، على خطاب إبداعي، وقديما قال الجرجاني: "إنَّ الكلامَ على الكلامِ صعْبُ"، ولا سيما في مجال الشعر، ومن هنا تتجلَّى صعوبة إنتاج الخطاب النقدي الأكاديمي، لتعَذُّر اكتمال شروطه وأدواته الذاتية والعلمية، وهذا ما يفسر قلة المتخصصين فيه، وندرة الموهوبين من هؤلاء أيضا، لأنَّ الرصيد الأكاديمي وحده قد لا يكفي لإنتاج ناقد عبقري، إذا لم يكن مسكونا بروح مبدع عبقري.

وبما أن منبر الفيس بوك منبر شعري عمومي، فقد أصبح منبرا نقديا عموميا تبعا لذلك، فماعَ المشهدان: الشعريُّ والنقديُّ معًا، إذ صار يخوض فيهما كلُّ مَنْ هبَّ ودَبَّ، من دون وازع داخلي، ولا أية سلطة ضبط خارجي.

وعلى الرغم من أن مشاعية منبر الفيس بوك، يسرت قنوات التفاعل بين المُتلقي الجيد ، والنصوص الرفيعة، فنالَ بعضُ المُبْدِعين المُبْعَدِين من الدائرة الضيقة للنقاد المُحترفين، نصيبا من الاعتراف والتقدير والانتشار، ما كان ليجده لو لم يكسر منبر الفيس بوك جدار احتكار سلطة النقد الاحترافي بين ثُلَّة من الأولين، وثُلَّة من الآخرين، تتعالى-أكاديميا- في أبراجها العاجية، فيأتي إليها النص الإبداعي، أكثر مما تأتي إليه، ويبحث عنها أكثر مما تبحث عنه، وتفرض عليه رؤاها، ومناهجها النقدية، أكثر مما تسايره في آفاقه البِكْر التي يرتادها، حيث يحتدم الجدل الخلاق بين سلطة الشاعر والناقد أيهما ينبغي أن يقود الآخر، وأيهما السابق واللاحق، ومن يوجه من؟

وإذا كان هذا المُعْطى لمشاعية الفيس بوك إيجابيا، فإن لها سلبياتها الأدبية الأكثر، حيث تشوَّهتْ -بالفعل- العلاقة الخلاَّقة بين الشعر والنقد، وتضرَّرَ كلٌّ منهما من فوْضوية استغلال الفيس بوك، نتيجة لـــ "سَيْبَة" التعليقات، والإعجابات، اللتين لمْ تعودا تُمَثِّلان رُؤيةً إبداعية،

ولا مُمَارسة نقدية، بقدر ما تغَلَّبَتْ عليهما، جدلية: المُوالاة والمُعارضة"، فاخْتُزِلتا -دائما- في المُجاملة أو المُنازلة؛ تَسَاهُلاً هنا، وتَحَامُلاً هناك. حيث لا يَنْدُرُ أنْ ترى نصًّا جميلا يَحْصدُ أسوء تفاعل، فيس بوكي، في الوقت الذي تحصد فيه أتْفه الكلمات عشراتِ الإعجابات، والتنويهات! فيا خسارةَ...مَنْ يبني مجدَه الإبداعي على مثل ذلك الهراء السخيف.

الرُّقْيَةُ الشِّعْرِيَّةُ

يكثرُ الحديثُ -اليوم- عن "الرُّقْيَةِ الشَّرْعِيَةِ"، نظرًا لتفشِّي الأمْراض البدنية والروحية، وتعقُّدِ البنْيات النفسيةِ الهشَّةِ، في هذا العصر المَأزُوم، لدرَجةِ الْتِمَاسِ العلاج، ولو بالوسائلِ حتَّى غيْر الشرْعية، لكنْ هل سمِعتمْ عنِ "الرُّقْيَةِ الشِّعْرِيَّةِ"، التي رَاقَ لِي اليوْمَ أنْ أتقاسَمَ مَعَكمْ بعْضَ التداعياتِ حوْلَهَا؟

لقد استرْعَى أذُنِي المُوسيقيةَ، ذلك التشابهُ الصوْتي بيْن "الشَّرْعِيَّة"، و"الشِّعْرِيَّة"، الذي يوحي -لسليقتي اللغوية- بقرابةٍ دلاليةٍ، حسَبَ نظرية ابْن جنّي القائلةِ بأنَّ كلَّ تقارُبٍ اشْتقاقي في المَبْنى، يقتضي تقاربا دلاليا في المَعْنَى، ورغْمَ التباعُدِ الظاهريّ بيْنَ حقلي "الشِّعْرِ" والشَّرْع"، فإنَّ " الرُّقْيَةَ" -على الأقلِّ- تقرِّبُ بيْنهما، فكما أنَّ للشَّرْعِ رُقْيَتَه الفعَّالة، فإنَّ للشِّعْر -أيضا- رُقْيَتَه، المتمثلة في طاقةِ "سِحْرِ البَيَانِ" الذي يَخْتَزِنُها، في بنْيَته النَّصِّيَّة، ويَنْفُثُها في المُتَلَقِّي، فيَفْعَل في نفْسِه الأعاجيب، كما أنَّ "الشَّاعر" "شَارِعٌ" لقواعِدِ فنِّه، ومُبْتَدِعٌ لقَوَانِينِه.

فالشِّعْرُ سَلِيلُ ظواهِرَ رَوْحانيةٍ عَدِيدَةٍ، تَشْتَرِكُ في غموضِ المَاهيةِ، وصُعوبةِ تحْديدِ المَصْدَرِ الغيْبِي الذي تَنْحَدِرُ مِنْهُ، إذ نجد التَّنْظِيرات والتأويلات القديمة رَبَطتْ بَيْنَهُ معَ السِّحْرِ حِينًا، ومعَ الجِنِّ حِينًا آخَرَ.... ومِنْ هُنَا نَبَتَتْ عِنْدَ أمَّةِ العَرَبِ الشَّاعِرَةِ فِكْرَةُ شَيَاطِينِ الشِّعْر، وأسْطورَةُ وادِي عَبْقَرَ، وثُنَائِيَةُ "التوابعِ والزوابعِ"... وليْسَتْ إعادةُ الشِّعْرِ إلَى تِلْكَ المَرْجَعِياتِ الغَيْبِيةِ، إلاَّ اعْتِرَافًا بِصُعُوبَتِهِ ورَوْعَتِه وجَمَالِه، لِدَرَجَةٍ يُسْتَكْثَرُ عَلَى الإنْسَانِ أنْ يَكُونَ مَصْدَرَهُ، رغْمَ أنَّهُ سَيِّدُ الأرْضِ، وخَليفَتُها المبجلُ منْ الله -جَلَّ وعَلاَ- بِمَلَكَةِ البَيَانِ العَجِيبَة.

أجل إنّ الشِّعْر طلسمٌ إبْداعي، ظَلَّ-عبْرَ التاريخ- عَصِيا عَلَى "التَّعْريفاتِ"، فلمْ يَسْتَطِعْ "جامِعُها" أنْ يَقبضَ علَى ناصيةِ ماهيتِهِ الزِّئْبَقِيةِ، ولمْ يَتَمَكَّنْ "مانُعُها" من منْعِ تَلَبُّسِه بِخَصَائِصِ هُوياتٍ أخْرَى، يَرْبِطُها به جَدَلُ المُعَانَقَةِ والمُفارَقَةِ، والاتِّصالِ والانْفِصالِ، بِصُورَةٍ مُحَيِّرَةٍ، أعيى الخُبَرَاءَ فَكُّ خُيُوطِ شَبَكَتِها.

ومِنَ المَعْرُوفِ اليوْمَ أنَّ بعْضَ المُستشفياتِ الغرْبية المتطوِّرَة، تُمَارِسُ العِلاجَ بالشِّعْر، حيث ينْخَرِطُ الطبيبُ معَ مَرْضَاهُ، في طقْسِ "الرُّقْيَةِ الشِّعْرِيَّة"، كما يَحْلو لِي أنْ أسمِّيها، عبر إلْقاءِ قصائدَ، يَنْتَقيها، بذوْقه الفنِّي، وحِسَّه الطبِّي، يعتبرُها أهمَّ وسائلِ "الطبِّ البديل"، كما أنَّ

المرحوم الشاعر: فاروق شوشة -صاحب "لغتنا الجميلة"- قد ألفَّ كتابا بعنوان" العلاج بالشِّعْر".

ولكنْ قبْل اكْتشافِ المُعاصرينَ - منَ العَرَب والغرْب- لِفَاعِلية هذه "الرُّقْيَةِ الشِّعْرِيَّة"، كانَ الشعراءُ -منْذُ وُجِدُوا- يُدْرِكُونَ التَّأْثِيرَ الخارق لإيقاع كلماتِهم، في نُفوس مُتَلَقِّيها، وهل المَدْحُ الاسْتِجْدائي، إلا رُقْيَةٌ لشُحِّ أصحاب الأمْوال، وهل الغَزَلُ إلا تخْديرٌ للفاتِناتِ المُتَمَنِّعَاتِ، وهل الشِّعْرُ الحَمَاسِي إلا نفْثٌ لروح الشجَاعة في المَوْصوفِ به، وبثٌّ للرُّعْبِ في نفْس خَصْمِه، حتى أنَّ الشاعرَ جريرًا كان مُعْتَزًّا بقوَّةِ تأثير "رُقْيَتِه الشِّعْرية" في مَمْدُوحيه، التي يراها شيطانية، والتي لم يبطلْ سحْرَها إلا عمرُ بن عبْد العزيز باستقامته المعروفة، حيث قال للشعراء عندما خرج من عنده:

رأيتُ رُقَى الشيْطان.. لا تَسْتَفِزُّهُ وقدْ كانَ شيْطانِي.. من الجِنِّ.. راقيا

وغير بعيد من هذا السياقِ، يقالُ في الأدَبياتَ العربيةِ القديمةِ إنَّ الشِّعْرَ قدْ بَنَى دوْلةَ الأمويين؛ لأنَّ معاوية بن أبي سفيان، اعترفَ بأنَّه كادَ يَفِرُّ في اللحْظة الحاسِمَة، "ليْلَة الهَرير"، إحْدى مَعارك "صِفِّين" الفاصلة، لولا اسْتحضارُه أبْيَاتَ ابْنِ الاطنَابَة، التي تمْتَمَ بها، "رُقْيَةً شِعْرِيَّةً"، مَنَحَتْهُ الشَّجَاعَة والثبَاتَ...حتى كسَبَ الرِّهَانَ السّياسي في النهاية.

وقدْ كانَ هارونُ الرشيد -رمْزُ المُلْكِ العبَّاسي- يستخدمُ "الرُّقْيَةَ الشِّعْرِيَّةَ"، عِلاجًا نفْسيا، حين ينْتابُه الأرَقُ والنَّكَدُ، في عُقْرِ قصوره الباذخة، المَليئة بأصنافِ المُنَشِّطاتِ والمُسَلِّيات، فيُطْلِقُ جُمْلتَه المَعهودة: "مَنْ بالباب مِنَ الشُّعَرَاء؟".

وفي الزمَن الأندلسي الجَميلِ، ألَّفَ ابنُ سعيد المغْربي كتابَه حوْل" المُطْرِباتِ والمُرْقِصَاتِ" من الشِّعْر، كما اختتمَه لسانُ الدينِ بنُ الخَطيب بتأليفِ كتابه: "السِّحْرُ والشِّعْر"، مُسَوِّغا -في مقدّمَته- اعتمادَه لهذا العنْوان، بأنَّ الشِّعْر الذي يَتَمَاهَى معَ السِّحْر، هو الذي يمْتلكُ فاعِليةً تأثيرٍ قويةً في نفْس المُتَلَقِّي أكثر من الشِّعْر العادي، فإذا سُمِعَ (عظُمَ الأثرُ، وظهَرتِ العِبَرُ، فشجَّعَ وأقْدَمَ، وسهّرَ ونوَّم، وحبّب السخاء إلى النفوس وشهَّى، وأضحكَ حتى ألْهَى، وأحْزَنَ وأبْكَى، وكثيرٌ من ذلك يُحْكَى، وهذه قوَّةٌ سِحْرِيَّةٌ، ومَعَانٍ بالإضافةِ إلى السِّحْرِ حَرِيّة.

فمِنَ الواجبِ أنْ يُسَمَّى الصِّنْفُ من الشِّعْر الذي يَجْلبُ النفوسَ ويستفزُّها، ويثْنِي الأعطافَ ويهزُّها بالسِّحْر، الذي ظهرتْ عليْه طباعه، وبين أنه نوع من أنواعه).

ولولا أنَّ الأرْواحَ اليوم أصبحت "ابْلاستيكية"، مُصَفَّحَة بغِلافِ مَادِّيٍّ كثيفٍ، لدعوْتُ لفتْحِ عياداتٍ وبرامجَ وقنَوَاتٍ، "للرُّقْيَةِ الشِّعْرِيَّة"، لكني أعرفُ أنَّ الاستثمار في حقل الجمال الرفيع، أصبح كاسدا، فالشعراء الشرفاء... صارُوا مُجَرَّدَ صعاليك!.

طرَبُنا الأليم

للفنِّ المُوسيقي مَقاماتٌ، تتناسبُ مع الأمْزِجَةِ النفْسية، والأحْوال الرُّوحية؛ قبْضا وبسْطا، فرَحا وترَحا، أمَلا وألَمًا، طرَبا وحزَنا، لكننا -نحْن العرب- يغلب على موسيقانا الشجَنُ، والحزَنُ، أداءً، وتلقِّيا، فالأصواتُ، والألحانُ، والأنغامُ، الصادرةُ من الذاتِ العرَبيةِ عُمُومًا، تنْبعثُ -من "جُبّ" الرُّوحِ العميق- ذاتَ حُمولةٍ كبيرةٍ من الألَمِ، فتأتِي كما لوْ كانتْ عَويلا، ونَحيبا، وتستقبلُها الذائقةُ الفنيةُ لدَى المُتَلَقِّينَ منّا بما يُطابقُ تلك الرسالة الفنية، من تأوُّهاتٍ، وصُراخاتٍ، ودموع، ونَشيجٍ.... وتَشْهَدُ لذلك عنْدنا -نحْنُ الموريتانيين- لغةُ التعْبير عن رَدَّاتِ الفِعْلِ على إجادةِ المُغَنِّي، في "رَدَّاتِه" الغِنائية، والموسيقية، و"طَرَبه" المَزْعُوم، في نظرِنا، حيث نُمْطِرُه بأنينٍ مَكْتوم، وآهاتٍ.. أو بصرَخاتٍ نَادَّةٍ بالألَمِ الدَّفِينِ، والوَجَعِ الكَظِيمِ، بحيْث تغْلبُ (الهَحَّاتُ: هَحْ.. هَحْ...) -التي يُسَمِّيها الشاعرُ العربيُّ القديمُ: ذو الرمّة (غيْلان ميّة) بـ "الوَحَاوِح)، الدالةُ على الشكْوَى والتوجعِ- صوْتَ "الآحَاتِ: آحْ.. آحْ..."، الدالةِ على الطرَبِ والتَّمَتُّع..

وحتَّى لوْ حاولْنا أنْ نُشَوِّشَ على دلالةِ الألَمِ الضَّاجَّةِ مِلْءَ هذه التعابير، ونَخُونُ في ترْجَمَتِها، هاتفينَ -بيْنَ الفيْنَةِ والأخْرى- بأنَّ هذا الغِنَاء/ البُكاء "زَيْنْ.. زَيْنْ"، وحَتَّى لو أقْسَمْنا على ذلك جَهْدَ أيْمانِنا -كما نفعلُ دائما- فإنَّ لُغَةَ الجَسَدِ -غالبا- تَخْذلُ التعْبيرَ عن الطرَبِ أداءً وتلقِّيا، حيث يتبادلُ كلٌّ منْ جِسْمِ المُغَنِّي/ المُطْرِبِ=المُرْسِلِ، وجِسْمِ المُتَمَتِّع/ المُتَوَجِّع = المُرْسَلِ إلَيْه- مَوْجَاتٍ منَ التشنُّجِ العَصَبِيِّ، عبْرَ تفاعُلُهما "الخَلاّق"؛ فكِلاهُما يتمَعَّرُ وَجْهه مُتَقَبِّضًا، ويتلَوَّنُ غيْرَ مُنْشَرِحٍ، ويَتَلَوَّى جَسَدُهُ مُوحِيا بالتوَجُّعِ أكْثَر من التَّمَتُّع، وهنا ترَى بعْضَ الأغَاني العربية يقعُ مَنْ يُؤَدُّونَها فِيما يُشْبِهُ انفصامَ الشخْصية، حيث يُحاوِلُونَ إقْحَامَ الابْتسامِ علَى جَوِّ أغْنيةٍ حزينةِ الكلِماتِ، شجِيةِ اللحْن، وهذا لا يَقِلُّ -نَشَازًا- عن إقْحَامِ تَجَهُّمِ الوجْه، وشَجَنِ الغِنَاءِ، على أغْنِيةَ طرَبيةِ الكلِمَات واللحْن... وحتَّى الرقْصُ.. الذي قلتُ -ذاتَ سياقٍ آخَر- إنَّ الجَسَدَ لا يَبْتَدِعُهُ لغَةً تعْبيرًا إلا "حِينَ يُدَاهِمُ إحْسَاسَ الرَّاقِصِ منَ الانْفِعَالِ بالنَّغَمِ مَا لا تَحْتَمِلُهُ أصْواتُ جِهَازِه اللُّغَوي، فتنْطِقُ كلُّ ذَرَّةٍ منْ كِيانِه بلُغَةِ الجَسَدِ الأفْصَحِ في هذا المَقام"- حَتَّى هذا الرقْصُ يبْدو لديْنا أقْرَبَ إلى "رقْصَةِ الذبيح" الأليمة، منْه إلى التعْبيرِ عن بُلوغ حالةِ "النيرفانا" الطَّرَبية المُشْرِقة البَاذِخَةِ البَهِيجَةِ السَّعِيدَة...

بعد هذا التشْخِيص-غيْر الدقيق بما يكْفِي- يبْقى سُؤالُ التعْليلِ.. يَطْرَحُ نفْسَه؛ باعْتباره ضرورةً منْهجِيةً.. لكنني لا أمْلِكُ السِّرَّ الكفيلَ بتفْسيرِ هذا المَبْحَثِ الفنِّي النَّفْسِي المُعقَّدِ.. غيْر أنِّي أستطيعُ أنْ أقولَ إن الإنْسان عموما رافقَهُ شُعُورُ الغُرْبَةِ والفقْدِ الذي ورِثَهُ من أبوَيْه: آدم وحواء؛ منْذ أنْ هبَطا منْ نَعيمِ الجَنَّةِ، إلى مُكابَدَةِ العيْش على الأرْضِ، ومُعانَاة قلَق الوُجودِ، والمَصير.. ولعلَّ نَصيبَ العرَب، من مِيرَاث الفقْد هذا كان أكْبر من غيْرهم، فهُم -من قديمٍ- يشعُرون -تاريخيا- بفقْد الزمَن الجميل.. زَمَن المَجْد والتفوُّق الحضاري، وهمْ -جغرافيا- يشعرونَ بضياعِ "الفرْدَوْسِ المَفْقُودِ"، وتسكنهم -حديثا- نكْبَةُ "النَّكْبَة"، أما اليوْم.. فكلُّ أوْطانِهم أطْلسٌ كبيرٌ لـ "خَرائطِ الوَجَعِ".

على كلِّ حالٍ قدْ يَكونُ هذا الانْفصِامُ في الإحْساسِ والتعْبير حالةً طبيعيةً، حينَ يَتَنَازَعُك، الجَمَالُ العَجِيبُ، والخَطَرُ الرَّهِيبُ، فِي الوَقْتِ نفْسِه، فيتصارَعُ فِي كيْنُونَتِك الألَقُ والقَلَقُ، والطَرَبُ والرَّهَبُ، فيَلْتَبِسُ التَّعْبيرُ بالتباس الإحْسَاسِ بيْنَ ما سمَّيْتُه نَشِيجَ الغنَاءِ.. وشَدْوَ البُكَاءِ؛ حَسْبَما عبرْتُ عنْه ذاتَ "إسْرَاءٍ ومِعْرَاجٍ"، في قِمَمِ "جِبَال الأطْلس الكبير" بالمَغْرَب؛ حَيْثُ قُلْتُ في خِتَامِ قَصيدةٍ بهذَا العنْوَان:

هُنالك.. على قِمَمِ الأطلسِ الشُّمِّ..
يَحْتَدِمُ الجَذْبُ..
بيْنَ نوازع حُبِّ الجَمَالِ..
وُحُبِّ البَقَاءِ
فيَصْطَرِعُ الوَجْدُ.. والفَقْدُ..
كالصَّحْو والمَحْوِ.. فِي عَالَمِ الشُّعَراءِ
وينْبَجسُ الشِّعْرُ -في لحْظَةِ الجَذْبِ- مُلْتَبِسَ اللَّحْنِ..
بيْنَ نَشِيجِ الغنَاءِ..
وشَدْوِ البُكَاءِ

ومهما يكن.. يظل موضوع "طربنا الأليم" مغريا بالبحث.. فهل من نابش هناك؟

الأدب العربي:
جدل الذكورة والأنوثة

إن ما دَرَجَ عليه بعضُ النقاد، من وصْف الإبْداع والذوَات المُنْتِجَةِ له، بالذكورة والأنوثة، ربما استلهاما لمصطلح "الفحولة" الرائج في الخطاب النقدي العربي القديم، أو استئناسا برأي الراجز المشهور: أبي النجم العجلي، في تفريقه بين شيطان شعره، وشيطان غيره من الشعراء، على أساس هاتين الصفتين، حين قال:

إنِّي وكـــلّ شـــاعرٍ مـــنَ البَشـــرْ شـــيْطانُهُ أنْثَـــى وشـــيْطانِي ذَكَـــرْ

فالحقيقة أنَّ هاتين الصفتين -حسب رأيي- فيهما اخْتزالٌ وتشْويهٌ للهُوية الإنسانية المبدعة، باعتبارهما صفتين بيولوجيتيْن مائعتيْن، لا جامعتيْن ولا مانعتيْن، لاشتراك جميع الكائنات الحية فيهما، ومن هنا لنْ يُشَرِّفَ الإنسانَ المُكَرَّمَ المُبْدِعَ أبَدًا أنْ يُعَرَّفَ بصِفَةٍ يُشاركُه فيها أخَسُّ الحيوانات، ولكنَّ الوصْفيْن الأمْثليْن للإبداع والمُبْدِعِين من الجنْسيْن هما وصْفا الرِّجالي والنِّسائي، أوْ إضافة الإبداع إلى الرُّجُل والمَرْأة، باعتبار اسْمَيْ الجِنْسَيْن هذين يُحيلان على مَنْظومَتَيْ أخْلاقٍ، مُشَرِّفَتَيْن لهُمَا مَعًا، فمِنْ مَكْر اللغة العربية أنَّها جَعَلتْ الرجولةَ مُرادِفًا للجَلَدِ، والوقوف على قدَمَيْن لهما من الصلابةِ والرُّسُوخ في المُقَوِّمات الخَلْقية والخُلُقية ما يَكْفِي لاكتساب هذه الهُوية، ذاتِ البُعْد الفُرُوسِي في تلك البيئة العربية الصحراوية القاسية، التي لا يعيشُ فيها الضعفاءُ، كما أنَّ تلك اللغةَ المَاكِرَةَ اشْتَقَّتْ من المَرْءِ والمَرْأةِ صِفَةً مُشْتَرَكَةً بينهما، هي "المُرُوءَةُ" المُخْتَزِلَةُ للمنظومة الأخلاقية التي بها يكونان -هكذا- مَرْءً ومَرْأةً.

وعلى الرغم من تسويغ وصف الإبداع هنا بالرجالي أو النسائي، من حيث البُعْد الأخلاقي، مُوازاةً مَعَ الاعتراض على وصْفِه بالذكورة أو الأنوثة، وفْقَ المَحاذير السابقة، فإنَّ تمْييزَ المرأة بأدَبٍ أو إبْداعٍ يخصُّها، مازالتْ تنْطرِحُ أمامه -حَسَبَ نَظري- عِدَّةُ نقاط استفهام، من قبيل التساؤل حول" أدب المرأة"، أو إبداعها عموما: هلْ يتمَيَّزُ بهُوية خاصةٍ، لمجرد نسْوية الذاتِ المُنْتِجَة؟ أمْ أنه لابُدَّ أنْ يَكْتَسِبَ خصائصَ بنْيَويةً فَنِّيَّةً، تُمَيِّزُه عن إبداع الرجل؟ وهل توّفَّرَتْ له هذه الخصائصُ البنيويةُ المَائزَةُ حتى الآن، لكي نُسَمِّيَهُ -مُطْمَئنِّينَ- بأدب المرأة؟

التبراع:
بصمة شعر المرأة الموريتانية

في إطار الجَدَل المُثار -عالمياً- حوْل الأدَب النسوي، أعْتقدُ أنَّ العالمَ العَرَبي -على الأقلِّ- لا يُوجَدُ فيه -حَسَبَ عِلْمِي المَحْدود- شِعْرٌ، يَخْتصُّ بالمرأة، مُتمَيِّزًا بضوابطَ فنيةٍ بنيويةٍ،لا يُشاركُه فيها شِعْرُ الرَّجُل، إلا ظاهرة شِعْرِ" التبْراع" الشَّعْبي الخاص بالمَرْأْةِ الموريتانية منذ ما قبْلَ الدولة الحديثة حتى الآن، والذي حَصَرَتْهُ -من حيث المضمون- في الغَزَلِ، وقَيَّدَتْهُ -من حيث اللغة- باللهْجَة الحسانية، واجْتَرَحَتْ له -من حيث القالب الفني- بَيْتًا ثُنائي الشطْرَيْن، مُزْدَوِجَ المِصْراعيْن في القافية، مُخالفًا بذلك البنيةَ الرُّباعيةَ الأشْطار في البَيْتِ من الشعْر الحَسَّاني الرِّجالي، الذي يُسَمَّى"القاف" المُشْتَقَّ -ربما- من "القافية" في الشِّعْر العَرَبي الفصيح، وهي تسمية يشترك فيها مع نظيره النبطي، في بعض مناطق الخليج العربي.

وقد عَلَّلْتُ -ذات مرة في التسعينات- اخْتزالَ الشاعرةِ الموريتانية لبنيةِ "التبْريعَةِ" عندها، في نصْف "قافِ" الشاعر الشعبي الموريتاني، بأنه ربما يكونُ نابعًا من وعْيها -أوْ لا وعْيها- بقاعِدَةِ المَواريث في الإسلام: "للذَّكَر مِثْلُ حَظِّ الانْثَيَيْن"، على الرغم من أنَّ المَرْأةَ لَدَيْنا مُدَلَّلَةٌ في مجال الحقوق المالية والمعنوية، تأخذُ مالها وما للرَّجُل مَعًا بكُلِّ أرْيحيةٍ، كما تشارك الرجل شعره، وتتفرد ب "تبراعها"، غيْرَ أنَّها في مجال البَوْح العاطفي تجاهَ الرَّجُل مَكْبُوتَةٌ بضغْطِ مُحافظة المُجْتمع البَدَوي التقليدي، التي لا تسْمَحُ لها بالتعبير حتى عن شعورها تجاه زوْجها المُعاشِر لها ، على سُنَّةِ الله ورسُوله.

ومن هنا ربما يَتَأتَّى اخْتزالُ الدَّفْقَةِ الشُّعُوريةِ لدَيْها في ذلك القالبِ المُخْتَصَرِ، باعتبارها لحْظةَ بوْحٍ مُخْتَطَفَةً، تَندُّ -مُهَرَّبَةً- منْ ثُقوب الكَبْتِ الصارم، كُلَّمَا سَنَحَتْ لها فُرْصةٌ نادِرَةٌ من خَلَوَاتِ الفَتَياتِ وجَلَواتها.

وإمْعانًا في إخْفاء الذات المُبْدِعَةِ -تَفَلُّتًا من النكير والتشْهير- كانتْ هذه الإبداعاتُ النسويةُ المُنْتَجَةُ بَعيدًا عن أعْيُنِ المُجْتَمَع وأسْماعه، لا تُوَقَّعُ باسْم مُبْدِعَتِها، ولا يُذْكَرُ فيها

الْمُتَغَزَّلُ به إلاَّ رَمْزًا، وقد يكونُ ذلك سَبَبَ تَمَيُّزِها أيْضًا -إلى جانب تلك الْمُواضَعات الخاصةِ- بمُصْطَلَحِ " التبْريعة"، ربما لأنَّ الشاعرةَ غيْرَ الْمُعَيَّنَةِ، تَتَبَرَّعُ بها لرَجُلٍ يَسْتَحِقُّها غيْرَ مُعَيَّنٍ، إلا في خاطِرها هي وحْدها، أو الدائرة الضيقة جدا من صُويْحِباتِها، ومعَ ذلك كله يَبْقى الْمُسْتوى الفني والشُّحْنَةُ العاطفيةُ الْمُرَكَّزَةُ لهذه " التبْريعة" غيْرَ مُتأثِّرَيْنِ -سلبيا- بضيقِ القالب، لأنَّ زيادة القيود الفنيةِ -خلافا للمتوقع- ربما تكونُ حافزًا على الإبداع، أكْثَر مما هي عائقٌ دُونه، لاسيما عنْدَ الْمُبدِعينَ الحَقيقيين، ولذلك كانوا يَتَجَشَّمُونَ "لزومَ ما لا يَلْزَم".

ولعل أروع مثال يحضرني الآن لهذا الشعر الموريتاني، الْمُتَمَحض لـ"نون النسوة"، و"تاء التأنيث"، هو قول إحداهن في "تبريعة" عجيبة:

ما فيَّ حُفْرَ*منْ حُبُّه ترْفدْ مَ لَخْرى

فهذه الحروف القليلة، الشبيهة -من حيث البنية المختزلة- بقصيدة " الهايكو"، اليابانية، أو" شعر نساء البشتون"، أو"شعر الومضة" الجديد، لم تضق -رغم اختصارها- عن الاتساع لحُبٍّ عظيم ملأ وجْدانَ صاحبته، حتى فاض عنها، مُخترقا كُلَّ حواجز الكبْت والمحافظة الداخلية والخارجية، التي تُسَوِّرُ تجربةَ الحُبِّ لدى المرأة في مجتمعنا، مستفيدةً في تعبيرها من نظام الرّي الزراعي، والفيْض المَطَري، أو النهْري، أو البحْري، حيث تمتلئ الحُفرة الأولى، فتفيض إلى جاراتها، حتى إذا امتلأ الجميعُ، وغَمَرَهُ المَاءُ، لم تعدْ أيُّ حُفْرَةٍ تقْدِرُ على التنفيس عن أختها، وهذا -بالضبط- ما حدَثَ لهذه الشاعرة، التي تَحَمَّلت الكبْتَ والصمْتَ، مادام في دَواخِلها مُتَّسَعٌ للتخْزين، حتى إذا "بلغَ السَّيْلُ الزُّبَى"، "طَفَحَ الكيْلُ".

المرأة في عيدها.. بين الشاعر والجازر

فِي مثْلِ هذه الْمُناسَباتِ يَكْثُر الحديثُ عن مَظْلُومِيةِ المَرْأةِ، بمُخْتلفِ أنْواعها، ويرْتفعُ مَدُّ المُزايَدَاتِ، ويَفيضُ نَزيفُ دُموعِ التماسيح.

وبما أَنَّني أَكْرَهُ الْمُجْتَرَّ من الأحاديثِ، والمَواضيع، فقد قادَنِي عشْقِي لارْتِيادِ الجُزُرِ المَجْهولةِ -في التفْكيرِ والتعْبيرِ- إلى قَضِيةِ واقِعِ المَرْأةِ، في شِعْرِ الغَزَلِ العَرَبي، بيْن ثُنائيةِ: الشاعِرِ والجَازِرِ، التي أخْتَزِلُ فِيهَا عَلاقَةَ الغَزَلِ بكُلٍّ من الرُّوحِ والجسدِ، فالشاعرُ الحقيقي، والعاشقُ الصادق، -في نظري- يصِفُ إحْساسَه تجاهَ جَمَالِ الرُّوح والجَسَدِ معًا، أَكْثَرَ مِنْ أنْ يُحَوِّلَ شِعْرَه إلى مَعْرِضٍ مَكشُوفٍ للعُمُوم، يُعَرِّي فِيهِ ما كانَ مسْتورا من جَسَدِ امْرَأةٍ يَزْعُمُ أنَّهَا مَحْبُوبَتُه.

إنَّ الشاعِرَ الذي يَتَحَدَّثُ -في قَصائِده- عن صَدْرِ مَحْبُوبَتِه، وخِصْرِهَا، ورِدْفِها... ليْسَ عاشقًا، ولا شاعرا، بقدْر مَا هو جَازِرٌ، يعْرِضُ قِطَعَ الجَسَدِ الجَمِيلِ، للآخَرينَ، ويُرَوِّجُهَا لهم، مِثْلما يَفْعَلُ بائعُو اللَّحْمِ -في السوق- تمامًا...أليْسَ هذا مُطابِقًا -في عصْرنا الالكتروني- لتَسْرِيبِ الصُّوَّرِ العَاريةِ الْمُجَرَّمِ شرْعًا، وقانُونًا، وعُرْفًا، وذوقًا....

وإنِّي لأعْجَبُ -كلَّ العَجَبِ- كيْفَ لهذا الشاعِرِ -عفوًا أعْني الجَازِرَ- أنْ تُطاوِعَه نفْسُه -وحتَّى لوْ كانتْ أمَّارَةً بالسُّوءِ- في القيامِ بهذا الدوْر الوضِيعِ، عبْرَ التاريخ، رغْمِ أنَّهُ مُنَافٍ لطبيعةِ الفِطْرَةِ الإنسانية، ولِغَريزةِ الغيرةِ التي تدْعُو النفْسَ-حتى غيْرَ البَشَريةِ- للاسْتِئْثَارِ بجَمَالِ مَنْ تُحِبُّ، ولعَلَّ الأغْرَبَ من ذلك كلِّهِ هو تَقبُّلُ الْمُجْتَمَعِ لهذه الظاهرة، رغْم أنَّ ضَوابطَ الأخلاق، ورَوَاسِخَ الأعْرافِ الاجْتِماعِيةِ لا يُفْتَرَضُ فيهما أنْ يتقبلا منه فعل ذلك.

والله إني - رغْم كوْنِي شاعرًا.. لمْ أستطعْ فهْمَ هذا الإشْكال، ولم أجِدْ تفسيرًا مُقْنِعَا لتَقَبُّلِ ذاتِ الشاعِرِ، ومُحِيطِه، وقُرَّائِه، لِمِثْلِ هذا التّصَرُّفِ الْمُنَافِي حتَّى لِرُقِيِّ الفَنِّ، وسُمُوِّ المَشَاعِرِ... وأنَّى لِي أنْ أتفَهَّمَ تَقَبُّلَ المَرْأةِ نفْسِها له؟!

أخيرا.. في عيد المرأة، أَسَجِّلُ هنا مَدَى حزني وأَسَفِي لأنَّ بَنِي آدمَ انْتَهَى بهِمْ المَطافُ إلى اخْتِزالِ كُلِّ مَعاني المَرْأة في صِفَةِ الأُنْثى، التي هي صِفَةٌ بيولوجية، تشتركُ فيها مَعَها، حتَّى أَخَسُّ الكائناتِ الحَيَّة!

ولَكَمْ أَشْعُرُ بالخَجَلِ حينَ أَرَى الشُّعَراءَ يَتغَزَّلُونَ بالمَرْأة، باعْتبارها مُجَرَّدَ أنْثى، فأتصور -حينها- أن أي معْزَاةٍ داجِنَة، أو قطةٍ أليفة، تَسْتمِعُ إلى قصائدهم المُتَدَلِّهَةِ، سَوْفَ تَتَخَرَّقُ في مشْيَتِها، وتمْسَحُ وجْهَهَا، وتقولُ: لَعَلَّهمْ بِي يَتَغَزَّلُونَ، فأنا -أيضا- أنْثى!!

احْتَجِّي يا امْرَأة.. فجَوْهَرُ هُويتكِ -بلا مِرَاء- نحَتَتْهُ لكِ اللغةُ العَرَبيةُ-منْ مَعاني المُروءة والمَراءَة!!

أنا شخصيا، سأَظُلُّ أفْهَمُكِ هكذا - وسأبْقى أغَنِّي فِيكِ:

أنشودة الحلم

من أيِّ كوْنٍ..قدْ هَبَطْتِ إلى الوجودِ الآدمِي؟ حوريةٌ؟ أمْ لوْحَةٌ سَئِمَتْ جمُودَ المَرْسَمِ؟

أمْ صورةُ الحُبِّ.. المُجَنحِ.. في خيالِ المُلْهَمِ؟ أمْ نفْحَةٌ.. من رحمةٍ؟ نافورةٌ.. من أنْعمِ؟

وا لَعْنةَ المَحْرُوم منْ ريــاكِ.. إنْ لمْ ترْحَمِــي! حُــومِي بِقُــرْبي انْتَعِشْـأحْلى وُرُودِ المَوْسِمِ!

أنْفاسُكِ العِطرُ الذي يَسْـرِي.. وقُودا.. في دَمـي! ولأحْرُفُ اسْمِكِ.. يا لهَا زخَّـات خمْـرٍ.. في فمِـي!

أنا ظامئٌ.. أنا جائعٌ.. أنا مُعْــدِمٌ.. فتَبَسَّـمِي! "رضْوانُ".. يَفْتَحُ بابَ "جَنَّةِ خُلْدِه".. إنْ تَبْسَمِي!

وتكَلَّمِي..فالنفْخُ فِـيرُوحِي.. بفِيكِ.. تكَلَّمي! وتدَلَّلِي..تَزْهُ العَناقِـدُ.. والقَصـائِدُ تَنْهمِـي!

مُدِّي يَدَيْكِ.. فَفِيهِمَا عبَقُ "المَسيحِ".. البَلْسمِي! ولْتَعْرُجي.. بالرُّوح.. عنْ طِينٍ.. بِطُهْركِأحْـتَمِي!

ولْتَنْظُرِي..أصْعدْ - عَلَى جفْنَيكِ - دُنيَا الأنْجُمِ! وأغُوصُ.. في الحَوَرِ الرَّهِيفِ.. إلى كُنُوزِ المُبْهَمِ!

بين الشاعر والتاجر:
جدل الأرواح والأرباح

حينَ يتنافسُ الشاعرُ والتاجرُ على قلبِ فتاةِ الأحلامِ، يَحْتَدِمُ الصراعُ غيرُ المُتكافئُ، عبر جَدَلِ الأرْواحِ والأرْباحِ، بيْنَ صوْتِ القلبِ ومنْطق الحُبِّ عنْد الشاعر، وبيْنَ صوْتِ المعدَةِ، وصَريرِ الدرْهم والدينار عنْد التاجر، كلٌّ يُحاولُ تعْديلَ الكفَّةِ لصالحِه، وهُنَا لا يُمْكِنُ التنبُّؤ بمَآلاتِ هذا السِّبَاقِ ونتائِجِه، إلا في ضوْء مَعْرفةِ الظروفِ المُحيطةِ، وطابَعِ الحِقْبَةِ التاريخيةِ الحَاضِنةِ، حيْث يَتَغَيَّرُ سُلَّمُ القِيمِ عبْرَ التاريخ، فتَسُود القيمُ الروحيةُ في فتْرةٍ، وتسودُ القيمُ الماديةُ في حِقبةٍ أخْرى، وفي الحالةِ الأولَى سَيَنْتَصِرُ صوْتُ الشاعِرِ لا مَحَالَةِ، وفي الثانيةِ سيكونُ النَّصْرُ -حتْمًا- حَليفَ التاجِرِ، وهُنا أسَجِّلُ مُرَافَعَةَ الشاعِرِ العاشقِ:

مَرْكَـزَ الــدِّفْءِ.. يَـا وَقُــودَ شُــمُوعِي ... يَـــا رَبيعـــي.. إذا تَنَـــاهَى رَبيعـــي

أنْـــتِ: رُوحٌ.. مَشَـــاعِرٌ.. وبَهَـــاءٌ ... لا تُبَـــاعِي..لا تُشْـــتَرَيْ..لا تُطِيعـــي

انْظُـــرِي.. تـــاجرا.. يـــراك.. مَتاعـــا ... أيّ وَغْـــدٍ.. تَحْـــتَ الثِّيـــابِ.. وَضِـــيعِ!

وأنَــا شَــاعِرٌ.. تَــدَلَّهْتُ.. عِشْـــقا ... عَـرْشُ مُلْكِـي السَّـمَا.. قُلـوبُ الجُمُـوعِ

عَـرْشُ مُلْكِـي السَّـمَا.. قُلـوبُ الجُمُـوعِ ... ثَــرْوَةُ الحُــبِّ.. فَــوْقَ مَــالِ الجَمِيــعِ

كُـــلُّ مَـــنْ لَمْ يَعِـــشْ.. حَبِيبًـــا.. مُحِبًّـــا ... سَـــوْفَ يهْـــوِي.. إلَى الفَـــرَاغِ الفَجِيـــعِ

إنَّنِـــي لَـــوْ ضَـــبَطْتُ قَـــلْبِي.. خَلِيـــا ... لَتَخَلَّيْـــتُ عَنْـــهُ.. دُونَ رُجُـــوعِ

لَـــيْسَ لِي مَنْـــزِلٌ.. سَـــيَأوِيكِ.. إلا ... بَيْـــتَ شِـــعْرٍ.. وَجَنَّـــة.. في الضُّـــلُوعِ

كُـــلُّ قَصـــرٍ.. لَمْ يَعْبَـــقِ الحُـــبُّ فِيـــهِ ... قَفَـــصٌ.. آهِ.. زَهْـــرَتِي..لا تَضِـــيعِي

كُــلُّ حَسْــنَا.. تَعِــيشُ خَــارِجَ قَلْبِــي   سَــــوْفَ تَبْقَـــى مَنْفِيـــةً.. في الصَّـــقِيعِ
إنَّـــمَا الـــدِّفْءُ.. حَيْـــثُ يَنْـــبُضُ قَلْبِـي   بــــالهَوَى البِكْـــرِ.. والغَـــرَامِ البَـــدِيعِ
كَـــمْ نِسَـــاءِ.. طَـــرَقْنَ بَـــابَ فُـــؤَادِي   والقَلِــيلاَتُ.. مَـــنْ نَفَـــشْنَ.. بِرُوعِـــي
فـــادْخُلِي.. فِي يَـــدَيْكِ.. مفْتَـــاح قلبـــي   واغْلِقِـي.. وامْرَحِـي.. وتِيهِـي.. وشِـيعِي

"بلادِ المِلْيُون شاعر":
صراع بيْتِ الشِّعْر.. وبيْتِ الزوْجية

في المُجْتمع الشنقيطي، تتبوأ المرأة مكانا عليا، لا يكاد يزاحمها فيه إلا الشعرُ، فلا غرابة أن يدب التنافس بينهما حول قلب الرجل الشاعر، الذي يسعى -بكل جهده- للجمع بينهما في وجدانه، ولا يحب أن يخسر أيا منهما، إذ كل واحد منهما يشبع حاجة روحية في نفسه، لا غنى له عنها، فجمال المرأة، وحبها، ودلالها، وتنظيمها، ولمساتها تعطي للبيت الزوجي معناه، وظله، وشذاه، وسكينته، وحماه، والبيت الشِّعْري، يضفي على جمال المرأة جمالا، و يحول شظف حياتها ترفا، ويعطي لبساطة بيتها الشَّعرِي، هندسة فنية ومعمارا، يزهو بهما، ويجعلانه يطاول القصور المُمَرَّدَة الباذخة، فالشاعر العاشق للبداوة -الأمير عبد القادر الجزائري- يختزل جَمَالَ الكوْن في قوله:

الحسْنُ يَظْهَرُ فِي شَيْئَيْنِ روْنَقُه:
بَيْتٍ منَ الشِّعْرِ، أَوْ بيْتٍ منَ الشَّعَرِ

لكن المُشْكِلةَ الكُبْرَى، حين يجدُ الشاعِرَ الشنْقيطي نفْسَه أمامَ لحْظَـةِ خِيَـارٍ صـعْب، بـيْن بيْتِ الزوْجة الغيورِ العنيدة، التـي لا تقبـلُ الشر-يكةَ، وبيـت القصـيدة الجديـدة التـي تتنـزل عـلى الشـاعر، كلَّـما تجلَّـتْ لـه فتْنَـةُ الفتيـات الحِسـان، وروْعـة أبْكـار البَيـان، فهـذا الشـاعرُ القديم: سيدي عبد الله ولد أحمد دَام الحسني، تفلتُ من بيْن شفتيْه أبياتٌ شعْريةٌ غلبتْـه، حـين سحَرتْه، إحْدى الصبَايا، فقال:

مَـا سَـفَّهَ الحِلْـمَ واسْتَصْـبَى أخَـا كَـبَرٍ ... كالكاعِـبِ الـرّودِ لمْ تَعْـدُ اثْنَتَـيْ عَـشَرَهْ!
كَأنَّـــها فَـــنَنٌ.. طَـــوْعَ الرِّيَـــاحِ.. فـــمَا ... تَنْفَـــكُّ مُسْـــفِرَةً.. طـــوْرًا.. ومُخْتَمِـــرَهْ!
عَجْـلَى القِيَـامِ.. ضَـحُوكٌ عـنْ مُـؤَشّرَةٍ ... تُنْســـــسِي مَلاحَتُهـــا ذَا لُؤْلُـــؤٍ دُرَرَهْ!
وفِي الجَـوَابِ.. وفِي كُـلِّ الـذي نَطقَـتْ ... طَـيْشٌ.. تَـرُدُّ بـهِ الأكْبَـادَ مُنْفَطِـرَهْ!
يَخَـالُ ذُو الجَهْـلِ أنَّ الخَـوْدَ لـيْسَ لهَـا ... لُـبٌّ.. ويُعْجِبُـه مِـن ذاكَ مَـا اخْتَـبَرَهْ!

فلما علمتْ زوْجَتُه بما قال، خرجتْ من بيْتِ الزوجية مُغَاضِبَةً، قائلة بكلِّ سخْرية: "ابْنِ لكَ بَيْتًا مِنَ الشِّعْرِ"، فرَدَّ عليْها مُكابرا، زاعما أن كلَّ البيوت -إلا بيْتَ القصيد- أوْهَنُ من بيْت العنْكبُوت، مُعْلِنًا رَفْضَه التخَلِّي عنْ البيْتِ الشِّعْري، ولوْ لصَالِح البيْتِ الزوْجِي، وربَّةِ البيْتِ المُغَاضِبَةِ، التي لم يَسْتطعْ عِنَادُه الرُّجُولي أنْ يُخْفِي مَدَى مَحَبَّته إياها، فصَوَّرَ تذبْذُبَه الصَّعْبَ، بين الخياريْن المستحيليْن، في هذه القِطْعة:

مَــنْ يهجُــرُ الشِّــعْرَ جَــرًّا عَــاذِلٍ زَجَــرَهْ؟ ... أمْ مــنْ يُطِيــقُ صُــدُودَ الحِــبّ إنْ هَجَــرَهْ؟

أضْــحَتْ صَــفِيةُ عــنْ لُقْيــاكَ مُعْرِضَــةً ... والشِّــعْرُ يَعْــرِضُ مــنْ مَكْنُونِــه دُرَرَهْ!

لمْ أدْرِ أيّهُـــــما أدْهـــــى مُفَارَقَــــةً ... كُـــلٌّ يَحِـــنُّ فُـــؤادي دائـــما أثَـــرَهْ!

قــدْ كنْــتِ يــا ذِي إلِي نفْســي مُحَبَّبَــةً ... ورُبَّــما صــدَّقْتْ حَــالُ امْــرِئٍ خَــبَرَهْ!

طاشتْ عنِ القلْبِ رَمْيَاتُ الحِسَانِ سِوَى ... سَــهْمَيْكِ قــدْ قَرَعَــا أعْشَــارَهُ العَــشَرَهْ!

فَـــما عليْـــكِ إذًا لـــوْ رُحْـــتِ عَالِمَـــةً ... أنَّ القَــرِيضَ جَنًّــى للفِكْــرِ لــنْ يَــذَرَهْ!

أمْ خِلْتِنِـــي مِثْـــلَ أقْـــوامٍ عَهِـــدْتِهِمُ ... طَــوْعَ الحَلائِــلِ لا يَعْصُــونَ أمْــرَ مَــرَهْ؟!

كــلَّا.. لَعَمْــرُ بَنَــاتِ الفِكْــرِ نَمَّقَهَــا ... حَــرَّانُ ذَادَ بِهــا مِــنْ هَمِّــهِ شَرَرَهْ!

بــلْ ليْــتَ يوْمًــا فتَــاةَ الحَــيِّ إذْ أمَــرَتْ ... أنْ أبْتَنِــي مــنْ قَرِيضِــي وَاسِــعَ الحُجُــرَهْ

تَــدْرِي حَقيقتَــه.. عِلْــمَ اليقِــينِ.. لِكَــيْ ... تَــرَى البُيُــوتَ -سِــوَاهُ- غــيْرَ مُعْتَــبَرَهْ!

كيمياء الكلمات

يندر في الشعر العربي أن تجد مساحة معتبرة للتغزل بحديث المرأة، إمتاعا ومؤانسة، حيث استحوذ تصوير الجمال الجسدي على تصوير الجمال الروحي، بل إن حديث المرأة؛ في المخيال العربي، وخصوصا الزوجة، لا يعدو عند زوجها سوى كونه مجرد ثرثرة تافهة، ولكن حكاية بطلة "ألف ليلة وليلة"، تنتصف لحديث المرأة عموما، وتمنحه طاقة سحرية، خارقة، قادرة على تحويل سلسلة أحاديث سَمَرها، إلى سلسلة حياة، كلما نجحت في إذكاء عنصر التشويق في حبكتها المتنامية، مدت في مجال عمرها يوما إضافيا، متمترسة بكلماتها الشيقة، عبر مقاومتها الموت المتربص بها وبكل بنات حواء، على يد حيوان مفترس، يتقمص رجلا طاغية مريضا نفسيا اسمه "شهريار"، استطاعت" شهرزاد" بجاذبية حديثها، أن تروِّضه، وتوقظ في كينونته إنسانيته، صائغة إياه خلْقا حديدا، لكنها ما كانت لتقدر على ذلك، لو لم تكن تمتلك حمولة ثقافية، تمدُّها بفلسفة، تقدم رسالتها لعقْل المتلقي ووجدانه معا، حيث كانت قد قرأت ألف كتاب، حسبما تقول مقدمة الحكاية الخالدة، ولو كانت فتاة جاهلة فارغة، لكانت مجرد كتلة لحْم تزف صامتة كل ليلة إلى مقبرة المخدع الزوجي الرهيب، أو لكانت تزف-صامتة- عروسا كل سنة، منْذورة للموت غرقا في مياه النيل، ليفيض بالخير والبركة في زعم مزارعي ضفافه. عاشت كل "شهرزاد"، تمتلك سر صناعة "كيمياء الكلمات"، مجسدة قول الشاعر:

إذا ما انْتَهَـــتْ أحْـدُوثَــةٌ لــــوْ   مـــن الخَفِـــرَاتِ البِـــيضِ.. ودَّ جَلِيسُـــها

وفي ضوء هذا..أقترح عليكم قراءة قصيدتي التي منحتها عنوان المقال:

حَدِّثِيـــــني.. يـــا شَـــــهرَزَادِي.. فـــإنِّي   شَـــــهرَيَارُ..الذي سَيُصــــغِي.. إليـــكِ

وسأنســـى غـــدرَ النِّســـاء.. جميعًـــا   حدِّثيـــــني.. بفَيـــكَ.. أو مُقلَيـــكِ

حـــدثيني.. فطـــولُ صـــمْتِكِ.. أغْـــرَى   شـــهْرَيَارًا.. ونيـــلَ مـــصْر..عليْكِ

حـــدِّثيني.. ففـــي حـــديثكِ ســـحْرٌ   شَـــلَّ سَـيْفَ الشُّـكُوكِ.. عـن وَدَجَيْـكِ

حـــدِّثِيني.. تشْـــفِى جراحَـــاتِ قلْبِـــي   أنـــت.. مـــن يسْـعَدُ الحـــزينُ.. لـــديْكِ

أنـــت.. مـــن يسْــعَدُ الحـــزينُ.. لــديْكِ وي.. فـــــإنَّ المســـــيحَ في رئتَيْـــــكِ
حـــــدثيني.. تمتــــدّ آفـــاقُ فكْــــري فـــأرَى الكـــوْنَ.. في مَـــدَى شـــفتَيْكِ
حـــدثيني.. يخـــضر وجــــه حيـــاتي إنَّ نجمـــي الســـعيد مـــن مطلعيْـــكِ
حَـــــدِّثيني.. بِفِيـــــكِ..أو مُقْلتيْـــــك أو فهـــاتي -حُلْـــوًا- حَـــديثَ يـــديْكِ
لســـتُ أدْري: أيَّ الثلاثـــة.. أحْــــلى حـــدثيني.. بهـــا معا..مـــا عليْـــكِ

قُولِي: أَحِبُّكَ..

ضربت الأعْرَافُ الاجتماعيةُ -حوْل قلْب المرأة العربية- سُورًا منْ مَفاهيمِ الحَيَاءِ والخَجَل والعيْب والعار، يمْنعُها من التعبير عنما يتأجَّجُ بيْن جنْبَيْها منْ مَشاعِرَ وأحَاسِيس الحب، لاسيما في مجتمعنا "الشنقيطي" الموريتاني، الذي منح المرأة مكانة مرموقة ودللها كل التدليل، إلا أنَّها ظلت عنده -في مجال البَوْح العاطفي تجاهَ الرَّجُل- مَكْبُوتَةٌ، بضغْطِ مُحافظة المُجْتمع البَدَوي التقليدي، التي لا تسْمَحُ لها بالتعبير حتى عن شعورها تجاه زوْجها المُعاشِر لها، على سُنَّةِ الله ورسُوله. رغْمَ أنَّ المُجْتَمَعَ يُعوِّضُ لها ذلك بإطلاق لسان الرجل بالتغزُّلِ بها حبيبةً وزوْجَةً، لكن ما يتَجَاهِلُه المجتمع، هو أنَّ هُناك ظلْمًا مُزْدَوِجا يقَعُ على الرَّجُل والمرأة معا، حيث إنَّ حرْمانَ المَرْأة من أنْ تقولَ: "أَحِبُّكَ"، تنفيسا عن البراكين المختزنة ملء جوانحها، لا يُساويه إلا حِرْمان الرَّجُل من إشباع سمعه وروحه برنين هذه الكلمة الساحرة، التي تكنز حروفها أسرارا عجيبة، وطاقات مذهلة، والتي مهْما أسْرَف في سكْبِها بأذْن محبوبته، لا يكاد يتمتَّعُ بسماعها من فمها.

وإذا كان نزار قباني، قد أمْعَنَ في اسْتنْزال كلِمة "أحُبَّكَ" من بيْن شفَتَيْ المرأة الشرقية، مرتبا على ذلك نتائجَ تعود -إيجابيا- على شخصية الشاعر العاشق النرجسي، المهووس بالغزل بذاته أولاـ شأنه في ذلك شأن مدرسة عمر بن أبي ربيعة الفتى القرشي الأنيق المدلل، فإني أنا -في نَصِّي التالي- أرَكِّزُ علَى استرجاع كلمة "أحبك" لقدسيتها في ذاتها، وتطهيرها من حمولة العار، والعيب والإباحية، التي تلبَّسَتْها ظلما وعدوانا، وأن أوَسِّع مفهومها الروحي من الحيز المادي الضيق الذي اختزلها فيه الاستعمال الخاطئ:

قُولِي: أَحِبُّكَ..
لا تَـقولِيها..
فقدْ يتَعَثَّرُ القمَرَانِ.. إنْ عَبَقَ الصَّدَى!

قُولِي: أحُبَّكَ..
ولْتَمُجْ -فِي زَهْوِهَا- الأفْلاكُ..
هلْ هَذَا الضَّلالُ سِوَى الهُدَى؟!

قُولِي: أحُبُّكَ..
فالحُروفُ.. طَهُورَةٌ..
لنْ تَحْرِقَ الشفتيْنِ زَخَّاتُ النَّدَى!

قُولِي: أحُبُّكَ..
كمْ -سِوَاكَ- تَقُولُها!
لكنَّ فِي شَفَتَيْكِ سِرًّا.. مُوصَدَا

فَإلَى مَتَى شَفتَاكَ تَخْتَزِنُ الدُّنَا..
عني.. تتُوقُ حُرُوفُها أنْ تُولَدَا

ضُخِّي.. بها.. وجْهِي..
فَمِي..
سَمْعِي..
دَمِي..
ضُخِّي حُرُوفَ النُّورِ..
لَحْنًا.. سَرْمَدا

هَذِي الحُرُوفُ..
أجَلَّهَا رَبِّي..
بِهَا سِرُّ الحَيَاةِ..
بدُونِها تَبْقَى سُدَى!

هَيَّا..
علَى اسْمِ الحُبِّ..
نُعْلُنُ بيْعَةً..
هَذي.. يَدِي
-مِلْءَ الفَضَا-
هَاتِي يَدَا

حُبِّي..
وحُبُّكِ..
إنْ هُمَا انْبَجَسَا.. معًا
سنُقيمُ.. للحُبِّ.. الْمُقَدَّسِ.. مَعْبَدَا

فارس الأحلام:
انفجار البوح المكبوت

لقد ضربت الأعْرَافُ الاجتماعيةُ -حوْل قلْب المرأة العربية- سُورًا منْ مَفاهيمِ الحَيَاءِ والخَجَل والعيْب والعار، يمْنعُها من التعبير عمّا يتأجَّجُ بيْن جنْبَيْها منْ مَشاعِرَ وأحَاسِيس الحب، لاسيما في مجتمعنا "الشنقيطي" الموريتاني، فكلُّ الرجال عندنا، يكتبُ ما شاءَ، متى شاءَ، كيْفما شاءَ، عن فَتاةِ أحلامه، وحتى عن فتاة آلامه، لكن المرأة عندنا مُسَرْدَقٌ بوْحُها، بسُور مُمَرَّدٍ، من التقاليد الضاغطة، التي تصادر حقَّها في البوح بالحب، حتى لزوجها، مع أن الحب ليس مُجَرَّمًا لذاته، بل هو عاطفةٌ إنسانيةٌ نبيلةٌ، تمثل-في حدِّ ذاتها- سرَّ الحياةَ، وبدونِها يختلُّ توازنُ الكوْن، وتتوقَّفُ الحياةُ، المُتناغِمَة نواميسُها بيْن "الحاءِ والباء"، وهْيَ عاطفةٌ جيَّاشةٌ عاتيةٌ، تصْعبُ مُدارَاتُها مِلْءَ الوجدان، والتحكُّمُ فيها، طولَ الوقْت، لذلك ما كانَ أمامَ نسائنا منْ مَنْفَذٍ لتهْريب شحناتٍ من عاطفتِها المَحْظورة المَكْبوتة، إلا "تَبْريعَة" شِعْرية، "نفْثة مَصْدورٍ"، تَنْفَلِتُ خارقةً شِغافَ القلب، نادَّةً عنْ حُجُب الرقيب، الداخلية والخارجية، مكتنزةً في جملتيْن:(ما فيَّ حُفْرَ*منْ حُبُّه ترْفدْ مَ لَخْرى)!

وقد انفجرَ الحديثُ اليوْمَ فجأةً عنِ هَذا المَوْضُوع، بَعْدَ تسرُّب فيديو قصير لامرأة بسيطة، تحدثت بصراحةٍ عن مدَى تعَلُّقِها المُزْمِنِ بأحَدِ أزْواجِها السابقين، ورغْبَتِها في العوْدة إليْه؛ حيْثُ استحالَ عليْها نسيانُه... وكمْ بيْننا منْ مِثْلها... صامتة .. والحقيقةُ أنِّي كنتُ دائمًا اسْتشْعرُ الضَّيْمَ الذي تُعانيه -في صمْت- بنْتُ شنقيط، حيث يُتاحُ لها في مُجْتمَعنا أكثرُ ممَّا لها من الحُرِّيات أحْيانا، لكنْ في مُقابِلِ مُصادَرَةِ حُرِّيةِ التعبيرِ عن الحُب.. بلْ إنَّ المجتمعَ بالغَ في قسْوة تحَكُّمِه، المتعسِّف، حتى حظرَ مُجَرَّدَ طرْح القضية للنقاش، أوْ مُحاوَلة اسْتنطاقِ هذا المَسْكوتِ عنْه أبدا، ولوْ من طرَفِ الرِّجال، وكهذا وَجَدتني منذ حوالي عقدين من الزمن، أتطوع -نيابة عن المرأة عندنا- لأقول ما أرى أنها تتوق للبوح به تجاه فارس

أحلامها المرغوب، وكأني أسْتشْرفُ بحسِّ الشاعر أنَّ "الانْفجارَ الكبـير" آت لا محالـة، وعـلى قدر الضغط الكبيرِ تماما، حسب ما تقول القاعدة الفيزيائية: فقلت (1999):

فــارسَ الأحْــلامِ.. يـا طيْـفَ اللَّيالِــي ... مَلِـــكٌ أنْـــتَ.. عَـــلى عـــرْشِ خَيَـــالِي

حُلُمِـــي المَسْحُـــور.. يـا ظِـــلَّ المُحَـالِ ... تَتَبَـــاهَى فِيـــكَ أوْصـــافُ الرِّجَـــالِ

كـــمْ تَرائيْنَـــا علَـــى مِـــرْآةِ بــَالي ... نمْتَطِــــي سَـــرْجَ الــبُراقِ.. المُــتَلالي

نَقْطــفُ الأنْجُـــمَ..عنقُودَ الدَّوَالِـــي ... نسْـــبَحُ الأنْـــوارَ.. في قُـــدْسِ الجَـــمالِ

تزْدَهِينَـــا زَفَّـــةُ الحُـــورِ الغَـوَالِـــي ... في مَعَارِيـــــجَ.. إلى أفْـــقِ الكَمَـــالِ

***

فارسَ الأحْـلامِ.. رَصَّعْتَ صِفَاتِـي:

شَكْلَ تِمْثَالٍ.. غـَبِيّ القَسَمَـاتِ

طَالَـمَا طَـرَّزْتَـنِي.. بالكَلِمَـات

راسمًا.. جِسْمِي ..

وحَجْمِي ..

تُرَّهَـاتي

تاركًا.. رُوحِي..

شُعُوري..

كُنْهَ ذاتي ..

كَنْزَ أسْراري ..

ويَنْبُوعَ حَـيَاتِـي

أنـَا دُنْيـَا.. تَزْدَهِـي.. بالـرَّغَـبَاتِ

الصَّلَوَاتِ..

الذِّكْرَيَاتِ..

الخَطَرَاتِ

فاكْتَشِفْنِـي.. ولْيَبُحْ -مِلْءَ لـَهَـاتي-

غـَزَلي المكْبُوتُ.. قدْ طالَ صُمَاتي

***

أنا أهْـوَاكَ.. تَكسَّرْ.. يا سُكُوتِي

حِضْنُكَ الفَيَّاضُ: قَصْرِي.. مَلَكُوتِي

أنْتَ ظِلِّي..

أنتَ حُبِّي ..

أنْتَ قُوتِـي

أنْتَ دِفْئِي..

أنْتَ عِـزيِّ..

جَبَرُوتِي

أنْتَ صَمْتِي..

سَبَحَاتِي ..

وقُنُـوتِـي

في صَلاتي..

مَلْجَئِي..

في الرَّهَـبُوتِ

فتَسَربَلْ.. في بَدِيـعَـاتِ النُّعُـوتِ

واغْمُرِ العُـشَّ.. فُيُوضَ الرَّحَمُـوتِ

أنْتَ نِصْفِي.. ومَقَاصِيرُ البُيُـوتِ

-لستَ فِيهَا- مِثْلُ بَيْتِ العنْكَبُوتِ

صورة المرأة.. بين شعوري، وسطوري

فِي بِداياتِ تَجَلِّياتِ المَرْأَةِ في شُعُوري وشعري، اسْتَرْجَعتُ لحَظاتِ خَلْق "آدم"، واسْتَشْعَرْتُ مَعَهُ إحْسَاسَه بوُجُوده النَّاقِصِ، مِن دُونِ وُجُود "حَوَّاءَ"، رغْم تَرَفُّهِهِ فِي فَرَادِيس الله العُلْيا، فقلتُ -نيابَةً عنْه، وأصَالةً عنْ نفْسِي- مُصَوِّرًا سِنَارْيُو "نجْوَى الغَرَام الأولى":

حَــوَّاءُ.. يــا دُنْيــا الفُــتُون.. ومَرْفَــأ الْــ أحْــلام.. يــا سِرَّ الحَيــاة.. لــدَى البَــشرْ

أَنَــا آدَمٌ.. مِـــنْ قبْـــلِ خَلْـــقِكِ.. لمْ أزَلْ أهْـــفُو إليْــكِ.. عَــلى أحَــرَّ مِــنَ الجَمــرْ!

قــد كنــتُ أَشْــعُرُ: أنَّ نِصْــفِي ضَــائعٌ أيَعــيشُ نِصْــفٌ؟ لا يَعــيشُ مــن انْشَــطَرْ!

لمْ يُسْــلِني مَــرْأى المَــلائِكِ.. سُــجَّدًا حــوْلي.. عـــنْ ذَاكَ الحَبيـــبِ المُنْتَظَـــرْ

حَــوَّاءُ.. يـــا مَعْنَـــى وُجُـــودِي.. آدَمٌ لــوْلاكِ.. لمْ يُخْلَــقْ.. وَلَــوْ خُلِــقَ انْتَحــرْ

ثم تطورت النجْوى، لتنحت للمرأة هويتها من حقيقة السحر الفتون:

يــــا فِتْنَــــةً.. يَدْعُـــــونَها: امْـــرَأةً وَيْـــح التُّقَـــى -إنْ لُحْـــتِ- والزُّهْـــدُ!

أنْـــتِ الَّتِـــي -إذْ غِبْـــتِ- "آدمُنَـــا" لمْ تُسْـــلِهِ.."عَـــدْنٌ"ولاَ "الخُلْـــدُ"!

ورَأَى بِــــكِ الصَّـــــحْرَاءَ مَمْلَكَـــــةً فالجَـــدْبُ وَرْدٌ.. واللَّظَـــى بَـــرْدُ!

لكنها فتنة لا تختزل في الجسد وإغراءاته، بل هي فتنة ملء الروح تلامس الكون من حولها:

تَتَــنَفَّسُ الوَاحَــاتُ.. مِــلْءَ رِئَــاتِــها مِـــنْ طِيبِهَــا.. وتَتِيــهُ.. ثَــمَّ.. غُصُــونُ

وتَهِـــشُّ أسْرَابُ الحَـــمَامِ.. تَـــزُفُّهَا ومَوَاكِـــبُ الغِــزْلانِ.. حَيْــثُ تَكُــونُ

وتَــذُوبُ أفْـئِــدَةُ الصُّخُــورِ.. تَدَلُّـــهًا وإذا تَجَلَّـــــتْ لِلْـــــجِبالِ.. تَدِيــــنُ

إنها "رحْلة التوق"، بين "الحاء والباء"، حيث "المِعْرَاجُ"، بلا "سدرة منتهى":

مَـــنْ ذَا لِسِـــــدْرَةِ مُنْـــتَهَاهَا يَرْتَقِـــي وَلَهَـا القُلُـوبُ.. نظمْـنَ.. عِقْـدَ الجَـوْهَرِ!
وإذا تَــبَسَّمُ.. قــالَ نــاظرُ ثغْــرِها: هــذي الجِـنَانُ.. تَفَتَّحَـتْ.. عـنْ كَـوْثَرِ!
وإذا تَضَـوَّعَ نَفْحُهـا.. مِـلْءَ الفَـضَا.. ثَمِـلَ الفَضَـا.. بالطِّيـبِ.. دُونَ تَعَطُّـرِ!
وإذا مَشَـتْ.. فـوْقَ الثَّرَى.. تَـاهَ الثَّـرَى.. شَـغَفًا.. بِرَوْعَـةِ خَطْوِهَـا.. المُتَبَخْـتِرِ!
وإذا تُهَـامِسُ.. مَـنْ يُسَـارِقُ لَهْـوَهَا سَـحَرَتْ خُطَـى الأفْـلاكِ.. أيَّ مُخَـدِّرِ!
خُـذْ.. مَيِّـتًا.. مِـنْ عَـامِ أَوَّلَ.. مُسَّـهُ بِبَنَانِهـا.. يُبْعَـثْ.. قُـبَيْلَ المحـشْرِ!

إِنَّها أَمِيرةُ القُلُوبِ

أَمِيرَةَ عَـرْشِ الحُسْـنِ.. عَرْشُـكَ مُهْجَتِـي! لغَـيْرِكِ.. لا انْصَـاعُ.. لا أَتزَلَّـفُ!
أنَـا سَـيِّدُ الثَّـوْراتِ.. لكِـنْ تَمَـرُّدِي أَمَامَ جَـلاَلِ الحُسْنِ.. يَضْـعُفُ.. يَضْـعُفُ!

ورغم سلطة الجمال الطاغي، يبقى للحب -هو الآخر- سلطانُه:

كُـلُّ حَسْـنَا.. تَعِـيشُ خَـارِجَ قَـلْبِي سَـوْفَ تَبْقَـى مَنْفِيـةً.. في الصَّقِـيعِ
إنَّـما الـدِّفْءُ.. حَيْـثُ يَنْـبُضُ قَـلْبِي بـالهَوَى البِكْـرِ.. والغَـرَامِ البَـدِيعِ
كَـمْ نِسَـاءٍ.. طَـرَقْنَ بَـابَ فُـؤَادِي والقَلِـيلاَتُ.. مَـنْ نَفَـثْنَ.. بِرُوعِـي
فـادْخُلِي.. فِي يَـدَيْكِ.. مفتـاح قلبـي واغْلِقِـي وامْرَحِـي وتِيهِـي وشِـيعِي

إننا كلنا ندْمِنُ الرحيلَ بيْنَ "الحَاءِ والبَاءِ"، بحْثا عن المرْفأ الأمْثل والأجْمل، لنكتشف ذواتنا في مرايا "عيون المها" الساحرة:

واسَـتَبَدَّ الرَّحيـلُ.. خِلْـتُ مَـدَاهُ رِحْلَـةَ العُمْـرِ بـيْنَ مَهْـدٍ ورَمْـسِ
غـيْر أنِّي عَرَفْـتُ.. بعْـدَ ضَـيَاعٍ.. كيْـفَ.. فِي مُقْلَتَيْـكِ.. اصْـطَادُ نفْـسِي!

ومن هنا يستمر إدمان صيد الذات في "حور العيون":

عيْنَاكِ..أنْـتِ.. بُحَيْرَتَـا حَـوَرٍ بِهِـمَا.. أنـا.. أهْفُـو.. إلى الغَـرَقِ
فلْتَغْمُرِيـني.. في سَوادِهِمَـا تُغْـفَرْ ذُنُوبِـي.. يَنْـتَشِرْ عَبَـقِي
عَيْـنَاكِ.. جَوهَـرَتَـانِ.. سِرُّهمـا مَـنْ شَـعَّ فِـيهِ.. يَعِـشْ.. بِـلا رَهَـقِ

عَينَـــاكِ.. عِنْـــدِي.. مَعبَـــــدَانِ.. إذا أرَتَـــــــا جَمَـــــــالَ اللهِ.. لمْ أفِـــــــقِ

عَيْنَــاك.. زَلْزَلَتَــا -هَــوًى- رَشَــدِي فـــإذا نَزَقْــتُ.. لِتَـغْفِـــرِي نَزَقِـــي!

أوْ فاسْجُنِــــينِي.. فِـــيهِمَا.. أبَـــــدًا لا تُفْرِجِـــي.. فالسِّـــجْنُ.. مُنطَلَقِـــي!

الغزل بما يشبه الذم..
أو.. الذم بما يشبه الغزل

في الآونةِ الأخيرةِ تداولتْ مَواقِعُ التَّواصُلُ الاجتماعي خبَرا عن استحواذ سيدة على مبلغ كبير من ميزانية مشروع كانت محاسبته، ونظرا لأنَّ المرأةَ معْروفةٌ ببياضِ ذِمَّتِها المالية في التسيير الإداري، حيثُ لا تمْتلكُ عادةً جُرْأةَ الْمُغامَرةِ، بالْمُساءلة القانونية، ولا ترغب في تشويه نضارَتها وسمْعتها بالجرْجرَة بين السُّجون، والَمحاكم، وأقفاص الاتهام، وبما أنَّ المرْأة في الُمجتمع الموريتاني، تتمتع باحترام ومحبة الرجل، وعطفه، وحنانه، لدرجة أنه قد يموت مستبسلا دفاعا عنها، في معترك الحرب الرهيب، وقد يسرق المال العمومي، ويتعرض للسجون، من أجل تدليلها وإرضائها، مهما كانت التضحيات والمجازفات، نظرا لكل هذا فإنَّ بعض الشعراء الموريتانيين، الذين تعوَّدوا على تنَاهُبِ الحِسانِ لقلوبهم، الُمشاعة للجَمال الباهر، أيْنما تَجَلَّى، قد حرَّكت شاعريتَهم هذه الحادثةُ، التي كانت مُزعْزِعة لتصوُّرِهم القبْلي عنِ المرْأة، وصُورتِها النمطية في الذهنية السائدة لمجتمعهم، فتواطأوا على الإقرار للمرأة بحقِّها المَشروع في سرقة النفوس، مقابل تعففها عن الفُلوس، وقد تولد من هذا الملمح، ما يمكن أن نسميه "الغزل، بما يشبه الذم"، أو "الذم بما يشبه الغزل"، على غرار الفن البلاغي المسمى: "المدح بما يشبه الذم"، فكانت البداية مع الُمدَوِّنُ الموريتاني الشاب المبدع الأمين مياه، حين قال:

زارتْـــكَ ســـارقةُ القُلـــوبِ عَشِـــيةً	مِـــنْ بعْـــد هجْعَـــةِ ســـائرِ السُّـــمَّارِ
ناشَـــدْتُها: بـــالله ربِّـــكِ أرْجِعِـــي	قلْـــبَ الُمحِـــبِّ لِجسْـــمِهِ الُمنْهَـــارِ
قالـــت: فـــؤادُكَ لمْ يكُـــنْ فِي محْـــرزٍ	مِـــن ثغْـــر مَـــيٍّ أوْ بَنَـــانِ نَـــوَارِ!
قلـــتُ: ارْجِعِـــي لِي بعْضَـــه يـــا هـــذه.	عَمَـــلًا بـــنهْج سَـــوارِقِ الِملْيَـــارِ

وقد سايرْتُه أنَا في هذا المعنى، فقلت:

مـا كنْـتُ أعْـرِفُ -في بـلادي- سـارقَهْ إلا لحَبَّــاتِ القُلــوبِ.. العَــاشِقَه!

أو ســارقات النظْـرةِ.. العَجْـلَى.. التـي تُحْيِـي.. تُمِـيتُ.. تظـلُّ.. صـمْتا.. ناطِقَـهْ!

كُلُّ النُّفـوس.. لـكِ.. اسْرقِيهـا.. أوْ دَعِـي أمَّــا اسْتِــرَاقُكِ.. للفُلـوسِ.. فسَــابِقَهْ!

وفي نفس المضمار، أبدع الأستاذ الشيخ أحمد البان، قطعته التالية:

سرقـــتْ فـــؤادُكَ بالــدَّلالِ الآسِرِ ورنَـــتْ -فـمَا أبْقــتْ - بطـرْفٍ فــاتِرِ

ومشـــتْ تُجاذِبُهـــا الريـــاحُ خِمَارَهـــا فانْهَـــارَ مـــن وَلَـــهٍ كيـــانُ الشـــاعِرِ

يـــا نِعـــمَ مـــا فعلــتْ بنَـــا ألْحاظُهـــا ودَلالَهَـــــا في خَطْوِهـــــا المُتَــــواتِرِ

هَــذا.. أنَـا.. لـكِ.. يـا أمـيرةُ.. إنَّنـي رهْـــنٌ لـــديْك خـــواطري ومَشـــاعري

وقصـــائدي لـــكِ يـــا حبيبـــةُ فـــاكْتفِي بقصـــائدي ومشـــاعري وخـــواطري

لا تـــسْرقِي غـــيْر القُلـــوبَ فـــمَا أرَى لـــكِ حاجـــةً في مـــالِ "شـــعْب دَافِـــر"

يعني شعبا مفلسا، وكان آخر ما رصدْتُه، في هذا الصدد، قول المُدَوِّنِ سيدي ولد أعمر، مجاريا سابقيه:

حَـــلالٌ مَـــا سَرقـــتِ مـــن الفُـــؤادِ ومـــا لاقيـــتُ مـــن ألمِ البِعـــادِ

فتِلـــكَ ســـجِيَّةٌ فِـــيكُنَّ عُظْمَـــى وأمْـــرٌ في شرِيعـــتِكُنَّ "عَـــادِي"

وهـــذي أحْـــرُفي تنْســـابُ شـــعْراً فحُـــوزُي مـــا اشـــتَهيْتِ عـــلَى سَـــدَادِ

وَلكـــنْ خَـــلِّ عنْـــكِ الســـطْوَ سِرّاً وكُفِّـــي يـــا رَبَـــابُ عـــن الفسَـــادِ

ورُدِّي كـــلَّ فِلْـــسٍ صَـــافَحتْهُ يَـــدَاكِ لِخَزْنَـــةِ الشَّـــعبِ المُقَـــادِ

شهر مارس:
قراءة في خلفيات الأعياد

تزدحم في شهر مارس كثيرٌ من الأعْياد، التي إذا تعَدَّدَتْ وتَباعدَتْ في ذِهْنِ القارئِ العادي، تتَوَحَّدُ وتتكامَلُ في مِنْظار الشاعر، الْمُخْتَرِقِ للسُّطوحِ، والْمُكَسِّرِ للحُدود..

فهذا الشهْرُ يُمَثِّلُ بدايةَ موْسِمِ الرَّبيع، سيِّدِ الفُصولِ الأرْبعة، الذي "به الحياةُ تحْلُو"، ورُبَّما كانَ جمَال هذا المؤسم، هو الذي حَدَا بالعالم أنْ يَجْعَلَ بدايته مُتَزَامِنَةً معَ عيد المرأة، التي هي سرُّ الحَياة وربيعُها، عيدِ حَوَّاء التي -بدُونِها- وَجَدَ آدَمُ نَفْسَهُ فِي حِضْنِ جَنَّةِ النعيمِ، يَشْعَرُ بالفَرَاغِ، واسْتِحَالَةِ الاسْتمْرار، حَتَّى خَلَقَهَا اللهُ له جَنَّةً، وَفَّرتْ له السكينةَ في أجَاديبِ الحياة الدُّنْيا الْمُوحِشَة، وهُنا أَتَذَكَّرُ أَنِّي تَنَصَّتُ ذاتَ مَرَّةٍ علَى جَدِّنَا آدَمَ، مُنْخَرطًا معَ "حَوَّاءَ" في "نَجْوَى الغرَامِ الأوُلَى"، إحْدَى قصائدي، فسَمِعْتُه -عفا اللهُ عنِّي- يَهْمِسُ في أذْنِها:

قــد كنــتُ أشْــعُرُ أنَّ نِصْــفِي ضـــائعٌ ... أيعــيشُ نصْــفٌ؟ لا يعــيشُ مــن انْشَــطرْ!
لمْ يُسْــلِنِي مَــرْأى المَلائِــكِ.. سُــجَّدًا ... حـــوليَّ..عن ذاكَ الحَبيـــبِ المُنْتَظَـــرْ
لــوْلاكِ لمْ يُخْلَــقْ.. ولــوْ خُلِــقَ انْتَحَــرْ ... حوَّاءُ..يـــا مَعْنَـــى وُجُـــودِي.. آدَمُ

وهنا يَحُزُّ في نفْسي أنَّ بَنِي آدمَ انْتَهَى بهمْ المَطافُ إلى اخْتِزالِ كُلِّ مَعاني المَرْأة، فِي صِفَةِ الأنْثى، التي هي صِفَةٌ بيولوجية، تشتركُ فيها مَعَها، حتَّى أخَسُّ الكائناتِ الحَيَّة، ولَكَمْ أشْعُرُ بالخَجَلِ حينَ أرَى الشُّعَراءَ يَتغَزَّلُونَ بالمَرْأة، باعْتبارها مُجَرَّدَ أنْثى.

وفي عيد المرأة الموريتانية الخاص بها، خامسَ هذا الشهر، أسَجِّلُ اعْتِزازي بها، لأنَّ أولَ رئيسةٍ للاتحاد النسْوي لديْنا عِنْدَما سَألَتْها بعثةُ مجلة "العربي" الكويتية عنْ مَدَى مُطالَبَةِ اتَّحادها بالمُساواةِ مَعَ الرَّجَالِ، فِي أواخرِ سَتيناتِ القرن الماضي، قالت لها: معاذ الله..المُساواةُ مع رجالِنا

غبْنٌ لَنَا، فنحْنُ فِي مُجْتَمَعِنا نحْصلُ على مَالَنَا وما لِلرِّجالِ معًا،وبناءً على ذلك أعْتقدُ أنَّها لنْ تقْبَلَ اختزالها في صِفَةِ الأنْثى أبدا.

وفي عيد الأم -في هذا الشهر أيضا- أودُّ أنْ أشِيرَ إلى ضرورة أنْ يُسَمَّى: عيد المرأة/ الأم، حتى لا يكونَ عيدًا لكلِّ أمٍّ، من الكائناتِ الحَيَّةِ، بما فِيها الحَشَرَاتُ، فما فوْقها، فالمرأة/ الأم، قليلٌ -في حَقِّهَا- أنْ تكونَ أيامُ الدُّنْيا كُلُّها أيامَ أعْيادٍ لها، ولقد حاولتُ ذاتَ قصيدةٍ، أنْ أقتربَ أكثرَ من أسْرار هُويَتِها المُقَدَّسَةِ، وأنْ اسْتنْطقَ مَكْنونَ مَعانِي حُروفِها، فكتبْتُ بعنوان:"أمِّي..حروف النور":

أمِّــي.. نشــيدُ الكــوْنِ.. مِــلْءَ المَــسْمَعِ	هِبَــةُ السَّــمَا لِــلأرْض.. سَــعْدُ المَطْــلعِ
أمِّــي.. حُــرُوفُ.. هُـــنَّ نبْــعُ وُجــُودِنا	وَا شوْقَـــــنا الأزَلِيَّ.. نَحْـــوَ المـــــَنْبَعِ
أمِّـــي.. حُـــرُوفٌ.. تكْتنـــزنَ حَيَاتَــــنا	جَلَّـــتْ بـــسِرِّ الله -فِيــــهَا- المُــودَعِ
أمِّـــي.. حُـــرُوفٌ.. يانِعــَـاتٌ بالجنـــا	حَــتىَّ ولــوْ ثــمَــرُ الــدُّنا لمْ يــَيْنع
أمِّــي.. حُــرُوفُ النُّــور.. توقــدُ فِي دَمِــي	شُعَــلَ المَعَـــانِي.. وَالأمَـــانِي الهُـــجَّعِ
أمِّــي.. حُــرُوفٌ.. هُــنَّ زوْرَقُ رحْلــتِي	عَــبْرَ العَـــوَالِمِ.. خــَلْفَ سرِّ المُـــبْدِعِ

ولعلَّ يوْمَ اللغة العربية المُخصَّص بهذا الشهر، لا يُشكِّلُ نشازًا على عِيدِ المرْأةِ عمومًا، ولا على الأمِّ خصوصا، فاللغة العربية هي أمُّنَا جميعًا، وأمُّ أمَّهاتِنا، وآبائِنا، وهي النَّسَبُ الأعْلَى لنا نحْنُ المُوريتانيين على وجْهِ الخُصوص، مهْمَا حامت الشُّكوكُ حوْلَ سَنَدِ أنْسابهم العربيةِ، حيثُ يقولُ شاعرُنا القديم:

إنْ لمْ تقــــمْ بينـــــاتٌ أنَّنـــا عَــــرَبٌ	فَفِـــي اللِّسَـــانِ بَيَــانٌ أنَّنَـــا عَـــرَبُ

لقد ارتضعناها كابرا عن كابر، كما يقول شاعرنا الآخر:

لنَـــا العَرَبيــــةُ الفُصْـــحَى.. وإنَّـــا	أحَـــقُّ العَــــالَمِينَ بهـــا انْتِفَاعَـــا
فَمُرْضَـــعُنَا الصَّـــغِيرُ بهـــا يُنَـــاغِي	ومُرْضِـــــعُنا تُكَوِّرُهـــــا قِناعَــــا

أمَّا يومُ الشِّعْرِ، ويوْم السعادة، المُعْتَمَدان في الواحد والعِشْرين من شهر مارس هذا، فأرَي أنَّ العلاقةَ بينهما، وبين المرأة واللغة العربية معًا، هي علاقةُ المْوضوع، وأداةِ التعْبير،

والذاتِ المُعَبِّرَة، والمُعَبَّر عنْها، في الوقت نفسه، على ضوء ذلك، قلتُ ذاتَ مرة في: "نزيف مشاعري":

إنَّ الوجـــودَ -بـــدون عينـــيْ شـــاعر- جـــدبٌ.. كئيـــبٌ.. باهـــتُ الألـــوانِ
وأنـــا أحـــبُّ مـــن الحيـــاة جمالهـــا القـــبْحُ يُـــؤْلِمُ مُقْلَـــةَ الفَنَّـــانِ..

والخلاصة: أنَّ الأعيادَ التي تتزاحمُ داخِلَ هذا الشهْر، يَرْبطُ بينها -رغم تنَوُّعِها- خيطٌ ناظمٌ عميق، قد لا يُدْرِكُه إلاَّ بصَرُ الشاعر وبَصيرَتُه النَّفَّاذانِ، إلى أعماق الأشياء، والظواهر، والألفاظ، والمفاهيم....

2014

القمَرُ.. والشِّعْر

جُبِلَ الإنسانُ، منذ وُجدَ، على حب رموز الجمال، والعظمة، والسمو، والخلود... تلمُّسا لَمظاهر وجود المعبود، في أفاق الكون من حوله، باعتباره مفطورا على الإيمان بخالق مهيمن، كبير، متعال، يمنح صفاته للظواهر من حوله إن لم يجد رسولا هاديا، معززا بالوحي، يرشده إلى الله ربه الحقيقي، الواحد الأحد، الفرد الصمد...

وهكذا نالت الكواكب عموما، نصيبا كبيرا من ميثولوجيا الأمم والحضارات عبر التاريخ، لاسيما ثالوث الزهرة، والقمر، والشمس...

وعلى الرغم من أن العرب، شاركوا هذه الأمم القديمة هذه التصورات، والمعتقدات، فقد كان للقمر مكانة خاصة في وجودهم ووجدانهم، وكما أضاءت أنوارُه عتمات الليالي الدامسة في صحاريهم، أضاءت أيضا أنوارُه مُخَيّلاتهم، ونسجوا من خيوط بهائه، صورهم الشعرية، وصفا مجردا لكوكبه المتربع بكامل أبهته في سمائهم، وتوسَّمُوه عبْر مرايا الغزَل، في وجوه الحبيات:

فكـــأنَّ البـــدرَ الـــتمامَ عـــروسٌ   وكـــأنَّ النجـــومَ مُنتـــقباتُ

كما أكبروه – عبْر مرايا المدح– في وجوه صفوة القوم، جمالا، وكرما، وسُمُوا...

وإذا تقـــدّم في النجـــومِ حسبتَـــهُ   مَلكـــاً تَســـيرُ مواكـــبٌ مـــن حولِـــهِ

بل إنهم.. أسقطوا –فلسفيا– صيرورته الفلكية، على تحولات الإنسان نفسه؛ حيث قال لبيد بن ربيعة:

ومـــا المـــرءُ إلا كَـــالهِلال وضَـــوئه   يُـــوافي تمـــامَ الشَّـــهر ثـــم يغيـــبُ

وقد التقط أبو العتاهية هذه اللفتة المكثفة، فأعطاها مزيد تفصيل، وتفكيك، فقال:

المـــرءُ مِثْـــلُ هـــلالٍ حـــين تُبـــصرهُ   يبـــدو ضـــئيلاً ضـــعيفاً ثـــم يَتَّسِـــقُ

يَـــزدادُ حتّـــى إذا مـــا تَـــمَّ أعْقَبـــه   كَـــرُّ الجديـــدين نقصـــاً ثـــم يَنْمَحِـــقُ

أما أنا -ومَن أنا- فقد كبرتُ على عشق هذا القمر، باعتباري سليلَ الصحاري البدوية، التي تعرف لهذا الكوكب قيمتَه الجليلة الجميلة في حياتها، افتتانا بسحره، واستكناها لسره، وانتفاعا بنوره، وأذكر أنني في بداياتي الشعرية الطفولية، كان أخوتي الصغار يغرونني بوصف قمرنا العملاق دائما، لاسيما ليلة تمامه، حينما استرعى انتباهنا ذات غروب، بظاهرة هزت وجداننا البريء، حين رأينا البدر يشرق كأكبر ما يكون باسطا نفوذه على الأفق، في نفس اللحظة التي تغرب فيها الشمس، مولية الأدبار... فقلت بحس فلسفي طفولي، يستلهم قصة إبراهيم عليه السلام:

وقــرْصٍ.. مـــن نُضَـــارٍ.. قـــد تبـــدَّى ... وراءَ سِـــــتَارِ أشْـــــجار الـــــوُدَيِّ

أطـــلَّ.. ففـــرَّ قـــرْصُ دمٍ.. جـــريحٌ ... ليغســـــلَ ثوْبَـــــه... بالأطلــــسيِّ

فهـــــزَّ بَهَـــاهُ وجْـــداني.. وقـــبْلي ... قـــديما.. هـــزَّ وجْـــدانَ النَّبِـــيِّ!

وكنت يومها -خلال مراهقتي- شغوفا بالقمر، والسمر، على كؤوس الشاي المُعتَّق، ولذلك كنتُ أردُّ لى من يلومني على إدمان ذلك:

لقد طالَ حسْوُ الشـاي.. فاصبُبْه واسْـقني ... مـدى الليْـل.. مـا يغْنِيـكَ كـوْنِيَّ مُفْلِسـا

وللجَـــوِّ أنْسَـــامٌ.. تُهَدْهِـــدُ حَيَّنَـــا ... وذا بـــدْرُه.. بـــيْن النُّجـــوم.. ترَأَّسَـــا

وألْقــى.. عــلى هــذي الرِّمَــال.. شُــعَاعَه ... يُفَضِّـضُ.. منْهــا.. مُــذْهَبا.. ومُنَحَّسـا

وعندما رحلت إلى عاصمة دولتنا، **1984**م، في طلب العلم، افتقدتُ الكثير من طقوسي البدوية، وكان وجه القمر من أهم الأشياء الجميلة المفتقدة في المدينة، ولذلك كنت عندما تتاح لي إطلالته، النادرة، أناجيه بوَلَهٍ وهُيام:

أيهـــا البـــدْرُ.. قـــدْ مـــررْتُ بـــأهْلي ... حـــين أشرقـــت.. فاحْـــكِ لي مـــا رأيْتـــا

قـــالَ لي: قـــد رأيـــتُ حيًّـــا.. بـــوادٍ ... وتمَعَّنْـــتُ.. فيـــه.. بيْتًـــا.. فبيْتـــا

وتسَـــمَّعْتُ.. للأحاديـــثِ.. نجْـــوَى ... فِي فَضَـــاهُ تنْثـــالُ: كيْتًـــا.. وكيْتـــا

قلـــتُ: والله قـــد تمَلَّيْـــتَ حسْـــنا ... ليْتَنـــي كنْـــتُ أنْـــتَ... يـــا ألْـــف لَيْتـــا

إنَّ في مقلتيْـــــكَ بعْـــــضَ بقايـــــا ... مِـــنْ رُؤاهـــمْ... فَهَاتِهـــا.. مـــا سـعَيْتا

صُـــبَّها.. صُـــبَّها... بعيْنـــي... لتُحْيِـــي ... نـــبْضَ قلْـــبٍ لشـــوْقِهِمْ صـــارَ ميْتـــا

إن أصداء شغفي القديم بقمر البوادي العملاق، مازالت تسكنني، رغم أن وهج أضواء المُدن الكبرى، سرق منه نورَه، وسِحْرَه، وكسَفَه، حتى حوَّله -إنْ ظهرَ ضِمْنَها- إلى مُجَرَّد حَجَرٍ كبير، يتسكَّعُ باهتا، بين مصابيحها الوضَّاءة، وهذا كنتُ كلَّما رأيتُه مُتلبِّسًا بالخَجَل، في إحْدَى طلاته المَسْرُوقة في ليالي المُدُنِ الكبْرى، أُتمْتم -بحسْرة-: مِسْكين أنتَ يا قمَر.. قلبي معك.. أحسّ بشُعورك....

"اقرأ".. أكبر معجزات الإسلام

"اقرأ" أربعةُ أحْرُفٍ، تكْتَنِزُ سِرّ الحياةِ، وتمْتلِكُ طاقةً عجيبةً لتغْيِيرِ الواقعِ البائسِ العَنِيدِ، فقدْ تنَزَّلَتْ هذه الحُروفُ الأربعة، فاتحةً مُبارَكَةً لرِسَالَتِنا الإسْلاميةِ، فكانتْ مُعْجِزَةً كـ "عَصَا" مُوسَى، ضَرَبَتْ جَلِيدِ الجَهْلِ، وسَدِيمِ الصحْراءِ، وعِنَاد البَدَاوَةِ، فحَوَّلَتْها -بقُدْرَةِ قادِرٍ- إلى أمَّةِ حَضارَةٍ إنْسانيةٍ، غيَّرَتْ مجْرَى التاريخ، في سِياقاتِ الإنْسانِ، والمكانِ، والزمَانِ، بشكْلٍ كوْنِي، شامِلٍ، فكانَ (فِعْلُ القِراءَةِ) هو- ربما- أكْبَرُ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا عليه السلام، وهذا ما اسْتوقَفَنِي -كثيرا- في بعْضِ نُصُوصِ مجْمُوعَتِي الشِّعْرية -غيْرِ المَنْشُورَةِ- "صَلَوَات القوافي"، حسَبَ ما تُمَثِّلُه الشَّذَرَاتُ التالية:

اقْـرَأْ" .. حُـرُوفٌ.. صَـدَاهَا.. هـزَّ أفْئِـدَةً" غُلْفًـا.. وَأسْـمَعَ مَـنْ قَـدْ كَـانَ ذا صَـمَمِ
"اقْـرَأْ".. حُـرُوفٌ.. بِـرَوْح الله.. نَافِحَـةً تَنْثَـالُ.. بَـيْنَ السَّـمَا.. وَالأرْض.. بِـالنِّعَمِ
اقْـرَأْ".. سَـمَتْ بِالـدُّنَا.. عَـنْ جَاهِلِيَّتِهـا" فاخْضَـوْضَرَ الرَّمْـلُ عِلْـمًا.. زاخِـرَ الحِكَـمِ

***

بُشْــرَى "حِــرَا".. أنْ نَــوَّرَتْ عَتَمَاتِــهِ "اقْــرَأ".. فَفَـاضَ سَـنَى الهُـدَى المُنْسَـابِ

***

اقرَأ".. رباطُ السَّما.. بالأرْض.. قدْ نزلتْ" حَــبْلا مِــنَ النُّــورِ.. للكــوْنيْن.. ممْــدودُ

***

"اقــرأ".. ربــاطٌ مــنْ سَــنَا.. وصَــلَ الســما بــالأرض.. مــاذا تفْعــلُ الكَلِــماتُ!
خِــيَّمُ البَــوادي.. تَسْــتَحِيلُ مَدَارِسًــا منْهــا حَضَــارَاتُ الــدُّنَا تَقْــتَاتُ!
قطَــراتُ هــذا الــوَحْيِ تصْــنَعُ أمَّــةَ للمُعْجِــزاتِ.. تقودُهــا القَطَــرَاتُ!
فتحَــتْ قلُــوبَ النــاس قبْــل حُصُــونهمْ المُسْــلِمُونَ.. إلى السَّــلامِ.. دُعَــاةُ

***

"اقْـرَأْ".. غَـدَتْ نَخْلَـةَ العِرْفـانِ.. بَاسِـقَةً مِـلْءَ السَّـمَاوَاتِ.. والأرْضِـينَ.. والأُمَـمِ
أخْصَبْتَ كُـلَّ صَـحَارِي الجَهْـلِ.. معجـزة وُلِـدْتَ.. أَبْلَـغَ مَـنْ يَمْـشِي.. عَـلَى قـدَمِ

***

كلُّ هذه التجَلِّياتِ واجدةٌ مِصْداقَها في التاريخ، لكنَّ أَمَّة "اقْرأ"، عادتْ تَحُثُّ الخُطَى اليوْمَ.. باتجاه "جَاهِلِيَّتِها الأولى"، بفِعْلِ تخَلِّيها عنْ "فعْلِ القِراءَةِ"، وإفْراغِ هذهِ "الحُرُوفِ المُعْجِزَةِ" منْ مُحْتَوَاها، حيث تشْهَدُ على ذلكَ نِسَبُ الأميةِ والتخَلُّفِ، في عالَمنا العرَبي خصوصا، والإسلامي عموما، حتى لَكَأنَّ "اقرأ" نزلت على "اليابان" مثلا، وهذا ما جَعَلَنِي أرْفَعُ الشَّكْوَى إلى رَسُولِنَا الكريمِ، عليه صلَوَاتُ الله وسلامُه:

يَـا سَـيِّدِي.. طَـهَ.. اسْـتَدَارَ زَمَانُنَـا الآنَ.. بَعْـدَكَ.. عَـادَ حُكْـمُ الغَـابِ
هَـا أُمَّـةَ "اقْـرَأ" غَـيْرُ قارِئَـةٍ.. سِـوى كَـفٍّ.. وفنْجَـانٍ.. وكَشْـفِ حِسَـابِ
كُنْـتَ الخِتـامَ.. فـلا وِصَـالَ مَـعَ السَّـمَا مَـنْ يُنْقِـذُ السَّـاعِينَ خَلْـفَ سَرَابِ؟!

الهجرة.. والتعليم:
جدل مستمر

إنّ مفهومَ الهِجْرَة النبوية، والهجْرة عموما، لا ينْبَغِي أنْ يُخْتَزَلَ في السَّفَر المَادي من مكانٍ، إلى آخرَ، بل إنَّ مفهومَها يتَّسَعُ لكلِّ حركة وُجوديةٍ من المَرْهوب، إلى المَرْغوب، سواء كانا ماديين، أو معنويين، ولو انْعَكَسَ المَسَارُ من المَرْغُوب إلى المَرْهُوب لأصبحت الرِّحْلة تهْجيرا.

وبناءً على ذلك، لا ينْبغي أنْ نَقِفَ ببصَرِنا عنْد مَسْرَد الأحْدَاث والوَقائع، التي رَافقَتْ هذا التحوُّل التاريخي، بل يجبُ أنْ ننفُذّ ببصيرَتنا إلى الأبعاد الأعْمق، إذْ أنِّ الرحْلة الروحية والسَّفَرَ الفكري، والانتقالَ العقدي، والتحَوُّلَ المَعْرِفي، كُلُّها حَصَادٌ رَمْزي، أهَمُّ بكثيرٍ من ذلك المَسْرَدِ الوَقائعي المَألوف، مما يعْني أنَّ النتائجَ تفَوَّقَتْ بعيدا على الأسْبَابِ، فالهِجْرَة العَمُودِيَةُ عبْر مَدارِجِ بِنَاءِ صرْح الإنسانية، لا تُقارَنُ بالرحْلة الأفُقِية في الفضاءاتِ المكانية، ومَسافة "الهجرة" عِدَّةَ أيام بيْنَ مَكَّة، والحَبَشَة، أوَّلا، وبيْنَ مكة ويثْرِبَ ثانيا، وحتَّى "الإسْراء" ساعات من الليل، بين مكة وبيْت المَقْدِس، "منَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأقْصَى"، كلّها هُجُرُاتُ، لا تساوي شيْئا من المَسَافَة بيْن السماء والأرض، ساعاتِ "المِعْرَاج"، بل ثواني تَنَزُّلِ الوَحْيِ... المُتَسَلْسُلِ...حَوَالي ثلاث وعشرين سنة..

ولَعَلَّ أهَمَّ معاني الهجرة وتجلياتها هو الانتقال من "الجاهلية"، إلى "القرآنية"، عبر خيط الوصل "اقرأ" بأحْرُفها الأربعة، التي تكْتَنِزُ سِرَّ الحياةِ، وتمْتلِكُ طاقةً عجيبةً لتغْييرِ الواقعِ البائسِ العَنيدِ، فقدْ تنَزَّلَتْ هذه الحُروفُ الأربعةُ، فاتحةً مُبارَكَةً لرِسَالَتِنا الإسْلاميةِ، فكانتْ مُعْجِزَةً كـ "عَصَا" مُوسَى، ضَرَبَتْ جَلِيدِ الجَهْلِ، وسَدِيمِ الصحْراءِ، وعِنَاد البَدَاوَةِ، فحَوَّلَتْها -بقُدْرَةِ قادِرٍ- إلى أمَّةِ حَضارَةٍ إنْسانيةٍ، غيَّرَتْ مجْرَى التاريخ، في سِياقاتِ الإنْسانِ، والمكانِ،

والزمَانِ، بِشكْلٍ كوْنِي، شامِلٍ، فكانَ (فِعْلُ القِراءَةِ) هو-ربما- أكْبَرُ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا عليه السلام.

ومنْ هُنَا نَكْتَشِفُ الخيطَ الرفيعَ الناظمَ بين الهجرة والتعليم، الذين جَاءَا متزامنين، بالصدفة هذه المرة، حيث كان مستهل العام الهجري، بالتقويم العُمَرِي، المُسْتَلْهِمِ لمفْصَلِية مُنْعَطَفِ الهجرة النبوية، في تاريخنا الإسلامي خصوصا، والإنساني عموما، متزامنا مع "يوم المعلم"، الذي كان ينبغي أن نكون أولى به، باعتبار رسولنا الأمي -عليه الصلاة والسلام-هو أكبر معلمي البشرية، وكتابنا "القرآن"- أخذ اسمه من القراءة، وأمتنا أمة "اقرأ"، التي كانت أول خطاب تَنَزَّلَ وحيا إلاهيا... لتأسيس الحضارة الإسلامية العلمية العالمية.

غير أنَّ كلُّ هذه التجَلِّياتِ، واجدةٌ مِصْداقَها في التاريخ البعيد، أما اليوم فقد عادتْ أمَّة "اقْرأ" تَحُثُّ الخُطَى.. باتجاه "جَاهِلِيِّتِها الأولى"، بِفِعْلِ تخَلِّيها عنْ" فعْلِ القِراءَةِ"، وإفْراغِ هذهِ "الحُرُوفِ المُعْجِزَةِ" منْ مُحْتَوَاها، حيث تشْهَدُ على ذلكَ نِسَبُ الأميةِ والتخَلُّفِ، في عالَمنا العرَبي خصوصا، والإسلامي عموما، حتى لَكَأنَّ "اقرأ" نزلت على "اليابان" مثلا...

وهكذا يأتي يومُ المُعَلِّم، في غفْلَةٍ من بِلادَنا، التِّي لا يَعْنِي لها العِلْم والمعلم، الكثير، لكنه -بدون شك- كان وسيكون موضع احتفاء، من طرف كثير من البلاد التي ترى المُعَلِّم ربَّان مَسيرتها وقاطرة تنميتها، مثل اليابان، التي لا تملكُ من الثروات غيْر العقول البشرية، والمعارف، ومثل آلمانيا التي منحتْ مُسْتشارتُها الأولى أكبرَ راتبٍ للمعلم، وعندما احتج كبار الموظفين عليها، قالت لهم: كيف أساويكم بمن علمكم؟

ونظرا لهذا الوضْع المُخْتلّ، أصبحَ كلَّ زمننا "هجْريا"، لكن هجرة معلمينا، وعقولنا وأدمعتنا وعضلاتنا وبطوننا.... إلى أمة "اقرأ" الجديدة... في الغرب والشرق... بعيدا عن ربوع جاهليتنا الأخرى...وحتى لو الْتقَمَنا الحُوت.. فليس ورائنا في أوطننا إلا "حُوت يبلع حُوتا"!

برنامج "المشاء".. عند الشناقطة القدماء

يكثرُ -منذ فتْرة- تعبيرُ بعْضِ الْمُدَوِّنينَ الْموريتانيين عن اسْتبْطائهمْ -الْمَشُوبِ بالاسْتغْرابِ والعَتْب- لعدَم وُصولِ خطواتِ طاقمِ برْنامج "الْمَشَّاء"، الذي تعدُّه قناة الجزيرة، وتقدِّمُه، إلى بلادهم، رغْم أنه مرَّ قريبًا من ديارهم، مُتَجَوِّلا ضمْنَ جاراتِهم منَ الأقْطار الْمَغاربية.

وقد عبَّرْتُ بالاسْتبطاءِ هنا، لأني شخْصيا على عِلْمٍ سابقٍ بأنَّ طاقمَ البرْنامج، يُدْرِجُ موريتانيا في أجنْدة خطواته القادمة، ويعتزمُ أنْ يَمْشِيَ في مَناكِبها، ويأكلَ من رزْقِها الْمَعْرفي.. مُتَرَسِّمًا خُطى الأجْدادِ والأحفاد.

وعلى ذكْر الشناقطة وبرنامج "الْمَشَّاءِ" توَلَّدَتْ في ذهْني تداعِياتٌ، تُقَرِّبُ الشُّقَّةَ بيْنَ الْمُسَمَّيَيْن، وتؤرِّخُ لتجذُّرِ العلاقةِ العميقةِ بيْن الْموريتانيين، و"مدْرَسَةِ الْمَشَّائِينَ" عُمُوما.

فالإنسانُ الشنقيطي (الْموريتاني) -حسَب ما عبَّرْتُ عنْه ذاتَ مرَّة -"كانَ سُلالةَ التَّرَحُّلِ الأزَلِي الأبَدِي... الْمُنْحَدِرُ سِرُّهُ إلى دِمَائه، من سَحيقِ عُهُودِ التاريخ، مِنْ تَفَرُّقِ عرَبِ اليَمَنِ أيْدِي سَبَا، بعْدَ انْهيارِ سَدِّ مَأرِبَ، ومِنْ إيلافِ قُرَيْشٍ رِحلتيْ الشتاء والصيْف، ومِنَ الهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الغَرَّاء، ومن أجْدادِه الفاتحينَ، الذين طَوَّحَتْ بهِمْ شَجَاعَتُهمْ إلى ما قَصَّرَ عنه غيْرُهمْ من أقَاصِي التُّخُومِ، ومن تَغْريبَةِ بَنِي هِلال الشهيرة، ومن إيلافِ قبائلِ الْمَعْقلِ والبَرْبَر-معًا- للإيغالِ في الصحْراء، انتباذا بالعِزَّةِ من ذلِّ السُّلْطان، ومن مُجْمَلِ "مِيراثِ السَّيْبَةِ" الْمُتَجَذِّرِ في هذا "الْمَنْكِبِ البَرْزَخِي"، عبْرَ تاريخَيْهِ: القريبِ والبعيدِ مَعًا...".

لقد كانَ أبْنَاءُ هذا الإقليم -رُبَّمَا- يَعْتَقِدُونَ أنَّهم الْمُخَاطَبُونَ -خُصوصا- بأمْر الله -جلَّ وعَلا- فِي قُرْآنِه الكريم، بالسيْر في الأرْضِ، والْمَشْيِ في مَناكِبِها، فأدْمَنُوا التَّرَحُّلَ، وأمْعَنُوا فيه، وكيَّفُوا مَعَه، جميعَ مُعْطَياتِ حَيَاتِهِمْ، حتَّى التَّعَلُّمُ الذي كانَ يقتضِي التمَرْكُزَ في الحواضر، تعَلَّقا بالبنْيَة التحْتية (الْمَساجد-الكتاتيب-الْمَدارس-الجامعات.....)، قد طوَّعُوهُ للنُّجْعَةِ، والترْحَالِ، مُحَقِّقِينَ "بَدَاوَةً عالِمَةً"، شكَّلتْ استثناءً غريبا، ملْءَ هذه الصحْراء السائبة، شبه الْمَعْزولة، فِي مَنْكِبهَا البرْزَخِيِّ، إذ اسْتطاعُوا أنْ يُكَسِّرُوا مُسَلَّمَةَ ابنِ خلْدُون، وغَيْره من عُلَماء

الاجتماع، والانتروبولوجيا حوْل اخْتِصاصِ الحضَارة بـالعِلْمِ، واخْتصـاصِ البَـدَاوَةِ بالجَهْـلِ؛ فكوَّنَ هؤلاءِ الشَّنَاقِطَة -بمَحاظِرِهم- جامعاتٍ مُتَرَحِّلَةٍ على ظُهُـورِ الإبِـل، سـابِحةٍ في فضَـاءِ الصحْراء المُتَرَامِيَّةِ الأطْرَافِ، حسب ما عبر عنه العلَّامَة المُختار بن بون الجكني:

ونَحْـــنُ ركْـــبٌ مـــنَ الأشْرَافِ مُنْـــتَظِمٌ أجَـــلَّ ذَا الخَلْـــقِ قـــدْرًا دُونَ أدْنَانَـــا
قـــد اتَّخَـــذْنَا ظُهُـــورَ العِـــيسِ مَدْرَسَـــةً بِهَـــا نُبَـــيِّنُ دِيـــنَ الله تِبْيَانَـــا

أجَلْ، إنَّ "أبْنَاء هذا الرَّمْلِ أهْل الله"، -كما سمَّيْتُهم في قَصِيدَتي: "المَآذِنِ السَّائِبَة"- همْ منْ بيَّنوا دينَ الله تِبْيانا، ونشرُوا نورَه في إفريقيا السوداء، وبثُّوا التعْريبَ ملْءَ أدْغالِها، حيث لمْ تصِلْ طلائعُ جُيوشِ الفاتحينَ، وإنَّما حَمَلَ الإسلامَ والعرَبية، إلى عُمُوم هذه الأصْقاع القاصية، دَراويشُ الشناقطة، الذينَ كانَ كلُّ فرْدٍ منْهم يُشَكِّلُ مدْرَسَةَ عِلْمٍ وسُلوك، أيْنَما طوَّحَتْ به مَطَالبُ الدُّنْيا، عبْر قوافلِ التجارةِ وأسْواقِها البَعيدة، أو مَرَامي الانْتجَاع، ومَسَارِحه، ومَنَاهله، أو رَمَتْ به مُقْتَضَياتُ الدِّين، دعْوةً، وتعَلُّمًا، وتعْليمًا، أوْ قذفتْ به هذه المَطالبُ وتلك معًا، فهُمَا وجْهانِ لعُمْلة واحِدَة، اسْمُها "الشنْقيطي"، الذي لا يُنازعُه أحَدٌ في هذا الدوْر.

إنَّ هؤلاء الشناقطةَ همْ مَنْ بَعَثوا "مَدْرَسَة المَشَّائيةِ" الحقيقية، في صَحاريهم السائبة، بعيدا عن مَدَارج أرْسطو في مَعاهِد أثينا اليُونانية، فكانوا، يَدْرُسُونَ ويُدَرِّسُونَ القُرْآنَ الكرَيمَ، ومُتُونَ المَعارف الإسلامية، والعربية، وهمْ مُشَاةٌ، على الأقْدام، أوْ عَلى ظُهُور الرَّوَاحِل، بلْ إنَّهم كانوا يَعْتَبِرُون فِعْلَ القِراءةَ نفْسَه "تَمْشِية" للنَّصّ، فكانَ الشيْخُ يأمُرُ تلامِيذَه بالقِراءَة، قائلا: للفَرْد: "مَشِّي"، وللجَماعَة: "مَشُّوا"، لدَرَجَةِ أنَّ أحَدَ طُلابِ العِلْم النُّجَبَاء، قرَّرَ البَحْثَ عن شيْخٍ موْسوعيّ، لا يَرُدُّ "لوْحًا"، كما يَقُولون، تعْبيرًا عن أهْلِيتِه المَعْرِفِيِّةِ لتدْريسِ كلِّ الفُنون، فكانيَرْتادُ "المَحاظِرَ"، واحدةً، تلْوَ الأخْرى، بحْثا عن نَمَوْذَجِه النادِر، وكلَّما نزلَ عنْد شيْخ ما، وسَأله عن التخَصُّص الذي يريدُ دِراسَتَه، يرْتحِلُ إلى غيْره، حتى انتهَى به المَطافُ الطويلُ إلى شيْخ عنْدما قدَّمَ نفْسَه إليْه، باعْتباره طالبَ عِلْم، أجَابَهُ: "مَشِّي"، بشكْلٍ مُطْلَقٍ، دونَ أنْ يَسْألَهُ عنْ أيِّ تَخَصُّصٍ يريدُ قِرَاءَتَه، فألْقَى عنْدَه عَصَا الترْحَال، حيث وَجَدَ فيه بُغْيَتَه المُسْتَحِيلَة.

وهكذا أنْتجَتْ هذه البَاديةُ السائبةُ، من فَطَاحِلِ العُلَماء ما أذْهَلَ أمَّهَاتِ حَواضِر المَغْرِبِ والمَشْرِق، حتى جَلَسَ عُلماؤُهما تلاميذَ بيْن أيْديهم، والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ وشهيرة.

رحلة المحظرة الشنقيطية:
"اقرأ".. و"مَشِّ"

اقترحت هذا العنوان الغريب بعض الشيء، لأن المحظرة، والرحلة، توأمان، فهي نمط من الجامعات المتنقلة، ابتدعناها -قديما- لتساير طقوس البداوة، والسيبة، والانتجاع.. جاعلين "ظهور العيس مدرسة"، ومنابر دعوة وإشعاع ثقافي وتثقيفي،" بها نبين دين الله تبيانا"، كاسرين مُسَلَّمَة اختصاص الحضر بالعلم، واختصاص البداوة بالجهل..

أما اختياري لـ"اقرأ"، فهو يتأسس على أن أسلافنا الشناقطة كانوا "ورثة الأنبياء" علما، وباعثي الفاتحين للأقاصي، باسم أمة الإسلام، التي هي أمة "اقرأ" بامتياز، فهذه الحروف الأربعةُ تكْتَنِزُ سِرَّ الحياةِ، وتمْتلِكُ طاقةً عجيبةً لتغْييرِ الواقعِ البائسِ العَنيدِ، فقدْ تنَزَّلَتْ هذه الحُروفُ، فاتحةً مُبارَكَةً لرِسَالَتِنا الإسْلاميةِ، فكانتْ مُعْجِزَةً كــ "عَصَا" مُوسَى، ضَرَبَتْ جَلِيدَ الجَهْلِ، وسَدِيمَ الصحْراءِ، وعِنَاد البَدَاوَةِ، فحَوَّلَتْها -بقُدْرَةِ قادِرٍ-إلى أمَّةِ حَضارَةٍ إنْسانيةٍ، غيَّرَتْ مجْرَى التاريخ، في سِياقاتِ الإنْسانِ، والمَكانِ، والزمَانِ، بِشكْلٍ كوْنِي، شامِلٍ، فكانَ (فِعْلُ القِراءَةِ) هو -ربما- أكْبَرُ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا عليه السلام...

أما "مَشِّ"، فمُرْتَكَزُها عندي هو أن الإنسانُ الشنقيطي (المُوريتاني) -حسَب ما عبَّرْتُ عنْه ذاتَ مرَّة -"كانَ سُلالةَ التَّرَحُّلِ الأزَلِي الأبَدِي... المُنْحَدِرُ سِرُّهُ إلى دِمَائه، من سَحيقِ عُهُودِ التاريخ، حتى لكأنَّ "أبْنَاءَ هذا الرَّمْلِ.. أهل الله -كما سمَّيْتُهم في قَصِيدَتي: "المَآذِنِ السَّائِبَة" -رُبَّمَا- يَعْتَقِدُونَ أنَّهم المُخَاطَبُونَ -بصورة أخص- بأمْر الله -جلَّ وعَلا- فِي قُرْآنِه الكريمِ، بالسيْر فِي الأرْضِ، والمَشْيِ فِي مَناكِبِها، فأدْمَنُوا التَّرَحُّلَ، وأمْعَنُوا فيه، وكيَّفُوا مَعَه، جميعَ مُعْطَياتِ حَيَاتِهِمْ، حتَّى التَّعَلُّمُ الذي كانَ يقتضِي التمَرْكُزَ في الحواضر، تعَلَّقا ببنْيَته التحْتية الثابتة (المَساجد-الكتاتيب-المَدارس-الجامعات.....)، حولوه إلى "مَدْرَسَة المَشَّائيةِ" الحَقيقية، في صَحاريهم السائبة، بعيدا عن مَدَارج أرْسطو في مَعاهِد أثينا اليُونانية، فكانوا،

يَدْرُسُونَ ويُدَرِّسُونَ القُرْآنَ الكرَيمَ، ومُتُونَ المَعارف الإسلامية، والعربية، وهمْ مُشَاةٌ، على الأقْدام، أوْ عَلى ظُهُور الرَّوَاحِل، بلْ إنَّهم كانوا يَعْتَبِرُون فِعْلَ القِراءةَ نفْسَه "تَمْشِية" للنَّصّ، فكانَ الشيْخُ يأمُرُ تلامِيذَه بالقِراءَة، قائلا: للفَرْد: "مَشِّي"، وللجَماعَة: "مَشُّوا"، لدَرَجَةِ أنَّ أحَدَ طُلَّابِ العِلْم النُّجَبَاء، قرَّرَ البَحْثَ عن شيْخٍ موْسوعيّ، لا يَرُدُّ "لوْحًا"، كما يَقُولون، تعْبيرًا عن أهْلِيتِه المَعْرِفِيَّةِ لتدْريسِ كلِّ الفُنون، فكان يَرْتادُ "المَحاظِرَ"، واحدةً، تلْوَ الأخْرى، بحْثا عن نَمَوْذَجِه النادِر، وكلَّما نزلَ عنْد شيْخ ما، وسَأله عن التخَصُّص الذي يريدُ دِراسَتَه، يرْتحِلُ إلى غيْره، حتى انتهَى به المَطافُ الطويلُ إلى شيْخ عنْدما قدَّمَ نفْسَه إليْه، باعْتباره طالبَ عِلْم، أجَابَهُ: "مَشِّي"، بشكْلٍ مُطْلَقٍ، دونَ أنْ يَسْألَهُ عنْ أيِّ تَخَصُّصٍ يريدُ قِرَاءَتَه، فألْقَى عنْدَه عَصَا الترْحَال، حيث وَجَدَ فيه بُغْيَتَه المُسْتَحِيلَة.

وهكذا أنْتجَتْ هذه البَاديةُ السائبةُ، من فَطَاحِلِ العُلَماء ما أذْهَلَ أمَّهَاتِ حَواضِر المَغْرِبِ والمَشْرِق، حتى جَلَسَ عُلماؤُهما تلاميذَ بيْن أيْديهم، والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ وشهيرة.

لكنَّ أمَّة "اقْرأ"، عادتْ تَحُثُّ الخُطَى اليوْمَ.. باتجاه "جَاهِليَّتِها الأولى"، بِفِعْلِ تَخَلِّيها عنْ" فعْلِ القِراءَةِ"، وإفْراغِ هذهِ "الحُرُوفِ المُعْجِزَةِ" منْ مُحْتَوَاها، حيث تشْهَدُ على ذلكَ نِسَبُ الأميةِ والتخَلُّفِ، في عالَمِنا العرَبي خصوصا، والإسلامي عموما، حتى لَكَأنَّ "اقرأ" نزلت على "اليابان" مثلا، أما "تمشية" العلم، فقد مشينا عنها بعيدا، لاهثين وراء بروق المطامع المادية، وحتى لو كانت خلبا.

وهذا ما جَعَلَنِي أرْفَعُ الشَّكْوَى إلى رَسُولِنَا الكريمِ، عليه صلَوَاتُ الله وسلامُه:

يَا سَيِّدِي.. طَهَ.. اسْتَدَارَ زَمَانُنَا	الآنَ.. بَعْدَكَ.. عَادَ حُكْمُ الغَابِ
هَا أُمَّةَ "اقْرَأ" غَيْرُ قارِئةٍ.. سِوى	كَفٍّ.. وفِنْجَانٍ.. وكَشْفِ حِسَابِ
كُنْتَ الخِتامَ.. فلا وِصَالَ مَعَ السَّمَا	مَنْ يُنْقِذُ السَّاعِينَ خَلْفَ سَرَابِ؟!

الكُتُبُ والكُتَّابُ:
لوْعة الفراق

إن الجناس الشكلي بين هذين اللفظين، يجسد جناسا روحيا أعمق، حتى من مجرد علاقة الفاعل والمفعول، أو المستهْلِك والمستهلَك، بل يرقى إلى علاقة العاشق والمعشوق، ولعل هذه الألفة الروحية: هي ما عناه أبو حيان التوحيدي بـعنوان كتابه "الإمتاع والمؤانسة"، أو هي ما باح به أبو الطيب المتنبي، حين اعتبر أن الكتاب "خير جليس"، في الزمان كله،أو هي ما جلاه الجاحظ" شهيد الكتب"، حيث تبتل في محراب الكتاب، قائلا: إنه ".. وعاءٌ مُلِئَ علماً، وَظَرْفٌ حُشِي ظَرْفاً، وإناءٌ شُحِن مُزَاحاً وجِدّاً...إنْ شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِه، وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائِده، وإن شئتَ ألهتْك طرائفُه، وإن شئتَ أشجَتْك مواعِظُه... لا أعلَمُ جاراً أبرَّ، ولا خَليطاً أنصفَ، ولا رفيقاً أطوعَ، ولا معلِّماً أخضعَ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جِنَايَةً، ولا أقلَّ إمْلالاً وإبراماً، ولا أحفَلَ أخلاقاً، ولا أقلَّ خِلافاً وإجراماً، ولا أقلَّ غِيبةً... ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفاً، ولا أقلّ تصلُّفاً وتكلُّفاً، ولا أبعَدَ مِن مِراءٍ، ولا أتْرَك لشَغَبٍ، ولا أزهَدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتاب".

لقد عرضتْ لي هذه التداعيات، وأنا أقرأ قصيدة في الفيس بوك، لصديقي الأديب السوري: جمال الأغواني، كتبها معبرا عن لوعة صديق له على فراق كتبه، حين اضطرته ظروف الفاقة إلى بيعها، ليفقد أغلى رأس مال رمزي عنده، من أجل لقمة العيش، مشبها -ببلاغة- بيع المثقف الأصيل الفقير لكتبه ببيع الإنسان لأعضائه.. من أجل البقاء ولو بنصف جسده.. في زمن بؤس السياسة والثقافة، وتسليع القيم، وضياع الإنسان والإنسانية.

لقد وفق الشاعر في تصوير صديقه، كما لو أنه ينزف روحه، وهو يعرض كتبه/ أعضاءه/ ذاته/ للبيع:

من يشتري مني بقية باقِ … للبيع.. أعضائي.. دمي.. أحداقي

هاتيك أعضائي وكل جوارحي … معروضةٌ للبيع في الأسواقِ

الحاجة النكراء أعمت غايتي … ونهلت من مستنقع الإخفاقِ

كيسي يصيح من الفراغ فأنثني … وأضمه بدوافع الإشفاقِ

يا شاريا كتبي ترفق لحظة … دعني أودع خافقي بعناقِ

وعلى إيقاع هذه الأبيات، تداعت إلى ذهني قصة شبيهة للأديب أبي الحسن علي بن محمد القالي، حيث "كانت له نسخة من كتاب (الجمهرة) لابن دريد في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها، فاشتراها الشريف المرتضى بستين دينارا؛ وحين تصفحها وجد فيها أبياتاً بخط بائعها... وهي:

أنست بها عشرين حولاً وبعتها … لقد طال وجدي بعدها وحنيني

وما كان ظني أنني سأبيعها … ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لضعف وافتقار وصبية … صغار عليهم تستهل عيوني

فقلت ولم أملك سوابق عبرة … مقالة مكوي الفؤاد حزين"

"وقد تخرج الحاجات يا أم مالك … كرائم من رب بهن ضنين"

فرد عليه النسخة، وأعطاه الثمن ليستعين به على أموره"، وكما تطابقت بدايتا القصتين، ودافعاهما، وردَّتا فعْلي البائعيْن، نتمنى أن يتم التطابق بين نهايتي القصتين.. فيكون المشتري من صاحب جمال الأغواني مثل الشريف المرتضي؛ فيرد له كتبه، وثمنها... ليته فعل!

أعرف أن هناك من سيقول: إن الكتب الورقية لم تعد مهمة بهذه الدرجة، وإن بدائلها الالكترونية أيسر وأوفر، ولهؤلاء أقول: إن العلاقة الروحية، بين الكتاب الورقي، وبعض عشاقه، أعمق من أن تُخْتزلَ آليا، فأنا مثلا حتى فِي زَمَنِ ثوْرَةَ الأزْرَار، ورَقْمَنَةِ المعرفة، ما أزال أسْتشعرُ وحْشةَ الكُتُبِ الوَرَقِيةِ، أمَامَ وسائط المعْرفة الالكترونية... لأني أعْشَقُ الكِتابَ، مَلْمَسًا، ورائحةً، وألوانًا، وسيظل شعار "تأبط أوراقا"، الذي يسكنني يناديني:"يا يحيى خذ الكتاب بقوة".

الشناقطة.. وتقديس الكتاب..

في عصر ثورة المعلومات، وعولمة "حضارة الزر"، ونزيف النشر الإلكتروني، وطوفان الكتب التي تقذفُ بها دورُ النشر، وحُمَّى مَعارض الكُتُب هنا وهناك، أمامَ كلِّ هذا تتسَرَّبُ إلى ذهْني صورة المُجْتَمع الشنقيطي الذي أستطاعَ أنْ يُؤسِّسَ نهْضةً عِلْمِيةً مُنْقطعةَ النظير، في فضاءٍ صحْراوي، بَدَوِيٍّ، طالما ارْتبطَ في أذْهانِ المُؤرِّخينَ، وعُلماءِ الاجْتماع بالأمِّيةِ والجَهْلِ، ليشَكِّلُوا الاسْتثناءَ العجيبَ، عبْر نظامِ "المَحَاظِر"، التي كانتْ عِبَارَةً عن جامعاتٍ مُرْتَحِلَةٍ على ظهور الإبلِ، تسْبَحُ في بِحَارِ الرَّمْل انْتجاعًا لمَواقِعِ المَاءِ، والمَرْعَي، والمَأمَن، في تلك" البِلادِ السائِبَةِ"، حيثُ كانَ طُلاَّبُها يَعْتَمِدُونَ تحْويلَ الكُتُبِ الشَّحِيحَةِ، إلى نسْخَةٍ خَطِّية دائمة، رغم ندْرَةِ جَميعِ وسَائلِ التوْثيقِ، أو تحْويلِها إلى نُسَخ متَجَدِّدَةٍ في ألواحٍ من الخَشَب، يُحَوِّلونَها إلى نُسَخٍ محْفوظةٍ في الذاكرةِ الوَاعِيةِ، ومُسْتَوْعِبَةٍ في الذهْنِ الحَدِيد.

لقد أخذَ الشنقيطي الكتابَ بقُوَّةٍ، وكانَ حُجَّاجُهم يشْترُونَه من المَشرِقِ والمَغْرب، بِكُلِّ غالٍ ونفيسٍ، ويُبالغونَ في صِيانتِه، مهْما كانتْ ظروفُ البَداوة غيْرَ مُساعِدَةٍ على ذلك، ومِنْ هنا يتأَتَّى لغيرنا تَفَهُّمُ المُفارَقَةِ المُتَجَلِّيَةِ في وَفْرَةِ المَخْطُوطَاتِ النَّفِيسَة، والنَّادِرَةِ أحْيَانًا، فِي هذا "المَنْكِبِ البَرْزَخِي" السَّائِبِ في بَدَاوَتِه العَالِمَةِ.

وعلى رغم هذا التطور المَشْهُودِ اليوم -في مجال النشر- ما يزالُ الموريتاني -حتى وهو يتأَبَّطُ لوْحَه الإلكتروني "الآيباد" -يَحِنُّ إلى عهْد لوْح الخشَب، وقلم القصَب، ودَواةِ الحَجَر، ومداد الصمْغ والفحْم، والالتفافِ حوْلَ نار المُرَاجَعَةِ والمُذاكَرَة، تدْفئةً، أو اسْتضاءة، وفي هذا السياقِ نتذكَّرُ رائعة أبْرزِ شُعَرائنا المُعاصِرين: الشاعر أحمد ولد عبد القادر (بتصرف):

اقــــرأ كتابـــــك.. فالحيـــــاةُ.. سرابُ	مـــالم يقـــدْها.. في الـــدروب.. كِتـــابُ
يـــا حبَّـــذا الـــوطنُ.. العزيـــز.. وحَبَّـــذا	قمَـــرُ المَعَـــارفِ.. مـــا علَيْـــه حِجَـــابُ
ولحَبَّـــــذا تلـــــك الينـــــابيعُ.. التـــــي	غمَــــرَ العَــــوالمَ فيْضُــــها التسْــــكابُ
ســـلني.. عـــن الصـــحْراء.. إنَّ بحارَهـــا	للناظرين..طلاســـــــمٌ.. وعُجـــــــابُ

مــا الشــعْرُ.. إنْ لمْ ينـبجسْ.. مــن قلْبهــا ... شــلاَّلُه.. المُتَــدَفِقُ.. الغَــلاَّبُ

آهٍ.. عــلى عهْــد "المَحــاظِرِ".. والهــوَى ... غــضُّ الأزاهــر.. والزمــانُ شــبابُ

في فتْيــةٍ.. هجَــرُوا المَرابــعَ.. وانتضَــوْا ... ألْــوَاحَهمْ.. وبَــرَى النفُــوسَ طِــلابُ

السامرون.. على الدروس.. وقد سَجَى الــ ... ليْــلُ.. الوَديــعُ.. وأسْــدلَ الهُــدَّابُ

وإذا دنــا الإصْــباحُ.. وانْعَتَــقَ الشــذا ... يتنــاهضُ الأحبــابُ.. والأحْــبابُ

وتِــلاوةُ القُــرآنِ.. تصْعَــدُ.. للسمــا ... وجَلالُهــا.. بِجَمَـالِهــا.. مُنْسَــابُ

فكــأنَّما الألــواحُ ظمْــأى.. للضُّحَــى ... وكأنَّـمــا أقْلامُـهــا الأنـخــابُ

وتُـثــارُ ألْــفُ قـصيــدةٍ.. وحِكايــةٍ ... "للأصْـمَعِيِّ".. ومـا انْتقـى الأعْـرابُ

كــمْ زارَنــا "غيْــلانُ مَيَّــةَ".. مُـنْــشِدا ... ورِكــابُه.. بــيْنَ العِتــاقِ.. عِــَابُ

و"الشــاطِبيُّ".. مُحَــاوِرٌ.. مــنْ حَوْلــه ... يَتَشاكــسُ "الضِّــلِّيلُ".. و"الحَطَّــابُ"

يــا دارَ "عَــزَّةَ".. هــل نَسِـيتِ ظَعَائـنــا ... يلْهُــو بهــا "التصْريــفُ".. و"الإعْــراب"

شِنْقِيــطُ.. أمَّ العَـاشقيــنَ.. لأرضهــمْ ... لا شَــلَّ عَزْمَــكِ.. بالطريــق.. ضَــبابُ

بــالعِلْمِ.. عَــزَّ الدارســونَ.. ومــا دَرَوْا ... طعْــمَ المَذَلَّــةِ.. والعَزيــزُ يُــهابُ

عاصمة الثقافة.. وانتحال الصفة

هذا تقليد غربي استوردناه، ضمن كل ما نستورده من وراء البحار، وقد منحناها صفتي العربية، والإسلامية، تكيفا مع دائرتيها الإقليميتين، ورغم إيماننا بأن عالمنا العربي الإسلامي، ليس أرضا بورا، لا تنبت رؤى إبداعية، وعقليتنا ليست عقيمة، لا تنتج أفكارا ثقافية بناءة، فإننا لسنا ضد التقليد الإيجابي، والاستيراد الواعي، إذ ليس ذلك سلبيا دائما، ولكن السلبي الحقيقي هو أن نقوم بقياس مع وجود الفارق، فصفة العاصمة الثقافية توزع هنا وهناك، بمنهجية المحاصصة الإقليمية، والسياسية، دون تَبَصُّر في حيثيات الاستحقاق الفعلي، والجدارة الواقعية، حيث لا يكفي -في هذا السياق- اعتبار الدور الحضاري، والماضي الثقافي التاريخي، لهذه المدينة أو تلك، لتمنح صفة عاصمة الثقافة العربية أو الإسلامية، بل لا بد من الفعالية الثقافية الحالية الشاهدة، بديناميكية مستمرة متجددة، تربط الماضي بالحاضر، ولا ترتهن لآنية المناسبة العابرة، التي لا ينظر إليها الفاعلون غير الصادقين، ولا المخلصين، إلا باعتبارها فرجة مشهدية، يهتمون ببهرجتها، ما دامت الأنظار والأضواء مسلطة على المسرح المغشوش، وعندما تنتهي اللعبة سريعا، تنطفي فقاعة الوهم، فإذا القبة- في الواقع- مجرد حبة، ثم تنام المدينة المتشحة بوسام "عاصمة الثقافة" المزوَّر، في غياهب الخمول المعهود، والنسيان المكرس، ريثما تنزع ورقة التوت" الثقافية"، عنها في نهاية السنة، لتتعرى كليا، وتلبسها مدينة أخرى، عاما آخر، وقائمة الانتظار معروفة مسبقا، سنة كذا، عاصمة الثقافة كذا، وهكذا دواليك... ومادامت كل واحدة من مدننا الكسولة هذه، تعرف متى ستنتحل صفة" العاصمة الثقافية"، فلماذا لا تبدأ الاستعداد للحفل المنتظر بتحضير منجز ثقافي نوعي وكيفي يناسب المقام، حتى لا تؤخذ على حال غرة، و"يتمخض الجمل، فيلد فأرا"؟!

إن نقطة ضعفنا تكمن في غياب التخطيط الثقافي الجدي لدى حكومتنا، لكن مهما يكن، تبقى الحركة الثقافية المناسباتية الآنية، أفضل - طبعا- من الموت السريري الدائم.

بنك العقول

عندما يُذكر البنك يتبادر إلى ذهن السامع -لأول وهلة- محل إيداع الأموال، وإدارة الأرصدة والسندات... ونحن بحمد الله جُل إقبالنا منصب على ذلك المنحى.

وإذا انتقلنا إلى المجاز قليلا قد يخطر ببال السامع "بنك الدم"، حيث تجمع -بشتى الطرق- أكياسه وصفائحه في المستشفيات، لإمداد المرضى والمصابين بها عند الحاجة، ونحن أحوج ما نكون اليوم لمثل هذا البنك لكثرة ما نزف من دمائنا في هذه العشر الأوائل من القرن الحالي، كما قد يخطر بذهن السامع أيضا -في هذا السياق- "بنك المعلومات" الذي يعني خزان القواعد البيانية، في شتى حقول المعارف والخبرات، والذي مازال لم يأخذ موقعه المكين في التداول الاصطلاحي، ضمن جهازنا المفاهيمي، لتدني اهتمامنا بتخزين المعارف، والاستثمار فيها.

وعلى ضوء هذا وجدتني-وأنا في دوامة العصف الفكري الذي يغرق فيه المتتبع للمؤتمرات والندوات المتلاحقة في الدوحة عاصمة قطر، حيث تزدحم العقول، وتتبرج المعارف والخبرات- أفكر في إمكانية إنشاء مشروع "بنك دولي للعقول الإسلامية"، وخصوصا أن هذه الفكرة تولدت لدي وأنا أتابع وقائع مؤتمر "محاكاة منظمة المؤتمر الإسلامي"، الذي نظمته كلية الشريعة بجامعة قطر، فأبدع طلابها في تمثيل أدوار جل الدول المنضوية في عضويتها، بدرجة جعلتني أستشعر أن الصورة هنا ربما تكون أفضل من الأصل وعيا وطرحا وتحليلا، فهجس في خلدي أن هذه الدول -بغنى تركيبتها السكانية والجغرافية والحضارية، وبثرائها الاقتصادي والمعرفي- قادرة على أن تخرج من واقع التخلف المناقض تماما لإمكانياتها وموقعها وخلفياتها، ووجدت أن التركيز في هذا السياق على اقتصاد المعرفة أولى، لأن إهماله والتركيز-بالمقابل- على السياسة الجوفاء، والاقتصاد المالي، المُتَحَكَّم في خيوط لعبتهما من طرف القوى الخارجية المهيمنة، هو أكبر سبب لتردي الأوضاع المستشري في عالمنا منذ عقود وعقود...لأن هذه القوى الخارجية الموصوفة بالعظمة والهيمنة لا تملك -مع تقدمها- ما نملك -مع تأخرنا- من موارد بشرية واقتصادية، ولكنها أدركت أن طريق

تقدمها، وضمان تطورها وقوتها، هو أن تترك هذا العالم الإسلامي يسبح في سياساته الديكتاتورية العرجاء، ونُظُمِهِ الاقتصادية المتهالكة العمياء، وذلك -يا للمفارقة!- عبر استغلال ثرواته الاقتصادية المُتَنَاهَبَةِ، وتسيير دورتها بعقوله العلمية المهدورة والمهجورة داخل أوطانها، والمعتبرة المستثمرة خارجها، من لدن حتى أعدائها -ويا أ سفاه- في بعض الأحيان.

ومادامت منظمة المؤتمر الإسلامي أرخبيلا من الدول التي يعتبر دينها أكبر جامع لشتاتها، رغم احتوائها لكيانات متعددة في نواظمها الداخلية، مثل جامعة الدول العربية، بما فيها اتحاد دول الخليج العربي، واتحاد المغرب العربي، وكذلك بعض الكتل الآسيوية بما فيها نمورها، إضافة إلى غالبية دول الاتحاد الإفريقي، فإن اهتمام هذه المنظمة بفتح بنك للعقول الإسلامية المتناثرة عبر العالم، يفوق في أهميته -حسب نظري- تجربة البنك الإسلامي، والبنك العربي...، حيث إن رأس المال المعرفي أهم من رأس المال الاقتصادي، باعتبار الأول فاعلا، والثاني مفعولا به، رغم ما يكتنف تفاعلهما من جَدَلٍ خلاَّق، قد يؤدي بعلاقة الفاعلية والمفعولية بينهما إلى حالة الدور والتسلسل، لاسيما إذا توفرت لهما السياسة الذكية المدركة لسر التباس تأثير بعضهما ببعض، كما هو حال العقول اليهودية عبر العالم، التي تستثمر المال في العلم والإعلام، وتستثمر العلم والإعلام في المال، متحكمة بهذه الجدلية العتيدة في مفاصل صنع القرار الدولي، وفي توجيه بوصلة الرأي العام، حيثما اتجهت مصالحها الخاصة.

إن فكرة هذا البنك -كما أراها- هي عبارة عن خلق جهاز ضمن منظمة المؤتمر الإسلامي، مهمته رصد العقول العلمية في كل دولة من أعضائها، وجمع سيرهم الذاتية في قاعدة بيانية، باعتبارها أرصدة رمزية بالغة الأهمية في بناء الأمم وتقدم عجلة تنميتها وحضارتها، وذلك عن طريق وضع هذه العقول رهن سداد حاجات السوق الداخلي لدول المنظمة أولا، ثم تصدير فائضها -دون تسليع ممجوج، أو نخاسة مرفوضة- عبر تصريف رساميلها، بشكل منظم ومؤسسي، إلى الخارج، حسب الطلب، وبشروط مقننة وممتازة، حتى لا تظل العقول الإسلامية مُتَنَاهَبَةً بين الدول الأجنبية، تمتص رحيقها، وتستهلك طاقاتها الجبارة، بأقل الأثمان، وحتى ضد مصالح بلدانها أحيانا، مستغلة حالة الضياع والتشرد والإهمال، وحتى المطاردة -في بعض الحالات- لهذه العقول من طرف أمهات أوطانها، ويا لها من أمهات.!

ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه العقول لن ينفعها أن تظل سيرها الذاتية وخبراتها المعرفية والمهنية أرصدة مجمدة، تنتظر من يطلبها في سوق كاسدة، بل لابد من تضحية منظمة المؤتمر الإسلامي بتسويق هذه الأرصدة الرمزية، وبتوفير وضعية يحصل عليها السكوت، لكل عقل مخزن لديها، ما لم تتوفر له الجهة الراغبة فيه داخليا أو خارجيا، ولأن هذا الشرط قد يكون القشة التي تقصم ظهر مشروعنا المقترح وهو في مهده، كان لا بد أن أفكر في حل معقول، يكمن في ضرورة نظر منظمة المؤتمر الإسلامي إلى هذه العقول باعتبارها مشاريع استثمار، وكما أن مكاتب استيراد وتأجير اليد العاملة، من المفروض أن تتكفل بمن تستورد، سواء وجدت له مستخدما أم لا، في انتظار الربح الذي ستجنيه من يديه فور تشغيله، فإن المنظمة ينبغي أن تنظر إلى هذا المشروع من هذه الزاوية على الأقل، فتقتطع من ميزانيتها جزءً للاستثمار في هذا المجال، على أن تسترده -بعد التشغيل- من رواتب علمائها المضمونة خارجيا، إنْ لم تتوفر داخليا، فأمريكا وأوربا-مثلا- لا تنظران إلى العقول العلمية التي يزخر بها العالم الإسلامي بالمنظار الذي تراهم به أوطانهم دولا ومنظمات، وإنما تعتبران أن هذه العقول العلمية روافع جاهزة وضرورية لتنمية القارتين المتقدمتين والمتفوقتين بواسطة مثل هذه الأطر، حيث يرون أن نمو مجتمعاتهم المتناقص ديمغرافيا، لا يساير توسع حاجاتهم التنموية المتزايدة باضطراد، ثم يحسبون -أيضا-: كم كان سيكلفهم إعداد كفاءات وطنية أمريكية أو أوربية بمستوى هذه العقول الإسلامية، وبمجرد عملية جمع وطرح غير معقدة، يتجلى لهم -بما لا يدع مجالا للشك- أنهم الرابحون، مهما قدموا لهذه الكفاءات المستوردة، حيث لن يكون إلا مجرد فُتات، بالمقارنة مع ما يتطلبه تكوين مثيلاتها داخل أمريكا وأوربا، وهكذا ظلت عقول الدول الإسلامية مُضَيَّعَةً بين مطرقة أوطانهم الأزلية، وبين سندان مواطن هجرتهم الاضطرارية، فبلاد الهجرة عموما -والغربية منها خصوصا- تحتاجهم، ولكنها تريدهم بأقل من نظرائهم المحليين، وفق معايير انتقائية، تُحْكِمُ إغلاق حدودها، إلا في وجوه المهاجرين النوعيين، من ذوي العقول الكبيرة، أو الجيوب المنتفخة، أو الأرجل اللاعبة، حتى إن بعض واضعي شبكات الكلمات المتقاطعة، يعبرون عن كندا -مثلا- بالبلد الذي يصطاد الأدمغة، وهي ليست بدعا في هذه الهواية الاحترافية، فهذا شأن القارة الأمريكية كلها، القائمة على أكتاف المهاجرين منذ اكتشافها، وهي تسمى: "إمبراطورية العقول المستوردة"، وقد ظل للعقول الإسلامية موقع بارز في تنميتها وتقدمها، حتى بعد الحادي عشر من سبتمبر، ويكفي هنا أن

نذكر العبقري: فاروق الباز في وكالة نازا، الذي هو صنيعة علمية مصرية خالصة، نشأ على يد أساتذة مصريين، ظل يعترف بأنهم -وحتى بعض زملائه- كانوا أعلم منه، ولكنه عاش -وإياهم- في وطنهم معيشة ضنكا، حتى أقتنصته "نازا"، وانتشلته من الضياع، وكذلك العبقري: أحمد زويل، الذي هو الآن مستشار علمي للرئيس الأمريكي: أوباما، وليس مستشارا- ويا للمفارقة- لأي حاكم عربي، ولا حتى مسلم !، والأدهى أن كلا من الرجلين قدم مشروعا علميا -في اختصاصه- كفيلا بالمساهمة الفعالة في النهوض ببلده، ولكن الرئاسة وبطانتها التي تزين لها -دائما- سوء أعمالها، كانت تنظر إلى المشروعين -كل في وقته- بعين الريبة والتوجس، وتعتبره تهديدا لشعبية الحاكم، مقابل شعبية العالم، فترمي به في سلة المهملات رغم أن العالمين، لم يفكرا في هذه المآلات السياسية الضيقة.

أما في فرنسا فنجد أن ساركوزي -خلال حكمه- كان قد أثار ضجة بإعلان عدائه للمهاجرين غير النوعيين، وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا...ظلت تدافع النزعات الشوفينية للأحزاب اليمينية فيها ضد المهاجرين المسلمين والأفارقة خصوصا، بأن تنمية هذه البلدان الأوربية لا يمكن أن تعتمد على صفوة أبنائها الآيلة للانقراض، بل لا غنى لها عن هذه العقول المهاجرة، مهما كانت درجة العداء للإسلام والمسلمين.

هذا في الوقت الذي وجَدتْ فيه هذه العقول الإسلامية نفسها داخل بلدانها، مُكَوَّنَةً -هكذا- بدون سابق تخطيط حصيف، وحين أصبحت جاهزة لرد الجميل لهذه الأوطان أدركتْ -ويا للمفاجأة!- أن حكومات دولها تبدو كما لو كانت درَّسَتْها داخليا، وابتعثتها خارجيا خطأ، أو بمحض صدفة عمياء، في غفلة من الزمن والرشد والحكمة، وعندما رأتهم طوابير ينتظرون العمل المشروع المناسب لكفاءاتهم- بينما مواقعهم مشغولة بأنصاف الجهال، وذيول الأنظمة المستبدة هنا وهناك- أصبحت هذه الحكومات -المعادية للمعرفة دائما- تراهم مصدر قلق، يجب قمعه، وتجويعه، وتهميشه، وتحقير المعرفة والخبرة اللتين يزهون بهما، وتمريغهما تحت أقدام الجهال المُمَكَّن لهم في الأرض، حتى يموت هؤلاء العلماء غما،أو يودَعوا غياهب السجون بشبهة المعارضة، أو ينفوا من الأرض، لتنهض بعقولهم المحتقرة في مساقط رؤوسهم، بلاد الغرب والشرق المتقدمة، في حين تستورد هذه الدولُ الإسلامية -الطاردة لعقولها الفعّالة- كفاءاتٍ أجنبية بامتيازات مضاعفة لما يتمتعون به في بلدانهم الغربية، مع أن نظراءهم من بلاد الإسلام متوفرون بكفاءات عالية، ربما داخل الدولة ذاتها،

فإلى متى نظل نعتقد أن "زامر الحي لا يطرب"، وأن" العود في أرضه نوع من الخشب"؟ غير مفكرين -بالمقابل- في مقولة: "وظلم ذوي القربى أشد مضاضة".

أعتقد أننا الآن مطالبون بمراجعة مسلماتنا حول أنفسنا، فإن "في الإمكان أبدع مما كان"، وليس التخلف قدرا مكتوبا -أزلا- في سجل المسلمين، كما يراد لنا أن نعتقد، بل نحن نملك من مقومات التقدم والتفوق الحضاري ما لا يتوفر لغيرنا، ممن هم -الآن- أكثر تقدما منا، ولكننا نحتاج مجرد "إرادة الحياة"، وحسن إدارتها، تصميما على تغيير ما بأنفسنا.

ولا شك أن مناخ الثورات الذي يجتاح اليوم عالمنا يمثل لحظة مواتية للمثقفين والساسة من أجل إنتاج الأفكار، بدل الاكتفاء باجترار ما أنتجه الآخرون، بطريقة ببغاوية، لاسيما إذا كانت تلك الأفكار المجترة سلبية في حقنا.

ولعل فكرة تأسيس هذا البنك العلمي تكون فاتحة شلال من الأفكار البناءة القابلة للانجاز، إذا وجدت من يملك "زمام المبادرة"، ومقود القيادة والريادة، وخصوصا إن الإحساس بالحاجة الملحة إلى الموارد البشرية أصبح يفرض نفسه ربما أكثر من أي وقت مضى، وآخر مثال على ذلك"منتدى الدوحة، ومؤتمر المستقبل الاقتصادي للشرق الأوسط"، في الشهر الماضي، حيث صرح رئيس وزراء قطر بأن" الاقتصاد العالمي مقبل على أزمة جديدة بسبب تراجع معدلات النمو في أوربا وأمريكا"، وأكد وزير خارجية تونس رفيق عبد السلام: "أن الموارد البشرية عامل رئيسي في تحقيق التنمية المستدامة، وعليه فإن مراجعة الخيارات التنموية ضرورية"، بينما أعتبر جورج ميتشل:"أن الشرق الأوسط -وحده- بحاجة لخلق أربعة ملايين فرصة عمل سنويا"، كما خلصت جلسة الأزمة المالية في هذا المؤتمر إلى "أن البطالة ساهمت في صنع الثورات العربية"، وأنا أضيف إلى ذلك أن هذه الأزمة ذاتها ساهمت - أيضا- في تصدير هذه الثورات حتى إلى أمريكا وأوربا، فهل يُساوِرُنا -بعد هذا- شك في جدوائية إنشاء مثل ذلك البنك الدولي للعقول الإسلامية؟

وعلى كل حال هناك إحصائيات هائلة حول وفرة عدد هذه الأدمغة العلمية الإسلامية، وأخرى صادمة حول نزيف هجرة عقولنا المبدعة من عالمنا الزاهد فيها، الطارد لها، إلى العالم الغربي، الجاذب المستقطب لها، وهناك ثالثة أعنف صدمة حول تدني نسبة الإنفاق العلمي في بلداننا، مقارنة مع إسرائيل على سبيل المثال.

وانطلاقا من كل ما تقدم أعتبر أن منظمة المؤتمر الإسلامي ربما لن تنجز مشروعا أكثر نفعا على أعضائها -حاضرا ومستقبلا- من إعادة هيكلة عقولها العلمية، والاستثمار فيها وبها، داخليا، وخارجيا، وهنا لا يفوتني أن أسحل لمؤسسة قطر سبقها في محاولة استقطاب هذه العقول الكبيرة، للعمل ضمن مشروع المدينة التعليمية، وبما أن سقف طموح هذا الاقتراح يرقى إلى مستوى تطبيقه في الإطار العام لهذه المنظمة، فإن ذالك لا يمنع من تطبيقه جزئيا، وبصفة تدريجية، إذا تعذر تعميمه، لأن "ما لا يدرك كله، لا يترك جله"، وحينئذ يمكن أن ننشئ بنكا للعقول العربية، في إطار"جامعة الدول العربية"، أو مؤسسة العمل العربي، فإنْ لم يمكن، فلتحاول ذلك دول "اتحاد الخليج العربي"، أو دول "اتحاد المغرب العربي"، أو لتتبناه الدول الإسلامية الآسيوية، أو الدول الإسلامية الإفريقية... ففي كل دائرة من هذه الدوائر أرصدة هائلة من العقول العلمية الكافية -إنْ أُحْسِنَ استثمارها- لنهضةٍ تنموية جبارة، إلا أن من المؤسف جدا أن الفضاء الإقليمي أو القُطْري قد لا يكون مدركا لحدود طاقاته العلمية، لعدم وجود قوائم أو قواعد بيانية لباحثيه،وغياب خرائط توضح توزع عقوله عبر العالم، فنحن- مثلا- في موريتانيا المشتهرة بالتفوق في اللغة العربية وعلومها-حتى عرفت في المشرق والمغرب بـ"بلاد المليون شاعر"- حاول مرة عبقري الرياضيات فينا البروفسور المرحوم يحي بن حامد، المصنف أولا في اختصاصه الدقيق، على مستوى العالم العربي، وثانيا أو ثالثا على المستوى الدولي، أن يُنَظِّمَ في بلده مؤتمرا للباحثين الدوليين الموريتانيين في العلوم البحتة، فلبَّى دعوتَه عشراتُ الباحثين، في أعرق الجامعات الدولية بأمريكا وأوربا وغيرهما، ممن لا علم لدولتهم بوجودهم أصلا، هذا مع ضرورة ملاحظة أن هناك الكثير من عقولنا العلمية التي يعرفها الأستاذ ولم تصلها دعوته، أو وصلتها دعوته وتعذر عليها الحضور، فضلا عمن جهلهم المرحوم يحيى بن حامد من عباقرة موريتانيين، منتشرين في أرض الله الواسعة،لا يأبه لهم وطنهم، ولا هم يأبهون له، لتفريطه في رعايتهم، وزهده في استقطابهم، مع شدة حاجته إليهم، رغم أن جلهم مستعد لخدمة وطنه بأقل ما يحصل عليه السكوت من امتيازات، وقد عبر عن ذلك من حضروا المؤتمر العلمي السابق ذكره، حيث أعلنوا عرضهم الجميل للرئيس الموريتاني الأسبق معاوية ولد الطايع المخلوع منذ سنة 2005، حيث كان مؤتمرهم في أخريات أيام حكمه، ولم يتجاوب مع ذلك العرض المغري،وترك صوت ضميرهم الوطني يضيع صرخة في واد.

وإذا كان هذا مجرد مثال، من ذلك البلد المُنْتَبِذِ مَكانا قصيا، حلقة وصل، بين الوطن العربي، وبين القارة السمراء، فما بالك بالدول الأقدم تأسسا، والأعرق تمدرسا، والأكثر عددا وعدة!؟

مهما يكن، فأنا أدرك أن سوق العقول-في هذا الزمن الرديء- أصبحت بائرة، لدرجة أن السجال تحول من الجدل بين"العقل والنقل" قديما، بدون ترجيح نهائي، إلى سجال جديد بين"العقل والرِّجْل"، حُسم فيه النزاع بتفضيل الأقدام على الأفهام، ورجحان "الجسم على العلم"، حتى أضحت ركلات اللاعبين، وتراقص الفنانات -بضع دقائق- فوق المسارح، تكافأ بالملايين، وتُجْنَى منها المليارات، في وقت يموت فيه العلماء والأدباء جوعا، ولا يَتَلَقَّوْنَ - مقابل عصارة أفكارهم، ورحيق آدابهم وأشعارهم- إلا"دراهم معدودة"، إنْ وجدتْ أصلا، لأن الجميع في إبداعهم من الزاهدين.

مهما يكن، فإن العقول -في عالمنا الإسلامي- لن يُحْتاج إليها أكثر من فترة كهذه، يسودها السفه والنزق والجنون، ويقود الجهل سفينتها الجانحة، في بحر لُجِّي من الأحداث المتلاطمة.

وفي الختام، يبقى مشروع البنك الدولي للعقول الإسلامية، مقترحا بناء لمن "ألقى السمع وهو شهيد"، إلا أنني أخاف أن ينتحله بعض المستثمرين "الشاطرين"-ضمن فضاء منظمة المؤتمر الإسلامي- فيعبئوا هيكله المقترح بغير العقول، مؤسسين: "البنك الدولي لأرجل اللاعبين الإسلاميين"، أو "البنك الدولي لخصور الراقصات الإسلاميات"...لأنهم يعتقدون -خطأ- أن الاستثمار هنا أربح منه هناك، ولكنني أتوعد من تسول له نفسه ذلك بمقاضاته دوليا، لاعتدائه على الملكية الفكرية، فمن الظلم الفادح أن تسرق الأثرياء الأفكار ممن لا يملك غيرها.

مشروع: "روح المتاحف":
الفكرة والتجسيد

المتحفُ خزَّان تاريخ الأمم، ومُسْتودَعُ حضارتها، ومعرض تراثها، وقد جرت العادة أن يوفِّر للمشاهدين فُرْجَةً عابرة، على مَكْنوزاته، وهذه في الحقيقة هي وظيفته التقليدية،غير أن هذه الوظيفة ينبغي أن تتطور بتطور ذهنية المشاهد، وتطور نَبْضِ العَصْر، وتقنيات العَرْض، وآليات التلقي، وهذا ما يَسْتدعِي تجاوزَ فُرْجَةِ البَصَر، إلى عِبْرَة البَصيرة، وتَخَطِّي عالم الشهادة إلى عالم الغَيْب، عبْرَ الانتقال من هياكل المعروضات وأشكالها الشاخصة، وقراءة الأرقام المُحِيلَةِ على تواريخها المثبتة، إلى محاولة التقاط أرواحها المبثوثة في الفضاء، لنؤثث الذاكرة التاريخية، باستحضار الأحاسيس والانفعالات المُفْتَرَض تخزينُ تلك المعروضات لأنباضها، التي لا يشعر بها إلا ذوو الأرواح المرهفة من الشعراء والفنانين، الذين تخترق عيونهم كثافة الكتلة إلى معناها المُنْدَسِّ وراءها. وهكذا سيصبح للمتاحف -بمراعاة هذا المنحى- رُوَّادٌ جُدُدٌ، يستحضرون خلفياتها، عبر معروضاتها، ويقرؤون ما بين السطور، أكثر من السطور ذاتها، فتدب الحياة وتضجُّ مِلْءَ جمود المعرض، وينكسرُ جدارُ الحِياد بين الزوَّار والمَعْروضات، وينسجم الحي بالجماد في حِوار حَميم، وتَفاعُلٍ خَلاَّق.

التجسيد

انطلاقا من أن لكل معروضات المتاحف أشكالا وأرواحا، فإني - بروح الشاعر/ الفنان التي تسكنني، عندما تجولتُ في «متحف قطر الإسلامي»، تحفة الهندسة المعمارية، ومَكْنَزِ التراث الحافل، كنتُ أجْري حوارا صامتا -ملء خشوعي- مع هاتيك المعروضات، مثل:

خوذة الفارس: التي لم تكن تهمني مادة معدنها، ولا بدائع صنعتها، بقدر ما كنتُ أسائلها عن من تَحَرَّزُوا بها من الموت، وكم تناوبَ عليها القاتلُ والمقتولُ، وكيف -في النهاية- تلاشت كل الدفاعات، أمام جَبَرُوتِ القدَر المَكتوب، ونفادِ الأجَل المَوقوتِ، فذهبَ المُتَمَنِّعُ، وبقي المانعُ، شاهدًا على فَشَلِه أمام حَتْمِية الموت، رغم منعة صلابة الحِرْز الموهومة، فقلت:

تَقَنَّـــعَ الفـــارسُ الصِّـــنْديدُ بـــالخُوذَهْ	وعـــاذ كُـــلَّ جَبـــانِ الــرُّوح بـــالعُوذَهْ
لكــــنَّ لِلأجَــــلِ المَحْتُــــوم مِوْعِــــدَهُ	إذا أتَــــى خَــــرَّت الأحْــــرازُ مَنْفُــــوذَهْ
كُـــلُّ الـــتَّمائم.. والخُـــوذاتُ.. وَاهِيَـــةٌ	فليْسَــت الــرُّوحُ -يــا صــاحي- بِمَنْقُــوذَهْ
يــا خُــوذَةً.. كَــمْ شَــهِدْتِ الــدَّهْرَ مَلْحَمَــةً	لــوْلا المَتاحِفُ..كُنْــتِ-الآنَ- مَنْبُــوذَهْ

القرط: أمام القرط، كنت لا أهتم بكَرَم حَجَرِه ولا بخَساسَتِه، بقدْر ما اسْتحضِرُ آذانَ العرائس التي تَداوَلَتْهُ، وأتَنَصَّتُ للأحاديث التي مَرَّتْ به عابرةً باتجاه أسْماعِهِنَّ، واسْتعيدُ الأحاسيسَ والانفعالاتِ الإنسانيةَ، التي دارتْ حوْلَهُ وكانَ عليها من الشاهدينَ، فأقول:

يــا أيهــا القــرْطُ.. كَــمْ أُذْنٍ..عَلقْــتَ بِهــا	للفاتِنـــــاتِ.. رَبيبــــاتِ المَقاصِـــــيرِ
وكـــمْ تَرَاقَصْـــتَ.. للألحـــانِ.. مُطْرِبَـــةً	مَســـامِعَ الحُـــورِ.. «رِفْقًـــا بـــالقوارِيرِ»
وكَـــمْ تَســـمَّعْتَ نَجْـــوَى عاشـــقٍ..غَزِلٍ	بالشِّـــعْرِ والنثْـــرِ.. مَجْنُـــون الأســـاطِيرِ
وكـــمْ تَنَفَّسْـــتَ عِطْـــرَ الجيـــدِ.. مُلْتَحِفًـــا	حَريــــرَ شَــــعْرٍ.. كأنْفـــاسِ الأزاهــــيرِ
وكـــم تَغَشَّـــاكَ لَفْـــحُ الـــرُّوح.. لاهِثَـــةً	مِـــلْءَ العِنـــاقِ.. بأشْـــواقِ الأعاصِـــيرِ
لـــوْ لمْ تكـــنْ حَجَرًا..حُـــرًّا.. لَـــذُبْتَ..ولَمْ	تصْــــمدْ بوَجْـــه تَصـــاريفِ المَقـــادِيرِ

وهكذا سوف نستمر في هذه الوقفات التأملية، المُسْتَكْنِهَةِ لروح معروضات المتاحف، مركزين على الزُّمَر الكُلِّية، أكثر من الوحدات الجزئية، حيث نكتفي -مثلا- بالقرط في عمومه، عن إفْرادِ كلِّ نوْع مَعروضٍ مِنهُ بوَقفة خاصة.

أسلوب تنفيذ المشروع

أقترح -مبدئيا- أن تتآزر على تنفيذ هذا المشروع مجموعة من الفنون، حتى تكون هناك عدة متاحف داخل المتحف الكبير، حيث يمكن أن تُكتبَ اللقطاتُ الشِّعْريةُ الموازيةُ للمعروضات، بخطوط بديعة، وإذا أمكن -فنيا- تُسَجَّلُ مَقروءَةً بإلقاءٍ شعري جميلٍ ومُعَبِّرٍ، مع ما يمكن أنْ يُرافِقَ ذلك من مُؤَثِّراتٍ صوتيةٍ وضوئيةٍ، تدعمُ إبْرازَ رُوح المَتْحف في أبْهَى تَجلياتها.

معرض المشروع

إذا كان للدول متاحفها التي تتباهى بمخزوناتها ومعروضاتها، وتحرصُ كلَّ الحِرص على حمايتها وصيانتها من أيْدي المُتَلصِّصِين والعابثين بها، فإنَّ للأفراد أفكارَهمْ التي تَتَنَزَّلُ

عليهم -مخصوصين بها- من مَلَكُوتِ الإلهام، فيستشعرون الغِنَى الرُّوحي بحيازة ملكيتها الفكرية، وربما اعتراهم الزَّهْوُ -بعْضَ الوقت- بابتكارها، ولكنها سرعان ما تذبل وتتلاشى بين أيديهم، عندما لا تجد من يَتَبَنَّاها، ويحرص على تحويلها من مشروع خيالي افتراضي، إلى مشروع حقيقي، مُجَسَّدٍ على صعيد الواقع.

ولعلَّ هذا المصيرَ أهْوَنُ مما لوْ سَطَتْ عليها يدُ قرْصان، يَجِدُ الدعمَ المادي والتمكينَ الرسمي لتنفيذها، دون أدنى مراعاةٍ لحقوق الملكية الفكرية المعتبرة عالميا، وفي ظل غياب أي وازعٍ أخلاقي، ينبعثُ من داخل ضميره المُحَنَّطِ من زمان، ولا أي رادعٍ قانوني تفْرضُه عليه العدالَةُ الخارجية، غير المُفَعَّلَةِ في أغْلب دُولِ عالمنا الثالث.

وعلى الرغم من كل ذلك فإنَّ مشروعي قابل للتنفيذ الفني الذهني، في غياب أي دعْم مادي، أوْ تمكين رسْمي، لأنه لا يتطلبُ مني-بعْد أنْ تبلوَرَتْ لدَي ملامحُ فِكْرته- إلاَّ اسْتحْضار القطعة المعروضة -ولو في متحف خيالي- ثم استجماع التداعيات المتوالدة من تأملها شعريا، على نحو ما يُجسده المثالان الآنفان عن «الخوذة» و«القرط».

ومع الاستمرار في هذا المشروع، سوف أجدني-إذا أرْجعْتُ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ- أمْلكُ دِيوانًا شِعْريا، قد لا تكفيه بقية عمري، يَتَقَمَّصُ عنوان «روح المتاحف»، ويُمَثِّلُ روحَ مشروعٍ فني جميل، غير مسبوق، لكنه سيظل غير مُكْتَمِلٍ، ما لمْ يُعانقْ مَعروضات المتاحف المادية التي تُعْتَبَرُ جَسَدَهُ الحقيقي، لاسيما أنه صالحٌ للتطبيق على أيِّ مَتحفٍ يَتَبَنَّاهُ، لأنَّ مواضيعَه -غالبا- هي المَعْروضاتُ المُشْتَرَكَةُ بين كل المتاحف العالمية، مع أنني أعتبرُ أنَّ دوْلة قطر أوْلى بهذا المشروع، لأنه وُلِدَ فوْقَ أرْضِها، وانْقَدَحَتْ شَرارةُ فِكْرته الأوُلى من وحْي مَتْحَفِها الإسلامي الرائع.

وبما أنني أعرف أن الجندي الأميركي المتقاعد، صاحب الملكية الفكرية لطبخة «دجاج كنتاكي»الذائع الصيت في العالم، لم يحصل على مطعم يعتمدها قانونيا إلا بعد إرساله للطلب الألف، فإنني أعرض مشروع: «روح المتاحف» لمن يقتنع بجدوائيته، وأعتقد أنَّ الرابحَ من سيسبق إلى تَبَنِّيهِ، فهو في الحقيقة وجبة فنية روحية فريدة، تُناسبُ أذواقَ رُوَّاد المتاحف المُرْهَفِي الشعور، وتضفي على أجواء صالات العرْض عَبَقًا ونُكْهَةً، لَمْ يَسْبق للرُّوَّادِ أنْ وجَدُوا مِثلهما مِنْ قبلُ، و«ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».

عناوين الكتب.. قراءة البصر، والبصيرة

فِي زَمَنِ ثوْرَة الأزْرَار، ورَقْمَنَةِ المعرفة، ما أزال أَسْتشعرُ وحْشةَ الكُتُبِ الوَرَقِيةِ، أمَامَ وسائط المعْرفة الالكترونية.. فأشاركُها إحْساسَها بالضيْم، مُكْبِرًا -في الوَقْتِ نفْسِه- إصْرارَ دُورِ النشْر على مُواصَلة إنْتاجها.. رغْم كلِّ المُعَوِّقات.. فأنا أعْشَقُ الكِتابَ، مَلْمَسًا، ورائحةً، وألوانًا، ولِذاكرتي خبْرةٌ طوبوغرافية في مظَنَّاتِ المَباحِثِ، داخلَ صفَحاته، حتى أنني عندما أنامُ عليْه مُرْهَقًا، وأنَا أعالجُ فيه إشكاليةً مَا، يبْقَى دِمَاغِي، سَهْرانَ، يُواصِلُ مُعَالجَتَها، وحينَما يَسْتخْلِصُ النتيجةَ، اسْتيْقِظُ، وأمُدُّ يَدِي وأدَوِّنُ الفِكْرَةَ، ولو كنْتُ مُغَمَضَ العيْنَيْن، لأصطبح بها منتشيا.

ونظرًا لِخُصوصيةِ طقوسي مع الكُتبِ، فإني لا أرَى عناوينها كما تراها عيونُ كثيرٍ من زُوَّاره، بل تتفاعَلُ في ذهْني، وتَخْرُجُ -من رمْزيتها- إلى عالم التشيُّىء.. فأتصوَّرُها، وهي في عالمها القبْلي، في سَديمِها الهُلامي، تتشكَّلُ في أذْهان مُبْدِعِيها شيْئا فشيْئا، وتتقمَّصُ الأصْواتَ والحروفَ، لتبْنِي -من سَلاسِلها المَنْطقية، ودَوَالِّها البيانية- كيانَها الجديد، عبْر سيْرورة تخلُّقها التي لا تنْتهي بمُجَرَّد اتخاذها شكْلَ كتابٍ.. بل تواصِلُ تمدُّدَها الوُجودي، وحِوارَها الفِكْري، وتفاعُلَها الرُّوحي، مع مَنْ يَقتنُونها، وحتَّى معَ المُتسكِّعينَ هناك، حيث تُعْتبر مُجَرَّدُ قراءة العناوين، والسياحة فيها، هي الأخرى، معْرضا ذِهْنيا مُوازيا، يعيدُ المارُّون العابرون بناءها، في وعْيهم، وحتى في لا وعْيهم، إذ أن "الكتابَ يُقْرَأُ منْ عنْوانه"، كما يقالُ.

وحين تتنقلُ ببَصَرِكَ من عنوان، إلى عنوان، تبدأ بَصِيرتُك.. في ترْكيب تصَوُّرٍ مَعْرِفِيٍّ حوْلَ المَوْضوعات المَعْرُوضَة، حيث تنْطرِحُ عليْكَ مُباشرة تلك الأسئلة والإشكالات التي راودتْ ذهْنَ المؤلف أو المُبْدع، في وقت الإعداد والإنجاز، وتنْطلقُ "مُحَرِّكاتُ البَحْثِ" في ذِهْنية المُتَلَقِّي تسْتحْضِرُ أجْوِبَتَها المُفْتَرَضَةَ.. وتُجَمِّعُ أشْتاتها.. وهكذا تُسابِقُ البَصيرَةُ والبَصَرَ في إعادة تأليف تلك العناوين الكثيرة، ولوفي ثَوَانٍ، حسَبَ سُرْعَةِ الزمن النفْسي، الرُّوحِي، وآلِيَّتِه

المُرَكَّبَة المُعَقَّدَة، غير القابِلَةِ للقياس العادي، ومن هُنَا تتحَوَّلُ منْ مُسْتَطْلِعٍ عادٍ.. لعَناوين رُفوفِ تلك المَعارض...إلى مُعيدٍ لتأليفِ كلِّ معْروضاتها، التي تجُوسُ خِلالها، في دقائق طَوافِك المُتَنَاهَبَة بين ذاتِك المُسْتَعْرِضَةِ من جِهَةٍ، وبيْن العارض، والمَعْرُوض، من جهة أخرى.

ذلك ما أعيشُه شخْصيا، حتى أنني لو اقْتَنَيْتُ كتابا.. وانْخرطْتُ في قراءته.. فإنني لا أدْخلُ إلى سراديب عالَمِه الداخلي، وأنا خالي الذهْن، صفْحَةً بيْضاءَ.. أنتظرُ منه -بشكْلٍ سلبي- أنْ يُقدِّمَ لي كل ما يُريدُ هو، وإنما أتلمَّسُ مفاتيحَه.. مُدَجَّجًا.. بـ "أفقِ انتظارٍ".. مزْرُوعٍ بتصوراتي القبْلية، التي كوَّنْتُها من قراءتي.. الخاطفة.. المُختزلة.. لتداعياتِ العنوان.. باحثا عن نقاط الائتلاف والاختلاف.. بين ما أريدُ.. وما يُريدُ.. من ذلك العنوان.. الذي يُمَثِّلُ عَقْدًا ضِمْنيا.. بين القارئ والكاتب والمَقْرُوءِ.. مُسْتَمْتِعًا بلعْبَةِ إشْبَاعِ التوَقُّع حِينا، وإخْلافِه تارةً أخْرى، حسب آلياتِ التلقِّي الفعَّال.

ومن هُنا غالبًا ما أحْضرُ الجَلساتِ النقاشية للكتب، بهذه الذهْنية، فأصْدَم عندما أراها تشْويشًا.. لمَنْطوقِ العنْوان، وتخْريبًا لمَفْهومه، أكْثرَ منْها تجْذيرًا وتعْميقا لدلالته، لأنني أعتبرُ -جازما- أنَّ أيَّ عنْوانٍ، لا يُناسِبُ متْنَه، هو مِثْل رأس حُطَّ عَلى جَسَدٍ غيْر جَسَده، وعلى ضوْء ذلك، كثيرا ما أعْتمدُ آليةً للقراءة، أسَمِّيها: "جَدَلَ المَتْنِ والعنْوان"، أقيسُ بها مَدَى مِصْداقيةِ العنْوَنَةِ، حسب تجَلِّياتِ بنْيَتِها في نسِيجِ المَتْن.

إنَّني بهذه الرُّؤيَةِ التفاعُلية مع عناوين الكتب، أهربُ منْ بَهارج البَصَر، إلى اسْتِكْناهِ البَصيرةِ، من اسْتعْراضِ الأشباح، إلى اسْتِجْلاء الأرواح، من هيْمَنَةِ التبرُّج المادي للسِّلَعِ التجارية، إلى التمَلِّي بالمُتَعِ الذِّهْنيةِ.. اللامحدودة!

المقصور والممدود:

استبطانا، واستنباطا

حينما أنْوي مُقارَبَة أي موضوع إبداعي، أو أكاديمي، "أطوفُ" حوْله- ربما أكثر من "سبعة أشواط"-سعْيا لاستلام "رُكْنِه الأسْعد"، من زاوية، لم يُسْتَلَمْ -قبْلي- من خلالها، لأنَّ ما سِوى ذلك، يبْقى -في نظري- مُجَرَّدَ ترْجيعٍ لأصداء أصوات سابقة، وتقفيا لخُطى دارجة على هذا الطريق المُعَبَّد، وتحْصيلا لحاصل....

وهكذا، عندما شرَّفَني الشيخ الدكتور أَبَايَ محمد محمود، بقراءة " العَذْبِ المَوْرُودِ" -عمَله هذا- حوْل شرْح الشيخ سيدي المختار الكنتي "فتْح الودود"، لمنظومة "المقْصور والممْدود"، لابن مالك، راغبا في كتابة تقديم له إنْ عنَّ لي ذلك، هنا انخرطْتُ -بعْد قراءته- في عملية البحْث عن المدخل الجديد، للمقاربة الجديدة، حتَّى اهتديْتُ -بعْد استبْطانِ بنْيةِ العنوان- إلى اسْتنباطِ دلالةٍ له مُفارِقَةٍ، جديرةٍ بالتناوُل، لأنَّها تقترحُ تأويلا أعْمَقَ لمفهوميْ "القصْر"، و"المَدِّ"، بعيدا عن حَدِّيةِ المُصْطَلَحَيْنِ اللغوييْن.

فـ "المقصور والممدود" مَبْحَثٌ لغوي عريق، حوَّلَه ابنُ مالك -في منظومته- إلى وسيلةٍ مُزْدَوِجَةٍ، لتعليم المَبْنَى اللغوي، ممزوجا بالمَعْنَى التربوي، إذ لا قيمة للثراء المُعْجَمِي وحْده، ما لمْ يُوَظَّفْ هذا الرصيد في إنتاج المَعْنى، ويَستهْدفُ هذا المَنْحَى -عند ابن مالك- أنْ لا يَنْفَصلَ جَسَدُ لُغَةِ العَرَبِ، عنْ رُوحها الخُلُقي، الذي ربَطها به الدينُ الإسلامي، حينَ اصْطَفاها اللهُ وعاءً لمَضْمُونِ رسالته الكونية الخالدة... علما بأنَّ أبا القاسم القشيري كان سباقا، إلى توظيف اللغة في سياقها الروحي التربوي هذا، حيث كان يعتبر إعْرابَ الأفْعال أوْلى من إعْراب الأقوال.

وقد اتَّبَعَ الشيخُ سيدي المختار الكنتي -هو الآخرُ- ذلك المَنْزَعَ اللغوي، الترْبوي، نفْسَه، فهو يتجاوزُ شرْحَ الألفاظ مُعْجَميا، إلى تفْكيك الحُمُولةِ الترْبوية، الكامِنَةِ خلْفَ البِناء اللغوي المُخْتَزَلِ، مُسْتَطْرِدًا إلى كلِّ ما يُعَزِّزُ هذه الرسالة الوعْظِيةَ الدَّعوِية، من نُصوص

مُوازية، تسْتَوْحيها -ولو من بعيد- بنْيَةُ كلِّ بيْت من مقصور ابن مالك وممدوده، سواء كانت أبياتا شعرية شاهدةً، أو أمثالا عربية خالدة، أو حكايات وروايات ذات فائدة، أو"آيات" و"أحاديث" رافدة، مُرَتِّبًا مُدَرَّجَ الاستدعاء و"التَّنَاصّ" عنْده عبْرَ فُنُونِ "الاستعارة"، و"التلويح"، و"الاستطراد"، و" التلميح"، و"الكناية"، و"الاقتباس"، و"التمثيل".... دامجا -بذلك- فنونَ البلاغة، في إطار المنظومة المعرفية العربية المتكاملة، التي لا يكاد فنٌّ منها يستقلُّ بنفْسه عن الآخر؛ لأنها كلها تتآزَرُ في بنْيةٍ عضْوية وجودية؛ من أجْل النَّصِّ القُرآني الأقدس، الذي تأسَّستْ -أصْلا- لِخِدْمَة جنابه.

ومن المُلاحَظِ هنا أنَّ الرسالةَ التوْجيهية "الترْبوية"، التي يَسْتَبْطِنُها نَصُّ "المَقصور والمْدود" لابن مالك، ليستْ من مَعْدِنِ الوَصايا العُمومية الواضحة، المُوَجَّهة للناس كافة، بلغةٍ وأسلوبٍ يفهمُها الجميع.. بلْ هي رسالةٌ شِبْهُ "مُشَفَّرَةٍ" بمُعْجَمِها اللغوي العَصِيّ، ذِي المَعْنَى "المْقصور" على الخوَاصِّ، و"المْدود" إلى العموم، إنْ وُجِدَ مَنْ يسْتنْبِطُما اسْتَبْطَنَه منْ مَعَانٍ، وهذا ما قامَ به الشيْخ الشارح.

وهكذا يتجلَّى هنا أنَّ ابن مالك ناظم "المقصور والممدود" التزمَ بتراتبية بنْية العنوان، فكان يقدم "المقصور" على "الممدود"، وكأن" القصْرَ" هو الأصل عنده، و"المَدّ" لاحق عليه؟ مع أن البناء اللغوي، والأصل الاشتقاقي للكلمتين قابل لتعاقب القصْر والمَدّ، بحيث يجوز -عقلا ونقلا- قصْرُ الممدود، ومدُّ المقصور" ولو تَجَوُّزًا". إلا أنَّ التزامَ الناظم بتلك التراتبية الثابتة، التي تجعل "المقصور" قبْل "الممدود"، ضرْبَة لازِبٍ، يُوحِي بأنَّها داخلةٌ في اللعبة الرمْزية التربوية التي بُنِي عليْها النصُّ عُموما، بحيْث يُصْبِحُ " المقصورُ -في نظري- رمْزًا عنده لـ "الدُّنْيا"، و"الممدود"-عنده- رمْزًا لـ "الأخرى"؛ لأنَّ لفْظ الأوَّلِ يُوحِي بأنَّه نِسْبِي، ولفْظ الثاني يُوحِي بأنَّه مُطْلَق.

وهكذا يُمْكِنُ أنْ نسْتخلصَ أيضا، في نِهاية اسْتنطاق بنْية العنوان المُكْتَنِزَةِ الدلالات -عبْر جدَلية الاسْتبطان والاسْتنباط- أنَّ "المقصور"=عمَلُ الناظم، و"الممدود"= عمَلُ الشارح؛ حيْث يقتصرُ الأولُ على الاخْتصار، ويَمُدُّ الثاني ما قصرَه الناظمُ، واختزلَه، وكأنَّ "المَقصور-من ناحية أخْرى-" هو التفسيرُ اللغوي، و"الممدود" هو التفسير الإشاري، وإذا تماديْنا في هذا المَنْحَى، يمكن اعتبار اختصار الشيخ الدكتور أباي قصْرًا نِسْبِيا لما مَدَّهُ الشارحُ، ممَّا قصرَه النَّاظِمُ، وليس تقديمي المتواضع هذا إلا محاولة تأمل في البنية العميقة لكل ذلك.

ديوان: "مروا علي"، للشاعر عيسى الشيخ حسن
البلاغة المجنونة

هذا الديوان-في نظري- يكاد يكون نصا واحدا، كتب -غالبا- على إيقاع واحد، منبثقا عن حالة نفسية واحدة، وجو روحي واحد، تلبس الشاعر وكتب تحت تأثيره، في فترات متقاربة أو متباعدة، لا يهمُّ؛ فقد سيطر على فضاء الديوان، جموح انفعال الشاعر، المُرَوَّضِ برَزانة الصُّوفي الحكيم، تمثُّلا وتمْثيلا لشخصية الشاعر/ القلق في هدوء/ الهادئ في قلق؛ فهو -كما توحي لوحة الغلاف- يقف -متماسكا على شفا جرف هار- فوق قمة جبل الرمل الذي يشكل ثلثي أصل كينونتنا، كما تقول الصورة، ويستشرف الأفق العلوي الأزرق، الذي يرمز -ربما- لبعدنا الروحي، لأفق انتظارنا، مقابل ركام الرمل الذي يملأ ما خلفنا....

لا أحد يتقن اللعب بنقائضه الوجودية، مثل الفنان عموما، ومن هنا لا نستغرب، أن يتقن هذا الشاعر لعبة الحب والحرب، والوجد والفقد، وجدل الحضور والغياب، "والخفاء والتجلي"، والتناوس بين الذي يأتي ولا يأتي، عبر رحلة الضياع السرمدي، في هذه الحقبة السوداء، بلا بوصلة، في سديم الجهات...... راسما بمزيج الدم والحبر عصارة سحرية معتقة، تشكل عجينة الإبداع الشعري في بنية " البلاغة المجنونة" التي اجترحها في هذا الديوان، من الغلاف إلى الغلاف، والتي ربما يكون من "الجنون" أن نقاربها ب"النقد العاقل"؛ فـ "الكلام على الكلام صعب"، لاسيما إذا كان الخطاب المُقارَب حكم على نفسه -مبدئيا- بالجنون.

المارون: شبهة الغياب.. والحضور

يتأسس الديوان/ النص، على عتبته الأم: "مرّوا علي" عنوانه، حيث يبدو المتكلم - بحكم اللغة- هو الثابت، والعابرون متغيرون، غير أن الديوان كله يدخل في مدار الاشتباه، بين الغائب/ الحاضر، منذ عتبة الإهداء إلى "شبهة الغياب"، وحتى ذلك السؤال المشبع بالتعجب، آخر سطر، على الغلاف الأخير: "كم غيابك هذا طويل"؟!

فهو يرى "الأقمار غائبة.. يغشيها الخسوف.. وكانت لا تني تنحاز للرؤيا"، وربما لهيمنة طقس الغياب، صار الشاعر لا يحب سؤال "العائدين إلى بيتنا عن حرير الغياب"، فهنا يتماهى السارد الشعري بوجوه وأصوات العابرين، في كلام غير عابر، ففي أسراب المارين، حماما، طيورا، وموتى، وراحلين، وعابرين، وآفلين، شعراء، صعاليك، أشقياء، فقراء، تلاميذ، آباء، أمهات.... يلتبس الفاعل والمفعول به في دوامة المرور السرمدي؛ فـ(يقول المغني: سأترك جمرا.. لعل الذين يمرون بعدي.. يضيئون أقمارهم من بعيد... فأسهر أيضا/ وأذكر أني مررتُ/ 79).

المسار/ السديم: واختلال البوصلات

تيمة المرور الرئيسة في الديوان/ النص، تقتضي وجود مسار، لكن "شبهة الغياب"، تؤسس، لتعطل بوصلة الجهات في هذا المسار السديمي، فإشارات المرور، المزروعة في النص، تصيح بالعابر: هناك من "خنقوا جهاتك"، "كان ثمة عابرون إلى الخديعة.. يكتبون سماءهم بنشيدنا...ويسافرون إلى النهاية.. حاملين فخاخهم/ وجهاتنا..."، حتى الغيوم والنجوم هنا" تركت جهات الليل.. وارتاحت قليلا"، إنها طبوغرافيا جديدة، إنها "جهات القلب والشعر..."؛ حيث" الأدلة ضيعوا جهة القصيدة"... "فاستعر لي أيها الوعد جهات..."..." لا عليك.. تأخرت عن وجعي.. فالتجأت إلى حلم.. وجهات... وليل القصيدة" حتى أن الشاعر ليسأل: "من دل الطريق على مفازتي.. كل هذا الحزن؟ّ!" نعم.. إنه الحزن "وجهات تعلمنا كيف نضحك حين يدل علينا البكاء"..فـ "إلى أين يمضي المغني؟".. و"لمن قمر يعبر الآن.. فيخطفني من جهاتي".. ما هناك أمام الشاعر إلا "سديم"، فهو يصيح: "أمامي سديم.. الأغاني سديم.. الفرات سديم.. الرمال سديم.. الهواء الذي يحمل فوضى القصيد سديم.. الذكريات سديم....".

آخر وصية تنفع القارئ في هذا السديم: "ولا تسألوا سلة المرحلة...عن خطوط المتاهة في الأسئلة".." كم أوَّلَتْنا جهات النشيد.. وطالت بنا.. مرحلهْ.. مرحلهْ".

المعنى المنتظر: الذي يأتي ولا يأتي

رحلة الإبداع كلها، بمجمل شخوصها، وطقوسها، تتجه بوصلاتها -مهما تاهت في السديم- إلى مرفأ المعنى المبتغى، وأجمل حالة لـ "أفق الانتظار"، في آليات التلقي والإبداع معا، أن يتناوس مؤشره بين جدلية إشباع التوقع وإخلافه، عبر مُتَرَاجِحَةِ "الذي يأتي، ولا

يأتي"، وهكذا يتبدى جل من "مرُّوا" على الشاعر، ممن أدمنوا الرحيل، "فكوَّموا أيامهم في النص.. وانحازوا إلى خوف النهاية.. واصْطفَّوا شجرا ليرشدهم إلى المعنى.. ويمشي في مواكبهم يمامْ".

أجل.. إنها رحلة الإبداع/ الحلم/ المعنى المنتظر/ "فاحتملني سوف تضطرب الخطى.. في رحلة النص الأخيرة.. نحو معنى غامض.. بين لكن...وليت".

إن المبدعين كلهم حالمون" يسافرون إلى المجاز.. فيعثرون.. وينهضون.. و يعثرون وينهضون.. ويعثرون".

البلاغة المجنونة..

هنا في ملتقى "شبهة الغياب"، و"شبهة النص"- تتولد" البلاغة المجنونة"؛ حيث "كل ما في النص محتمل بنا"، وحيث "بعض ما في النص يكفي.. كي نقيم بلاغة مجنونة فوق السطور..." حين تتزين الأشياء للشعراء "إذ خطروا على درب الجنون البكر.. يعترفون بالآتي..." فيجترحون "لغة الخسف المهيمن"، إنها بلاغة تعصف بالمسلمات المتواضع عليها؛ فتستبدل النهر الشعري، بالبحر العروضي، إيقاعيا، وتستبدل بيت القصيد بـ"كوخ القصيدة" بنية، ونار أبرومثيوس الإبداعية، بالاقتباس من جمرة الوعد الخبيثة، أسطوريا، وتصنع جناسها الجديد، بين "نثر" اسما، و" نرث" فعلا؛ فقد "كان ثمة إخوة في آخر النهر/ مضوا... يتبادلون بريدهم... ويسلمون على القيامة... علمونا كيف نجترح الجنون.. وكيف نتقن فتنة النص الجديد.. وكيف نقبس جمرة الوعد الخبيثة في السطور..." وهكذا تتجلى بعض ملامح هذه البلاغة، عبر".. خيوط أسئلة تتيه الآن في ثوب اللغة:

" ما غاية الشعراء من نثْر الحديقة، عندما نرِثُ الخطى/ ومتى ستأخذنا القصيدة في ارتباك نشيدها/ بل كيف نصعد/ ثم نصعد/ في الجنون، وما المسافة في دروب الصاعدين؟!"

إن هذا المسار التصاعدي معراج بلاغي إلى سدرة منتهى الجنون، حيث القصيدة تدنو من الشاعر متبرجة، متدللة، "فتذهب في سهرة لأقاصي الجنون"... إلى حيث "حدود الكناية أعلى من الحال"... "وحيث المحابر خضراء.. يذرفها فتية طيبون... لمن قمر يعبر الآن.. يأخذنا في أقاصي الجنون؟" .

نحن إذن هنا في الطريق إلى "شبهة النص"، حيث يعدو كل شيء لاهثا في هذا الاتجاه: "يعدو المغنون... تعدو القواعد.. تعدو تواريخ تذبل.. يعدو مجانين ليلى... تعدو البلاغة أيضا.. تحاسبنا في المعاني الجديدة...قلت: بلادي نهار من الحزن... تعدو إلى شبهة النص.. تحذفنا من أفول أكيد.. وتسكبنا في أفول جديد"..

أبجدية البلاغة المجنونة

لا غرابة أن نجد الشاعر يؤسس أبجدية جديدة، لبلاغته الجديدة هذه، حتى يستطيع من يملك مفاتيحها أن يتهجى بعض دلالاتها، فهناك "هاء" الله، و"لام" الرحيل، و"ميم" الموتى، و"همزة" الوصل العليلة، و"السين" المدللة....حيث يقول:" عرفتهم عطشانين في قيظ المعاني.. ماثلين لهمزة الوصل العليلة في البياض.. وميم موتاهم.. تغلِّقُ دوننا سرب الكلام.. فينتشي عن موتنا الآتي كلامْ".

" كنا هناك ... نجوس أقمار الذين تبعثروا فينا... ونذوق هاء الله في تهويمة الصوفي.. إنْ جَرَحَ الغيابُ ثيابَ أسْئلتي".

" هم خبَّأوا لامَ الرحيل.. وأوْجَسُوا خوْفا غريبا في جُيوب الليل.. لا حائي مُحَدَّبَة لأمشي في دروب النص عكازا".

"كنت أظنُّ السماءَ ستعْلو.. أقصد تعْلو.. ولكنَّ سينًا مُدَلَّلَة.. تذكرنا بوجوب التوجس".

إن هذه الأبجدية ترسم لنفسها خرائط في جغرافيا النص، حيث يقول الشاعر:

"وأسافر في جهة النون.. فأحرس قافلة الضمة من أدوات النصب...".

رقصة الدلالة: بين الخفاء والتجلي

إن الشاعر يوغل في "احتمالات القصيدة"،" حيث "كل ما في النص محتمل"، ويحلق -أحيانا-"بعيدا عن الودق.. واللغة العاقلة"، ويصيح: "فلا تعبريني بكاءً.. وشُدِّي علي وثاق الغموض"، ويتدثَّر "بوصايا الصمْت"، "ويسرف في الرؤيا فتغيم على عينيه الأسماء"، حتى لم يعد يعتريه العجب إن رأى "الأسماء ناسلة من ثوب معناها تماما"، ثم يعلن "شبهة النص" واشتباهه "ملتبسا على الرائين"، ويتحدث عن قناصة "يذبحون المعاني التي شقينا بها"، وتتكرر لديه "فوضى النصوص"، و"فوضى الحنين"، حيث ينبغي أن لا تسأل "جرة

الحبر عن هذيان الكتابة"، فإنه مع ذلك يمارس بذكاء ودربة فنية، لعبة انزياح، وتشويش للحواس؛ حيث يصرف للبصر ما للسمع "رأيتهم.. ملء أذني.. كلاما.. كلاما"، وحيث يدس في نسيج صورته الشعرية خيطا رفيعا يربط بين الحمام "الزاجل، وسلك البرق، باعتبارهما وسليتي اتصال وتواصل، توحي بجدل التراث "الزاجل"، والحديث " الهاتف"، فحيثما تمارس الدلالة رقصة الخفاء والتجلي، يتم تفعيل سلطة التأويل.

لعبة التناص: جدل الذاكرة والنسيان

لقد أراد الشاعر أن يؤسس حداثته الشعرية، وفرادته الفنية، على النسيان، نسيان من مروا عليه، ابتغاء للقطيعة، مع ثقل المورث... ومحاولة لمسح الطاولة، لكن ذاكرته المشبعة بذلك التراث لم تسعفه بكل مبتغاه، فرغم ادعاءاته أن رفاقه المحبين الأشقياء "نسوا أسماءهم"، حتى وهم في الطريق إلى الذكريات الخضر الموجعة، التي يتلبسون بحكايتها، ورغم قوله:

"ثم نسيت القصيدة.. نسيت ضريح امرئ القيس الغريب...".

"وأنا نسيت.. نسيت ما تركوه من شجري.. من الظل الحنون.. نسيت ما تركوه من جُمل الإعراب واللغة الطويلة.. كنت نسيتهم أيضا.. ونسيت نسياني".

فإنه سرعان ما اتخذ نسيان النسيان إعلانا مبطَّنا لعودة للذاكرة:"فعدت لأذكر الْـشطبوه من كلماتهم في دفتر الحزن العتيق"... وهكذا يتردد في مفاصل الديوان/ النص، فعل " كان" الناسخ/ المُثْبِت، حلقة وصل بين الذكرى والنسيان: "كان ثمة إخوة".... "وكنت عرفتهم..."، إن "أخضر الذكريات" لا ينسى، وحتى لو نسي "الجميعُ الجميعَ"، فقد أدرك الشاعر أن "دفاتر آبائنا لا تشيخ"، فذاكرة الشاعر مثخنة بـ "بكى صاحبي"، وبـ "ما قاله الشعراء عن الحرب.. منذ "أمرتهم أمري" إلى "دفتر النكسة" النازفة"، وفي نسيج نصه، أصداء الصعاليك، والمتصوفين، والأمير الضليل، وشيخ المعرة"، وخيبة "الكسعي"، وشطايا من قوسه السحري، وإخوة يوسف، ودم قانٍ غير كذبٍ على قميص خريطة الوجع العربي، حين "تهز بجذع الكلام".

لعبة الوجه والقناع

أخيرا، ينتهي بنا المطاف، إلى نوع آخر من التناص بين الأسماء، والوجوه، والأقنعة، داخل "سديم" النص المنذور للطيران، حيث يجد كل منا نفسه هنا (على وشك الريح): "مرتحلا في كتب الشيخ الراحل أبدا.. في المرثية...."، ويعلن الشاعر: يعذبني الشيخ حين يخبئ عني العارفَ في سحنته..أكتب ما يمليه علي الشيخ"... وفي عيابات السديم لا يبدو للشاعر "خلا كاهن.. يمشِّطُ لحيته بهدوء.. تربِّتُ بسمته فوق حزني..تجلَّى لي الشيخ ثانية.. وأراح ابتسامته فوق هذا السديم.. ثم يحفر في صورة الغيم صورة شيخ تبسم في صبح محنتنا... لا سفينة تحمل شيخي الذي غاب عني... أستعين بصورة جدي.. أستعين بشيخ المعرة... أستعين بجاري يؤذن ملء سماء القرى... استعين بشيخي "أبي").. إلى هنا يكون الشاعر: عيسى الشيخ، قد اقترب أكثر من نفسه، فهو عبر رحلته الإبداعية الصوفية، في وجوه كل هؤلاء الشيوخ، وفي وجوه وأصوات كل الذين "مروا" عليه، عبر "شبهة الغياب"، و"شبهة النص" يبحث عن ذاته: "سأعثر يوما علي".. "انتهت اللعبة".

المتنبي: و"فتنة التأويل"

كانت لحظة سعيدة، حين اخترقتُ إحدى عشرات الرسائل، مَجَالَ هاتفي، حاملةً هذا العنوان: "فتنة التأويل المُتَنَبِّي"، فوجدتُها أيْقُونَة لنسْخة مَضْغُوطة من كتابٍ بهذا العنْوان، لصاحِبِه الأستاذ الدكتور: عبد الرحمن عبد السلام محمود، مُرْفَقَة بدعْوتي شخصيا، لحضور، جلسة نقدية حوله، ستعقدها هيئة التدريس بكلية أحمد بن حمد العسكرية، بصالونها الثقافي، مساء الجمعة، بالغرافة، 2/ 12/ 2016م.

استعظمتُ نُبْلَ هذا الأستاذَ وتواضعه، حين شرَّفني بالدعوة، من غير سابق مَعْرفة شخصية بيني معه، وقدم لي نفسه حين سألتُ عن المُرْسِل، بدون ألقاب، ولا صفات.

أعجبني العنوان، بوحداته، الجذابة المنتقاة بحِرفية: (فتنة التأويل: المتنبي من النص إلى الخطاب)، وأدركت –فور قراءتها– مدى وعْي المؤلف بحدود أطروحته، التي يقترح على القارئ، لمقاربة المتنبي، حيث أنَّ العنوان أصبح أمَّ عتبات النص، باعتباره قراءة مركَّزةً للموضوع المعنون، وبما أنَّ الكتابَ يناهز800 صفحة، والدعوة وصلتْني في وقت لا يسمح لي بقراءة متأنية، أخذت أتصفح الكتاب، مُعْتمدًا آليةً مفضَّلةَ للقراءة عندي، أُسَمِّيها: "جَدَلَ المَتْنِ والعنْوانِ"، أقيسُ بها مَدَى مِصْداقيةِ العنْوَنَةِ، حسب تجَلِّياتِ بنْيَتِها في نسِيجِ المَتْن، لإيماني بأنَّ أيَّ عنْوانٍ، لا يُناسِبُ متنَه، هو مِثْل رأس حُطَّ عَلى جَسَدٍ غيْر جَسَده.

وفي مداخلتي على هامش الجلسة النقدية حول الكتاب، عبَّرتُ عن مدى إعجابي بكلمتيْ "فتنة التأويل"، نَوَاتَيْ مُرَكَّبِ العنوان، باعتبارهما مفتاحيْن سحرييْن للمقاربة في مُجْمَلِها، فالمُتنبي–في كنهه– فتنة خالدة، من المسمَّى، إلى المُنْتَمى، إلى المنتهى، فصفة المتنبي، التي تعتبر نبزا بالألقاب، في تاريخنا العقدي، أصبحت على "مُتنبِّينَا"، اسْم تشْريفٍ، مُمَيِّز، تفرَّدَ به شاعرٌ واحِدٌ، عبْر تاريخ الأدب العربي، وعلى مستوى منتماه،لم تتكئ نجوميته الخالدة على مجد

أسري مأثور، ولا على مشيخة علمية معروفة، فنحن لا نعرف بمَ صار "المتنبي مالئ الدنيا، وشاغل الناس"؟

فهل هذا الرجل عفريت تمرد على قمقم طفولته فجأة، فإذا هو أسطورة تمشي على قدمين، بكل كبرياء الذات، وتفرد الإبداع؟!

كل ما يمكن التحقق منه، هو أن المتنبي، كان يمتلك اعتقادا راسخا بأنه نتاج نفسه، وسليل ذاته، و"نسيج وحده"، ورغم اعتزازه بقومه شبه المجهولين، فهو يمثل الفتى الحقيقي، الذي يقول: ها أنا ذا، ولا يقول: كان أبي:

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

وهكذا تكون هذه "الفتنة الكبرى" التي تسمى: "المتنبي"، لا يمكن أن تفك أسرار شخصيتها العبقرية، إلا بـ "التأويل"، الذي اعتمده الأستاذ المؤلف آلية لمقاربة الجدَل بين "النص" و"الخطاب"، ضمن إطار "فتنة" المتنبي الخالدة.

الحقيقة أننا باستنطاق بسيط لبيت المتني:

أَنَامُ مِلْءَ جُفُوني عَنْ شَواردها ويَسْهَرُ الخَلْقُ جرَّاها ويَخْتَصِمُ

نجد أنه كان ينظر ببصيرته الثاقبة -مطمئنا- إلى كل ما أثير وسيثار حول إبداعه العبقري، فمهمته تنحصر في اختراع أوابد الإبداع وشوارده، المفارقة للمألوف، ثم ينام قرير العين، مستريح النفس، في بيته، وحتى في قبره، غير عابئ، بما أثارته، وما ستثيره "شوارده" من تأويلات وتحليلات النقاد المتلقين، وقد عبر عن صعوبة مقاربة إبداعه بفعل "السهر"، وعن وسعة انتشاره، إلى يوم الدين، بلفظ "الخلق" مطلقا... كما عبر عن فاعلية "التأويل"، وحدة الجدل الأبدي حول شعره، بفعل "يختصم"، فهذا الاختصام ربما هو الذي اقتبس منه صاحب كتاب" الخصومة حول المتنبي" عنوانه، وربما هو الذي عناه مؤلف كتاب "فتنة التأويل" هذا، بهذا العنوان الفاتن، والذي خصصه ضمن مقدمته بـ "التأويل المُفْرط".

غير أن المتنبي قد منح نفسه، في حياته -وبعد موته- حصانة، تتمثل في ثنائية، سميتها ذات محاضرة سابقة، ببراءة الملقي، وتهمة التلقي مادام الرجل يرى نفسه بعين الكمال، لدرجة ادعاء النبوءة المزعوم، ومادام الكمال والنبوءة مستحيلين في حقه، مهما كانت عوامل عبقريته،

وما دام النقص صفة لصيقة بالإنسان وحدوده البشرية، فإن المتنبي قد أتكأ -في مواجهة منافسيه القادحين فيه شخصا ونصا- على آلية دفاعية، تتمادى في غلوه النرجسي؛ حيث اعتبر -ببساطة- أن كل عيب أو نقص في شخصيته، وكل نقد يوجه إلى شعره مجرد تبلد فهم، أو عمى بصيرة في المتلقي نفسه، وليس في المتنبي ولا في شعره، إنها فلسفة شبيهة بـ"لعبة النعامة:

وإذا أتتــــك مـــــذمتي مــــن نــــاقص فهــــي الشـــــهادة لي بـــــأني كامــــل!

***

وكــــم مـــن عائـــب قـــولا صـــحيحا وآفتـــــه مـــــن الفهـــــم الســـــقيم!

***

ومــــن يــــك ذا فــــم مــــر مــــريض يكــــن مــــرا بــــه المــــاء الــــزلالا!

***

إنَّني بهذه الرُّؤيَةِ التفاعُلِية مع عناوين الكتب، أهربُ منْ بَهارج البَصَر، إلى اسْتِكْناهِ البَصيرةِ، من اسْتعْراضِ الأشباح، إلى اسْتِجْلاء الأرواح، من هيْمَنَةِ التبرُّج المادي للسِّلَعِ التجارية، إلى التمَلِّي بالمُتَعِ الذِّهْنِيةِ.. اللامحدودة!

المتنبي.. بين شعر البلاط.. وبلاط الشعر

إضاءة الأطروحة

ينبني العنوان على اقتراح رؤية مزدوجة متوازنة، لموضوع المدح في شعر المتنبي، حيث لا ينبغي أن ننظر إليه باعتباره مجرد شعر بلاط، يقدم للسلاطين، بكل ما يكتنف ذلك -في الذاكرة الجمعية- من إيحاء بالارتزاق، وتسليع الإبداع، وامتهان كرامة المبدع، بل يجب أن ننظر لشعر المدح -عند المتنبي- بأنه مشروع لخلق بلاط للمادح، يوازي بلاط الممدوح، فهو - استثناء- يشترط على رب البلاط مقدما، أن ينشد شعره جالسا، ولا يقف موقف المستجدي الضارع الذليل، كما هو ديدن غيره من شعراء البلاطات، بمفهومهم الدارج.

وكأنه بذلك يوحي لممدوحيه -مهما كانت أبهتهم- بأن "الشعراء أمراء الكلام"، يجب أن يتربعوا على عرش بلاط الشعر، مثلما للسلاطين أن يتربعوا على عرش السياسة والحكم، إذ لكل إمارته، وسلطانه.

ضرورة المقاربة الاستثنائية

المتنبي ما اكتسب هذا الاسم علما، إلا لأنه كان استثناء في مألوف "الشعر والشعراء"، وعلى ضوء ذلك ينبغي أن لا يكون تناوله إلا عبر مقاربة استثنائية، لأن غير العادي، لا يقارب بما هو عاد؛ فهذا الطراز من المبدعين الاستثنائيين، يكون مركب البنيات النفسية، والذهنية، والفكرية، والثقافية...وعلى قدر تعقيد هذه البنيات لديه تكون درجة تركيب -أو تعقيد- منتجه الإبداعي؛ ومن هنا يكون أيضا على دارسيه أن يتسلحوا بمنظار يرى موضوعه من زوايا متعددة، يختلف تماما عن المناظير التقليدية الأحادية الرؤية، ومهما يكن تبقى السيطرة على المتنبي-موضوعا للدراسة- في حكم الاستحالة؛ لأنه -كما قال هو في أحد ممدوحيه، مع بعض التصرف طبعا-

هـــو البحـــر مـــن أي النـــواحي أتيتـــه فلجتـه "المجهـول"، و"العجـز" سـاحلُهْ

المتنبي.. نتاج نفسه

استثمارا لتلك الاستثنائية الأسطورية، التي تحيط بعبقرية هذه الشخصية، يحق لي أن أتساءل -بانبهار مشروع جدا- بم صار "المتنبي مالئ الدنيا، وشاغل الناس"؟

فهذا النجم الساطع شبه مجهول الأصل، فنسبه الكندي، هو إضافة للحي الذي ولد فيه، حسب التخطيط القبلي التقليدي، لمدينة الكوفة مسقط رأسه، أكثر مما هو انتماء حقيقي لقبيلة كندة ذاتها، وعلويته المزعومة، لا ينهض عليها دليل، غير كونه في طفولته التحق بـ "مدرسة الأشراف"، حسب بعض الروايات، وليس لأبيه، ولا لأمه -في التاريخ- وضع اجتماعي مميز؛ فوالده، ربما لا يكون أكثر من سقاء، حسب رواية خصوم المتني، الذي كان ربيب جدته التي أبدع في رثائها...والتي يعتز بها أكثر من أبويه المباشرين، وحتى نبوغه الشعري، ليس وراثة عن سلالة من بيوتات الشعر الأصيلة المعروفة، كما أن موسوعيته العلمية ليست نتاج رحلات علمية وتتلمذ جده على أكابر مشايخ عصره، كما هو شان غيره من النوابغ، فهل هذا الرجل عفريت تمرد على قمقم طفولته فجأة، فإذا هو أسطورة تمشي على قدمين، بكل كبرياء الذات، وتفرد الإبداع؟!

كل ما يمكن التحقق منه هو أن المتنبي كان يمتلك اعتقادا راسخا بأنه نتاج نفسه، وسليل ذاته، و"نسيج وحده"، ورغم اعتزازه بقومه شبه المجهولين، فهو يمثل الفتى الحقيقي الذي يقول ها أنا ذا، ولا يقول: كان أبي:

مـــا بقـــومي شرفـــت بـــل شرفـــوا بي   وبنفـــــسي فخـــــرت لا بجـــــدودي

وحتى جدته التي خلدها في مرثيته الفريدة، لم تنج من سطوة أناه المتضخمة، المهوسة بلعبتها الأثيرة في قلب الآية، تحويلا للفروع إلى أصول، وللأصول إلى فروع؛ فهو أصل شرف قومه، وهو فخرهم، والعكس غير صحيح، وحتى أنه هو أبو أمه (جدته)، فمجد بنوته لها أكبر من مجد انتمائها الأبوي، مهما عظم :

ولـــو لم تكـــوني بنـــت أكـــرم والـــد   لكـــان أبـــاك الضـــخم أنـــك لي أمـــا

ومهما كان تضخم الأنا عند المتنبي، فالواقع أنه -فعلا-"ملأ الدنيا وشغل الناس"،حتى في حياته، ورغم أنف حساده، لدرجة أن الناس -في عصره- كانوا يقولون: "ما اجتمع اثنان يتحدثان، إلا وكان المتنبي ثالثهما"، ولدرجة أن ابن العميد أحد أكابر الوزراء

والأدباء المشهورين، مع رضى المتنبي بمديحه في "أرجان" ظل يكن له الحسد، ويسعى لطمس إشعاعه، غير أن أحد المقربين منه وجده بمجلس عزائه في أخته مغموما، وعندما بدأ يواسيه في مصابه، كشف له أن كبر حزنه لكون المتنبي الذي نريد مقاومة مده العاتي، فاجأني أن أكثر من ستين كتابا من التعزيات التي وردتني كانت كلها تبدأ بقوله:

حتـــى إذا لم يـــدع لي صـــدقه أمـــلا فزعـــت فيـــه بآمـــالي إلى الكـــذب

طـــوى الجزيـــرة حتـــى جـــاءني خـــبر شرقـــت بالـــدمع حتـــى كـــاد يـــشرق بي!

ذات المتنبي: في مرآة نرجسيته

إن الأعراض السابقة لتضخم الأنا، سرعان ما وصلت بالمتنبي إلى ذروة جنون العظمة، لحد دعوى الكمال المستحيل، في المجد عموما، وفي الأدب خصوصا:

مـــا أبعـــد العيـــب والنقصـــان مـــن شرفي أنـــا الثريـــا.. وذان الشـــيب والهَـــرَمُ

أنـــا الـــذي نظـــر الأعمـــى إلى أدبي وأســـمعت كلـــماتي مـــن بـــه صـــممُ

وفي سياق هذا الشعور بالتفرد الخارق في كل أوجه شخصيته العبقرية، نجده -حتى على المستوى المعرفي، المؤطر لشاعريته الفذة -يفتخر- رغم محدودية مجهوده الدراسي- :

أنـــام مـــلء جفـــوني عـــن شـــواردها ويســـهر الخلـــق جراهـــا ويختصـــم!

ومصداقا لهذه الدعوى الكبيرة والخطيرة، يروى أن أحد علماء اللغة (أبا علي الفارسي) سأله -على وجه التعجيز، والتحدي- كم في اللغة العربية على وزن "فِعْلَى"، فأجابه على البديهة: لا يوجد غير "حِجْلَى" و "ظِرْبَى"، وكان هذا الشيخ من أكثر معاصريه كتبا، فجمع زمرة من الأدباء للتنقيب معه أياما عديدة، دون وجود ثالثة للكلمتين.

وانطلاقا من كل ما تقدم لن يكون غريبا إذا انتهى بنا المطاف، إلى إحساس المتنبي بتفرده، في الشعر عموما، وفي غرض المدح -محور هذه المقاربة- خصوصا.

المتنبي: جدل الشاعر والمتشاعرين

على الرغم من ازدحام عصر المتنبي بكثير من عباقرة الشعراء ،الذين كسفهم في بلاطات أمرائهم، فضاقوا به ذرعا، وحسدوه، وناصبوه العداء، فإنه -تنويعا لثنائية الطائر الغريد، والصدى المحشرج- كان يعتبر نفسه هو الشاعر الوحيد الجدير بـ "ال" التعريف، الاستغراقية والعهدية معا، في حين لم يعتبر معاصريه ومزاحميه من الشعراء إلا ما بين شويعر

ومتشاعر، لا يستحقون منه سوى نظرة ازدراء من برجه العاجي، فقد روى الثعالبي(صاحب اليتيمة) أن المتنبي (لما استقر بدار السلام، وترفع عن مدح الوزير المهلبي، ذاهبا بنفسه عن مدح غير الملوك، شق ذلك على المهلبي، فأغرى به شعراء العراق، حتى نالوا من عرضه، وتباروا في هجائه، فلم يجبهم ولم يفكر فيهم، فقيل له في ذلك، فقال: إني فرغت من إجابتهم، بقولي لمن هو أرفع طبقة في الشعر منهم:

أفي كـــل يـــوم تحـــت ضـــبني شـــويعر	ضـــعيف يقـــاويني.. قصـــير يطـــاول؟
لســـاني بنطـــق صـــامت عنـــه عـــادل	وقلبـــي بصـــمتي ضـــاحك منـــه هـــازل
وأتعـــب مـــن نـــاداك مـــن لا تجيبـــه	وأغـــيظ مـــن عـــاداك مـــن لا تشـــاكل
ومـــا التيـــه طبـــي فـــيهم غـــير أننـــي	بغـــــيض إلي الجاهـــــل المتعاقـــــل

وقولي:

أرى المتشـــــاعرين غـــــروا بـــــذمي	ومـــــن ذا يحمـــــد الـــــداء العضـــــالا

وإذا كان يكبر معرفة سيف الدولة لقدره، ومستوى إبداعه بين المتنافسين معه، حين يقول:

بَلَغْـــتُ بسَـــيْفِ الدّوْلَـــةِ النّـــورِ رُتْبَـــةً	أَنَـــرْتُ بهـــا مَـــا بَـــينَ غَـــرْبٍ وَمَـــشرِقِ
إذا شـــــاءَ أنْ يَلْهُـــــو بلِحيَـــــةِ أحْمَـــــقٍ	أراهُ غُبَـــاري ثـــمّ قـــالَ لَـــهُ الحَـــقِ
وَمـــا كمَـــدُ الحُسّـــادِ شيءٌ قَصَـــدْتُهُ	وَلكِنّـــهُ مَـــن يَـــزْحَمِ البَحـــرَ يَغـــرَقِ

فإن من جهة أخرى كان يعتبر كل المتلقين يهجون أنفسهم حين لا يميزون بين إبداعه وهراء غيره:

وهـــــاجي نفســـــه مـــــن لم يميـــــز	كلامـــــي مـــــن كلامهـــــم الهـــــراء

ولعل المعري، تناغم مع شعور المتنبي هذا، حين كان إذا تحدث عن الشعراء قال: أبو نواس كذا.. وأبو تمام كذا...... فإذا وصل إلى المتنبي، يقول "الشاعر المتنبي"، وكأنه لا شاعر بحق سواه.

وإن تعجب فهذا غير عجب من المعري، الذي كان مفتونا بأبي الطيب، لدرجة أنه وسم شرحه لديوانه، بـ "معجز أحمد"، وفي هذه التورية إيحاء بالتنبي، والإعجاز معا.

وإلى ذلك سبقه أبو القاسم المظفر بن علي الطبسي، حين رثاه:

لا رعـــــى الله سرب ذاك الزمــــــان إذ دهانـــــا في مثـــــل ذاك اللســـــان
مـــــا رأى النـــــاس ثـــــاني المتنبـــــي أي ثـــــان يـــــرى لبكـــــر الزمـــــان
كـــــان مـــــن نفســـــه الكبـــــيرة في جـــــيش وفي كبريـــــاء ذي ســـــلطان
هـــــو في شـــــعره نبـــــي ولكـــــن ظهـــــرت معجزاتـــــه في المعـــــاني

المتنبي: براءة الملقي.. واتهام المتلقي

مادام الرجل يرى نفسه بعين الكمال، لدرجة ادعاء النبوءة المزعوم، ومادام الكمال والنبوءة مستحيلين في حقه، مهما كانت عوامل عبقريته، وما دام النقص صفة لصيقة بالإنسان وحدوده البشرية، فإن المتنبي قد أتكأ -في مواجهة منافسيه القادحين فيه شخصا ونصا- على آلية دفاعية، تتمادى في غلوه النرجسي؛ حيث اعتبر -ببساطة- أن كل عيب أو نقص في شخصيته، وكل نقد يوجه إلى شعره، مجرد تبلد فهم، أو عمى بصيرة في المتلقي نفسه، وليس في المتنبي ولا في شعره، إنها فلسفة شبيهة بـ"لعبة النعامة:

وإذا أتتـــــك مـــــذمتي مـــــن نـــــاقص فهـــــي الشـــــهادة لي بـــــأني كامـــــل!

***

وكـــــم مـــــن عائـــــب قـــــولا صـــــحيحا وآفتـــــه مـــــن الفهـــــم الســـــقيم!

***

ومـــــن يـــــك ذا فـــــم مـــــر مـــــريض يكـــــن مـــــرا بـــــه المـــــاء الـــــزلالا!

مديحيات المتنبي.. جدل الصوت والصدى

عبقرية المتنبي ضربت في كل الأغراض الشعرية بسهم، ولكن غرض المدح، موضوع إشكالي أكثر من غيره، لصلته بجاذبية البلاطات السلطانية، حيث يشتد تهافت النخب على بريق المجد والتمكين، ويحتدم تنافس المبدعين على المنافع، والمواقع، فهنا مضمار العبقريات الذي لا يجلي فيه إلا الأفذاذ، وإذا كان تألق بعض الأفراد متأتيا من تصحر بيئته، لدرجة يكون فيها مثل الهشيم الذي لا يرعى إلا إذا اقشعرت الأرض وصوح نبتها، فإن المتنبي قد ظهر في حقبة زاهية من تاريخنا الثقافي، وبرز في بلاطات "عالمة، مزدحمة بالعباقرة، فكسف أقمارها، رغم ضبابية محتده، ونشأته، وتكوينه...

وهكذا نجده يعلي من قدر ذاته، في هذه الحلبات، مقارنا بينه وبين الشعراء الآخرين، عازفا على وتر تفرده المألوف، مواصلا لعبة تأصيله لكيانه، بحيث يبدو هو الأصل، وغيره الفرع، هو الصوت الرائع الخالد، وسواه الصدى المردد.. الذاهب جُفاءً:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعرا.. أصبح الدهر منشدا

أجزني.. إذا أنشدت شعرا.. فإنما بشعري أتاك المادحون.. مرددا

ودع كل صوت.. غير صوتي.. فإنني أنا الطائرُ المَحْكِيُّ.. والآخر الصدى

***

وَلم تَأتِ الجَميلَ إليّ سَهْواً وَلم أظْفَرْ بهِ مِنْكَ استِراقَا

فَأبْلِغْ حاسِدِيّ عَلَيْكَ أنّي كَبَا بَرْقٌ يُحاوِلُ بي لَحَاقَا

مديحيات المتنبي: بين الكبرياء والاستجداء

انطلاقا مما تقدم سوف يرتسم على الشفاه سؤال مشروع: كيف لشخصية تمتلئ بعزة المتنبي أن تتكيف مع مهنة شاعر البلاط، وأنى له أن يجمع بين الكبرياء والاستجداء، وهما طرفا نقيض؟!

تلك -في الحقيقة- مفارقة صعبة، عرف المتنبي كيف يروضها، فهو لم يتنازل عن كبريائه، لإيمانه العميق باستحالة مفارقة الطبع المتأصل، حيث يقول:

وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شيء في طباعك ضده

ومن هنا كان مديحه -في الغالب- بدافع الاستحقاق، أكثر من الارتزاق، وعندما يشعر باستحالة الجمع بين العز والخبز، يضرب بكل المكاسب عرض الحائط، قربانا لكرامته، ولذلك كان يغادر أي بلاط.. فورما يشعر بأدنى مس بشرفه، فهو يعتقد جازما أنه:

لا افتخار إلا لمن لا يضام...حسب مطلع إحدى روائعه الخالدة التي نفثها، وهو يبتعد عن ممدوحه الأول بدر بن عمار.

وعلى ضوء ذلك، عندما لم يمتعض البلاط الحمداني لأهانته هناك من قبل ابن خالويه، غادر توأم روحه سيف الدولة، صارخا في أذن الدنيا:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفرقهم فالراحلون هُمُ

كما انفجر ثورة، حين ضاق ذرعا ببلاط كافور:

ويلمهـــا خطـــة.. ويلـــم قابلهـــا لمثلهـــا خُلـــق المهريـــة القـــود
وعنـــدها لـــذ طعـــم المـــوت شـــاربه إن المنيـــة عنـــد الـــذل قنديـــد

مديحيات المتنبي: رحلة للجمع بين إمارتي القول والفعل

السياق التاريخي الذي وجد فيه المتنبي نفسه كان يتسم بتفكك جسم الدولة العباسية الكبرى، وتحللها إلى إمارات متعددة، تفرد بكل منها وزير، أو قائد، أو أمير، ولا شك أن رؤية المتنبي لذاته، كانت تهجس في خلده بأنه -هو الآخر- جدير بإمارة خاصة به، وبلاط يجمع فيه بين إمارة القول، وإمارة الفعل، وينتقل فيه من موقع المادح إلى موقع الممدوح، فمن تطاول سقف طموحه ونرجسيته لادعاء النبوءة، قليل عليه الطمع بأي إمارة، ولا سيما أنه صاحب الفلسفة التي ترى أنه:

عـــلى قـــدر أهـــل العـــزم تـــأتي العـــزائم وتـــأتي عـــلى قـــدر الكـــرام المكـــارم

وتوصيك:

إذا غـــــامرت في شرف مـــــروم فـــــلا تقنـــع بـــما دون النجـــوم

وهكذا لم يكن يمدح أحدا من أمراء عصره رغبة في مجرد الجوائز العادية، بل كان يطمح لأكثر من ذلك، غير أن أصحاب النفوذ يومها كانوا يرون من زهوه بإمارة الشعر، ما لا يشجعهم على منحه ولاية الأمر، خوفا من جموح طموحه، وهكذا يجأر بالشكوى من الزمن الذي يراه حينا عاجزا -بطبعه- عن تحقيق حلمه الأكبر:

أريـــد مـــن زمنـــي ذا أن يبلغنـــي مـــا لـــيس يبلغـــه في كنهـــه الـــزمن

وأحيانا لا يعتبره إلا معاندا له: "أود من الأيام مالا توده".

ولعله ظن -في لحظة ما- أن كافور هو الحلقة الأضعف التي يمكن أن يعبر من خلالها إلى إمارته المنشودة... لكن هيهات، فليس كافور أقل فهما له من سابقيه ولاحقيه من الأمراء، وقد حاول في البداية معه أن يكتفي بالإيحاء بحاجته المرغوبة، حيث يقول:

فهـــل نـــافعي أن ترفـــع الحجـــب بيننـــا ودون الـــذي أملـــت منـــك حجـــابُ
وفي الـــنفس حاجـــات، وفيـــك فطانـــة ســـكوتي بيـــان عنـــدها وجـــواب

ولكنه حين لم ينفع التلويح، خرج إلى التصريح:

أبـا المسـك هـل في الكـاس فضـل أنالـه فــإني أغنـــي منـــذ حـــين وتشرـــبُ
وهبــت عـــلى مقـــدار كفـــي زماننـــا ونفـــسي عـــلى مقـــدار كفيـــك تطلـــب
إذا لم تنلنـــــــي ضـــــــيعة أو ولايـــــــة فجـــودك يكســـوني.. وشـــغلك يســـلب

ثم يضع النقاط على حروف الولاية التي يطمح إليها، إمعانا في التصريح:

وغـــــير كثـــــير أن يـــــزورك راجـــــل فيرجـــــع ملكـــــا بـــــالعراقين واليـــــا

المتنبي بين السيفيات والكافوريات

تمثل نسبة المدح من ديوان المتنبي أكثر من الثلث، "والثلث كثير"، وهي تتوزع -أساسا- بين سيف الدولة، وكافور الإخشيدي، وبين هذا وذاك نصوص قليلة مادحة لغير هذين الرجلين، فهو -مثلا- قد مدح بدر بن عمار، في طبرية-328هـ، ورغم كونه الرجل الذي قتل الأسد بسوط، فإن المتنبي لم يجد فيه فارسه الذي يبحث عنه، حيث لم يعامله بدر إلا باعتباره شاعرا متكسبا، وهذا مالا ترضاه نفس المتنبي الأبية، حيث فارقه صارخا:

لا افتخار إلا لمن لا يضام....

وكذلك علي بن منصور الحاجب، في الرملة،

حـــال متـــى علـــم ابـــن منصـــور بهـــا جـــاء الزمـــان إلي منهـــا تائبـــا

وبعد تصعلك طويل اتصل بأبي العشائر الحمداني، ومدحه، بأنطاكية -336هـ، وعنده تعارف مع ابن عمه سيف الدولة ملك حلب-337هـ، الذي فارقه مغاضبا، حيث وصل إلى كافور في الفسطاط بمصر-345، وبقي رهين بلاطه، حتى نجح في التسلل منه لواذا، راجعا إلى الكوفة، عام 350-هـ، وبعد ذلك مدح ابن العميد في أرجان، وعضد الدولة في شيراز قبيل وفاته -354 ورغم كل ذلك تبقى السيفيات والكافوريات -حقيقة- هما خير ممثل لمدحه، كما وكيفا، رغم تمايز طابعيهما الفنيين، تبعا لتباين جويهما النفسيين، وذلك ما يقتضي تناول كل منهما على حدة.

السيفيات:"الحلم العربي"/ عناق السيف والقلم

إذا كان المتنبي يصنف شاعر العرب الأكبر بدون منازع، فإن سيفياته يعتبرها الدارسون ذروة إبداعه الشعري، وذلك -طبعا- راجع إلى عوامل كثيرة، من أهمها توافق

المادح والممدوح، في العمر، والهم العربي، والروح الفروسي، والعمق الثقافي، والذوق الشعري، والحس النقدي، فكان كل واحد منهما يجد في الآخر ذاته، مهما تفاوتت نسب المتشرك بينهما، عند هذا وذاك، فإذ اكانت الفروسية أم خصائص سيف الدولة، والشعر أكبر خصائص المتنبي، فإن هذا لا ينفي أن الأول يعشق الشعر، ويقرضه، وينتقده، ولا ينفي أن الثاني كان يشترك مع الآخر في بطولاته، ففيهما يتعانق السيف والقلم، وكل واحد منهما كان يبحث عن الآخر، فهما فارسان، وأميران، عربيان متكافئان، كل منهما سيد ميدانه، ولكثرة هذه القواسم المشتركة، ربما رضي سيف الدولة، بشروط "قلم الدولة"الخارقة لمواضعات البلاطات في تلقي المدائح الشعرية؛ حيث كان المتنبي وحده -من الشعراء- من يلقي جالسا، ويبدأ بمدح نفسه بكل منظومة القيمة، التي سيثني بها على سيف الدولة، حتى ليزاحم سيف الدولة في البطولة، والفروسية، أهم خصائص ممدوحه، وعندما ألقى- جالسا- قصيدته:

لكـــل امـــرئ مـــن دهـــره مـــا تعـــودا   وعـــادة ســـيف الدولـــة الطعـــن في العـــدا

حاول بعض الحاسدين إحراجه عند الأمير، ليرغمه على الإنشاد قائما، فقال لقد كان الأحسن للقصيدة أن تلقيها واقفا، حتى يسمعها الجميع، فأجابه ببديهة عجيبة: أما سمعت مطلع القصيدة" لكل امرئ من دهره ما تعودا"؟!

وهكذا عاش الثنائي العظيم -مدة تسع سنوات- حلم دولتهما العربية المزوعة بشموخ ورسوخ، بين الإمارات الأعجمية المنحلة من جسم الدولة الإسلامية العباسية المتهالة، وقد تجلى هذا الإحساس القومي العربي واضحا على لسان المتنبي عندما يقول-معرضا بكافور-:

وإنـــما النـــاس بـــالملوك.. ومـــا   تصـــلح عـــرب ملوكهـــا عجـــمُ

والخلاصة: أن المتنبي كان لا يقنع بأن يكون مجرد قلم دولة بني حمدان، بل وسيفها أيضا، فهو ليس الشاعر المتكسب فحسب، بل والفارس المغوار:

الخيـــل والليـــل والبيـــداء تعرفنـــي   والسـيف والـرمح والقرطـاس والقلـم

***

أَصَرّفُ نَفْـــــسِي كَـــــمَا أشْـــــتَهي   وَأمْلِكُهَـــــــا وَالقَنَـــــــا أحْمَـــــــرُ
دَوَالَيْـــــكَ يـــــا سَـــــيْفَهَا دَوْلَـــــةً   وَأمْـــرَكَ يـــا خَـــيرَ مَـــنْ يَـــأمُرُ

أَتَـــــاني رَسُــــــولُكَ مُسْـــــتَعْجِلاً فَلَبَّــــــاهُ شِـــــعْرِي الـــــذي أذْخَــــرُ
وَلَـــــوْ كـــــانَ يَــــوْمَ وَغـــىً قاتِمـــاً لَلَبّـــــــاهُ سَـــــــيْفِيَ وَالأشْـــــــقَرُ
فَـــلا غَفَـــلَ الـــدّهْرُ عَـــن أهْلِـــهِ فإنّــــكَ عَــــيْنٌ بهَـــا يَنْظُـــرُ

***

أبَـــا عَبْـــدِ الإلـــهِ مُعـــاذُ: إنّي خَفـــيٌّ عَنْـــكَ في الهَيْجـــا مَقـــامي
ذكَـــرْتُ جَســـيمَ مـــا طَلَبـــي وإنّـــا نُخـــاطِرُ فيـــهِ بـــالمُهَجِ الجِســـامِ
أمِـــثْلي تأخُـــذُ النّكَبـــاتُ مِنْـــهُ وَيَجـــزَعُ مِـــنْ مُلاقـــاةِ الحِـــمامِ
ولـــو بَـــرَزَ الزّمـــانُ إليّ شَخصـــاً لخَضّـــبَ شـــعرَ مَفرِقِـــهِ حُســـامي
ومـــا بَلَغَـــتْ مَشـــيئَتَها اللّيـــالي ولا سَـــارَتْ وفي يَـــدِها زِمَـــامي
إذا امـــتَلأتْ عُيُـــونُ الخَيْـــلِ منـــي فَوَيْــــلٌ في التّـــيَقّظِ والمَنَـــامِ

***

سَـــلي عَـــنْ سِـــيرَتي فَـــرَسي ورُمحـــي وَسَـــيْفي والهَمَلَّعَـــةَ الـــدِّفَاقَا
تَرَكْنَـــا مِـــن وَرَاءِ العِـــيسِ نَجْـــداً وَنَكّبْنَـــا السّـــماوَةَ والعِراقَـــا
فَـــما زالَـــتْ تَـــرَى واللّيـــلُ داجٍ لِسَـــيفِ الدّوْلَـــةِ المَلِـــكِ ائتلافَـــا

***

الـــرّأيُ قَبـــلَ شَـــجاعةِ الشّـــجْعانِ هُـــوَ أوّلٌ وَهـــيَ المَحَـــلُّ الثّـــاني
فـــإذا همَـــا اجْتَمَعَـــا لـــنَفْسٍ حُـــرّةٍ بَلَغَـــتْ مِـــنَ العَلْيـــاءِ كـــلّ مكـــانِ
وَلَـــرُبّما طَعَـــنَ الفَتـــى أقْرَانَـــهُ بـــالرّأيِ قَبْـــلَ تَطَـــاعُنِ الأقـــرانِ

الكافوريات ذات الوجهين: جدل المدح والقدح

منذ أفاق المتنبي من "الحلم العربي"، الذي عاشه مع سيف دولة، وهو يفتش- عبثا- عن البديل، الذي يسد له مسد حلب وعالمها الروحي، الذي نغصه عليه خصومه هناك، حتى اضطر للجوء إلى كافور، ظانا أنه يمكن أن يتحمله لفترة وجيزة، يخدعه فيها عن ولاية ينافس بها حتى إمارة حلب ذاتها، غير أن كافور كان مدركا لخطورة الطموح الملكي للمتنبي، كما أن الأخير لم يحسن فن العلاقات العامة، ومداراة الخصوم، نظرا لحدة مزاجه ومرارة طبعه، لاسيما أن الشعور بالضياع يملأ وجدانه، منذ فارق سيف الدولة توأم روحه.

ورغم أن الجو الثقافي للبلاط المصري كان يتفوق على نظيره الحلبي من حيث التعدد الكمي، فإن البيئة الثقافية في حلب كانت تتفوق على نظيرتها المصرية نوعيا، مما يجعل حافز الإبداع والتجويد عن المتنبي هنا أقل منه هناك، وقد زاد من خموله الإبداعي النسبي أن روح العداء والحسد التي كانت، تواجهه في حلب بدت أقل حدة بين أدباء مصر، غير أن خطأه الأكبر أنه تلكأ في مدح كافور الذي استضافه، وبالغ في إكرام وفادته، استدرارا لمدائحه، كما أنه لم يمدح وزيره النافذ ابن خنزابة، ليقدمه بالشكل اللائق لكافور، والأدهى والأمر أنه عندما اشتد عليه الضغط من أجل مدح كافور بدأ بداية متشائمة، غير موفقة إطلاقا، حيث استهل كافورياته بـ:

كفـــى بـــك داء أن تـــرى المـــوت شـــافيا وحســـــب المنايـــا أن يَكُـــــنَّ أمانيـــا

حماية اللغة العربية:
بين السماء والأرض

يُعْتَبَرُ "قانونُ حَمايةِ اللغَةِ العرَبيةِ"، الذي أصْدَرَتْه الحكومةُ القَطَرية، قرارًا سياديا، تَنَزَّلَ في سياقِه المُناسبِ بامْتياز، وهو خُطْوَةٌ تستحقُّ الإشادةَ والتقديرَ من كُلِّ مُحِبٍّ لهذه اللغة غَيُورٍ عليها؛ حيث أصبح الواقعُ اللغوي في دول الخليج ، وغيرها من دول العالم العربي، يُنْذِرُ الأمَّةَ بما يتربَّصُ بها من تهْديدٍ لجوْهَرِ هُويَّتها الحضارية، منذ اجْتياح موْجاتِ الاستعمار لَمِشارقِ بلادِ العربِ ومَغاربها، إضافة إلى إكْراهاتِ العوْلَمَة المُتَجَدِّدَةِ، التي كرَّسَتْها الثورةُ الالكترونية بكل حُمُولاتها اللغوية والثقافية والحضارية، الكاسِحَةِ لِبَقايا حُدودِ الهُوياتِ والكيْنوناتِ المُتَمايِزَةِ، والدَّامِجةِ لِمُخْتَلفِ الأقطار والأفكار، في سيْرُورتها، التي لا تصْمُدُ في وجْهها الحَواجزُ، الفارِضَة -عبْرَ مَدِّها الطاغي- لُغات مَعارفها ومنْتوجاتها الصناعية على كلِّ الأمَمِ التي تخلَّتْ عن موْقِع التنافُسِ الحَضارِّي، ورَضِيتْ بأنْ تَكُونَ مُجَرَّدَ مُسْتَهْلِكٍ، مفْعولٍ به لا فاعلٍ، يُمَثِّلُ سوقًا مفتوحةً للرُّؤى المُسْتوْرَدَةِ العاقلة، والمَصْنوعات الخارجية الهائلة، والأيْدي المسْتَجْلبَة العاملة.

لقد اسْتشعرَ العالمُ العربيُّ، هذا الخطرَ الداهِمَ للُغَتِه هنا وهناك، فانْتشرتْ في مُخْتلفِ دُولِه جمْعياتٌ وقوانينُ لِحِماية اللغةِ العَربيةِ المُعَرَّضَةِ للضياع؛ ولم يكنْ ذلك الإلْحاحُ على لفْظ "الحِمَايَةِ" إلا وليدَ إدْراكٍ لِجِدّيةِ التهْديدِ، وأهَمِّيةِ المُسْتَهْدَفِ، حيث تُعْتَبَرُ هذه اللغةُ مَرْكَزَ هُوية العرَب، الذي منه أخذوا اسْمَهم، حيث نقلت الانتماءَ من خصوصية العِرْقِ، إلى شُمولية الثقافة؛ فتَماهَى المُسْتعْربُ مع العَارِبِ، ثم اتسعت عوْلَمَتُها، منذ رَسَّمَها اللهُ -جَلَّ وعلا- لغةَ للرسالة الإسلامية الكوْنية، ولولا عقْدُ هذا القِران المُقدَّس الأبَدِي بيْن العرَبية، وقُرْآن الله المحْفوظ، لأدَّى بها انفتاحُها أمامَ كافة الشعوب المَتأسْلِمَة إلى تفكُّكِ نظامها الداخلي، وانْحلال قواعِدِها العاصِمَة، وتحوُّلها على ألْسِنَةِ الجُهَّالِ بقواعد نُطْقِها وبِنائها إلى مُجَرَّدِ لهَجَاتٍ، كما حدث للغة اللاتينية وأخواتها، التي انقرضت عبْرِ التاريخ، ولم يبقَ إلا بناتها الهَجِينَة.

إنَّ هذا يُمكنُ أنْ يَحدث لأيِّ لُغَةٍ في العالم باعْتباره تغيُّرا طبيعيا، ناتجا عن تفاعُلها مع حَواضِنِها الجغرافية، والتاريخية، وحتى الحضارية، ولكنَّ اللغة العربيةَ نتيجة حمولتها الدينية المقدسة، من حيث تنزُّلها لغةً للقرآن الكريم، ظلتْ بمَنْأًى عن ذلك التغيُّرِ الجِذْري، رغم صِفَتِها الكوْنية التي مَنَحَها لها تَماهِيهَا بالدين الإسلامي مُحْتَوى وأداءً، فكانت تستوعبُ حضاراتِ الشعوب والأمم الداخلة في دِينِ الله أفْواجا، دون أنْ تتَفَجَّرَ من الداخل، ولا أنْ تتَصَدَّعَ -كثيرا- من الخارج، لأنَّ أغْلبَ العلماء، وحتى منْطِقُ الأشْياء، يَعْتَقِدُ ضمانَ الله لِحِفْظِها، بمُجَرَّدِ تكَفُّلِه بحفْظِ القرآن الكريم (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)- "سورة الحجر".

ومن هنا تضافرَت جميعُ علومِ اللغة العربية، الناشئةِ في حِضْنِ الإسلام، من أجْل تحْصين هذه اللغة "المقدَّسة"، من سطْوة الروافد والمُؤَثِّرات اللغوية والتاريخية والحضارية العاتية، التي بدأتْ تتفاعلُ معَها منْذُ نزلَ الإسلامُ بها للناس كافة؛ وهكذا نالَ الاشتغالُ بهذه العلوم "الخادِمَةِ" نصيبَه من القدسية والتعَبُّدِ، التي يتمتَّعُ بها القرآن "مَخْدُومُها" تطبيقا لقاعدة: "أنَّ مالا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب".

وفي ضوء هذا كانت أغلبُ الأقلام والعقول التي سُخِّرَت لخِدْمتها وحِمايتها، تنتمي -سبًا- لغير العرب، مما يعْنى أنَّها كان من المفْروض أنْ تكونَ جزْء من الثقافاتِ والحضاراتِ الوافدةِ المُهَدِّدَةِ لأنْظِمة العربية، لكنَّ قدسيةَ اللغة وحفظَها الإلهي المُشارَ إليهما سابقا، كانا كافييْنِ لتحْويل" الدُّخَلاء"، على هذه اللغة حُماةً لها.

ومادامتْ هذه البيئاتُ العربيةُ اليومَ-أكثرَ من أيِّ وقْتٍ مضَى- تعيشُ واقعا لغويا مَأْزوما، فكيْف تُفَعَّلُ وتُنَسَّقُ مُبَادرَاتُ وقوانينُ "حِمَايَةَ اللُّغَةِ العَربية"، المُعْلَنُ عنْها هنا، وهناك، تحْتَ ظلِّ مُزاحَمَةِ لغاتِ المُسْتَعْمِرينَ المُهَيْمِنَةِ عِلْمِيا وصِناعيا وثقافيا، والمُمَكَّنِ لها في الأرْض سياسيا واقتصاديا، وحتى عسْكريا، إضافةً إلى رطانات أمْواج الوافدين الذين يستحيلُ التفاهمُ والتعاملُ معهم، إلا بعْد تكْسِير جميع اللغات، وصهْرِها في هَجينٍ، للعربيةِ منْه أقَلُّ نَصيب؟

إنَّ الحِفْظَ السماويَّ للغة العربية، يقتضي تسْخيرَ الأرْض، لهذه المَهَمَّة ؛ فالدّوْرُ القَدَري يتحَقَّقُ بالدَّوْرِ البَشَرِي.

آلية التشجيع والتشنيع:
في حماية اللغة العربية

ليتني أملك مقترحا سحـريا يعزز مكانة "لغة الضاد"، عربيا ودوليا، وينفي عنها زبد العجمة الزاحفة عليها من كل اتجاه، غير أنه مهما استعصى القرار الجماعي، والإجراء الرسمي، نظرا لتشتت شمل الأمة، غير المعتصمة بحبل هويتها الجامعة، ونظرا لتخاذل الحكومات، وفقرها الثقافي، وعماها السياسي، وفشلها الإداري، واستلابها الحضاري، يبقى الحل الوحيد المتاح لكل فرد، هو تحسين علاقته الذاتية مع لغته العربية، تعشقا، وتقديسا، وتعلما وتعليما، وتحدثا، وتحريرا، وحتى تشجيعا لكل من يسايره في هذا الاتجاه، وطنيا، وإقليميا، ودوليا...فهذا قرار شخصي يملكه كل منا، وله قيمة لا يستهان بها؛ حيث إن التوجه الفردي، يمكن أن يتحول إلى تيار جماعي، يتنامى محليا وعالميا، على قدر قوة الإيمان به، وجاذبية طرحه، وصلابة حِجَاجِه، ولا شك أن دعم حماية اللغة العربية، وترسيخها، ونشرها، له أوجه كثيرة يمكن أن اختزلها في ثنائية التشجيع والتشنيع، تشجيع المجيدين فيها أينما كانوا، والتشنيع على مسيئي استخدامها، والمتطاولين على قدْرها، وقدرتها...بهذه الآلية استطاع أجدادنا الشناقطة أن يعيدوا للعربية مجدها في ظرف زماني غير مُوَاتٍ؛ هو: عصر الضعف، وفي ظرف مكاني أقل مناسبة؛ يمثله إقليم بدوي، مترامي الأطراف، متسيب من أي سلطة مركزية ناظمة، منتبذ برزخا قصيا بين منتهى تخوم العالم العربي جنوبا، ومبتدى عجمة القارة الإفريقية، يسكنه شعب مركب، بين عرب وافدين، إلى بربر، وزنوج أفارقة أصليين، تناغم نشازهم الإثني والحضاري، ضمن رابطتي لغة القرآن، وعقيدة الإسلام، حتى تفوق الْمُتعَرِّبُون، على الْمُعَرِّبين، وأصبح لسان حال الجميع، ونشيد أرواحهم، قول شاعرهم:

إنَّـــا –بنِـــي حَسَـــنٍ– دَلَّـــتْ فصـــاحَتُنا ... إنَّـــا إلى العَـــرَبِ العرْبـــاءِ ننْتسِـــبُ

إنْ لمْ تقـــمْ بينـــاتٌ.. أنَّنـــا عـــرَبٌ ... ففِـــي اللســـانِ بيـــانٌ أنَّنـــا عَـــرَبُ

كل هذا تحقق وتكرس بمفعول آلية التشجيع والتشنيع تلك، حيث كانوا يجلون الفصيح البليغ الضليع في علوم اللغة العربية، ويبوئونه مكانا عليا في السلم الاجتماعي، ورأس المال الرمزي، مهما كان فقره، وقدره، ويحتقرون الجاهل العيي اللاحن في العربية، مهما علا شأنه في جوانب أخرى، حتى أنهم في جمهوريتهم الشعرية، المنصوب عرش مملكتها، في "البلاد السائبة"، بين بيوت الشَّعَر، وأبيات الشِّعْر، قد أصدروا فتوى/ مُرْتَجَزَة، تحرم زواج الفتى الضعيف الإعراب، من بنات مجتمع الفصاحة هذا، حتى لا يلوث بسلالته الهجينة نقاء لسان الضاد في أرض: "المنارة والرباط"؛ حيث أنشأوا وأنشدوا:

أيُّ فتـــى شـــبَّ بـــلا إعْـــرابِ فإنَّـــه عِنْـــدِيَّ كـــالغُرَابِ
وإنْ رَأيتَـــه لخَـــوْدٍ عاشـــقا فقُـــلْ لهـــا: اتَّقِـــي الغُـــرَابَ النَّاعِقـــا

يــــوم العــــربية:
لعْنُ اللحْن

كان العربُ أُمَّةَ الفصاحة والبيان والبلاغة، وكانت لُغتُهم "العربية"، مَرْكَزَ هُويتهم، الذي منه أخذوا اسْمَهم، حيث نقلت الانتماءَ من خصوصية العِرْقِ، إلى شُمولية الثقافة؛ فتَماهَى المُسْتعْربُ مع العَارِبِ، وقد تعزَّزتْ مكانَتُهم هذه بنُزول القرآن بلُغَتِهم، مُعْجِزا في صميم خُصوصيتهم البيَانية، وبقدْرِ ما مَنَحَ القرآنُ للغةِ العربية، قداسَتَها الدينية، جعَلَها مُهَيَّأةً أكْثر لانْفجار نُظُمِها الداخلية، نتيجةَ تفاعُلِها مع حَواضِنِها الجغرافية، والتاريخية، وحتى الحضارية المفتوحة، إذ اتسعت عوْلَمَتُها، منذ رسَّمَها اللهُ -جَلَّ وعلا- لغةَ للرسالة الإسلامية الشاملة، ولكنَّها ظلتْ بمَنْأًى عن ذلك التغيُّرِ الجِذْري، رغم صِفَتِها الكوْنية التي مَنَحَها لها تَمَاهِيهَا بالدين الإسلامي مُحْتَوى وأداءً، فكانت تستوعبُ حضاراتِ الشعوب والأمم الداخلة في دِينِ الله أفْواجا، دون أنْ تتفَجَّرَ من الداخل، ولا أنْ تتَصَدَّعَ -كثيرا- من الخارج، لأنَّ أغْلبَ العلماء، وحتى منْطِقُ الأشْياء، يؤكد ضمانَ الله لِحفْظِها، بمُجَرَّدِ تكَفُّلِه بحفْظِ القرآن الكريم نفسه، تبعا لعلاقة الحامل والمحمول.

ومن هنا تضافرَت جميعُ علومِ اللغة العربية، الناشئةِ في حضْنِ الإسلام، من أجْل تحْصين هذه اللغة "المقدَّسة"، من سطْوة الروافد والمُؤثِّرات اللغوية والتاريخية والحضارية العاتية، التي بدأتْ تتفاعلُ معَها منْذُ نزلَ الإسلامُ بها للناس كافة؛ وهكذا نالَ الاشتغالُ بهذه العلوم "الخادِمَةِ" نصيبَه من القدسية والتعَبُّدِ، التي يتمتَّعُ بها القرآن "مَخْدُومُها"تطبيقا لقاعدة: "أنَّ مالا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب".

وفي هذا الإطار يندرجُ، تشْنِيعُ اللَّحْنِ، الذي دأبَ عليْه السَّلَفُ الصَّالحُ، منذ ظُهورِ التَّصَدُّعاتِ الأولى في جِدَارِ مَناعَةِ السَّلِيقةِ العربية، أمامَ هزَّاتِ العُجْمَةِ الزاحِفة، فـ"قد حثَّ، صلى الله عليه وسلم، وذوُو العِلْمِ من بعْده على إصْلاحِ الألْسِنَة وتعلُّم اللغة، وحُسْنِ

العِبَارة"، وقد روَى عنْه عُمَرُ قولَه: "رَحِمَ اللهُ امْرَأً أصْلَحَ منْ لِسانِه". و"كان عُمَرُ إذا سمِعَ رجلاً يُخْطِئ قبَّحَ عليْه، وإذا أصابَه يَلْحَنُ ضَرَبَه بالدِّرَّة"، وحين وصلَه كتابٌ فيه لحْنٌ من أبي موسى الأشعري ردَّ عليه: "اضربِ الكاتبَ سوْطاً، واعْزِلْه عن عمَلِكَ"، وكان ابنه عبد الله "يضربُ ولَدَه على اللحْن". كما "كانَ مؤدِّبُو المدينة يضربونَ على الخَطأ واحدة، وعلى اللحْن ستاً"؛ باعْتبار اللحْن أفْظعَ من الخَطأ، وأجْدَرَ بالعِقابِ، فأبو بكر الصديق يقول: "لأنْ أخْطِئَ في القرآن أحبُّ إليّ من أنْ ألْحَنَ فِيه"، وعلى هذا المَنْحَى دَرَجَ الحَسَنُ البصري، حين قالَ: "منْ لحَنَ في القرآن فقد كذبَ على الله غَيْرَ مُتَعَمِّد". بل قد يكونُ اللحْنُ مَزَلَّةً إلى الكُفْر؛ وَلهذا "كان سابقُ الأعْمى يقرأ: {الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} بفتح الواو، وكان ابنُ جَاباَنَ يقول له إذا لَقِيه: ما فَعَلَ الحرْف الذي تكفرُ بالله فيه؟"، ومن هنَا لا نَعْجَبُ من أيوب السختياني، الذي كانَ إذا لحَنَ أستغفرَ الله، وحتَّى لو لم يصل اللحنُ إلَى حَدِّ الجُرْم المُسْتحقّ للعُقوبة، ولا الكُفْرِ، أو الذنْب الجدير بالتوْبة والاستغفار، فإنَّه يبْقى ضلالا وغيا، يستحقُّ فاعِلُه الإرْشادَ على الأقل، فحين لحَنَ رجُلٌ عنْدَ نبينا -عليه السلام- قال: "أرْشدُوا أخاكم"، وقد رآه خليفتُه الصدِّيقُ عوْرَةً يجبُ ستْرُها، حينَ قال لمن كلَّمه، فأكْثرَ اللحَّنَ: " اسْترْ عوْرَتك وسَلْ حاجتك. فبادَرَ الرجُلُ ثوْبَه. فقالَ له عمر: إنما أمَرَكَ بإصْلاح لِسَانِك"، وعُمَرُ نفسُه يَراهُ أسْوأ من الخَطأ في إصابةِ الهَدَفِ في الرماية، حين عابَ على قوْم "سُوءَ رمْيِهم. فقالوا: نحْنُ قوْمٌ مُتَعَلِّمينَ. فقال: لَلَحْنُكمْ أشدَّ علي من سُوءِ رمْيِكمْ". وهكذا كان يونس بن حبيب لا يَرَى "للاَّحنِ مرُوءة، ولا لتاركِ الإعْراب بهاء"، مهما طاول عنان السماء، وكان عبد الملك بن مروان يعتبرُ: "اللحْن هُجْنة الشريف"، ويراهُ "في الكلام أقْبَحَ من العُوار في الثوْب النفيس"، كما يعتبرُ الشعْبي -أيْضا- أنَّ: اللحْنَ في الشريفِ كالجُدرِيّ في الوجْه الحَسَن". وفي الخِتام قيل للحسن البصري: "إن [إمَامَنا] يَلحْن، فقال: نَحُّوه. فبالله ربِّكم.. كمْ إمامًا -بالمَفْهومِ الشامل- يجبُ اليوْم أنْ ننحِّيَه؟!

سبحان الله يلحنون.. ويرزقون!

العرَبُ كانتْ أمَّةَ البَلاغةِ الأمِّيَّةِ، ترْتَجِلُ بالسلائقِ، أكثر مما تُدَوِّنُ في الوثائقِ، ولذلك تُلاحِظُ أنَّها كانت تنظر إلى المكتوب نظرة تشكيك، وسخرية، باعتباره مجرد "أساطير الأولين"، حتى أنها استقبلتْ بذلك تَنَزُّلَ القرآن الكريم، لكن رسالة "اقْرأ" -ذات الصدى السماوي الإلهي المُعْجِز- زلزلتْ مُسَلَّمَاتُ هذه الأمَّة، وأخجلتْ سلطة بلاغتها؛ حيث ألْهَمَها الرحمنُ، مُعَلِّمُ البَيَان، القرآنَ، وأقْسَمَ لها بالنُّون، والقَلَم، وما يسطرون، فبدأت تأخذ الكتاب بقوَّة، رويدا، رويدا، حتى بلغتْ أوجَ العِلم والحضارة، قبْل أنْ ترْتَكِسَ-خلال القرون الأخيرة- في خُسُوفها الثقافي الذي مازالتْ تنْحَدِرُ في سحيقِ درَكاته...

يُرْوَي أنَّ أعرابيا غادَرَ باديتَه، حيث الفصاحةُ الصافيةُ. فلَمَّا دَخلَ أحَدَ أسْواقِ المُدُنِ العربيةِ، التي بدأ اللحْنُ يتَفَشَّي فيها، نظرًا للعُجْمَةِ الزاحِفَةِ إليْها من أخْلاطِ الأعْراقِ المُتَفَاعِلَةِ داخلَ عالميةِ الدِّينِ الإسْلامِي الجديد، هَالَهُ ما سَمِعَ من اللحْنِ في تَعَامُلاتِ الناسِ في السوقِ باللغة العربية، مع ما لاحظه من كثرة الأرزاق هناك، فما كانَ منْه إلاَّ أنْ صرخَ.. متعجبا: "يا سُبْحَانَ الله يَلْحَنونَ، ويُرْزَقونَ؟!"..

وهكذا كان البيانُ والفصاحةُ والبلاغةُ من الشروط الأساسية للحُكْمِ، والسيادة، والقيادة، مثل البسطة في الجسم، والعلم، فكيف ابتليتْ أمَّةُ العَرَبِ بحُكَّامِ، أعْيَى من بَاقِلٍ، وأحمق من "تيبة"، وأجهلُ من "كَارِدَنَّ"، وأكذب من "ولد الجنْبَة"؟

رُوي أنَّ عبْدَ المَلِكِ بن مرْوانَ، كانَ يُشْفِقُ من توْريثِ ابْنِهِ الوَلِيدِ للحُكْمِ، لأنَّه كان لَحَّانًا، ورغْمَ بلاغةِ عبْد المَلِكِ، وبسْطَةِ عِلْمِهِ كانَ يُعَانِي من رُهَابِ المَنَابِرِ، تَوَجُّسًا من اللَّحْنِ خُصُوصًا، والخطَأ عُمومًا، وبذلكَ أجَابَ من سَألَه عنْ إسْراعِ الشيْبِ إلى رَأسِه وعارضَيْه قبْلَ إبَّانِه، فقالَ: "شَيَّبَنِي صُعودُ المَنَابِرِ، وتَوَقُّعُ الخَطَأ!"

وإذا كان نبينا صلى الله عليه وسلم، شَيَّبَتْهُ "هُودٌ وأَخَوَاتُهَا" تَفَكُّرًا، واعْتِبَارًا، والخَلِيفةُ عبْدُ المَلِكِشَيَّبَه خوْفُ اللحْنِ، في المَعْنَى والمَبْنَى، فما الذي شيب حكامنا، سوى تقدم العمر، وحب الدنيا، وطول الأمل؟

رِفْقًا بالعَربية...يا حُكَّامًا.. لا تعْرفُهم شُعوبُهم إلا "بلَحْنٍ في القَوْلِ" والفِعْلِ!، ولو رآهم الأعرابيُّ الآنفُ الذِّكْرِ، لبُهِتَ قائلا: سبحان الله.. يَلْحَنُونَ.. ويَحْكُمُونَ؟!

وماذا عساه سيقول أيضا لو سمع هذيان وسائل إعلام دول العرب، التي اشتقت لغتها اسم الصحافةِ مِن الصُّحُفِ، التي جاءَ الإسلامُ لِيَرْبِطَها -أكْثَرَ- بالتوْثيقِ الإلهي الدقيقِ لِحَسَنَاتِ الناس وسيِّئاتِهم، استعدادًا للحِساب الأخْرَوِيِّ، يوْمَ تُعْرَضُ صُحُفُ كسْبِهم الدُّنْيَوي مُنَشَّرَةً، فتتَرَتَّبُ عليْها مَصَائِرُهم، إيجابيا لمَنْ أَخَذَ كِتابَه بيَمِينه، وسلبيا لمَنْ أخذ كتابَه بشِمَالِه، غيْرَ أنَّ الصُّحُفَ ظلتْ لدى الذهْنيةِ العربية، مُرْتَبِطَةً -منْذ القِدَمِ- بالخطأ، فاشْتَقُّوا مِنْهَا مُصْطَلَحَ "التصْحِيفِ"، الذي يَعْنِي الاخْتلالَ في بنْيةِ اللفظ نُطْقًا وكتَابَةً، لحْنًا في القوْل، حينَ يَكُونَ زَلَلاً كتابيا، أو خطابيا، ولحْنًا بالقوْل، حينَ يجيء -قصْدًا- للتعْمِيةِ والتوْرية، حتى أصبحَ هذا النوْعُ الأخيرُ -في عصْر الضعْفِ- فنًّا مَعْرُوفًا من فُنونِ المُحَسِّنَاتِ البَديعية، والألاعيبِ الدلالية.

فكيف نُصَنِّفُ ما يَمْتَهِنُه صحفيو هذا العصر من "لحْن القوْل"، كتابةً، وخطابةً؟ هل هو لحْنٌ في القول؟ أم لحْنٌ بالقول؟

لقد أكد الصاغاني في معجمه: التكملة:4/ 510، أن الصحفي مشتق من التصحيف؛ حيث قال: (والَّذي يَقْرَأ الصَّحِيفَةَ ويُخْطِئُ في القِراءةِ ويُصَحِّفُ: صَحَفِيٌّ، بالتحريك.

وقَوْلُ العامَّةِ: "صُحفِيّ" بضمّتينِ لَحْنٌ.

والنِّسْبَةُ إلى الجَمْعِ نِسْبَةٌ إلى الواحِدِ؛ لأنّ الغَرَضَ الدَّلالَةُ على الجِنْسِ، والواحِدُ يَكْفِي في ذلك).

وماذا كان الأعرابي القحُّ الآنفُ الذِّكْر سيقولُ لو اسْتَكَّ مَسْمَعُه بنَقِيقِ هذهِ الضفادع البَشَرِيَّةِ، ربَّما تَمْتَمَ -مَعِي- رِفْقًا باللغةِ العَرَبيةِ! ثُمَّ أرْدَفَ -مَذْهُولاً- يا سُبْحانَ اللهِ.. يلْحَنُونَ، وبالصحافةِ.. يَسْتَرْزِقُونَ؟!

رحم الله عمر الفاروق، حين رد على أحد ولاته، عندما وصله منه كتاب فيه لحن، موصيا إياه بتعزيره: "قنع كاتبك سوطا"، لكن السؤال اليوم: من يعزر من؟ فالحاكم وكاتبه في اللحن سواء.

همزات الشياطين

هُناكَ هَمَزَاتٌ في اللُّغَةِ العربيةِ جَميلةٌ مَبْنى ومَعْنى، مثْلَ هَمْزَةِ "الإسْلامِ"، و"الإعْرابِ"، و"الإبْداع"، و" الإمْتاع"، و"الإحياء"، ورغْمَ ذلك يَنْدُرُ أنْ تُحَقَّقَ في تعْبِيرنا- أوْ تسْيِيرنا..

بَيْنَما رُبَّما نَحْرِصُ -لسُوءِ خَطِّنَا وحَظِّنا معًا- على تحْقيقِ أخَواتِها الصحيحةِ إمْلاءً، السقيمةِ إيحَاءً، مثل" الإفلاس"، و"الإذلال"، و"الإبعاد"، و"الإعدام".... حيث تَشْتَرِكُ كلُّ مَصادِرِ الفِعْلِ الرُّبَاعِي في الهَمْزِ الواجِبِ لُغَةً، خلافا لكل المَصادر الخُماسية والسُّداسية، التي يُعْتَبَرُ همْزُها -في العَربِية- من "هَمَزَاتِ الشياطين".

وهذه الهَمَزَاتُ -أعوذ بالله منها- مُنْتشرةٌ، في خِطاباتِنا إمْلاءً وإلْقاءً، تحْريرًا، وتعْبيرًا، مثْلَمَا هي مُنْتَشِرَةٌ في حياتنا وتصَرُّفَاتِنا، تعبيرا وتقريرًا، ومن أمثلتها:

همْزَةُ "الإنقلابات" العسكرية الوجيعة، التي تناسَخَتْ في بلادنا العربية، وأصبحتْ -في الخِطاباتِ الرائجة- تَتَّخِذُ وَضْعَ همْزَةِ قطْعٍ، لَمَا كانَ يَجِبُ أنْ يتَّصِلَ من الأحْكام المَدنية، مُسْتَقْطِبَةً منْ أشْبَاهِ النُّخَبِ السياسية والثقافية، كُلَّ "هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ"، وكُلَّ "هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ".

وهمْزَةُ "الإتحادات" الحزْبية، والنقابية، الوطنية، والإقليمية، والدولية، التي لمْ تُحَقِّقْ وحْدَتَها، ولا أهْدافَها، فكيف تُحَقِّقُ "هَمْزَتَها" التي لا يَجُوز لها أنْ تتحقق إمْلاءً؟

وأخْتُها همْزَةُ "الإصْطِفافِ" التي لا تَقِلُّ عنْها نشازًا في مَوْقِعِها من اصْطِفافٍ، قَلَّمَا يَتَحَقَّقُ علَى مَا فِيهِ خَيْرُنا.

وكذلك همْزَة "الإختبارات" العَسيرة، التي ظلَّتْ تكابدُها بلداننا، حُكوماتٍ، وشُعوبًا، وأفْرَادًا؛ فيَرْسبُ الجميعُ، وتبْقى هَمْزَتُها نَاتِئَةً، سَرطانا، مُؤْلِما، ومُنْتَشِرًا، في جَبِينِ لغةِ الضاد.

وهمزةُ "الإنتصار" الذي نسْمَعُ عنْه، في حين لا نَرَى سِوَى الهَزائِمِ المُتَتَالِيةِ.

وهمزةُ "الإنتظار" الذي طالَ.. وطالَ.. ومازِلْنَا في انْتِظارِ الذي لا يَأتِي.

كلُّ هَمَزاتِ الشياطينِ هذه، طالما آلَمَتْني، واسْتَكَّتْ منها أذنايَ سَماعًا، وأقْذَتْ عَيْنَي مُشَاهَدَةً، غيْرَ أنني لا أذْكُرُ أنَّ واحِدَةً منها خَلَّفَتْ فِي نَفْسِي أثرًا مثلما خَلَّفَتْه "همْزَةٌ حمْراءُ"، صَادَفْتُها -ذاتَ يومٍ- مَكْتُوبَةً على خلْفِية برنامج في إحدى قنواتنا، مُخَصَّصٍ للتبَحُرِ في اللغة العربية، حيث توسَّطت الخلْفيةَ/ الوَاجِهَةَ، كلمةُ:"الإحْمِرار"، بهمْزَةٍ تقْطُرُ دَمًا نازفًا من قلب العربية الفُصْحَى، مُحْدِثَةً خَرْقًا واسِعًا في جِدار الحَصَانَةِ، الذي ظَلَّ يَبْنِيه علماؤنا -عموما- حوْل اللغة العربية، مُعْجَمًا، وقواعِدَ، وعُلومًا، وتَدَاوُلاً...لاسيما أن "الاحمرار" هنا تَعْنِي كتابًا أَلَّفُه أحَدُ علمائنا الأجلاءِ "طرة" على " ألفية ابن مالك " في النحو.

ربما كان "الهَمَّازُونَ" العسْكريون والسياسيون، لا يستغرب منهم مثلما ذُكِرَ من "همَزات الشياطين"، وأخَواتها، ولكن همزَ "الإحْمرار"، هكذا، وبـ "الخَطِّ الأحْمَر" الكبير، في برنامجٍ علمي لتدارُس اللغة العربية، دون أنْ يَنْتَبِهَ له المُعِدُّ، ولا المُقَدِّمُ، ولا المُخرِجُ، ولا المُدَقِّقُ، ولا حتَّى اللغويُّونَ المُستَضَافُونَ، ولا.. ولا.. أحْرَى أنْ يَشْمَئِزُّوا، ويَمْتَعِضُوا...فهذا -في الحقيقةِ- لا يُمْكِنُ السُّكُوتُ عليْه.

رَحِمَ اللهُ عمر بن الخَطَّاب، كانَ إذا وَرَدَهُ كتابٌ به لَحْنٌ، من أحَدِ وُلاَّتِه، يَرُدُّ عليْه -غاضبًا-: "قَنِّعْ كاتِبَك سَوْطًا"، تعْزيرًا على اللحْنِ، فأيُّ عِقابٍ تَقْتَرِحُونَه لِمثل هذا الاسْتِهْتار المُتَفَشِّي؟!

أنا أقترحُ -على الأقلِّ- أنْ يُنصَحَ هؤلاء "الهَمَّازُونَ" بالرُّجوع إلى صُفوفِ المَدارِس الابتدائية، لأخْذِ قواعِدِ "الإمْلاءِ"، وأنْ يُؤكَّدَ علَى المُعَلِّمِينَ أنْ يُوجِعُوهم ضَرْبًا علَى الأكُفِّ، حتَّى يأخذوا الكتابَ بقُوَّةٍ، وأنْ يُنكَّل بكلِّ مُدَقِّقٍ لُغَوِيٍّ مُزَيِّفٍ، لا يَلْهَجُ دائما مع جميعِ المُسلمين، بـ:

" رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ".

اللغة العربية:
بين التسهيل والتساهل

تُعْتَبَرُ اللغةُ العربيةُ، مَرْكَزَ هُوية العرَب، الذي منه أخذوا اسْمَهم، حيث نقلت الانتماءَ من خصوصية العِرْقِ، إلى شُمولية الثقافة؛ فتَمَاهَى المُسْتعْربُ مع العَارِبِ، ثم اتسعت عوْلَمَتُها، منذ رسَّمَها اللهُ -جَلَّ وعلا- لغةَ للرسالة الإسلامية الكوْنية، لكن -عشقنا لها، وتدَلُّهنا بأسْرار بلاغتها- لا يُعْمِينا عن كوْنها مَحْبوبة صعْبَةَ المِرَاس، فإذا كانت اللغات عادةً تُقْرَأُ لِتُفْهَمَ، فإنَّ اللغةَ العَرَبيةَ تُفْهَمُ لتُقْرَأ، ولتُكْتَبَ، وهذا ما يجعلُ قراءتَها اليومَ -إذا لم تُضْبَطْ بالتشْكيل- شِبْهَ مُسْتَحيلةٍ، لاسيما بالنسبة لمن لم يكتسبْ سَليقتَها (مَنْطِقَها الداخلي الفِطْري).

ويُضاعِفُ هذه الصُّعوبةَ، أنَّ ضرورةَ التشْكيل، لا تقتصر هنا على أواخر الكلمات، المُتغيرةِ الحَركات، بتغيُّر عوامل الإعراب؛ رفعًا، ونصْبًا، وجرًّا، وجزْما، حسب قواعد (علم النحو)، بل إنَّ ضرورة التشْكيل، تتجَلَّى أكثر في (علم الصرف) حيث يجب ضبْطُ حركاتِ جميع حروف الكلمة، لأنَّ تغيرَ الحركة في أي حرْف، لا يغير الوزن (بنْيَتَها الصرْفية) فحسب، بل يغير الصيغةَ، والدلالة طبْعا.

ومادام "الإعراب"-كما يقال- مندرجٌ تحت المعاني، وكذلك (الصرف)، و(البلاغة)، وجميع فنون العربية، فإن كلَّ ذلك لا يُمْكِنُ فَهْمُه إلا من خلال المادة العضوية (الخام) للغة العربية، المتَمَثِّلة في الثرْوة المعْجَمِيَّة (المفردات).

وهكذا يتجلَّى أنَّ هذه اللغة ليست عِلْمًا بسيطا (أحادي البنية)، وإنما هي عدة علوم متكاملة، لا يُمْكِنُ فهْمُ بعْضها دون بعض، مما يزيد صعوبة امتلاك ناصيتها، والتحكم في جموحها، ولاسيما في عصرنا الراهن، عصر السرعة، والكسب السريع، وسهولة التواصل.

غير أنَّ هذه الصعوبةَ المَشْهودةَ، والمعْهودة، تقتضي التسْهيلَ، لا التساهُلَ؛ لأنَّ الأولَ يكفلُ لها سيْرورتها وصيْرورتها، ومِنْ ثَمَّ تَجَدُّدَها بيُسْرٍ وسُهولة، في حين يؤدِّي التساهلُ -المُبَالَغُ فيه- إلى تفكُّكِ نظامها الداخلي، وانْحلال قواعِدِها العاصِمَة، وتحوُّلها على ألْسِنَةِ الجُهَّالِ بقواعد نُطْقِها وبنائها إلى مُجَرَّدِ لهَجَاتٍ، كما حدثَ للغة اللاتينية وأخواتها، التي انقرضت عبْر التاريخ، ولم يبقَ إلا بناتها الهَجِينَة.

إنَّ هذا يُمكنُ أنْ يَحدث لأيِّ لُغَةٍ في العالم باعْتباره تغيُّرًا طبيعيا، ناتجا عن تفاعُلها مع حَواضِنِها الجغرافية، والتاريخية، وحتى الحضارية، ولكنَّ اللغة العربيةَ نتيجة حمولتها الدينية المقدسة، من حيث تنزُّلها لغةً للقرآن الكريم، ظلتْ بمَنْأًى عن ذلك التغيُّرِ الجِذْري، رغم صِفَتِها الكوْنية التي مَنَحَها لها تَمَاهِيهَا بالدين الإسلامي مُحْتَوى وأداءً، فكانت تستوعبُ حضاراتِ الشعوب والأمم الداخلة في دِينِ الله أفْواجا، دون أنْ تتَفَجَّرَ من الداخل، ولا أنْ تَتَصَدَّعَ -كثيرا- من الخارج، لأنَّ أغْلبَ العلماء، وحتى منْطِقُ الأشْياء، يَعْتَقِدُ ضمانَ الله لِحِفْظِها، بمُجَرَّدِ تكَفُّلِه بحفْظِ القرآن الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)- "سورة الحجر".

ومن هنا تضافرَت جميعُ علومِ اللغة العربية، الناشئةِ في حِضْنِ الإسلام، من أجْل تحْصين هذه اللغة "المقدَّسة"، من سطْوة الروافد والمُؤثَّرات اللغوية والتاريخية والحضارية العاتية، التي بدأتْ تتفاعلُ معَها منْذُ نزلَ الإسلامُ بها للناس كافة؛ وهكذا نالَ الاشتغالُ بهذه العلوم "الخادِمَةِ" نصيبَه من القدسية والتعبُّدِ، التي يتمتَّعُ بها القرآن "مَخْدُومُها"تطبيقا لقاعدة: "أنَّ مالا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب".

وفي ضوء هذا كانت أغلبُ الأقلام والعقول التي سُخِّرَت لخدْمتها وحِمايتها، تنتمي -نسبًا- لغير العرب، مما يعْنى أنَّها كان من المفْروض أنْ تكونَ جزْءًا من الثقافاتِ والحضاراتِ الوافدةِ المُهَدِّدَةِ لأنْظِمة العربية، لكنَّ قدسيةَ اللغة وحفظَها الإلهي المُشارَ إليهما سابقا، كانا كافييْن لتحويل" الدخلاء"، على هذه اللغة حُماةً لها.

والخلاصة، أننا -على قدْر فهْم صعوبة اللغة العربية هذه- ينبغي أنْ نسعى لتسْهيل، تعلُّمِها، واكتسابِ مَلَكَاتِها، ومَهاراتها، بشكلٍ وظيفي، يركِّزُ على اسْتِبْطان القواعد، أكثر من اسْتِظْهارها، لأن ذلك هو أَصْلُ الفِطْرة اللغوية المَرْكُوزة فينا، فوضْعُ القواعد جاء متأخرا، بعد فساد السليقة العربية الأصيلة، وتعقيدات الحضارة.

أجَلْ، قبل وضْعِ علوم العربية، كانت هناك النصوص، حيث يَتَشَبَّعُ المُتَعَلِّمُ للغة العربية، بمنْطِقها العِلْمي، عبْر التفاعل الخلاق مع نصوصها، وتَفَهُّمِ سياقاتها، تناولا وتداولا، فلْنَدْرُسْ القاعدةَ من خلال النص، أكثر من قراءة النص من خلال القاعدة.

تلك مهمتنا جميعا.

الشهور العربية.. بين الجاهليتين

اليوم، في ظل موسم الحج الأكبر، وبعد دخولنا منذ فترة ضمن مدار الأشهر الحرم، مع أن حروبنا المشتعلة حول أنفسنا، لم تضع أوزارها أبدا، أجدني مدفوعا إلى تأمل تسميات الشهور العربية ودلالاتها، بين الجاهليتين: الجاهلية الأولى، التي أنقذنا منها ديننا الإسلام، الذي جاءنا به رسولنا الخاتم الكريم، والجاهلية الأخرى، التي نتخبط فيها الآن، بعد حوالي خمسة عشر قرنا، دون هاد، ولا منقذ، ولا....

إن مقاربة التسميات اللغوية للشهور العربية في الجاهلية الأولى،تكشف -بيسر- المعاني اللغوية، والخلفيات، المناخية الجغرافية، والاجتماعية، والدينية، والثقافية...، التي تستبطن علاقة اللغة بجدل ثالوث: الزمان -المكان- الإنسان، في هذا المبحث اللغوي العتيق؛ حيث "يحكى أن العرب، حين وضعت الشهور، وافق الوضْعُ الأزمنةَ، فاشتُقَّت للشهور معان من تلك الأزمنة، ثم كثُر، حتى استعملوها في الأهِلَّة، وإن لم توافق ذلك الزمان، فقالوا: رمضان: لما أرمضت الأرض من شدة الحر، وشوال: لما شالت "النوق" بأذنابها، "إغواءً للفحول"، وذو القِعْدة: لما ذللوا القعْدان للركوب، وذو الحجة لما حَجُّوا، والُمحَرَّم: لما حرَّموا القتال....والصَّفَر لما غزوا؛ فتركوا ديار القوم صفْرا، وشهر ربيع: لما ارتبعت الأرض، وجُمَادَى: لما جمد الماء، ورجَب: لما رجَّبوا الشجر(أو عَظَّمُوا الشهْر)، وشعبان: لما أشعبوا العود، (أو تشعبوا وتفرقوا)."

فتعالوا لنتأمل الفرق الشاسع بين دلالات الشهور العربية نفسها، في تقويمي جاهليتنا الأولى، وجاهليتنا الحالية، وهنا سوف نتفاجأ بغياب استحضار الدلالات القديمة للشهور، لعدم استعمالنا لها اليوم، إلا في نطاق ضيق جدا، بحيث لو أجرينا استطلاعا صحفيا لمواطني العالم العربي حول تسميات هذه الشهور، لصدمنا بقلة النسبة التي تعرف أسماءها، علما بأن تغييب الاسم يقتضي- ضرورة- تغييب الُمسَمَّى، بحمولة دلالاته الثقافية والحضارية المركبة.

ومن هنا لا غرابة أن تختفي تماما" حرمة الأشهر الحرم"، التي ترسخت في الجاهلية الأولى، وأقرها الإسلام، ثم لم يعد لها عندنا اليوم أي حضور، فحروبنا - ضد أنفسنا- الآن مستعرة، وهل نخوض حروبا إلا ضد أنفسنا؟!

ورَمَضُ شهْر "رمضان"، قهرتْه المكيفات -لله الحمد- عند الأغنياء فقط، وفي "شوال": لم تعد النَّوق هي وحدها التي تشول بأذنابها تعرُّضًا لــ "طُرُوق" الفُحول، ولم يعدْ شهر" ذي القِعدة"، مخصصا لتذليل قِعْدان الإبل للركوب، فكم فينا من "مُخَلَّفِينَ"، فرحوا "بمقعدهم" خلافَ رسول الله... وذو الحجة...نُوَلِّي فيه وجوهَنا شطْر مواقع الراحة، ونحجُّ إلى منتجعات الاصطياف والسياحة.. أينما كانت...وفي "صفر" لا تصفر ديار أعدائنا، بل تصفرهنا بلادنا من شعوبها المستنزفة، من أوطانها بالقتل، والتدمير، والتهجير.. حيث نخرب بيوتنا بأيدينا...ويقتل الأخ أخاه.. ونعتبر-جهلا- أن هناك منتصرا ومنهزما.. دون الشعور حتى بندم "قابيل" على قتل أخيه هابيل، ويا ليت شعري: أينا قابيل؟ وأينا هابيل؟ إن البقر تشابه علينا!

وفي "الربيعين"، لا يكاد الأمن يتوفر للارتباع، والانتجاع، ضمن مساقط الغيث والكلأ، عبر "خرائط الوجع"، في وطننا الكبير.

أما شهْرا "جُمَادَى"، فلم تعدْ تتجمّد فيهما إلا مشاعرنا الإنسانية النبيلة تجاه بعضنا البعض، ما بين الماء إلى الماء...

ويبدو لي شهر "رجب"، غضبان أسفا، لأنه أفرغ من معاني"الهيبة" و"التعظيم"، ودعم الجذوع والفروع المتهاوية، التي بُنِيتْ عليْها تسْميتُه، كما فقدَ دلالة لقبه "الأصم"، في الجاهلية الأولى، حيث وصف -أصلا- بالصمَم، لأنّ" صوت الأسلحة لا يسمع فيه، ولا صوت الاستغاثة."، ففي هذه الجاهلية الحالية، لا صوت يعلو فوق صوت طبول الحرب، بين الأشقاء، ودوي القصف برا، وجوا، وبحرا، فوق أوطاننا، من قِبَلِ أوطاننا.... في رجب الفرد، وفي بقية الأشهر الحرم السرْدية، التي حرَّمَتْها الجاهلية الأولى، وحرَّمَها الله، واستباحتها جاهليتُنا اليوم.

كما أنَّ "شعبان"، لم تتشعب فيها إلا أهواؤنا، ونزعاتنا.... فأي جاهلية هذه يا رب؟!

المثنى على التغليب:
بين فقه اللغة واقتصادها

اللغة العربية -مثل كل اللغات- تعتمد نظرية الاقتصاد، بحيث تختار في إنجاز الكلام ما يكلفها أقل مجهود عضلي، وبما أن الأصل في التثنية هو أنْ تعطف أحد الاثنين على الآخر، مثل: رجل، ورجل، اختزلت العربية ذلك في لفظ واحد هو المثنى، يدل على كل اثنين توحد نطقاهما، فتقول: رجلان مثلا، بدلا من عطف أحدهما على الآخر، لكن المثنى على التغليب يتميز عن المثنَّى العادي، بأنه يجمع في لفظ واحد بين اثنين، مختلفين في لفظيهما، بحيث يغلب أحدهما على الأخر، كالعمرين، دلالة على أبي بكر وعمر، وقد تختار العربية نوعا ثالثا من المثنَّى، يجمع بين اثنين في وصف مشترك بينهما، فيسميهما: الأطيبين أو الأخبثين ...

وللتدليل على ثراء اللغة العربية، ووفرة مادتها بشكل منقطع النظير، أحببت اليوم أن نراجع -معا- درسا من فقه اللغة، في هذا الباب، قلما تجد له نماذج مجتمعة بهذا الحجم، حسبما ورد في كتاب: "الإبانة في اللغة العربية" لسلمة العوْتبي الصحاري؛ حيث جاء فيه- بتصرف:

الأخيران: العدْل والهذَر، والأخرسان: النؤي والحجر، والأخبثان الجَدْب والعسر، والأطيبان: الخصب واليُسْر، الأغْزَران: البحر والمطر، الأنضران: النّوْر والزَّهَر، الأسيران: الشعر والسَّمَر، الأفيحان: البدو والحضر، الأصدقان: الآي والسؤر، الأكثران: النصر والظفر، الأكران: القدر والخطر، الأفشلان: اللوم والجور، الأكرمان: السمع والبصر، الأعجزان: العِيُّ والحصر، الأغبران: الرمل والمدر، الأخضران: الزرع والشجر، الأحمران: اللحمُ والخمْر، الأجملان: الحمدُ والشكر.

والأسودان: التمرُ والماء، والأبيضان: الخبز والماء، وقيل: الشحم والشباب، وقيل: اللبن والماء، والأطيبان: الطيبُ والنكاح، والأصفران: الذهب والزعفران، والمُرْمِضَان: الوَجْد والكَمَد. المُقْرِحان: الدمع والسُّهد، المُنْحِلان: السُّقْم والجُهْد، الوابلان: السكب

والبرد، الأسودان: القلب والكبد، المُعْجبَان: الغصن والعقد، المُعْرضان: العقل والقود، الأجمدان: الصبر والجلد، الأقصدان: القرب والصدد، الراسيان: الركن والعمد، المصرعان: البغي والحسد، المَعْقِلان: العز والعَدد، النعمتان: الأمن والرَّغَد، الماضيان: السيف والأسل، الهاديان: الرُّشْدُ والسَّدَد، العُدَّتان النصر والمدد، المحرمان: البأس والعدَد، الأشأمان: الغُرابُ والصُّرَد، المُوبِقان: الجُبْن والنكد، الأسعدان: النَّجْحُ والرَّشَد، المُبْهِجان: البِشْرُ والصَّفَد، الوَطَنَان: الأهل والولد، المُفْضِيان: الوعر والجدد، الذخران: الطارف والتالد، الأعظمان: الرأسُ والجسد، الكاهلان: الجيدُ والكتدُ، المُقلقان: الجوعُ والصرد، الأبكمان: النُّؤْيُ والوتد، الفتنَتَانِ: المالُ والولد، الزائِغان: الأمْتُ والأود، العاملان: العُمر والأيد، القمران: الشمس والقمر، العمران أبو بكر وعمر، والبصرتان: الكوفة والبصرة، الجديدان والملوان: الليل والنهار، والعصران: الغداة والعشي والحجران: الذهب والفضة، والأصمعان: القلب الذكي والرأي الحازم، والأصغران: القلب واللسان. والغاران: البطن والفرج، وهما الأجوفان والطرفان: للرجل نسبه من قبل أبيه، ونسبه من قبل أمه. يقال: فلان كريم الطرفين. والأخبثان: البخرُ والسهر، الأسودان: قيل: الليل والحَرَّة. والمسجدان: مسجد الكوفة، ومسجد المدينة.

والحرمان: مكة والمدينة، والخافقان: المشرق والمغرب، لأن الليل والنهار يخفقان فيهما. المصران: الكوفة والبصرة، وهما العراقان. والقريتان: مكة والطائف. قال الله -عز وجل- {لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} يعني: مكة والطائف. الهجرتان: هجرة إلى المدينة وهجرة إلى أرض الحبشة.

الأهيغان: الخِصْبُ وحُسْنُ الحال. الأبتران: العبد والعير، سُميا أبترين لقلة نسلهما. الأصرمان: الذئب والغُراب لأنهما انصرما من الناس، أي انقطعا. والأزهران: الشمس والقمر، الفرجان: سجستان وخُراسان. الأيْهَمَانِ عند أهل البادية: السيلُ والجمَلُ الهائج، وهما الأعميان، وعند أهل الأمصار: السيلُ والحريق....

احتفاء موريتانيا بالضاد..
بين الأجداد والأحفاد

قبل أن يصبح للغة العربية يوم عالمي للاحتفال بها، كانت أيام أجدادنا كلها احتفاء بهذه اللغة، التي تمتعت بمكانة خاصة في بلاد شنقيط، منذ عهْد "البلاد السائبة"، وحتى عهد "الدولة الجمهورية"، منذ عصر "الكتَّاب والمحظرة"، إلى عصْر "المدرسة والجامعة"، هناك عشق عريق، متجدد، رسَّخَ الأجدادُ أواصره، ومازال الأحفاد، يسْتمْسِكون منْه بــ "العُرْوَةِ الوُثْقى لا انفصامَ لها"، فقد كانوا في بداوتهم الاستثنائية في عِلْمِيتها المشهودة، وعبْقريتها المعْهودة، يسترْجِعون -للغة العرَب- مجْدَ فصاحتها الغضة في بوادي "الجاهلية الأولى"، وزهرةَ رقيها العلمي في أمَّهات مدارسها، بحواضر العراق، وأخواتها.. مَشْرقا ومَغْربا، فكانوا كما قال شاعرُهم القديم ابن حنبل الحسَني، مُفْتَخرًا بتضلُّعِ الشناقطة، من هذه اللغة، في مَنَابِعها البدوية الصافية، ومَدارسها الراقية، وتمكُّنَهم من ناصية شِعْرها، باعْتبارهم نسْخَةً طبْق الأصْل من عرَبِ الجزيرة الأصُلاء، إنْسانا ومكانا، وإن تأخروا زمانا:

وقـــريضٍ.. بـــتُّ أبْنـــي.. فغـــدَا	مثــل نظــم الغِيـــدِ تقْصـــارَ الـــذهَبْ
آخِــذًا مــنْ لحْــن أقْحــاحِ اللُّغَــى	مُضَّــغِ القيْصــومِ والشِّــيحِ النُّجُــبْ
مِـــنْ لآلي حَـــاضِريهمْ أصْـــطَفِي	ومـــنَ الأعْـــرَاب رَشَّـــافِي العُلَـــبْ

إنَّ هذا التَّماهي باللغة العربية، جَعَلَهم يختزلون جَدَلَ الهُوية المُثارَ حوْل انتمائهمْ العَربيّ، بقوْل شاعرهم الآخر:

إنَّــا -بنــي حَسَــنٍ- دلــتْ فصــاحتُنا	أنَّـــا إلى العـــرَبِ العَرْبَـــاءِ ننْتَسِـــبُ
إنْ لمْ تقـــمْ بَيِّنَـــاتٌ أنَّنَـــا عـــرَبٌ	ففـــي اللســـانِ بيـــانُ أنَّنـــا عـــرَبُ

وما دامَ التعرُّبُ، هو جوْهرُ العروبة، ومَرْصَدُ مِصداقيتها؛ فقد تمادَى شاعرُهم الثالثُ، في الافتخار-قديما- بهذه الطبْعة الشنقيطية الجديدة من الفصاحة العربية، المتوارثة عبْر الجينات، تفاعُلا بيْن الأصْلاب والترائب، "ووَالِدٍ ومَا وَلَد"، حيْثُ قال مُتباهيا:

لنـــا العربيـــةُ الفُصْــحَى.. وإنَّـــا   أحَـــقُّ العـــالَمِينَ بهـــا.. انتفاعـــا

فَمُرْضَــعُنا الصــغيرُ.. بهـــا يُنـــاغِي   ومُرْضِـــعُنَا تكوِّرُهـــا.. قِنَاعـــا

وللقارئ الكريمِ أنْ يأخذَهُ العَجَبُ عندما يعلمُ أنَّ كلَّ هؤلاء الشعَراء، الذين اسْتَدْعيْنا لهم هنا مُجَرَّدُ فُصوصٍ من نُصوصٍ، كلهم يَنْحَدِرُونَ من قَبِيلَةٍ شنقيطية واحدة، فما بَالُك، لوْ فتحْنا نافذةً أوْسع على المَشْهد العربي الشنقيطي، فِي تعدُّديته الثقافية، والقبلية والجهوية الغنية، فإذا كانَ العالمُ "المكودي" آخرَ من يحفظ " كِتابَ سيبويه"، فإنَّ أحَدَ باحثينا يعتبر أن آخرَ من كانَ يحفظُ.

"كتابَ "التسْهيل " لابْن مالك، في شنقيط هما العالمان: الشيخ سيديّ بن المختار الهيبة، ومحمد بن الطّلبة، من أعلام القرن13هـ.

كما أنَّ الشيخ الشنقيطي: محمد محمود بن التلاميذ، كان يصحِّحُ معجم "القاموس المحيط" للفيروزبادي من ذاكرته، وأغلب أمَّهات التراث العربي، بحيث تعتبرُ نُسَخُه عند كبار المُحقِّقينَ، هي أصحُّ المخطوطات، منذ عصْر النهْضة الحديثة، حتى الآن... ويكفي أن "طه حسين"، و"حسن الزيات"، كانا من تلاميذه، الذين انبهروا به، وكتبوا عن موسوعيته....

وقد شهدَ الأديبُ اللبناني "محمد يوسف مقلد"، بعبقرية الشناقطة، وخصوصا في مجال لغة الضاد، تعَرُّبًا وتعريبا، وهو-في الحقيقة- شاهدُ عيان، عايش القوم، فترة إقامته بدولة السنغال، وعرفَ فضاءهم البدويّ العجيب، الذي يعتبرُ مصدرَ إشْعاع حضاري، حدَّدَ برْزَخَه الجُغْرافي، "موطن الذكاء الخارق"، بما بيْن "النهْر السنغالي" جنوبا، إلى "الساقية الحمْراء" شمالا، مع العلم أنَّه قدْ ألَّفَ أكثرَ من كتاب عن موريتانيا وشعرها، وإشْعاعها المعْرفي في إفريقيا؛ فقال:

للضَّاد في إفريقيا رايةٌ

خفَّاقة.. رفَّافة.. عاليهْ

يرفعُها العُرْبُ بنُو عمِّنا

البيضانُ أهْلُ الهِمَّة الساميهْ

إنِّ الذَّكا.. كُلَّ الذكا.. كائنٌ

-تالله- بين "النهْر" و "الساقيهْ"

وهذا الدور الريادي، هو ما ألمحتُ إليه في قصيدة "المآذن السائبة"، حيث قلت:

رَكْـــبُ الشــــناقِطةِ الألى صــــنعُوا اسْـــمَنا ... أبْــــناءُ هــــذا الرَّمْــــل.. أهْــــلُ الله!

جَعَلُــوا "ظهُــورَ العِــيس مَدْرَسَــةً".. تَجُــو ... بُ الأفْــقَ.. خَلــفَ العُشْــبِ.. والأمْــوَاهِ

قــدْ عَرَّبــوا أقْصــَى التخــوم.. فأصْــبَحَتْ ... لِلسّاكِنِــــي أرْض الحِجَــــازِ تُبَــــاهِي

لُغَــةُ السّــمَا.. تــزْدَانُ.. مِــلْءَ شِــفَاهِهِمْ ... وَمُعَلّــقــاتُ الشِّـــعْرِ.. زهْـــوُ مَــــلاهِ

احتفاء "بلاد المليون شاعر"
بيوم الضاد

رأيْنَا فِي الحَلقة الماضيةِ كيف احْتفَى أجْدادُنا الموريتانيون باللغة العربية، وتلبَّسُوا بها، وتلبَّستْ بهمْ عشْقا وهُوَية، واليوْمَ نفْتحُ شُرْفَة إطْلالةٍ على احْتفاءِ شبابِ "بلادِ المليون شاعر"، باليوْم العَالمي للغة الضّاد، الذي سبَقَ لِي أنْ كتبتُ قَصِيدَتِي" الضادُ لغة السما"، التي أقولُ فيها:

الضـــادُ.. يـــا لُغَـــةَ السَّـمَـــا.. أعْــــلاكِ
يـا طَلْسَـمَ السِّـحْرِ.. المُعَتَّـق.. مِـنْ خُـلا
فَتَبَجَّســـِي.. فَـوْقَ الشِّـفَـــاهِ.. جَـــدَاوِلاً
رُصِّي عَنَاقِـــيدَ الحُـــرُوفِ.. بِســـدْرَةِ الْـــ
ولتـــزْرَعِ الـــنقطُ الحُـــروفَ.. بـأنجـــم!
لُغَـــة.. تُغَـنِّـــي.. نفْسَـــها.. لِجَمَـــالِها!
تتَضَـــوَّعُ الدُّنْــــيَا.. إذا عَبَـــقَ الشَّــــذَى
لُغَـــةَ السَّـــمَا- أمِّـــي.. أبِّي.. دِينِـــي.. هُـــوُ
أهْـــوَاكِ.. أفْنَـى.. فِيــكِ.. أحْيَـا.. أرْتَقِـي
لَــــوْلاكِ.. لمْ تَــــدْرِ المَشَـــاعِرُ كيْـــفَ تُـــ

الضـــادُ.. يـــا لُغَـــةَ السَّـمَـــا.. أعْــــلاكِ
يـا طَلْسَـمَ السِّـحْرِ.. المُعَتَّـق.. مِـنْ خُـلا
فَتَبَجَّســـِي.. فَـوْقَ الشِّـفَـــاهِ.. جَـــدَاوِلاً
رُصِّي عَنَاقِـــيدَ الحُـــرُوفِ.. بِســـدْرَةِ الْـــ
ولتـــزْرَعِ الـــنقطُ الحُـــروفَ.. بـأنجـــم!
لُغَـــة.. تُغَـنِّـــي.. نفْسَـــها.. لِجَمَـــالِها!
تتَضَـــوَّعُ الدُّنْــــيَا.. إذا عَبَـــقَ الشَّــــذَى
لُغَـــةَ السَّـــمَا- أمِّـــي.. أبِّي.. دِينِـــي.. هُـــوُ
أهْـــوَاكِ.. أفْنَـى.. فِيــكِ.. أحْيَـا.. أرْتَقِـي
لَــــوْلاكِ.. لمْ تَــــدْرِ المَشَـــاعِرُ كيْـــفَ تُـــ

فما كدتُ أنشرُ هذه السنة مقْطعا منها، حول المناسبة نفْسِها، حتى لفَتَ انتباهي، من خلال تتبُّعي لمنشورات شباب شُعرائنا، مَدَى تفاعُلِهم القويِّ والجميل مع هذا اليوم، فهذا الشاعرُ الملقَّبُ: المُعتصم الأمير، يصلُ حدَّ التدَلُّهِ، بهذه اللغة التي سمَّاها في عنوان قصيدته:"الضاد المقدس":

مَنَـــازِلُكِ.. الأولــى.. مـن الحُـبِّ لم تـزلْ تفيضُ.. ومن سِحْرِ الجَمـالِ.. أوَاهِلُ

تأبَّطَـــكِ المَاضُـــــونَ.. أغْنيـــةً.. ولمْ تزلْ منْ صَدَى مَاضِيكِ تشْدُو البَلابِلُ

تَـــدَثَّرْتِ.. بالقُـــرْآنِ.. أجْمَـــلَ حُلَّـــةٍ فأيُّ لُغَـاتِ الكـوْنِ.. سوْف تُمَـاثِلُ؟!

حُـــرُوفُكِ.. آيَــاتٌ.. و"ضَـــادٌ مُقَـدَّسٌ ومَا كتبَتْ نُـورًا.. سِوَاكِ الأنَـامِلُ!

وغيرُ بعيدٍ من هذا الوَلَهِ الصوفي في عشْق "لغتنا الجميلة"، يقفُ الشاعرُ: صدف أحميتي فال، "في مَقَامِ الْعِشْقِ"، عنْوان قصيدته، التي يسْتهِلُّها مُعلِّلا شغَفَه الطاغي بمَحبوبته:

لأنَّكِ.. نَبْعٌ.. فَـاضَ.. فـي دَمِنَـا.. عِشْـقا عشقنـاكِ.. كنْتِ العيْنَ.. والسـمْعَ.. والنُّطْقَـا

تَبَـارَكَ.. مَـنْ جَــلاَّكِ.. للنَّــاس.. آيَـة وزَادَكِ.. بالقُـرْآنِ.. مِـنْ عنْـده.. خـلْقا

ودارتْ بنــا الأيَّــامُ.. جُـــبْنَا مَـــدَائِنًا ومَـا زلْـتِ للإلْـهـامِ.. عُرْوَتَـه الوُثْـقَــى

ومـا زلـتِ نُـــورًا.. في الـدُّروب مُسَــافرا يَجُــولُ.. بِـــها.. غرْبـا.. ويذرعُــها شرْقـا

تجلَّيْـت.. فـــي زهْــوٍ.. وجَلَّيْــتِ عَـــالما من السِّحْر، بل أزْهَى من السِّحْر، بل أنْقى!

حفظتِ.. لَنا.. عهْدا.. قَـديمًا.. ترَبَّصَـتْ بـه دوْلـةُ الأشْــرارِ.. تسْحَقُــه.. سَـحْقا

لِــذلكَ.. مَـــا ينْفــكُّ.. يُنْشِـــدُ شـــاعِرٌ قصائدَ.. مـا تنْفكُّ.. فِـي نشْـوة.. تُلْقَــى

ويَجْتَمِــعُ الأبْـــرارُ.. فِي كُـــلِّ مجْمَـــعٍ يَذُودُونَ.. عنْك.. اللحْنَ.. إنْ جاهِـلٌ عَقَّـا

مَقامُــكِ.. مَحْفُـــوظٌ.. ومَجْـدُكِ.. خَـــالِدٌ فَــلا رَثَّ ثـوْبٌ.. أنْـتِ فِيـهِ.. ولا شُــقَّا

وفي الأخيرِ اسْتوْقفني شاعرٌ شاركَ إخوانَه الاحتفاءَ بلغتنا العربية الأصيلة، غير أنه غرَّدَ خارجَ السِّرْب، حين غمَسَ ثوْب احتفاله، بمستنقع مأساة العرب، فجاءَ على قميصِ اليوم العالمي للغة العربية بدمٍ غيْر كَذِبٍ، حين قال -مستفهمًا- في قصيدته "بكائية الحرف":

كيـــف للضـــادِ أنْ تُـــزَفَّ عَــــروسا والليــــالي مــــآتمٌ..... وطـــــلاقُ

كيـــف للشـــعْر أنْ يكــــونَ بخـــيرٍ وعــــلى مِعْصَــم الحُـروف وثـــاقُ

لا الجَمِـــيلاتُ.. يَحْتَفـــينَ.. بشــــعْر ودمُ الحـــــرْفِ.. بيْـــنهنَّ.. مُــــراقُ

والـــدَّواوينُ- في الرُّفُـــوفِ- بَغايـــا في المَـــــواخِير مَــــاهنَّ صَـــــداقُ

والــرؤى الــزُّرْقُ في خُــدودِ المَرَايــا هجَرَتْهَــا الشِّـفَــاهُ.. والأحْــداقُ

هكـــذا الشــعْرُ.. صـــارَ منْــذُ هُزِمْنــا فهَوانــــا.. تمَلُّـــــقٌ.. ونفـــاقُ

وحتى لا يكون هناك انفصام ولا تمَلُّق ولا نفاق، أكرِّرُ رفْعَ صوْتي في الختام بعريضة مطلبية، قديمة متجددة، خلاصتُها: أنِّي أتمَنَّى أنْ يصدرَ قانونٌ دولي يجرِّمُ التهاوُن في التعاطي مع اللغة العربية، ويكرِّمُ من يحتفي بجلالها، حتى لأرى اللاحنينَ، يأخذونَ عُقوبتَهم الزجْرية الرادِعة، بالتكْمِيم، والضرْب، والتغْريم، والمُعْرِبينَ، الفُصحاء البُلغاء، يتبوَّؤون، مَعارجَ التكريم، ومَقاعد التعْظيم..

الحسانية:
النشـأة.. الفضاء.. البصمات

اللهجة الحسانية أخذت اسمها من نسبتها إلى بنى حسان، الـذين بصـموا اسـمهم عـلى خلاصة لفيف القبائل العربية التي شكلت مكونات ما عرف ب "تغريبـة بنـي هـلال"، فهـم سلالة عرب المعقل القادمين من أعماق الجزيرة العربية "مهد الأصالة"، عبر رحلـة طويلـة في الزمان والمكان والإنسان، استفادوا خلالها من كل ألوان الحضارات التـي اجتازوهـا عـابرين، دون أن تطمس هويتهم البدوية العربية المستحكمة، حتى انتهوا بها إلى أقصي مرامـي الرحلـة، في أعـماق "المَجابَـاتِ الكـبرى" بصـحراء موريتانيـا، حيـث وصـلوا إليهـا في القـرن 8هـ/ 14م...فأخـذت اللهجـة العربيـة الحسـانية تتغلـب عـلى اللهجـات المحليـة للسـكان الأصليين، شيئا فشيئا.

أما بالنسبة لانتشار هذه اللهجة الحسانية، فقد كان تابعا لطقس الهجرة والترحل الذي يسكن في جينات حامليها منحدرا إليهم من أجْدادِهم الفاتحينَ، ومن إيلافِ قبائلِ المَعْقلِ والبَرْبَر -معًا- للإيغالِ في الصحْراء، انتباذا بالعِزَّةِ من ذلِّ السُّلْطان"، ومن مُجْمَلِ "مِيراثِ السَّيْبَةِ" المُتَجَذِّرِ في مجالها الصحراوي الحر المفتوح، الذي تفاعلت فيه لهجات السكان الأصليين بربرا وزنوجا، مع العرب الفاتحين، والمهاجرين، والنازحين، تحت ظل الإسلام، المكرس لسيادة العربية، باعتبارها اللغة التي اختارها الله لتكون حاملة وحاضنة لرسالته السامية العالمية، إلى الناس كافة؛ وقد فضل الدكتور الموريتاني المرحوم: أحمد بن الحسن "جمال" أن يسمي هذا التفاعل: "تعربا، لا تعريبا، لأنه حدث عفويا، خاليا من الضغط والإكراه، وهو يعتبر أن هذا التعرب الذي شمل المجال الشنقيطي-بمفهومه القديم الواسع- بعد دخول بني حسان، هو امتداد لتعرب بلاد المغرب العربي الكبير. بفعل الهجرة الهلالية، وأنه جاء متأخرا عنه في الزمان، تبعا لموقع بلاد شنقيط في المكان".

أما فضاء انتشارها، فهو فضاء الناطقين بها، وهو مجال للسان، وثقافة "البيضان" الممتد من موريتانيا إلى جنوب المغرب، وجنوب الجزائر، وشمالي مالي، إلى منحنى نهر النيجر، ويرى الباحث المغربي الأديب: ماء العينين "بوي لعتيك" أن الموريتانيين هم مركز الأصالة الحسانية ومنطقة الاستشهاد في ثقافتها" فعلى مقدار الاقتراب أو الابتعاد من الحدود الموريتانية تختلف (اللهجة الحسانية) فصاحة وعمقا، فإن اقتربنا كانت أقرب إلى فطرتها... وإن ابتعدنا كان العكس".

وهنا أحب أن أختم بأن اختلاف اللهجة الحسانية -بحسب مناطقها- تابع لمؤثرات التفاعل الثقافي الحضاري الإنساني، ومن ثم اللغوي، فكلما تجاور مكونان اجتماعيان مختلفان، بدأ التفاعل والتراسل اللغوي بين لسانيهما، ومن هنا تبدأ سيرورة التأثر والتأثير، بين الفاعل والمفعول به حسب سلطة الخلفية الحضارية للمؤثر الأقوى، وبما أن اللغة العربية تستمد قوتها من ارتباطها بالقرآن، حيث أخذت منه بعدها الكوني، وخرجت به من ضيق هويتها العرقية، إلى سعة الهوية الإسلامية العالمية، فانتشرت وانتصرت حيثما انتشر وانتصر هذا الدين الشامل، المخاطب للإنسان أيا كان، وحيثما كان...فكانت تتأثر بجوار العنصر البربري في بيئته، وبالعنصر الزنجي في بيئته، وحتى بالعنصر الاستعماري الوافد فرنسيا، أو اسبانيا، كل حسب مجاله.

2018/11/6

اللغة العربية:

بين علامات الترقيم.. التنغيم.. التهويم

تَخْصيصُ يوْمٍ للغة العربية -في العام- مُهِمٌّ، لكنَّ الأهَمَّ أنْ نَجْعَلَ الأيامَ كلَّهَا للُغَتِنَا الجَديرةِ بالتكْريمِ، عَقَدِيا، وقوْمِيا، ووطنيا، واحتفالاً بهذه المُناسَبَةِ، يَطِيبُ لِي أنْ أشَارِككمْ هذهِ الخَواطِرِ.

فاللغة -في حَدِّها الأدْنى- سلسلةٌ من المُفْرَدات، المُعَبَّأةِ بالمَعاني، في إفْرادها وترْكيبها، وبما أنَّا تُنْجَزُ عبْرَ جهاز مُشْتَرَكٍ بينها وبين عملية التنفس، فقد اقتضتْ هذه الوظيفةُ الحَيَويةُ المُزْدَوجةُ أنْ تكونَ عمليتَا التنفس والتكلم معًا يلتبسُ فيهما الفيزيولوجي، بالسيكولوجي. ولهذا كان إنْجازُ الجُمَلِ الكلامية، محدودا مَدَاه، بمَدَى جدَلِية الشهيق والزفير، ونظرًا لعلاقة هذه الجدلية، بالحالة النفسية، والطقسِ الشعوري، فإنَّ الجُمَلَ المُنْجَزَة في لحَظَاتِ الانْفِعَالِ المُحْتَدِمِ، تكونُ -حتْما- قصيرةً، مُتلاحِقةً، حسَبَ تلاحُقِ أنْفاسِ المُتكلِّمِ المُنْفَعِلِ، خلافًا لأخَوَاتِها المُنْجزة في جَوٍّ نفْسي هادئٍ، فإنَّها تكونُ أكْثرَ امْتدادًا، وأقلَّ توَتُّرًا.

وفي ضوْءِ هذه الرُّؤْيَةِ يبْدو جهازُ اللغةِ مُعَزَّزًا بمَنْظومةٍ من التَّعابيرِ الانْفعاليةِ، تُجَسَّدُ في الكِتابةِ بعَلاماتِ الترقيم، وفي الإلقاءِ بعلاماتِ التنغيم الصوتية، إضافة إلى لغةِ الجسَد الحركية الإشارية، التي يُمْكِنُ أنْ أسمِّيها بعلامات التهْويم. حيث إنَّ العلماء المعاصرين أعطوا للأبعاد غيرِ الملفوظةِ منْ تعابيرِ الكلامِ نسبةً أكثرَ من ثمانين بالمائة.

ومادام "لِكلِّ مَقامٍ مَقالٌ"، فإنِّي لاَ أقْصرُ "اللَّحْنَ" -في اللغة- على الإخْلالِ بقواعدِ الإعراب، والصرفِ، حسَبَ مَفْهُومِه التقْليدي، وإنَّما أعْتَبِرُ الإخْلالَ بكُلٍّ من الترقيم، والتنغيم، والتهويم، لحنا أيضا.

وإذا كانت علاماتُ الترْقيم مَعْروفةً، وضَرُورِيَّةً جدًّا لتفْصيلِ المكتوب وتزيينه، وتوضيحه، فإنَّ علاماتِ التنْغيم، لا تَقِلُّ عنْها أهَمِّيةً، لأنَّها تُراعَى -هي الأخرى- لتفْصيلِ

الكلام المَنْطُوقِ، وفق إيحاءاته الدلالية، وكذلك علامات التهويم، فالأولى: تُكْتَبُ فوْق البياض إمْلاءً، والثانية: تُكْتَبُ -صوتيا- في الأثير إلْقاءً، والثالثة: تكتب -حركيا- في الفضاء إيماءً، والانْتباهُ للمَواقِعِ الدقيقةِ لها جميعا، من خُصوصياتِ الأذْكياءِ، حيثُ تَتَلَوَّنُ الدّلالاتُ بِوُجُودِهَا، ويَضِيعُ كثيرٌ من المَعاني بدُونها.

وكلُّ هذه العلاماتِ الآنفةِ الذِّكْرِ: وسائلُ إيضاحِيةٌ لتَلَوُّنِ الدلالات الأسْلوبية، على مُسْتَوَى الكلام المكتوب، والمسموع، والمَرْئي، وإذا رَجَعْنا إلى قصةِ إنْشاءِ النحو العربي سنجدُها مُنْبَعَثةً من عدَمِ قُدْرَةِ ابنة أبي الأسْود الدؤلي علَى التمْييزِ صوْتيا بيْن هذه الأسَاليبِ، حين قالتْ لهُ ذاتَ ليْلةٍ صحْراويةٍ جميلةٍ: "ما أجْمَل السماء"، فظنَّها أبُوهَا تسْألُه، في حينِ كانتْ تُعَبِّرُ عنْ تَعَجُبِهَا من جَمَالِ السَّماءِ، حيثُ إنَّ لِكُلٍّ منَ التَّعَجُّبِ، والاسْتِفْهَامِ، والإخْبَارِ نَبْرَته، الصوْتية، وإشَارته الحركية، مثلما له علامتُه الترْقِيمية.

صحيحٌ أنَّ العربَ لمْ تكنْ تحْتاجُ حتَّى إلى "وضْعِ النقاطِ على الحُرُوفِ"، ولا إلى التشْكيل.. وقدْ قَضَى القرآنُ ردحًا من الزَّمَنِ، يُتْلَى ويُتَدَارَسُ بدُونِ تَنْقِيطٍ ولا تَشْكِيلٍ، ولكنَّه عنْدَما ضَعُفَتْ السَّليقَةُ العربيةُ لمْ تَمْنَعْه قُدسِيَّتُه، ولا كوْنُ "رَسْمِه" "توْقيفيا"، مِنْ تقبُّلِ عَلاَمَاتِ الترْقيمِ البدائية (التنْقيط والتَّشْكيل) في بِدَايَةِ العَصْرِ الأموَيِّ، كما أنَّ إحْسَاسَهم بالطاقة التعْبيرية لعَلامَاتِ التنْغيم، ربَّما يَتَجَلَّى من خِلالِ تعْريفِهم للبَلاغَةِ، مَرَّةً، بأنَّها هي: أنْ تُفْهِمَ الجَارِيةَ العَجْماءَ، في الليْلَةِ الظلْماءِ"، اعْتِمادًا علَى إيحَاءَاتِكَ الصَّوْتِيةِ، فقطْ، بعيدًا عن التعابيرِ المَرْئيةِ إمْلاءً، وإيماءً.

الخُلاصَةُ أنَّ هذه الأبْعَادَ تنْدَرِجُ في فنِّ الأدَاءِ "الإلْقاءِ"، الذي أصْبَحَ حقْلاً أكادِيمِيًّا مُعْتَمدًا، في دِراساتِ المَسْرَحِ، والسِّينَما، والشِّعْرِ، والمُنَاظَرَاتِ الخطَابيةِ...لأنَّ النِّسْبَةَ الأكْبَرَ من التَّوَاصُلِ اللغَوي، ترْجِعُ للواحِقِ الكَلامِ: حَرَكَةً، وتنْغيمًا، وانْفِعالاً، وإضاءَةً، وديكورًا.. فكُلُّ ذلكَ أساليبُ لُغَويةٌ، تَحْتاجُ العَرَبِيةُ إلى اسْتِثْمارِها، لتعْزيزِ ضمَانِ اسْتِمْرارِها.

بلاغة الصمت.. وصمت البلاغة

الصَّمْتُ لُغَةٌ، وأيّ لُغَةٍ! إنَّه النزيفُ الداخِلي للمَشاعِرِ، الهَذَيَانُ المُقَدَّسُ للأفْكارِ، لأنَّ الإنسانَ حيوانٌ ناطِقٌ، حتى ولوْ اسْتَغْرَقَ فِي الصَّمْتِ، فهو يُفَكِّرُ باللُّغَةِ، وهذا ما يَعْنِي أنَّه لا يُوجَدُ صَمْتٌ أبْيَضُ، خَالٍ تَماماً منْ أيِّ لُغَةٍ، وإنَّما قُصَارَى الأمْرِ أنَّ هناكَ حديثاً مسموعاً، يُسَمَّى كلاماً، وهناك حديثٌ آخرُ غيرُ مسموعٍ، يُسَمَّى صمْتاً، فحِينَ يَنْسَكِبُ صَبِيبُ مُدْرَكَاتِ الحَوَاسِّ الخَمْسِ، إلى مَرْكَزِ الدِّماغ، شَلاَّلاً هُلامِياً منَ المَشَاعِرِ، يَبْدَأ جهازُ اللغةِ هنالكَ فِي ترْجَمَةِ الأحَاسِيسِ المُلْتَبِسَةِ، لإعْطائِها مَعَانِيها وصِفَاتِها، وصُورَها، عَبْرَ عَمَلِياتِ التَّمَثُّلِ والتَّمْثِيلِ، تَخْيِيلاً، وتَعْبيراً، حيث لا تتمُّ واحدةٌ من تلك المَراحِلِ إلاَّ باللغةِ، وبِقَدْرِ ثَرَاءِ مُعْجَمِ الترْجُمَانِ اللُّغَوي، تَسْتريحُ النفْسُ البشريةُ، في التنْفِيسِ عنْ مَكْبُوتاتِها، ويَتَجَلَّى مَدَى وُضُوحِ أفكارها، ودِقَّةِ تصَوُّراتِها.

ومِنْ هُنا كانَ الإفْصَاحُ ضَرُورَةً وُجُوديةً، وكانَ البَيَانُ نِعْمَةً من الله مُرَادِفَةً لِنِعْمَةِ الخَلْقِ ذاتِها، فمِنْ رَحْمَتِه بِنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُه- أنَّه عِنْدَما "خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ"، إذْ لَوْلاَ وُجُودُ اللغةِ لانْفَجَرَتْ أجْهزةُ العَقْلِ البَشَري، بما يَتَفَاعَلُ ضِمْنَهَا من مُبْهَماتِ الأحَاسِيسِ، ومُعَقَّدَاتِ الأفْكَارِ، ومُلْتَبِسَاتِ التصَوُّرَاتِ، لِدَرَجَةِ أنَّه حتى الأخْرَسُ حِينَ يَنْعَقِدُ لِسَانُه، يُحَوِّلُ -بالفِطْرَةِ- كُلَّ جَوارِحِهِ ألْسِنَةً، ويَبْتَدِعُ -لِكَيْ يَسْتَمِرَّ فِي الحَيَاةِ- لُغَةَ الجَسَدِ تعْبيراً بِرَمْزِيةِ الحَرَكاتِ، وهذا قريبٌ تماماً منْ عَمليةِ الرَّقْصِ، حينَ يُداهِمُ إحْسَاسَ الرَّاقِصِ من الانْفِعَالِ بالنَّغَمِ مَا لا تَحْتَمِلُهُ أصواتُ جِهَازِه حَوّل -بالفِطْرَةِ- كُلَّ جَوارِحِهِ ألْسِنَةً، ويَبْتَدِعُ -لِكَيْ يَسْتَمِرَّ فِي الحَيَاةِ- لُغَةَ الجَسَدِ تعْبيراً بِرَمْزِيةِ الحَرَكاتِ، وهذا قريبٌ تماماً منْ عَمليةِ الرَّقْصِ، حينَ يُداهِمُ إحْسَاسَ الرَّاقِصِ من الانْفِعَالِ بالنَّغَمِ مَا لا تَحْتَمِلُهُ أصْواتَ جِهَازِه اللُّغَوي، فتنْطِقُ كلُّ ذَرَّةٍ منْ كِيانِه بلُغَةِ الجَسَدِ الأفْصَحِ في هذا المَقام، إذْ" كُلَّمَا اتَّسَعَت الرُّؤَى ضَاقَت العِبَارَةُ"، كما يقول النّفري.

ومَهْمَا يَكُنْ فإنَّ لُغَةَ الصَّمْتِ تكونُ أَبْلَغَ حتَّى منْ لُغَةِ الصَّوْتِ، لأنَّ الكَلاَمَ المَسْمُوعَ رَهِينٌ بِمَواقِعِ إنْتَاجِه منْ مَخَارِجِ الحُرُوف، وضَوَابط المَنْطِقِ، وسياقِ المَوْضوع المُحَدَّدِ، بيْنَما الحديثُ الصامِتُ، لا يَنْضَبِطُ بمَحْدُودِيةِ مَواقِعِ الأصْواتِ التي تَقْتَضِي التَّنَاوُبَ لَحْظَةَ إنْتَاجِهَا، كَمَا أنَّه مُتَحَرِّرٌ منْ أحَادِية السياق، حيث يَتَمَوَّجُ معَ تغَيُّرَاتِ طقْسِ التفْكير، وتَلَوُّنَاتِ صُور التخَيُّلِ والتخْييلِ، فهو يَبُثُّ على أكْثَرَ من مَوْجَةٍ، ويلْتَقطُ على أكثرَ من تَرَدُّدٍ، ولاسيما بالنسبة للشُّعَرَاءِ، الأرْهَف إحْساساً، والأوْسَع خيالاً، والأبْدَع تفكيراً، والذين لمْ يكونُوا لِيُجِيدُوا الكلامَ، لوْ لمْ يُجِيدُوا الصَّمْتَ، إذْ يَنْطَبِقُ عَلَى جَدَل الحَدِيثِ والسُّكوتِ عندهم، كوْنُ الأوَّلِ إذا كانَ من فِضَّةٍ، فإنَّ الآخَرَ من ذَهَبٍ، عكْسَ المَألوفِ من الاهْتِمَامِ -في دَارِجِ المُفَاضَلَةِ- بِشِعْرِهم الصَّائِتِ، أكثر من شِعْرهم الصَّامِتِ، رغْم الحِكْمَةِ العربية البَالِغَةِ، التي تقولُ: إنَّ الصَّمْتَ يَكُونُ -أحْيَاناً- أبْلغُ من الكَلام.

وفي هذا السياقِ يَحْدُثُ أنْ يَسْتَغْرِقَ الجَمْعُ في الثرْثرَة حَوْلَ مَكاسِبِهِمْ المادية، أمْوالهم، مُؤسَّساتهم، دُورهم، قُصورهم، سياراتهم، وظائفهم، وحتى تفاهاتهم، ثم يَنْتَبِهُونَ فَجْأةً إلى أنك -بينهم- خارجَ التغْطية تماماً، تنْتظرُ أنْ يَخوضُوا في حَديثٍ غيره، تشتركُ مَعَهم ترَدُّداتِ أمْواجِه، فيَتَعَجَّبُون من سُكوتك، غير مُدْركين أنَّكَ في صَمْتِكَ تَتَكَلَّمُ أكْثَرَ، وترْتادُ عَوَالِمَ أبْعَد، وتبْنِي مَشاريعَ أكْبرَ، وحين تُضْطر للإجابة، تَسْتجْمِعُ الروحُ كبْرياءها، أمامَ التغوُّل المادي، فيَنْفَجِرُ الصَّمْتُ قصيدة، من نزيف المشاعر، تتلقف ما يأفكون:

أيريـــبكَ الصـــمتُ.. الـــذي يَغشـــاني؟	القلـبُ يهـذي.. تحـتَ صمـتِ لسـاني
إنِّـــــي أراكَ.. ولا أراكَ.. لأنّـنـــــي	دانٍ.. بعيـدٌ.. منـكَ.. حـينَ تَـراني
فأنـــا.. أشـــاركك المكـــانَ.. ورُبــما	أرتـــادُ كونًـــا..خلْفَ كـــلِّ مكـــان
إنــــِّي غريـــبٌ.. بــين قومي..هـــا هنـــا	لـــيس المكـــانُ.. ولا الزمـــانُ زَمـــاني
أنـــا شـــاعرٌ.. قـــد فـــاض في وجدانـــه	نبـــعُ المَعـــانِي.. مـــن يَـــدِ الرحمـــان
صـــمْتي: نزيــفُ مشــاعري.. وعبـــادتي	ومقـــدَّسٌ -مِــلْءَ الخُطَـى- هــذَياني

بلاغة الوجه

اللغة مفهوم واسع، باعتبارها نظاما من العلامات الاصطلاحية، الحاملة لرسالة من.. إلى.. ومادامت تقنيات بلوغ هذه الرسالة إلى المتلقي -على أحسن وجه- هو مَشْغَلُ البلاغة منذ القدم، ومنه أخذتْ اسْمَها، فإنَّ اتساعَ دلالة اللغة بذلك المفهوم الشامل، وتعدد وسائل التعبير، حسب التطور الحديث لطُرُق التواصل، وتقنياته، يقتضي اتساعَ مفهوم البلاغة، من بلاغة اللسان، إلى بلاغة الزي، وبلاغة الديكور، وبلاغة الإضاءة، وبلاغة الصورة.. وبلاغة الجسد عموما، وبلاغة الوجه بصورة أخص.

وإذا كان العرب -قديما- كانوا يمجِّدُون فصاحةَ اللسان وبَلاغَتَه، في الوقْت الذي يُمَجِّدُونَ فيه عدَمَ اسْتغلال لُغَةِ الجسد في فُنون الخِطابة والمُناظرَة، والحِوار، مُعْتَبرينَ أنَّ صمْتَ الجَسَدِ، ورَزَانَةَ أطْرَافِه، هو التَّجَلِّي الأسْمَى للبلاغة اللسانية، التي ينْبغي -في نظرهم- أنْ لا تحْتاجَ للاسْتعانةِ بغيْرها.. فإنَّهم كانوا يسْتَثْنُونَ -من لُغَةِ الجسَد- ما سمَّيْتُه هنا ببلاغةِ الوجْه، حيث كانوا يقولون:" أصْدَقُ حديثِ المَرْءِ مُحَيَّاهُ"، وما أطْلقوا على الوجْهِ المُحَيَّا إلا لأنَّه يُوَّزِعُ تَحَايَاهُ ورسائلَه -سلبيا وإيجابيا- على مَنْ يُقابله، وقد قال شاعرُهم: "بَشَاشَةُ وجْهِ المْرْءِ خَيْرٌ مِنَ القِرَى"، حيث تبْدو إشْرَاقةُ وجْه المُضِيفِ أفضَلَ وأفْعَلَ في نفْس الضيْفِ من أنواع مَوائدِ "القِرَى"، ومنْ فُيوض الترْحيب اللفْظيّ "العَبُوس".

وتعزيزا لبلاغة الوجْه، في التداول والتواصل، والتفاعل بيْن أفراد المُجتمع، اعتبر نَبِيُّنا -عليه السلام- أنَّ تبَسُّمَ بعضنا في وجه بعض صدقة، مثلما أن "الكلمةَ الطيبةَ صدقة".. وليس هذا التوجُّه والتوْجيه بغريب على رَسول البلاغة والتبْليغ، الذي كانت مُعْجِزَتُه بلاغيةً بالدرَجة الأولى، فتحدَّتِ العرَبَ -أمَّةَ الفصاحةِ والبلاغةِ والبيانِ- في صميم خُصوصيتهم، دونَ الأمَم الأخْرى، وفي هذا الإطار كان هذا النبيُّ الأفْصح -خِلافا للرُّؤْية العامة لدى العرب- يُعزِّزُ بلاغَتَه اللسانية، باسْتغلالِ بلاغةِ الجَسَد، فكثيرا ما يُعَلِّقُ رُواةُ الحديث النبويّ

الشريف، بعبارة": "وَقالَ بيَدِهِ هَكذا..".. لأنَّهم يعتبرونَ جُلَّ أعْضاءِ الجَسَدِ ألْسِنَةً إضافية، لها قوْلُها التعْبيريُّ الدَّالُّ، ولاسيما ذبذباتُ الصوْت، جَهارَة وانْخفاضا، وانفعالاتُ الوجْه، وتلاوينُ تعْبيرَاتِه المُصَاحِبَة للمنْطوقات، والمُنَاسِبَة لها، فكلُّ هذا يدلُّ على أنَّ لغة الوجْه أكثرُ مصداقية -في دلالتها وتعبيرها- حتى من لغة اللسان.. لأنّ الوجْه -في الغالب- مرآة لروح صاحبه.. والمنافقون وحدهم من يحاولون تشويش العلاقة الانعكاسية الطردية بين ظاهرهم وباطنهم، بين الروح والوجْه.... ونظرا لذلك فهي تعتبرُ مُخْتَلَّةَ البلاغة، لأنَّ الرسالة التي تُوَجَّهُ من طرفهم إلى المتلقي- هي رسالة-خاطئة- لا تبلغه على حقيقتها..

وفي ضوْءِ هذه الرُّؤْيَةِ سبق أنْ ألمحْتُ إلى أنَّ جهازَ اللغةِ يَبْدُو مُعَزَّزًا بمَنْظومةٍ من التَّعابيرِ الانْفعاليةِ، تُجَسَّدُ في الكِتابةِ بعَلاماتِ الترقيم، وفي الإلقاءِ بعلاماتِ التنغيم الصوتية، إضافة إلى لغةِ الجسَد الحركية الإشارية، التي يُمْكِنُ أنْ أسمِّيها هنا بعلامات "التجسيم"، حيث إنَّ العلماء المعاصرين أعطوا للأبعاد غيرِ الملفوظةِ منْ تعابيرِ الكلامِ نسبةً أكثرَ من ثمانين بالمائة.

ومادام "لِكلِّ مَقامٍ مَقالٌ"، وحَدُّ البلاغة -أصْلا- هو " مُطابَقةُ المَقال، لِمُقْتَضَى الحَال"، فإنِّي لاَ أقْصرُ "اللَّحْنَ" -في اللغة- على الإخْلالِ بقواعدِ الإعراب، والصرف، حسَبَ مَفْهُومِه التقْليدي، وإنَّما أعْتَبِرُ الإخْلالَ بكُلٍّ من الترقيم، والتنغيم، والتجسيم، وغيرها من رموز التعبير، وتقنيات الأداء الفني- لحنا أيضا.

وأي "لحْنٍ" في "بلاغة الوجْه" أفظعُ من أنْ ترى وجْهًا مُشرِقًا بالابتسام، وهو يتحدَّثُ عنْ مجزَرة، أوْ زلزال...أو أيّ كارثة مأساوية؟! وأي خْرق لـ "بلاغةِ الوجْه" -أيضا- أبْشعُ من أنْ ترَى المُعَزِّي" يصافحُ المفْجوعينَ، هاشًّا باشًّا، دون مُراعاةٍ للفرْقِ بيْن مقاميْ: "المأتم"، و"العرس"؟!

التأويل خارج المنطوقات

التأويلُ طريقةٌ في مُقارَبَةِ المَعْنى الخَفِيِّ، بحْثا عن دلالتِه "الأولى" العميقةِ، التي "يَؤولُ" إليْها؛ فدَلالتُه المِحْوَرِيَّةِ -حسَبَ "المُعْجَم الاشتقاقي"- هي "حقيقةُ الشيء المُتَحَصّلةُ منْه، أيْ صُلْبُ مَادَّتِه التي تخْلصُ بعْدَ تنْحِيةِ ما يَشُوبُها أو يُغَطِّيها"،"ولَعلَّه -كما تقول موْسوعةُ ويكبيديا- لا تُوجَدُ كلِمَة في العرَبيةِ أثارتْ جَدَلا بيْن الباحثِينَ مثْل كلِمَة "تأويل". فهي الكلِمَة التي امْتازتْ بفتْحِ الأفُقِ واكْتِشافِ المُثير والجديد، كما أنَّها هي نفْسُها التي أظْهرتْ الطوائفَ الإسْلامية باخْتِلافِها المَوْضُوعِي وغيْر المَوْضُوعِي، الذي وصَلَ حَدَّ الاقْتِتال، كَمَا هِي بذاتِها التي أخْرَجتِ المَدارِسَ النقْدية والفِكْرية والفنِّيَة المُتَمَيِّزَة، ودارتْ حوْلَها أفكارُها ومَفاهيمُها، وهي (هي) التي تثيرُ جَدَلا واسعا الآنَ بيْنَ مُفَكِّرِي العصْر الحَديث، وهي (هي) التي عن طريقِها يبْلُغُ الأديبُ والفقيهُ ذرْوَةَ غاياتِه."

وقد أردْتُ اليوْم أَنْ أُلْمِحَ إلى أنَّ العَرَبَ -منْذ الجاهلية الأولى- تجاوزُوا بلاغَةَ اللغة المَنْطوقة التي عُرِفُوا بها، إلى بَلاغةِ الظواهِر والمَظاهِر، استنطاقًا لدَلالاتِ لُغَتِها الكوْنِية، غيْر مُسْتَعِينِينَ بوَسائطِ الجِنِّ، "تَوَابعَ وزَوَابعَ"، تَكَهُّنًا بالغيْب المجْهول، واستلْهامًا للإبداع فوْق المَعْقول، حيث أرى أنَّ التأويلَ هو الناظِمُ لمَهَارَاتِ قرَاءاتِ العرَبِ الأمِّيِّينَ للغَةِ المُحيطِ الطبيعي، غيْر المَنْطوقةِ.

فالعِرَافَة: ليستْ كهَانَةً يُسْتَعَانُ فيها بالجِنِّ، بقدْر ما هي تأويلٌ لمُؤَشِّرَاتٍ، حيث يزعُمُ صاحبُها "أنَّه يعرفُ الأمورَ بمُقدِّماتِ أسْبابٍ يُسْتَدَلُّ بها على مَواقِعِها".

والعِيَافَة: هي زجْرُ الطيْر، والتفاؤُلُ بأسْمَائِها، وأصْوَاتِهَا، ومَمَرِّها، تَيَمُّنًا أوْ تَشاؤُمَا، حيث يَقُومُ "العائِفُ" بتأويلِ وضْعِياتِ طيَرَانِها، واتِّجاهاتِها كـ "السَّانِحِ والبَارِح":

زعَمَ البوارحُ أنَّ رِحْلَتَنا غدًا وبذاكَ تنْعابُ الغُرَابِ الأسْوَدِ

ومنْها اشْتَقتْ الطّيرَةُ التي هي "التشاؤمُ بمَرْأى أوْ مَسْمُوع."، وقد تنطلقُ أيْضًا من إيحاءاتِ أسْماءِ المَرْئياتِ، حيث يقوم الشاعرُ بتأويل مَشْهَدِ حمامتيْن تُغنّيان:

تَجاوَبَتــــا بصــــوْتٍ أعْجَمِــــيٍّ علــى غُصْــنَيْنِ مــنْ غَــرْبٍ وبَــانِ
فكـــانَ البَـــانُ أنْ بَانَـــتْ سُـــلَيْمَى وفِي الغَـــرْب اغْـــتِرَابٌ غــــيْر دَانِ

وقد اخْتَصَّتْ بعْضُ قبائلِ العَربِ ببعْضِ هذه المَهَارَاتِ؛ فـ "بَنُو أسَدٍ يُذْكَرُون بالعِيافَة، قِيلَ: إنَّ قوْمًا من الجِنّ تذاكرُوا عِيافتَهم، فأتوْهم، فقالوا: ضلَّتْ لنا ناقةٌ فلوْ أرْسَلْتُمْ معَنَا من يَعيفُ! فأرْسَلوا غُلَيِّما معهم، فاسْتَرْدَفَه أحدُهم، ثم ساروا؛ فلقيتْهم عُقابٌ كاسرةً إحْدى جناحيْها، فاقشعرَّ الغلامُ وبكى؛ فقالوا: ما لكَ؟ فقال: كسَرَتْ جَناحًا، ورفَعتْ جناحًا، وحلفت بالله صراحًا، ما أنت بإنْسيٍّ، ولا تبْغِي لقاحًا"، وعلى ضوْء هذا كانُوا يقولونَ:" فلانٌ لَهَبِيُّ العِيافَةِ، مَدْلِجيُّ القِيافَة.

والقِيافة، هي في أصْلِها مأخُوذة من "القَفْو"، وهو تتبُّعُ الأثَر، وإصابة الفرَاسَةِ في معْرفةِ الآثار، فوْق الأرْض، والتَّعَرُّفُ على نسَبِ المْولود بالنظَرِ إلى أعضائه وأعضاء والدِه، إضافة للقرَابَاتِ النسَبيَّة الأخْرى، وقِراءَة مَلامِحِ التشابُهاتِ بيْن أطرافها.

أمَّا "التَّطْريقُ"، فهو من التكهُّنُ والتَّخْمين، وأصْلُهُ مَن الطَّرْق، وهو: ضَرْبُ الحَصَى بَعْضه على بعْضٍ، ورسْم الخُطوط على الرَّمْل، تأويلا لوَضْعياتِ ذلك الحَصى، وتلْك الخُطوط. قال لبيد:

لعَمْــرُكَ مــا تَــدْري الطّــوارِقُ بالحصــى ولا زاجــراتُ الطَّـــيْرِ مـــا اللهُ صـــانعُ

وكذلك التنْجيم: ما هو إلا تأويلٌ لأشْكالِ تَوَزُّعَاتِ النُّجوم في صفْحة السماء، فهو "عِلْمٌ يُعْرفُ به الاسْتِدْلالُ بالتَّشَكُّلاتِ الفَلَكِيَّةِ على الحَوادِث الأرْضِية".

وهل "تعْبيرُ الرُّؤْيَا" -هو الآخرُ- إلا تَأوِيلا لتَخاريفِ الأحْلامِ، ومُحَاوَلَةِ إعادةِ أضْغَاثِها، إلى بِناءٍ لُغَوِيٍّ، لَه مَنْطِقُ دَلالِي، عُبُورًا بها من حَيزِ الهُرَاءِ، إلى ضِفَّةِ المَعْنَى؟

القــول الجـــسدي:
بلاغة الإشارة

سبق لي أن تناولت هنا في هذه الزاوية "بلاغة الوجه"، و"البلاغة خارج المنطوقات"، واليوم أتناول "بلاغة الإشارة" في "القول الجسدي"، حيث ما تزال مثل هذه المباحث تغريني، لطرافتها، وجدارتها بالبحث، وقوة دلالتها على سعة المجاز في اللغة العربية، وثراء تجليات أوجه البلاغة فيها...

"العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال نحو قال بيده، أي أخذ، وقال برجله، أي مشى وقالت له العينان سمعًا وطاعة، أي أومأت، وقال بالماء على يده، أي قلب، وقال بثوبه -رفعه.. و"قال" بأصابعه، أي أشار بها إلى فوق- بالضم... وكل ذلك على المجاز والاتساع".

وقد تكرست بلاغة هذا البعد الإشاري في القرآن الكريم؛ حيث فسر الكلام رمزا من طرف زكريا ومريم عليهما السلام، بأنه "الإشارة"... وقد اعتمد التشريع الإسلامي لغة الإشارة لغة معتبرة، نافذة الدلالة حتى في العقود والمعاملات...

«فَإِذَا قَذَفَ الأَخْرَسُ امْرَأَتَهُ، بِكِتَابَةٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ بِإِيمَاءٍ مَعْرُوفٍ، فَهُوَ كَالْمُتَكَلِّمِ، لأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَجَازَ الإِشَارَةَ فِي الفَرَائِضِ، وَهُوَ قَوْلُ بَعْضِ أَهْلِ الحِجَازِ وَأَهْلِ العِلْمِ».

ثُمَّ زَعَمَ: أَنَّ الطَّلاَقَ بكِتَابٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ إِيمَاءٍ جَائِزٌ. وَلَيْسَ بَيْنَ الطَّلاَقِ وَالقَذْفِ فَرْقٌ، وَ«إِذَا قَالَ أَنْتِ طَالِقٌ، فَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ، تَبِينُ مِنْهُ بِإِشَارَتِهِ» وَ«الأَخْرَسُ إِذَا كَتَبَ الطَّلاَقَ بِيَدِهِ لَزِمَهُ»، وَ«الأَخْرَسُ وَالأَصَمُّ إِنْ قَالَ بِرَأْسِهِ، جَازَ».

وبما أن الرسالة الإسلامية الإنسانية، اتخذت من بلاغة البيان العربي معجزتها المميزة لقرآنها وخطابها، وبما أن نبيها هو أفصح من نطق بالضاد"، فقد كانت بلاغة الإشارة مواكبة لبلاغة العبارة في خطابه الدعوي والتشريعي، يكتمل فيها وجها البيان المسموع والمرئي، ولهذا

أكثر المحدثون، من ترصد إشاراته، مع عباراته.. حيث يدرجون وسط متن الحديث المَرْوي، جُمَلا اعتراضية مفسرة لحركاته التي تترجم كلماته، وأفعاله التي تجسد أقواله، وهكذا تتفشى لديهم عبارات: "قال برأسه"، و"قال بيده" مثل حديثه عن الساعة الأبرك في يوم الجمعة (ثم قال بيده يزهدها) تعبيرا بالإشارة عن قلة وقت الاستجابة، تحريضا على اغتنامه، وحين أراد أن يرى وجوه من يحدثهم -لأن ذلك أبلغ في قواعد التواصل- "أعطاهم إشارة رسم دائرة في المجلس؛ فـ (قال بيده هكذا، فتحلَّقوا، وَبَرَزَتْ وجوههم له"، وحين كان يقص حديث عابد بني إسرائيل، الذي اتهموه -زورا- بأبوة ابن عاهرة عجزت عن إغوائه، يرصد أبو هريرة رسم نبينا لعلامة استفهام إشارية عند سؤال الناسك للرضيع "قال بيده: يا غلام من أبوك"؟

ورسَمَ علامة الاستفهام الإشارية نفسها، حين سقوه شرابا لذيذا وقت إفطاره، "فَلَمَّا ذَاقَهُ، قَالَ: بِيَدِهِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَا هَذَا؟ قُلْنَا: لَبَنًا وَعَسَلا أَرَدْنَا أَنْ نُكْرِمَكَ بِهِ".

وبلغة اليد هذه يشير إلى جهتي المشرق والمغرب؛ محددا وقت الإفطار: "قَالَ بِيَدِهِ: إِذَا غَابَتْ الشَّمْسُ مِنْ هَا هُنَا، وَجَاءَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمِ".

وبالتأشير إلى الجهات: "قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا وَنَحَّاهَا نَحْوَ الشَّامِ فَقَالَ عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لأَهْلِ الإِسْلامِ".

وحين كان يعدد خير دور الأنصار، بني فلان، وبني فلان، وأراد رسم اللانهاية: " قَالَ بِيَدِهِ -فَقَبَضَ أَصَابِعَهُ ثُمَّ بَسَطَهُنَّ كَالرَّامِي بِيَدِهِ- ثُمَّ قَالَ: وَفِي كُلِّ دُورِ الأَنْصَارِ خَيْرٌ".

وحين سئل: "مَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: بِيَدِهِ هَكَذَا، وَحَرَّفَهَا".. (قال السندي: أي: أشار بيده أنه القتل. وحَرّفها، أي: أمالها.) (وصف بها قطع السيف بحده).

وَعندما أراد رسم المصير النهائي لأهل الجنة وأهل النار: "قَالَ: بِيَدِهِ فَقَبَضَهَا ثُمَّ قَالَ: "فَرَغَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعِبَادِ" ثُمَّ قَالَ بِالْيُمْنَى: فَنَبَذَ بِهَا، فَقَالَ: "فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ"، وَنَبَذَ بِالْيُسْرَى، فَقَالَ: "فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ".

ولما شكا إليه أهل المدينة المنورة من كثرة المطر بعدما استسقى لهم (تَبَسَّمَ لِسُرْعَةِ مَلالَةِ ابْنِ آدَمَ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلا عَلَيْنَا»، (وفرق بين يديه) فَتَكَشَّطَتْ عَنِ الْمَدِينَةَ".

وقد سجل الرواة الإشارة النبوية لسحق مدافعي قريش وأتباعهم يوم فتح مكة؛ حيث "قال بيده على الأخرى: احصدوهم حصدا حتى توافوني بالصفا".

وحول إشارة التحية باليد لما "مَرَّ فِي الْمَسْجِدِ وَعُصْبَةٌ مِنَ النِّسَاءِ قُعُودٌ.. قَالَ بِيَدِهِ إِلَيْهِنَّ: بِالسَّلامِ فَقَالَ: (إِيَّاكُنَّ وَكُفْرَانَ الْمُنْعِمِينَ).

وفي إشارات العد: "ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً وَعِشْرِين"، رمزا لتمام الشهر، وتفسيرا لعدد المحصنات التي يجوز للرجل الجواز بهن: "اقالَ بِيَدِهِ: هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالأَرْبَع".

هذه مجرد نماذج من" القول الجسدي"، نستعرضها، لضرورة استحضار الخطباء والمتحدثين، وخبراء "لغة الإشارة" لها اليوم، استخداما للغة الجسد، وبلاغتها.

أسئلة الزمن

بَيْنَ سَنَةٍ وأخْرَى، تَتِمُّ دورةٌ زمنيةٌ مكتملةٌ، حُبْلَى بالأحْداثِ، مشحونةٌ بِجَدَلِ الآمَالِ، والأعْمالِ، وتَنَازُعِ الأحْلامِ والآلامِ، مُسْفَرَةً عنْ حَصَادِ الأمَانِي والثَّوَانِي، مُتَرَاجِعَةً بيْنَ كَفَّتَيْ الغِنَاءِ والبُكَاءِ، مُتَذَبْذِبَةً -في طقْسِ العُمْرِ- بيْنَ المَدِّ والجَزْرِ...

وفي مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ بيْنَ" النِّهايةِ والبِدَايةِ"، بالنِّسْبَةِ للسَّنَتَيْنِ، يَجِدُ الإنْسَانُ نفْسَه مَصْلُوبًا في بَرْزَخٍ حَرِجٍ، بيْنَ مَاضٍ ولَّى -بدُونِ رَجْعَةٍ- بكُلِّ ما فِيهِ منْ خيْرٍ وشَرٍّ، بكُلِّ نَجَاحَاتِه وخيْباتِه، بكُلِّ أفْرَاحِهِ وأتْرَاحِه، وبيْنَ مُسْتَقْبَلٍ مَزْرُوعٍ أفُقُ انْتِظَارِهِ بكثيرٍ منَ المَشَاريعِ المُعَلَّقَةِ، والآمالِ المُتَرَبِّصَة، ضِمْنَ مُخَلَّفَاتِ الأمْسِ الدَّابِرِ، يَرْفعُ لائِحَتَها بِتَوَجُّسٍ فِي مُواجَهَةِ الغيْبِ المَجْهُولِ، والغَدِ الآتِي، وهو لا يَدْري أيْنَ تَنْتَهِي به مُجْرَياتِ السَّنَةِ القادِمَةِ...

إنَّها لَحْظَةٌ وُجُودِيةٌ مَأزُومَةٌ، تَتَطلَّبُ طرْحَ أسْئِلَةٍ حَادَّةٍ في صَمِيمِ الكَيْنُونَةِ، مُشَبّعَةٍ بقَلَقِ المَصِيرِ، أكْثَرَ ممَّا تَقْتَضِي احْتِفالاتٍ وألعابًا بَهْلوانِيةً، لاسِيَّما بالنِّسْبَةِ للنَّاسِ الحَسَّاسِينَ الأكْثَرَ نُزُوعًا للتأمُّلِ الفَلْسَفِي، مع أنَّ بَعْضَ الرُّؤَى المُتَفائِلَةِ قد تُسَوِّغُ الاحْتِفالَ بما عاشَه الإنْسانُ منْ عُمرٍ، رغْمَ ما اكْتَنَفَه منْ أخْطاءٍ ونَوَاقِصَ، ويستبشر بالآتي، رغْمَ جهْلِه لِمَا يَحْمِلُ منْ مَآلاتٍ، ولكُلٍّ من الفلْسَفتيْنِ مرتكزاتُه، النفسية، والفكرية.

إنَّ الحَيَاةَ -على كل حال- قِطارٌ، يندفعُ بِرُكَّابِه عبْرَ مَحَطَّاتٍ عديدة، باتجاهِ المَحَطَّةِ الأخِيرةِ، المَعْلومَةِ المَجْهُولَةِ، ويَتَجَلَّى مَدَى التَّطَابقِ بَيْنَ الحَيَاةِ والقِطَارِ، فِي نِسْبِيَّةِ بِدَايَةَ الرحْلةِ ونِهَايَتَهَا، حَسَبَ اخْتِلافِهِما مِنْ شَخْصٍ إلى آخرَ ، فمَحَطَّة النِّهَايَةِ عِنْدَ هَذا قَدْ تَكُونُ البِدَايَة عِنْدَ ذلك، وإذا كانَ نِظامُ السِّكَكِ الحَديدية يُعْلِنُ بأجْهِزَتِه الصَّوْتِيةِ، مَواقِيتَ الرِّحْلةِ، ومَوَاقِعَ المَحطَّاتِ، تَنْبِيهاً للرُّكَّابِ، فإنَّ نِظامَ الحَيَاةِ يُطْلِقُ صَافِرَاتِ التنبيه، عنْدَ كُلِّ مَرْحَلَةٍ ومُنْعَرَجٍ منْ رِحْلةِ العمر، ولكنَّ أغْلَبَ المُسَافِرِينَ، لا يَلْتَقِطُونَ إيحاءاتِ المُنَبِّهَاتِ، ولا يُدْرِكُونَ سِوَى الضَّجِيجِ الحِسِّي الصَّاخِبِ المُزْعِجِ للغافِلِينَ اللاَّهِينَ، أو حتى النائمينَ، والمُفْرِحِ بالنِّسْبَةِ

لِلْواصِلينَ إلى المَحطَّاتِ المُنْتَظَرَةِ المَرْغُوبَةِ، ولَعَلَّ أفْضَلَ مِنْ يَتَمَثَّلُ -مِنْ الرُّكَّابِ- عُمْقَ السَّيْرُورَةِ والصَّيْرُورَةِ في رِحْلَتَيْ القِطارِ والحَيَاةِ مَعًا هو الشَّاعِرُ الذي يُجِيدُ الاسْتِغْرَاقَ في تَأمُّلِ المَشَاهِدِ مَهْمَا كانَتْ مُتَسَارِعَةَ اللَّقَطَاتِ، ويَتَمَيَّز بطَاقَةِ إحْسَاسٍ وتَمَثُّلٍ عَالِيةٍ، قَادِرَةٍ عَلَى اخْتِرَاقِ المَحْسُوسِ لاسْتِكْنَاهِ المَعْنَوِي، وإعَادَةِ تَرْكِيبِهما، وفْقَ رُؤْيَةٍ تدْمجُ المُتَفَرِّقات، ولَقَدْ عِشْتُ مِثْلَ هَذا الإحْسَاسِ، ذاتَ رِحْلَةٍ في القطار/ الحياة، فقلتُ:

يَمْضِي القِطارُ
كَمَا الحَياةُ – بِنَا! –
***
هُنَا..
تَطَّارَدُ الأشْجَارُ..
صَفّاً .. بعْدَ صَفٍّ..
حَوْلَنَا
***
كَالذِّكْرَيَاتِ..
العَابِرَاتِ..
كَعُمْرِنَا
***
وَيَفِرُّ بَعْضُ الأرْضِ..
مِنْ بَعْضٍ..
تُسَابِقُ رَكْضَنَا
***
إثْرَ الطَّرِيقِ الهَارِبِ الآبِي انْتِظاراً..
كُلُّنَا.. حتَّى المَكَانُ..
مَعَ الزَّمَانِ..

مَعَ القِطَارِ..

مَعِي أَنَا!

***

كالكَوْكَبِ المُنْقَضِّ..

- فِي المَهْوَاةِ- مُنْدَفِعِينَ

فِي هَذِي الدُّنَا..

خَلْفَ المُنَى..

يَا لَلدُّنَا!

***

أنّى سَنَقْبِضُ مَا نُطارِدُ؟

أَوْ نَفُوتُ يَدَ الذِي

-كَالظِّلِّ- يَطْرُدُ ظِلَّنَا؟

***

لا أَنْتَ تَدْرِي

يا قِطَارُ..

ولا المَكانُ..

ولا الزَّمَانُ

ولا أَنَا!

عمري.. رحلة خلف المَعْنى

أنا أعتقدُ -جازما- أنَّ العُمرَ الحقيقي للإنسان عموما، هو أثَرُه الشاهدُ، ومُنْجَزُهُ الخالدُ، ولذلك أحْرِصُ -ما استطعت- على اسْتِثْمار الفاني في الباقي، تثْقيفا للذات، وتثاقُفًا مع الآخر، وصقْلا للمَواهبِ، وتطويرًا للأدواتِ...

وقد عبَّرْتُ منْذ التسعينيات، عن إحْساسي بسِبَاقِ الأماني والثواني، باعْتبارِ جَدَلِيَّتِهما هي حقيقةُ العمْر، مُستخْلِصا أنَّ حياتَنا:

أمَانٍ.. ثَوانٍ.. وهلْ أنا إلاَّ

جَنَا.. أو رمادُ.. الأماني.. الثواني!

وعندما وطئتُ عتَبَةَ الأرْبعين، تَفاقَمَ إحْساسي بسباِق الأمَانِي، والثَّوانِي المُتَصارِعَةِ في كيْنُونَتي، فتولَّدَتْ قصيدةُ "كتاب الوجود"، حيْث لاحظتُ أننا نكتبُ في الدهْر لنَخْلُدَ، وهو يكتبُ في الصخْر، وفي الرمْل، وفي المَاء، وفِينَا ليَمْحُونَا...فكيف نجعلُ سلطة إثباتنا أقوى من سلطة محوه؟!

فَمَتَى أرانِي: جُمْلَةً..
تُتْلَى.. عَلَى سَمْعِ الزَّمَانِ..
مُضِيئَةً..
قَدْ كَثَّفَتْ لِي ما تَناثَرَ..
مِنْ هَباءاتِ الشّبّابِ؟!
هذا السُّؤالُ:
حُرُوفُ جَمْرٍ.. فِي دَمِي..
سَيَظَلُّ مُشْتَعِلاً صَداهُ.. عَلَى فَمِي..
أوَّاهُ..
كَمْ أرْجُو..

وأَخْشَى..

مُسْتَكِنَّاتِ الجَوابِ!

فَهُنَا وَجِيبُ القَلْبِ..

يَكْتُبُ نَبْضُـهُ..

لَحْنَ الحَيَاةِ..

مُسَابِقًا صَمْتَ المَماتِ..

نَشِيدُهُ:

يا وَيْلَتِي.. عِنْدَ الحِسَابِ..

مِنَ الحِسابِ!!

والحقيقة أني لا أحرصُ على عيْشِ الحَياةِ بتفاصيلها، لأنَ تفاصيلَها كثيرا ما تكونُ مُمِلَّةً وتافهةً، أنَا أطاردُ" المَعْنَى"، وقد حدَّدْتُ مَهَمَّتي هذه في حِوَارِيةِ "هذا أنا":

منْ أيْنَ جِئْتُ؟

وأيْنَ تمْضِي؟

إنَّنِي أدْمَنْتُ

-مذْ فَتَحَ الوُجُودُ عَليَّ عَيْنَيْهِ-

الرحيلَ..

أطاردُ المَعْنَى..

فمن حاءٍ..

إلى باءٍ..

ومن باءٍ..

إلى حاءٍ..

تُطَوِّحُ رِحْلَتِي..

ما أوْسَعَ الآفَاقَا!

وأعلنتُ امْتهاني لِمُطارَدَةِ المَعْنَى -أيضا- في قصيدة "نشيد الشاعر المهاجر":

تُطَوِّحُ.. "بَيْنَ الحاءِ.. والباءِ".. رِحْلتِي   وَراءَ المَـعَانِي.. والمَعَالِي.. أُدِيرُها!

أجَلْ، مهمَّتِي أنْ أغُوصَ وراءَ الجوْهر الغارقِ في زَبَدِ الحياة، حسبما أقُولُ في قصيدةِ "المَسار":

وفي الزبَّدِ.. الطامي.. أخَضْخِضُ.. عَلَّنِي ألامِسُ دُرًا.. والمَغَاصُ.. خَطِيرُ!

وما يسمى الفترات الرمادية في حياتنا، ما هو –في نظري– إلا لحظاتُ تشكُّلٍ للأفكارِ، تكونُ فيها الأحاسيسُ هُلاميةً، لَمَّا تأخذْ ملامحَها الواضحة، عبْرَ مُفْرداتِ اللغة العاجزةِ –حِينَها– عن البيانِ الشافي، ولكن التعبير يجْتازُ هذه المَناطقَ السوْداءَ، وينتصرُ غالبا، لا سيما بالنسبة للشعراءِ "أمَرَاءِ الكلام".

وما يسمى أيضا فترات جمود إبداعي، ما هو إلا لحظات شبيهةٌ بما كُنَّا نتحدثُ عنه أعْلاه، وإذا أردْنا أنْ لا نكونَ سلْبيينَ، سننظرُ للنصْفِ المْملوءِ من الكأس، بدَلَ الترْكيزِ على النصْفِ الفارغ، ومن هُنا نُنَبِّهُ إلى أنَّ ثَمَّةَ حَرَكَتَيْنِ: إحْداهُما مادية محسوسة ومرئية، مثْل اهتزازِ الغُصْنِ في مَهَبِّ النسيم، ولكن هُناكَ حركةٌ جَدَلِيةٌ أخْرَى يُمارسُها دَبيبُ الحَياةِ المُتَنَامِي داخلَ النسْغِ، لا نَرَاهَا إلا في لَحَظاتِ بُزُوغِ الزَهْرةِ، أو الوردة، أو الثمرة....

وقياسا على هذا سنعْتبرُ (فتْرة الركود والجمود وعدم القدرة على الكتابة)، مهْمَا سمَّيْتها، مُجَرَّدَ فتْرة اخْتِمار، فصمْتُ المبدعِ ناطقٌ، وسُكونُه مُتَحَرِّكٌ، وهذا ما سَمَّيْتُه: "نزيف مَشاعري"، في قصيدة بهذا العنوان:

أيريبكَ الصمْتُ.. الذي يَغْشاني؟ القلبُ.. يَهْذي.. تحتَ صمتِ لساني!

إنِّي أراكَ.. ولا أراكَ.. لأنَّني دانٍ.. بعيدٌ.. منكَ.. حينَ تَراني!

فأنا..أشاركَ المكانَ.. ورُبَّما أرتادُ كونًا..خلْفَ كلِّ مكان!

....

صمْتي: نزيفُ مَشاعري.. وعبادتي ومقدَّسٌ –مِلْءَ الخُطَى– هذَياني!

إننا ينبغي أنْ لا نتركَ الشعورَ المأساوي بالعمر وضياعه، يتسلَّطُ عليْنا، فمهمَّتُنا هي مُطارَدَةُ المَعْني، وبناؤه، ولكن الواقع أنَّ هناك لحظاتٍ من هذا القبيل، تُهاجمُ الإنسانَ عموما، والشاعرَ الحساسَ بصورةٍ أخص، وقد سجلتُ إحْداها، في نصٍّ تقدَّمَ بعنوان" القِطار"، كان من وحْيِ الشعورِ بتماهِي مَسارِ القطار، ومسارِ الحياة ذاتها.

إنني أتعايشُ مع هاجسِ الموت المُتَرَبِّصِ بنا، عبْر كل ثانيةٍ، وعنْد كل حركةٍ أو سكونٍ، بنفسٍ مطمئنةٍ.. فقلقِي على حياتي مُريحٌ، إنْ صحَّت المفارقةُ، وقد رثيْتُ نفْسي، منذ قاربتُ الخمسينَ بقصيدةٍ، أسجِّلُ في مقْطعٍ منْها هاجسَ جدَلِ الفناءِ والخُلودِ:

إنَّ الوُقُـوفَ.. عَـلَى الطُّلُولِ..سَـجِيَّةُ الشُّـ ـعَـــرَاءِ.. وَالدُّنْـــيَا طُلُـــولُ ظَعِـــينِ

دَعْنِي..أُرَاجِـعُ مَـا تَـبَقَّى.. مِـنْ حَصَـا دِ العُمْـرِ.. فِي الأطْـلالِ.. هَـلْ يُحْـيِينِي؟

هَـلْ لِي..رُسُومٌ..خـالِداتٌ.. في المَـدَى قـدْ سَـطَّرَتْ.. فِي سِفْـرِهَا تَكْـوِينِي؟

أمْ كُنْتُ.. مَحْضَ فُـقَـاعَةٍ.. نُفِخَـتْ عَـلَى سَـطْحِ الحَيَـاةِ.. فَأُطْفِئَـتْ.. فِي الـحِـينِ؟

جَـدَلَ الخُلُـودِ.. مَـعَ الفَـنـاءِ.. إلى متـى هَـا ذَاكَ يَكْتُبُنِـي.. وذا يَمْـحُـونِي؟

الرَّائِعُـونَ.. حَيَـاتُهُمْ.. فِي ذِكْـرِهِـمْ يَـا ثَـانِيَ العُمْـرَيْن.. هَـلْ تُبْـقِينِي؟

والحقيقة النهائية هي أنَّ قلقَ المصير، والحساب... هو أكبرُ هواجس عمر المؤمنين، لكنا نُكْبِرُ الظنَّ بعفْو الله مُطمئنين، فقد خاطبتُ حاملي نعشي في مرثيتي لنفسي:

أَنَـا قَـادِمٌ.. ضَـيْفًا.. عَـلَى رَبِّي.. وَلاَ زَادٌ.. سِـوَى كَـرَمِ المُضِـيفِ.. دَعُـونِي!

عيدُنا الحزينُ.. شِعْرا

الشُّعَرَاءُ يَعْتَقِدُ ابْنُ رشيق القيرواني أنَّهم خُصِّصُوا بهذا الاسْم؛ لأنهم يَشْعُرُونَ بما لا يشعُرُ به غيْرُهم، والعيدُ كان -غالبا- موسمَ بهْجةٍ وفرَحٍ لدى شُعَراءِ البَلاط، الذين يكرِّسُونَه لتهاني أرْبابِ السُّلْطان، كما هو مَوْسِمُ تمتُّعٍ لدَى مُتْرِفيهمْ المُسْتهْترينَ، غيْر أنَّ بَهارِجَه -أيضا- لمْ تستطعْ أحْيانا انتزاعَ فرْحةِ العِيدِ الضائعةِ، حيْث يطْغى صوْتُ المُتَنبِّي المَحْزون، علَى أهَازيج الأعيادِ الفرحة، متسائلا:

عيــدٌ بأيــةِ حــالٍ.. عــدْتَ.. يــا عِيــدُ	بــما مَضــَى.. أمْ لأمْــرٍ.. فيـكَ.. تجْديـدُ؟
أمـــا الأحِبَّـــةُ.. فالبيْـــداءُ.. دُونَهـــمْ	فليْــتَ -دونــك- بيــدًا.. دونَهــا بيــدُ!

أجلْ.. أيُّها المُتنبي.. لقد استقبلتَ عيدكَ بحزنٍ كبيرٍ، أسفا على حالتِكَ الخاصةِ، معتكفًا داخلَ مِحْرابِ ذاتِك، مِحْوَرِ كوْنِكَ النَّرْجَسِي، لكنَّنَا اليوْم ننْسَى أوْضاعَنا الذاتيةَ -مهْما كانتْ سعيدةً، أوْ مقبولةً على الأقلِّ- في هذا العيدِ، تحْتَ وطْأةِ إحْسَاسِنَا بوَاقِعِ شُعُوبِنَا المَأساوي الماثلِ، الذي لا يحتاجُ إلى عيْنيْ (مُتَنبئٍ)، حيث يقتحمُ عليْنا طقوسَ الأعْيادِ، ويُلقِي بظلالِه على أضْوائها... فيُقذي عيونَنا، ويُصِمُّ آذانَنا، ويُدْمِي قلوبَنا، ويُؤْذِي أرْواحَنا..ملْءَ المَشارقِ والمَغاربِ.. تبا لشاعرٍ.. لا تنعكسُ على ذاته ذبْذبات الألم الإنساني، ولا تلتقط مجَسَّاتُ روحه، شكوى المضطهدين، مهما كانت مكبوتة...فلينعمْ أصحابُ الأرْواح المُعتمة الصمَّاء بعيدهم، فأنا سبق لي أنْ كتبتُ عن "فرْحة العيد الضائعة"، في عالمنا العربي النازفِ حُزْنا من المُحيطِ إلى الخَليج:

إنِّي.. أفَــتِّشُ.. عــنْ سُــرُورٍ.. ضــائعٍ	في العِيــدِ.. هَــل في العيــدِ.. أيُّ جَديــدِ؟
قَــوْمِي.. بكُــلِّ خَريــطةٍ.. أيْــدِي سَـبَا	نَهْــبَ المَــدَائنِ.. والقُــرَى.. والبِيــدِ
أيْــدٍ.. تُمَــدُّ.. عَــلَى المَــدَى.. مَلْهُــوفَة	للْخُــبْزِ.. أوْ للــدِّفْءِ.. يــا لَلْجــودِ!
ودَمٌ.. نَـزيــفٌ.. في الخَــرائطِ.. كُلِّهــا	يَــا هَوْنَــه.. كَالمَــاءِ.. فَـوْقَ صَـعِيدِ!
يا سَارقِي الثَّــرَوَاتِ.. والبَسَمَــاتِ.. والــ	حَيَــوَاتِ.. أنَّــى نزْدَهــي.. بالعِــيدِ؟

وعنْـدَما تقمَّـصتُ اليوْم أرْواحَ شـعراء العـرب المُنْبَـثَّةُ في الشبَكة العنْكبوتية، عبـْر الفيسبوك خصوصا، وجدتُ إحساسَهم غارقا في البحْث عن فرَحَ العيد المَفْقود، كما هو حال سليلُ مدينة منْبجَ مسْقطِ رأس أبي تمَّام الطائي، ومدينة أبِي فراس الحمداني: الشاعر علي صالح الجاسم العائد إلى جحيم سوريا، من جحيم غربة الملاجئ خارجها:

يــا عيــدُ إنَّ عصــاكَ مــا هشَّــتْ عــلى ... الأحــلام منــذُ ســنينَ مــرَّتْ جُهَّــمَا
عــرِّجْ علــى قلبــي وهُــزَّ جذوعَــهُ ... فلعلَّــــهُ فرحـــــاً يطـــيرُ تبسُّـــمَا

ثم يأتي صوتُ الشاعر العراقي الكبير: الدكتور وليد الصراف، الرافض مُغادرةَ مدينته الموصل المدمرة لتوها، متسائلا:

أوَجْــهُ العيــدِ أمْ وجْــهُ الرزايــا ... أطـلَّ عليــه مــنْ فــرَح قنــاعُ؟
وكيــف تُســرّ والأسْرار أضــحتْ ... -كـما شـاعتْ- نكـاتٌ جحـا تُشـاعُ؟!
وكيْــف وإنْ سررت عــلى سُرورٍ ... تُعَاذلــك العَطاشَــى والجِيــاعُ؟
وتَحْــتَ الأرْض مــنْ غِيلــوا جهــاراً ... وفـوْق الأرْضِ مـنَ نَزَحُـوا وضـاعُوا!
وكــمْ مــن ذِمَّــةٍ بــالفلْسِ تُشــْرَى ... وأعْــراض بــدِينارٍ تُبَــاعُ!
أعِيــدٌ.. والظَّــلاَمُ يُكِــنُّ رُؤْيــا ... سَتَنْضَـحُ مـنْ دِمَـاك بهـا الصُّـوَاعُ؟
ويَنْحَــرُكَ الرُّعــاةُ فِــدَاءَ كَــبْشٍ ... ولا يَحْمِيــكَ ســيْفٌ أوْ يَــرَاعُ!

أما الشاعرُ المُخْرجُ السوري المُرْهَفُ: جمال الأغواني، فتختلط في رُؤاهُ خيوطُ الحُزْن المَوْجود، والفرَح المفْقود، وهو يستقبلُ العيدَ لاجِئًا، بعيدا عن وطنه:

في فرْحـة العيـد عـن حـزْني تـراودني ... بعْـضُ المَبـاهجِ.. ألـقِ الهـمَّ.. والأرَقـا
وأوغَـلَ القلـبُ في الأحـزان تغرقـه ... وفي بحـار الغـوى والعشـق قـد غرِقـا
يـا بهجـةَ العيـدِ.. كيـف الحُـزْنُ يترُكنـي ... وياسـمينُ دِمشْـقِي بَـانَ واحترقـا
في غُرْبتـي مِزَقًـاً نفْـسي أبَعْثِرُهـا ... وبعْـدها مُهْجَتِـي قـد قُطِّعَـتْ مِزَقَـا
أرْسـلْتُ رُوحـيَ.. والأنْسـام يحْمِلُهـا ... شـوْقٌ.. ومـا ضـل يومـاً شـوقيَ الطُّرُقـا
لمْ يَعْـرِفُ القلـبُ غـير الشـام فاتنـةً ... وغيرُهـا مـن قـديمٍ العهْـد ماعُشِـقا
فكيـفَ والبُعْـدُ يَطْـوِيني ويَحْجُبُنِـي ... والوصْـلُ يكْـذبني يوْمًـا إذا صـدَقا
يـا بهجـة العيـدِ.. خَلِّينـي.. علَى ألمِـي ... لا تعـرفُ الـروحُ دونَ الشـام مُنْعَتَقـا!

صرخة الضمير العالمي:
في صخب العالم الجديد

البرزخ بين سَنَةٍ وأخْرَى: لَحْظَةٌ وُجُودِيةٌ مَأزُومَةٌ، تَتطلَّبُ طرْحَ أسْئِلَةٍ حَادَّةٍ في صَمِيمِ الكَيْنُونَةِ، مُشَبَّعَةٍ بقَلَق المَصِيرِ، أكْثَرَ ممَّا تَقْتَضِي احْتِفالاتٍ وألعابًا بَهْلوانيةً، لا سِيَّما بالنَّسْبَةِ للنَّاسِ الحَسَّاسِينَ الأكْثَرَ نُزُوعًا للتأمُّلِ الفَلْسَفِي، مع أنَّ بَعْضَ الرُّؤَى المُتَفائِلَةِ قد تُسَوِّغُ الاحْتِفالَ بما عاشَه الإنْسانُ منْ عُمرٍ، رغْمَ ما اكْتَنَفَه منْ أخْطاءٍ ونَوَاقِصَ، ويستبشر بالآتي، رغْمَ جهْلِه لَمَا يَحْمِلُ منْ مَآلاتٍ، ولكُلٍّ من الفلْسَفتيْنِ مرتكزاتُه النفسية والفكرية.

على كلِّ حالٍ، تبقى هُمُومُ "الإنْسانِ المَقْهُور"، مَوَاجِعُ" المُعَذّبِينَ في الأرْضِ"، مَآسِي المُشَرَّدِينَ في مُخَيَّمات النُّزوح القسْري، تقتحمُ حَفَلاتِ العابثِينَ، في بداية كلِّ سَنَةٍ، ونهايةِ أخْرى أو هكذا يُخَيَّلُ إليَّ، حيث أجِدُ هذا الهَمَّ الإنْسَانِي يفرضُ نفسه، على كلِّ ذِي ضمير، ما تزالُ فيه بقية حياة في كل وقت، ولاسيما في اللحظاتِ الوُجودية الحاسِمةِ، مثل هذه، حيث أحسُّ فيضَ الأسئلة الحارقة يزْدحمُ على شفتيَّ، ويمتد طابورا طويلا في استقبال العام الجديد:

عَـامٌ.. يَمُـرُّ.. ويَـأتِـي –بَعْـدَهُ– عَـامُ!   أنَّـى سَتَبْتَـلِـعُ الآلامَ أحْـلامُ؟!

هَـلْ فِي جُيُـوبِكَ.. يـا الآتِـي.. لأمَّـتِـنا   حُـبٌّ.. وسِلْـمٌ.. وتَعْـلِيـمٌ.. وإكْـرَامُ؟!

هلْ فِي جُيُـوبِكَ.. لِلْمَرْضَى الـدَّوَاءُ.. ولِلْـ   ـجَوْعَى الغِذَاءُ.. حِمَى السُّكْنَى لِمَنْ هَـامُوا؟

يا عامُ.. يا عَـامُ.. حُشْـدُ الأمْنِيَـاتِ.. عَـلَى   فَمِـي.. فَهَـلْ.. للأمـانِي.. فِيـكَ.. إتْمَـامُ!

ثم يلحُّ ملْءَ فكْري، وسْواسٌ شبْه عبثي: هلْ يتسلَّلُ إلى مُخيلات أبْناء أوْطاننا المحتفلين، كل رَأس سنة –ولو في سمادير النشوة– أشباح مآسي أبناء أوْطانهم النازحين:

لِلنَّـــــــازِحِينَ.. النَّـــــــــازِحَاتِ آهٍ.. عَـــــــلَى وَجَـــــعِ الْحَيَـــــــاةِ!

وَجَـــعِ المَـــمَاتِ.. مَـــدَى المَـــدَى ضَــــاعَ اللَّــــذِينَ.. مَـــعَ اللَّــــوَاتِي

نَهْـــــبَ المَجَــــــاعَةِ.. والثُّــــــلُوجِ وهـــــــوْلِ نَــــــارِ القَـــــاصِفَاتِ!

صَـــــوْتُ الضَّـــــمِيرِ.. العَـــــالَمِيِّ يَصِيـــــــحُ.. مِـــــنْ ذَاتٍ.. لـــــذَاتِ!

المَـــــوْتُ.. فِـــــــي بَـــــــرٍّ.. وَفِي بَحْـــــرٍ.. فَهَـــلْ لِي مِـــنْ حُمَـــاةٍ؟!

وهنا أيضا، أفكِّرُ في واقعِ النِّساءِ العربياتِ في المَنافِي، تحْتَ ظِلِّ عواصفِ الثلج التي تجْتاحُ أوطانَها ومَلاجِئها معًا، حيثُ يتعرَّضُ جمالُها وكرامتُها، وأمُومتُها للهوان، وكأنَّ العالمَ العربيَّ ما عادَ فيهِ شَهَامَةٌ ولا مرُوءةٌ:

لَهْفِي.. لِلَيْلَــى.. بَنَـاتُ العُـرْبِ.. ضَـائِعَةٌ نَهْـبَ الــرَّدَى.. والمَنَــافِي.. والأعَاصِـيرِ

جَمَـالُ لَـيْلَى.. بِحَــارٌ مِــنْ دَمٍ.. سُــفِكَتْ وَذِي نَضَـــارُتُها.. رَهْـــنَ الطَّـوَابِــــيرِ

يــا لَلْجَمَـــالِ الـــذي كُـــنَّا نُقَدِّسُـــهُ قـد عَـادَ مَحْـضَ رُسُـومٍ.. فِي التَّصَــاوِيرِ!

وَوَا كَــــرَامَةَ لَـيْــــلَى.. لمْ تَعُـــدْ سَـــبَبًا -"يَـوْمَ الفِــجَارِ"- لِغَــارَاتِ المَغَـاوِيرِ!

ولَمْ يَعُـــدْ بَيْـنَــنَا "حَــامِي ظَعِينَـــتِه" فَــرْدًا.. يُكَــافِحُ مَرْهُـــوبَ المَقَــادِيرِ!

عُـذْرًا.. فَمَــالِي سِـوَى قَلْبِـي.. وَقَـافِيَتِي عِيــشِي.. هنـا.. بِهِـمَا.. دُنْيَـا الأسَـاطِيــرِ

هَــذِي.. مَعَـاذِيرُ أشْـبَـاهِ الرِّجَـالِ.. هُنَـا لا تَقْبَلِــــي.. أبَــــدًا.. زُورَ المَعَــــاذِيرِ

لا تَصــرُخِي.. لـيْسَ فِينَـا أذْنُ "مُعْتَصِـمٍ" مَـا عَـادَ.. في العُـرْبِ.. "رِفْـقٌ بـالقَوَارِيرِ"

عَصْرُ أمِّ الكُرَات

الأَرْض كرة، والدماغ كرة، والقلب شبه كرة، وقد كان التفاعل الخلاق بين هذه الكرات أحد نواميس لعبة الحياة، حيث تتصارع كرة القلب -بما يملأها من عواصف العواطف، وثوائر المشاعر-مع كرة الدماغ - بما يعبئها من قوانين عقلية، وضوابط علمية- حول أيهما يتحكم في الآخر، داخل مملكة الجسد المعمورة بالغرائز الفطرية، المسكونة بالنوازع البيولوجية، ومن ثم تتصارع الكورتان ذاتهما -خارجيا- حول أيهما تتحكم في الكرة الأرضية نفسها تدبيرا وتسييرا، لكن المؤسف اليوم أن كرة تافهة من البلاستيك، معبأة الفراغ بنفخة من الريح، أصبحت سيدة الكرات كلها، فهي تسيطر على كرات الأدمغة بكل ما تكتنزه من أفكار، ونظريات، وعلوم نافعة، وتسلب كرات القلوب بكل ما تضج به من مشاعر وأحاسيس.. وبهذا استطاعت أيضا أن تتحكم في الكرة الأرضية، محدثة انقلابا كونيا في القيم والمفاهيم والسلوك، حيث جعلت عاليها سافلها، واضعة كل كرات الوجود العليا، لعبة تترَاكَلُها الأرْجُل.. بدون شفقة ولا تقدير... إنه عصر مجنون تشيَّأتْ فيه الروحانيات، وتسلَّعَت القيم، وفقد رأس المال الرمزي رمزيته، بعدما سادت ثقافة الجسد، بكل تجلياتها، واستبدت الماديات، بالذهنية العامة، حتى أن لاعبي الكرة -رغم شغف العالم بهم، ومبالغته في تقديرهم- لا يعاملون إلا بمعجم أسواق النخاسة في القرون الوسطى، حيث لا ينفكُّ الحديث يدور عن أسعار صفقات بيعهم، عبر المزايدات بين هذا الفريق وذاك.

وهذا ما جعلني أخلص في نهاية مقالي حول "البنك الدولي للعقول"، إلى أن" سوق العقول -في هذا الزمن الرديء- أصبحت بائرة، لدرجة أن السجال تحول من الجدل بين "العقل والنقل" قديما، بدون ترجيح نهائي، إلى سجال جديد بين "العقل والرِّجْل"، حُسم فيه النزاع بتفضيل الأقدام على الأفهام، ورجحان "الجسم على العلم"، حتى أضحت ركلات اللاعبين، وتراقص الفنانات -بضع دقائق- فوق المسارح، تكافأ بالملايين، وتُجْنَى منها المليارات، في وقت يموت فيه العلماء والأدباء جوعا، ولا يَتَلَقَّوْنَ -مقابل عصارة أفكارهم،

ورحيق آدابهم وأشعارهم- إلا "دراهم معدودة"، إنْ وجدتْ أصلا، لأن الجميع في إبداعهم من الزاهدين...

أن تكريس نماذج لاعبي كرة القدم والراقصات.. وإعْلاء شأن أرْجُلِ هؤلاء على أدْمِغَة صفْوة العلماء والعباقرة الملهمين، وإغْلاء تَرَنُّح أولئك على خيرة الفنون الإنسانية الرائعة.. سيكرسهما قدوتيْن.. للأجيال الناشئة، بحيث لن يتمنَّى أي منها أن يكون له عقل كبير، ومواهب فنية عالية، ومهارات معرفية عديدة، ومنظومة أخلاقية رفيعة، بقدر ما سيتمنى أن تكون له رِجْل راكلة، أو راكضة، أو راقصة...أو...

ومهما يكن فإن خلاصة الخلاصة: أن العقول –في هذا العصر المقْلوب رأسا على عقب- لن يُحْتج إليها أكثر من فترة كهذه، يسودها السفه والنزق والجنون، ويقود الجهل سفينتها الجانحة، في بحر لُجِّي من الأحداث المتلاطمة، كما أن الفنون الجميلة لن تفتقر إليها الأرواح، أكثر منها الآن، حيث يعتبر الهذيان شعرا.. والنعيق غناء.. وتلوِّى الأفاعي وتقافزُ القردة رقصا.. إننا بحاجة –فعلا- إلى" الأمن الذوقي" حسب عنوان مقال سابق لي، بل يمكن أن أضيف أيضا حاجتنا إلى "الأمن العقلي".. ضد سيادة الأرجل.

عصر جنون الأزرار

الحقيقية أن هذا العصر جدير بلقب عصر الزر؛ حيث تحولت الثورة التكنولوجية، إلى ثورة للأزرار، أصبحت تتحكم في حياتنا، وتديرها حتى بأخف لمسة، وأحيانا بأبسط حركة، أو إيماءة خفيفة، وبدون أدنى ملامسة، وقد سبق لي أن كتبت قصيدة بعنوان" الحب وثورة الأزرار"، سنة 2007، محاورا فيها الشاعر الأندلسي ابن زيدون، ومقارنا بين عالمي الروح والمشاعر الإنسانية في عصري: "أضحى التنائي"، و" وأضحى التداني"؛ فقلت:

أضحى التـّداني بـديلاً مـن تنائينا ... البعـدُ.. مـاتَ.. ومـا عُـدنا كماضينا

كـمْ قَـاربتْ ثـورةُ الأزرارِ عالَمَنا ... فالفصـلُ وصـلٌ.. أقاصينا.. أدانينا

طـيُّ المكـانِ.. وقهْـرُ الوقـتِ.. لم يعـا ... شـأنَ التّصـوفِ.. صـارا طـوْعَ أيدينا

فلتمـرحِ النـوقُ.. لـن نُنْضِيَّـها سَفـرًا ... إثْـرَ الظّعـائنِ.. فـالأزرارُ تكفينا

لكنّمـا عـالَمُ الأرواحِ.. مـا طُويـتْ ... فيـه المسـافاتُ.. دانينَـا.. كقاصينا

تَوَثَنَـتْ رغـباتُ العشـقِ.. في دَمِنـا ... فالجسـمُ يُعبدُ ربـاً.. والهـوَى دِينا

وَاضـيْعةَ الحـبِّ.. معراجًـا لأنفسِـنا ... وسِـدرةَ المنتهى..مرعـى أمانينـا!

آهٍ مـن الطـينِ.. غـالَ الـرُّوحَ في جسـدٍ ... يـا نفْحـةَ الـرُّوحِ.. هُبِّـي.. نـوِّرِي الطِّينـا!

قـمْ يا ابنَ زيـدونَ..وانظرْ مـا بنـا فَعلـتْ ... حضـارةُ الـزِّرِ.. عاشـتْ في معانينـا

لا الحُـبُّ حـبُّ.. كـما كُـنَّا نُقـدسه ... يشِـعُ بـالطُّهرِ.. بالحرمـانِ يُحيـنانا

لا الشِّعـرُ شِعـرٌ.. كمـا كنّـا نرتِّـله ... فنـُسْكِرُ الـنَّجمَ..من أصْـدَا أغـانينا

حتـى الجَمـالُ.. هـنا.. غُشَّـتْ مفاتِنـُه ... في ثـورة الـزِّرِ.. صـار الحسـنُ تحسينا

مـن أينَ يَنْبجِسُ الشِّعـرُ الجميـلُ.. وفي ... عيوننـا.. يَكتـبُ القـبحُ الدواوينـا؟

حضـارةُ الـزِّرِ.. مـا تنفـكُّ تقذِفُنـا ... مـنَ المـآسي.. بمـا يُـدْمي مآقينـا

تُعَـوْلِمُ البُغْـضَ فـي آفـاقِ أنفسنا ... وتقتـل الحـبَّ.. بـالفوْضى تـُداوينـا

نعم، لقد كانت فوارق المكان والزمان هَمًّا مؤرِّقا في مجال التواصل والتفاعل، لاسيما بالنسبة للشاعر المحب، الذي يشعر-حتما- بما لا يشعر به غيره، إذ طالما ضجت مدونة الغزل في الشعر العربي القديم بمعجم البعد، والنأي، والبين، والشوق، وأخواتها، لكن بعد انفجار «ثورة الأزرار»، التكنلوجية، وانتشار أجهزة التواصل، ومواقعه المتعددة، التي طوت المكان والزمان فعلا، أصبح ينطرح السؤال: هل كانت حميمية التواصل الروحي، أكثر وأعمق في عصر الفصل، أم في عهد الوصل؟

إن ثورة الأزرار-في نظري- لم تضر بالحب وحده، وإنما ألحقت الضرر- أيضا- بالشعر والجمال، حيث شيَّأَتْ هذه المعاني السامية، وعاثت في مجمل عناصر هذا الثالوث فسادا، فبقدر ما وفرت ثورة الأزرار من قنوات الاتصال بين الأشباح، غشَّت حميمية التفاعل بين الأرواح، وسطَّحت عمق المحبة الإنسانية، ودنست طهر الجمال الفطري، وأفشت الموت والقبح، وعَوْلَمَتْ الكراهية...

كل هذه التداعيات تنطرح اليوم أكثر، ونحن نرى رئيسين مجنونين، أحدهما في الشرق، زعيم كوريا الشمالية، والآخر في الغرب: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، يضع كل منهما أصبعه على الزر النووي لترسانة سلاحه الفتاك، معلنا كل منهما أن لمسة زره كافية لدمار الآخر، في حالة جنون مقلقة للعالم كله، حيث أصبح عنوان "الحرب.. وثورة الأزرار" أولى حاليا من عنوان قصيدتي: "الحب.. وثورة الأزرار"، فما أحوج هذا العالم اليوم إلى المثقف الثوري الذي يتحكم هو الآخر في أزرار المعرفة والفكر، ويتحكم من خلالها حتى في مثل هؤلاء الحكام السياسيين الجانحين، ويصنع بها ثورته الواعية الحكيمة، وفق ما تحدثت عنه، في قصيدتي "أنا سيد الثورات":

أنا لسْتُ أَمْلكُ مِنْ سلاح..
غيْر هاتيْن اليديْن..
لغيْر رَبِّي.. لمْ تُمَدَّا
تُتْقِنانِ.. إشارَةَ النصْرِ..
التحَدِّي..
تَصْنعانِ السِّحْرَ..
بالأزْرارِ.. والأقلامِ

أنا لسْتُ أمْلكُ مِنْ سِلاحٍ..
غيْر عَقْلٍ..
خبَّأ الأعْصَارَ..
والأقْطارَ..
والأفْكارَ..
تحْتَ الزرِّ..
إنِّي سَيدُ الثوْراتِ..
رَبّ السِّلْم..
فالحُكَّامُ –منذ الآن–
طوْع زمامي.

موريتانيا.. فردوس الثروات..
وجحيم السياسات

في السنوات الأخيرة نُظِّمَ في موريتانيا مؤتمر دولي، حول البحوث الجيولوجية، وقد هالَ المُشاركين ما تزْخرُ به أرْضنا من مَعادن، لا تكاد تتوفر في بلد آخر بهذا التعدد الكمي، وهذه الجودة النوعية، حتى أطلقوا عليها فردوس الجيولوجيا، وفاتهم أنها أيضا فردوس الجغرافيا مطلقا، ففيها كثير من الأراضي الزراعية، المطرية، والواحاتية، وفيها كثير من الينابيع الجارية، وخزانات المياه المطرية، والبحيرات الجوفية، إضافة إلى محيطها الأطلسي الزاخر بثروة سمكية نادرة المثال، وإلى نهرها السلسال، بكل ما يختزنانه من خيرات، وطاقات حيوية متجددة، هذا بالإضافة إلى ثرواتنا الحيوانية الغنية ببقرها، وإبلها، وغنمها، وحتى حميرها...

أما عن الثروات المعدنية فحدث ولا حرج، فأرضنا تكتنز الحديد، والنحاس، والذهب، واليورانيوم...وحتى معدن الليثيوم النادر(وهو خامة كيميائية تدخل في العديد من الصناعات الزراعية والصناعات المتخصصة في مجال الاتصالات). وحسب باحثيْن عراقييْن، في هذا الموضوع: "يتميز الليثيوم الموريتاني بالعديد من المميزات أبرزها أنه يوجد على أكثر من هيئة بداية من الليثيوم' الخام' أي المتواجد في الطبيعة بصورة منفردة أو الليثيوم 'المتفاعل' والذي يتفاعل مع أي معدن آخر، وهو ما يتيح استخدامه في كثير من الصناعات"، كل هذا ونحن لا نسمع عنه شيئا داخل أنواع معادننا، بينما كانت إسرائيل خلال علاقتها المشؤومة ببلدنا تحتكر الاستثمار فيه عبر عدة شركات، غير معلنة الهوية، لدرجة أن إسرائيل، طمأنت مستثمريها يوم انقلاب 2003 م، بأنها مستعدة لحماية مصالحهم هناك، ولو بالطيران العسكري، إذا اقتضى الأمر ذلك.

ومنذ العقدين الأخيرين دخل البترول والغاز، قائمة ثرواتنا الكثيرة، ومع أنهما هما الثروتان اللتان قامت عليهما طفرة دول الخليج كلها، فإنهما بالنسبة إلينا لم يكونا أكثر من شبه شائعة، حيث سلكتا طريق بقية ثرواتنا المتناهبة، من الداخل والخارج، والتي كل واحدة منها قادرة –لو أحسن استغلالها– على أن تُحَوِّلَ شعْبنا القليل العدد، إلى مَصَافِّ البلاد الغنية، لا

سيما أن القدرة الإلهية قد وزعت كل هذه الثروات بين مختلف جهات الوطن، ليكون هناك تكامل عجيب بين اقتصاد مناطقها.

أجل إننا "فردوس" الثروات كلها، لكننا "جحيم" السياسات السفيهة، والأحكام غير الرشيدة، فقد تأكسد حديدنا ونحاسنا، في أجواف "ديناصورات" الفساد والنهب في الداخل والخارج منذ عقود، وها هي شركة "اسنيم" قطب المعْدَنَيْن في الشمال، تقف على حافة الإفلاس.

كما أتت "يأجوج ومأجوج" الصيد المحلي والدولي على ثرواتنا السمكية الطائلة، التي أكد الخبراء أنها أفضل من البترول نفسه، ولم يسمع الشعب حتى اسم معدن "الليثيوم" ضمن ثرواته، مع أن مخزوننا منه يعتبر "الاحتياطي الأول في العالم، حسب التقرير الإنمائي للأمم المتحدة".

وهذا معدن ذهَبِنا النفيس الطافح على سطح الأرض، قد ذهَبَ جُفَاءً في بالوعات شركة"كينروس تازيازت" الأفَّاكة الأثيمة التي خدعت حكوماتنا، فانخدعت لها بنسبة(3٪)، وملأت أفواه موظفينا الجشعين ذهبا، فالتزموا الصمت إزاء الفتك بثروة بلدهم، ولم يكن فيهم رجل رشيد يسجل موقفا وطنيا يحسب له. ولم يشم الشعب رائحة للغاز، ولم يشذ نفطنا عن الاحتمالات الثلاثة التي حددتها له في مقال كتبته عنه فور الإعلان عن اكتشافه عندنا، حيث لخصت مآلات نفطنا الموعود يومها، بأنه إما أن يكون "المهدي المنتظر"(تلهية للشعب بخيوط الأحلام المؤجلة)، وإما أن يكون -إن صح وجوده- "الدجال الأكبر"(عبر فتنة تكالب الأطماع الدولية عليه، أو فتنة البطر المترتب عنه)، وإما أن يكون -في حالة كذب التوقعات- "الكبريت الأحمر، (الذي يذكر، ولا يرى)، وهكذا علق عليه الشعب المقهور أمل الخلاص برهة، ثم تكالبت عليه الأطماع الدولية تنازعا على احتكار التنقيب عنه، ثم آل به الحال الآن إلى الموت السريري، فأصبح موجودا مفقودا.

والحقيقة أن ثرواتنا كلها تذكر ولا ترى، مثل "الكبريت الأحمر"، تماما، حسب معتقداتنا الشعبية.

فإلى متى سنبقي بلدا غنيا، وشعبا فقيرا؟

سـفينةُ الـوَطَنِ المَنْهُـوبِ.. تائهـةٌ   أنّي لَهَـا -دُونَ أهْـلِ العِلْـمِ- مَنْجَـاةُ؟!

لك الله.. يا وطني.. تلك آهة شعرية أطلقتها منذ حوالي ثلاثين سنة، ضاعت صرخة في "وادي الذئاب".

في ذكرى الاستقلالية الموءودة غدرا

لستُ أدْرِي هل الاستقلاليةُ مَوْءُودَةٌ غَدْرًا، أوْ مَغْدُورَةٌ وَأْدًا؟، ولكنْ لا فرْقَ، فالنتيجةُ هي هي، "تفرَّقَتِ الأسْبابُ والمَوْت واحدُ

واليوم -في مَهَبِّ الانتخابات المُنْتَظَرَةِ- لا تُفارقُ الاسْتِقلالية المَحظورَةُ ظُلْمًا تَفْكِيري، فهي خِيارٌ سياسي مَشْرُوعٌ، ومَكْفُولٌ في كُلِّ دَسَاتِيرِ العَالَمِ، ولَكِنَّها في وَطَنِي سَقَطَتْ مُؤَخَّرًا، ليس سهوا، ولكنها قُدِّمَتْ قُرْبَانًا لِلْعَقِيدَة الحزبيةِ المُرْهَقَةِ بِهَشَاشَةِ الوَلاءَاتِ، وحِرْبَائِيَةِ الانْتِمَاءِ السياسي، حيْثُ كانتْ الاسْتِقلالية مَلاذَ نوْعيْنِ من الناس: المُغَاضِبين المُسْتَغِلِّينَ، الذين لا يَدِينُونَ بوَلاءٍ راسخ، لأيِّ شيْء سِوَى مَصالحهم ومَنافِعِهم، والأحْرارِ المُسْتَقِلِّينَ الحقيقيين، الذين لا يَجِدُونَ أنْفُسَهم في الانتماء الحِزْبي، لا للْمُوالاة، ولا للْمُعارضَة، وحتَّى لو كانوا مُعارضين صادقين، على طريقتهم الخاصة، التي لمْ تَقْتَنِعْ أبَدًا بالإطار الحِزْبي السائِد، لا هُنا ولا هناك.

وبناءً على أنَّ خِيارَ الاستقلالية كان -في نَظَرِي- أكْثَرَ مُلاءَمَةً لِطَبِيعَةِ البنْيَةِ الاجْتِمَاعِيةِ والنفسية الموريتانية العميقة، سَلِيلَةِ بلادِ السَّيْبَة، وأسْلافِها الذين قال عنهم ابنُ خلدون: إنَّهم تَوَغَّلُوا في هذه الصحْراء انْتِبَاذًا بالعِزَّةِ عن ذلِّ السُّلْطَانِ، ونظرا لأنَّ التَّعَاطِي مَعَ الاستقلالية -عَلَى ضوْءِ مَا تقدَّمَ- كانَ أقْوَى من التَّعَاطِي معَ التَّحَزُّبِ الهَشِّ لَدَيْنَا، فإن المُتحَزِّبِينَ منَ المُوَالاة والمُعارضة -وهُمَا اسْمانِ مُتَغَيِّرَان، يَتَبَادَلانِ المَوَاقِع- غالِبًا -حسْب سُرْعَة تغير المَصالح والمَنافِع- قد اتَّفَقوا على القَضَاءِ على الاسْتِقْلالية، حِمَايَةً للْحِزْبِيَّةِ، وتَقْوِيةً لها، في زعْمِهِمَا، فَوَأدَاهَا حَيَّةً باسْم القانون، رغم أنَّ القانونَ بريء من دَمِها بَراءَةَ الذئْبِ من دَمِ يوسفَ؛ حيث إنَّ وظيفتَهُ الأساسية هي حِماية الحُرِّياتِ، لا مُصَادَرَتُها، ولهذا فهو يَصونُ الحُقُوقَ، ولا يُقيِّدُها، بدُونِ سَنَدٍ شَرْعِيٍّ، وهنا لا شك أنَّ ضعْفَ المُؤَسَّسَةِ الحِزْبية، وسُوء اسْتِغْلالِ الاسْتِقْلالِ منْ قِبَلِ الانْتِهَازِيِّينَ لا يَكْفِيان مُسَوِّغًا لإلْغَاءِ حَقِّ الاسْتقلالية، مع أن هذا الحظرَ ليسَ فاقِدًا للشرْعية وحْدَها، وإنَّما هو فَاقِدٌ لِلْجَدْوَائية أيضا.

والدليلُ على ذلك أنَّ هذه الانتخاباتِ المَوْعُودَةَ، أَوْضَحَتْ أنَّ المُتَسَيِّسِينَ مَازالوا يُمَارسُون استقلاليتَهم، ولوْ داخلَ إطارها الحِزْبِي المَفْرُوض قسْرًا، فترَحُّلُهم منْ حِزْبٍ إلى حزْب، مُغاضِبين، أو مُكْرَهين، أكْبَر بُرْهان على بَقَاءِ الاسْتِقلالية مُتَجَذِّرَة، وعلى اسْتِمْرار هشاشة الولاء الحِزْبي، كما يعْني هذا أيضا أن هذه الشريحَةَ العَريضة من المُواطِنين، مهما كانت مخلصة في استقلالها، أو منافقة، جديرَةٌ بصيانة حُرِّية اخْتيارها قانونيا،لأنها تكادُ تُمَثِّلُ أغْلبيةَ المُواطِنينَ، وقد كَانتْ مُسْتَقِلَّة، وما تزالُ تُمَارِسُ اسْتِقلاليتها المَحْظُورَة، منْ خِلال رفْضِ التَّحَزُّب، حتى ولوْ كَلَّفَها ذلك اعْتِزالَ مُمَارَسَةِ السياسة مُكْرَهَةً، أومِنْ خِلالِ تَقَمُّصِ الحِزْبية رِئاءَ القانون، ثمَّ الترَحُّلِ -داخل فضائها- بيْن الأحْزاب انتجاعًا للماء والكَلأ، والمَطامِح، والمواقع، أيْنَمَا لاحَ لهذا الصنْفِ بَرْقُ طَمَعٍ، ولوْ كانَ خُلَّبًا، وحَيْثُما اغْتَرَّ بِرائِدٍ سياسي، كثيرًا ما يَكْذبُ أهْلهُ.

وباعْتِباري أحَدَ المُؤْمنين بالاسْتِقلالية المَوْءُودَة، فإنِّي وإياها نَنْظُرُ إلى المَشْهَدِ السِّياسِي الراهن الأكثر فوْضَوية من أيِّ وقْتٍ مَضَى، بِنَظْرَةٍ تهَكُّمِيةٍ، تُشْبهُ شيْئًا يُسَمُّونَه الشَّماتَة، لا نَعْرفُه -حقا- في مَنْظومَتِنا الأخْلاقِية، مُحْتَجِّينَ: بأيِّ حَقٍّ يُجْبَرُ المُواطِنُ -رغْمَ أنْفِه- على الدخول في دوائرَ وهْمِية في غالب حالها، سَاعَدَهَا جِهَازُ الدَّوْلَة الإداري على انْتِحال أسْماءِ أحْزابٍ، لمْ تسْتطعْ -في أكثرها- أنْ تُقْنِعَ النَّاخبين بالإيمان بها، ولا حَتَّى مُفْتَعِلِيهَا بالبقاءِ فِيها، ولمْ تتكاثرْ بذلك الشكْل غيرِ المَوْجودِ في مَواطِن الديمقراطية الحقيقية، إلا لأنَّها تُعَبِّرُ -في اختيارات إنشائها- عن الآراء المُسْتقلة، أو المُناوَرَاتِ المُتَعَدِّدَة، أكثرَ مِمَّا تُمَثِّلُ اتِّجاهاتٍ حِزْبيةً قائمةً على فلسفةٍ سياسية عميقة، وخلفيةٍ إيديولوجيةٍ راسخةٍ، وخطٍّ سياسي واضِحِ المَعالم.

ومن هنا، نُسَجِّلُ اسْتِغْرابَنَا أنْ يتَمالأَ رجالُ قانوننا، ومُشَرِّعونَا في البرلمان، وسَاسَتُنَا - معَ خَيْبَةِ مَسْعَاهمْ- على خرْقٍ قانوني وحُقوقي وسياسي بهذا الحجْم، وإذا كان ديننا الحنيف، يُقِرُّ -بعْدَ تَبَيُّنِ الرُّشْدِ من الْغَيِّ- أنْ {لا إكْرَاهَ في الدِّينِ}، أفأنْتمْ تُكْرِهُونَ النَّاسَ على أنْ يَكُونُوا حِزْبيِّينَ ؟!

وهُنَا لابُدَّ - فِي الخِتَام- أنْ نتَساءَلَ باسْم الاستقلالية المَغْدُورَة: {وإذا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} كيْفَ يُجيبُ وَائِدُوهَا والمُتَمَالِئُونَ معهم؟!

موسم الهجرة إلى...

من وراء هذا العنوان المَبْتُور الذي أَسْتلْهِمُه من الروائي السوداني الكبير، فَقيدِ الأدب العالمي: الطيب صالح، يطلُّ عليَّ هذا العِمْلاقُ مِنْ برْزَخِه الغَيْبِي، مُتَسَائلاً: مَوْسِم الهجْرَة إلَى ماذا؟

فأُجِيبُه: رَحِمَكَ اللهُ لقدْ كانت الهجْرةُ -يوْمَ وضَعْتَ عنوانَ رِوايَتِكَ الرائعة- لَهَا بَوْصَلة تَعْرِفُ اتِّجَاهَها المُناسبَ، حَسَبَ اختلافِ المَواسِم، فكتبْتَ عنْ "موْسم الهجرة إلى الشمال"، ولكنَّ أجْدادَك الشناقطةَ، سُلالة التَّرَحُلِ الأزَلِي الأبَدِي، الذين ترَكُوا لَكَ منَ أنْجَبَكَ في السُّودان، خلال موسم هجرتهم إلى الشرْق، حَجًّا للبيْتِ الحَرَام، قد كانتْ -ومازالتْ- لهجراتِهم مواسمُ واتجاهاتٌ، لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

فقديمًا كانُوا يَمُوجُونَ دَاخِلَ فَضائهِمْ المَفْتوح، في كُلِّ اتجاهاتِ الجغْرافيا، ومَهَابِّ الرياحِ، ومَساقِطِ الغيْثِ، ومَنابِتِ الكَلأ، والمَزَارعِ، ومَنَاهِلِ الماء، ومَعاقِلِ الأمْنِ، ومَحَاضِرِ العِلْمِ، وحَضَراتِ التَّصَوُّفِ، وأسْواقِ التِّجَارَة والمِيرَة...

فإذا ضاقتْ بهِمْ أرْضُهم بما رَحُبَتْ، وشَحَّتْ مَوارِدُها عن اكْتِفائهِمْ الذاتي، قَذَفَتْهمْ حُدودُها المَفْتوحةُ باتِّجاهاتِ الجِوارِ المُتَعَدِّدَةِ، فانْبَثُّوا في "المَسَالِكِ والمَمَالِكِ"،{رِجَالاً ورُكْبَانًا وعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}، حيْثُ يُهاجِرُونَ من الشرْقِ باتجاهِ دَوْلَةِ مَالِي ومَا جَاوَرَها، ويُهاجِرُونَ من الشَّمَالِ-عَبْرَ بَحْرِ الرِّمَالِ- باتِّجاهِ مملكة المَغْرب الأقْصَى وأحْوازِها، ويُهاجِرُونَ من الغرْب والجَنُوبِ باتِّجاه بِلادِ السينغال، ومَا وَرَاءَ النهْر، إضافةً إلى هجْرَةِ الكُلِّ، باتِّجاهِ الكُلِّ، التي هي حَرَكةُ الحَياةِ ذاتها عِنْدهم.

إنه عشْقُ التَّرَحُّلِ المُنْحَدِرُ سِرُّهُ إلى دِمَاءِ هؤلاءِ القوْمِ، من سَحيقِ عُهُودِ التاريخ، مِنْ تَفَرُّقِ عرَبِ اليَمَنِ أيْدِي سَبَا، بعْدَ انْهيارِ سَدِّ مَأرِبَ، ومِنْ إيلافِ قُرَيْشٍ رِحلتيْ الشتاء والصيْف، ومِنَ الهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الغَرَّاء، ومن أجْدادِهم الفاتحينَ الذين طَوَّحَتْ بهِمْ شَجَاعَتُهمْ إلى ما قَصَّرَ عنه غيْرُهمْ من أقَاصِي التُّخُومِ، ومن تَغْريبَةِ بَنِي هِلال الشهيرة، ومن إيلافِ قبائلِ

المَعْقلِ والبَرْبَر -معًا- للإيغالِ في الصحْراء، انتباذا بالعِزَّةِ من ذلِّ السُّلْطان، ومن مُجْمَلِ "مِيراثِ السَّيْبَةِ" المُتَجَذِّرِ في هذا "المَنْكِبِ البَرْزَخِي"، عبْرَ تاريخَيْهِ: القريبِ والبعيدِ مَعًا.

و لكنْ مَهْمَا تَعدَّدَت المَقاصِدُ الحافِزَةُ لأمْوَاجِ هذه القوافلِ العَريقةِ في امْتِهانِ التَّرَحُّلِ، فإنَّ اللهَ عَلاَّمَ الغُيوبِ يُرَتِّبُ جَزاءاتِ الجميعِ علَى حسَبِ النِّيَّاتِ المُخَبَّأَةِ في كُنْهِ الضَّمائرِ المُسْتَتِرَة،"فمَنْ كانتْ هِجْرَتُه إلى اللهِ ورسولِه، فهِجْرَتُه إلى اللهِ ورسوله، ومن كانتْ هِجْرَتُه إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا.. أو إلى... فَهِجْرَتُه إلى ما هاجَرَ إليْه".

واليومَ -في موْسم الحملة الانتخابية- تسْتَنْفِرُ الجيناتُ في كيْنُونَتِهِمْ مُوَرِّثَاتِ ذلكَ التَّرَحُّلِ فِي كُلِّ الاتجاهاتِ، انْتِجاعا للمَنافع، والمَواقِع، حيث لمْ يَتَعَلَّمُوا في مدرسة الديمقراطية الجديدة على نَسَقِ حَيَاتِهِم -منْذُ نَشْأةِ الدوْلة الحديثةِ- سِوَى تكْريس نَمَطِ الانتجاع السياسي، وعدَم الوَلاءِ المُسْتَقِرِّ والمَبْدَئِي، لأيِّ شيْءٍ غيْر المَصَالِحِ الآنية المُتَغَيِّرَةِ، لأنَّ ظاهِرَةَ التَّحَزُّبِ، والتَّعَدُّدِ المَذْهَبِي الإيديولوجي -هي الأخْرى- جديدةٌ على النَّسَقِ العَقَدِي الأحادي، الذي ترَبَّى عليه سُكَّانُ هذا "المَنْكِبِ البَرْزَخِي"، إذْ طالمَا عرَّفُوا أنْفسَهم بأنَّهم: مَالكِيُّونَ فقْهيا - أشْعَرِيُّونَ عَقَدِيا- جُنَيْدِيُّونَ تَصَوُّفًا، دُونَ أنْ يَفْتَحُوا أفقَهم لغيرِ هذه الثلاثية، التي لا يَرَوْنَهَا خُطوطا مُتَوَازِيةً، بقَدْرِ مَا يروْنَها مُتَدَاخِلَةً، تَضَافَرَتْ خُيُوطُها الثلاثةُ لتَنْسُجَ -في اعْتِقادِهم- حَبْلَ الله المَتِينِ، الذِّي يَعْتَصِمُ به هذا المُجْتَمَعُ السائبُ في صحْرائه البَرْزَخِيةِ، المُنْتَبِذَةِ مَكانًا قَصِيا، انْحَسَرَت عنْهُ ظِلالُ السَّلاطِينِ المُهَيْمِنَة، المُحِيطة به من أغْلبِ الجِهَاتِ، حتَّى لَكَأنَّهَا جَزيرةٌ من الرَّمْلِ، ظَلَّتْ تُحَافِظُ علَى اسْتقلالها، رغْمَ رِمَالِها المُتَحَرِّكَةِ، وسُكَّانِها الرُّحَلِ، وحَيَوانَاتِها السائمة... وتلك مُفَارَقَةٌ تبْدُو صَعْبَةَ الترْويضِ مَنْطِقِيا.

وما دامَ الحيوانُ كانَ "المُعَلِّمَ الأوَّلَ" للإنسانِ، حيث عَلَّمَ الغُرابُ قابيلَ بن آدمَ كيف يُوَارِي سَوْءَةَ أخِيه هابيلَ، فقدْ ظلَّ بَنُو آدمَ على طول التاريخ يَسْتَلْهِمُونَ من جميع الحيوانات، ويُشَاركونَها بعْضَ سُلوكِها وعَاداتِها، وفي هذا السياقِ أثْبَتَتْ بُحوثُ عُلَمَاءِ الأحْيَاءِ أنَّ كثيرًا من الطيور، والأسماك، والحشرات، والثديات، تُهَاجِرُ بِصُورَةٍ مُنْتَظِمَةٍ لتَجَنُّبِ التَّغَيُّرَاتِ غيْر المُؤاتِية، سواء على مُسْتَوَى المناخ ، أوْ مَصادِرِ الغِذاء.

ويبْدُو أنَّ نَصيبَ أغْلبِ نُخَبنَا -أحْرَى العامة- كانَ كبيرًا، من دُروسِ الترَحُّلِ الطبيعي الذي تُمارسُه أنواعُ الحيوانات، وفْقًا لقانون التوازُن البِيئي، وغَريزَةِ حُبِّ البَقاءِ، حسَبَ المَوَاسِم التي تقْتَضِي فيها مُتَطَلَّبَاتُ الحياةِ ذلكَ، فَفِي مَوَاسِم التَّغَيُّرَاتِ السياسية، التي لا تَكَادُ تخْرُجُ لدَيْنَا عن الانْقلاباتِ والانْتخابات، في جَدَلِهَا المُسْتَمِرِّ، الذي أصبَحَ يَحْكُمُ -عَبَثًا- بَحْرَ حَياتِنا مُنْذُ عُقودٍ، مِثْلَ نامُوسِ مَدٍّ وجَزْرٍ مجْنُون، يَسْتَعِرُ لهيبُ الترَحُّلِ السياسي بشكْلٍ لا يَقِلُّ جُنُونًا.

فَيَحلُّ -فِي مَهَبِّ كُلِّ انْقلابٍ وانْتِخابٍ- مَوْسِمُ الهجْرَةِ إلى كُلِّ الاتجاهات، فتُمْعِنُ أغْلبُ النُّخَب في ترَحُّلِها غيرِ الخاضِعِ لأيِّ مَنْطِقٍ، سِوَى مَنْطِقِ الجَشَعِ، ولا أيِّ قاعِدَةٍ سِوَى قاعدة: "الحاجة تبرِّرُ الوَسِيلَةَ"، ولا أيِّ هَادٍ ولا حَادٍ سِوَى نَشِيدِ الأمْعَاءِ، الذي سَجَّلْتُه عامَ 1998م، في موْسِمٍ مِثْل هذا، حِينَمَا كنْتُ أشَاهِدُ-عابرا- الأبواقَ تَلْتَقِمُ الأبْوَاقَ، اسْتعدادًا لانْطلاقِ نَقِيقِ الضَّفادعِ المُؤَجَّرَة عند ساعةِ الصِّفْرِ، وكُلُّ سَاعاتِهِمْ صِفْرٌ، فكتبْتُ قصيدةً، بعنوان: "حنْجرة للإيجار".

هنا في مثل هذه المواسم تَسْتَنْفِرُ الجيناتُ عِشْقَ التَّرَحُّلِ العَريق، في دِماءِ منْ نُسَمِّيهم -حَسَبَ الخَطَأِ الشَّائع- نُخَبًا، رُبَّمَا اقتباسًا من قانون الانتخاب الطبيعي:"البقاء للأقوى"، فَيُشَرِّقُونَ ويُغَرِّبُونَ، ويَصْعدُونَ ويَنْزِلُونَ، ويَسْتَعِيرُونَ منَ الحِرْبَاوَاتِ تَلَوُّنَهَا بألوان مُحِيطِها، ومن الأفاعي تَبَدُّلَ جُلودِها، عبر الفصول..

فإلى مَتَى نُمَكِّنُ لِهؤلاءِ في الأرْضِ، بانْتِخابهم كُلَّ مَوْسِمٍ، حَتَّى يَحْتَسِبُوا أنَّهم نُخْبَةٌ ومُنْتَخَبُونَ حَقِيقة؟

دَعُونا هذه المرَّةَ نُحَوِّلُ قانونَ الانْتخاب الطبيعي: "الحياة للأقوى"، إلى قانون الانتخاب الأخلاقي: "البقاء للأصْلح"، فلا نَصْطَفِي بأصْواتِنا إلا الأفْضل والأمْثل، حتى نُعِيدَ للانْتِخَابِ مَعناهُ اللغوي على الأقل.

حفريات عن جذور الانقلابات
في بلاد السيبة

يتندر بعض جيراننا بأن بلدنا موريتانيا، هو "البلد الذي يأخذ فيه السلطة من يستيقظ أولا من الضباط"، ومرجعهم في ذلك يعود إلى سلسلة الانقلابات المتناسخة التي عرفتها دولتنا منذ1978م.

لكننا لو تجاوزنا هذه الحقبة المشهودة، المثخنة بالانقلابات، والانقلابات على الانقلابات، لوجدنا أن لذهنية الانقلاب العسكري جذورا عميقة في تاريخنا الأبعد، فمنتبذنا القصي هذا ولد توأما أزليا للسيبة، وحسبك أن "دولة المرابطين"، التي نفتخر بأنها من أهم الدول التي نشأت في إقليمنا السائب، كان الانقلاب الذي حدث فيها ربما هو الجد الأعلى لسلالة الانقلابات المتناسلة عندنا، ولكننا -عقوقا أو جهلا- لا نتحدث عن انقلابنا الأول، رغم أن التاريخ يحدثنا أن القائد المرابطي يوسف بن تاشفين، كان تحت إمرة خاله أبي بكر بن عمر اللمتوني، في جهاده المزدوج، في اتجاهي الجنوب والشمال، حيث كان المرابطون منذ عهد المؤسس عبد الله بن ياسين يواصلون فتوحهم، في صحرائنا هذه، وفي أعماق المغرب شمالا، وذات مرة بعث أبو بكر بن عمر ابن أخته يوسف في حملة داخل المغرب، وبقي هو مرابطا في عرينه بثغور (تكانت) الشماء، وفي هذه الحملة قرر القائد يوسف أن ينقلب على سلطة أبي بكر، فأسس لنفسه هناك دولة، جعل عاصمتها "مراكش" في الجنوب المغربي، وعندما علم أبو بكر بانتصار ابن أخته واستتباب الأمر له، قرر أن يزوره، ليطمئن على الأوضاع في جناح دولته الشمالي، فلما علم يوسف بقدوم خاله وأميره، استشار زوجته زينب النفزاوية في الطريقة التي ينبغي أن يقابل بها أبا بكر الذي كان زوجها الأول، موضحا لها الإشكال بأنه غير مستعد مطلقا للتراجع عن استحواذه على السلطة، ولكنه في الوقت نفسه لا يجب أن يجابه خاله وولي نعمته وأمره السابق بما لا يليق، ملتمسا من السيدة الأولى للصحراء حلها السحري، فما كان منها إلا أن وضعت له خطة الانقلاب الأبيض، قبل أن يرتد إليه طرفه:

استقبلْه باستعراض واضح لقوتك العسكرية، وفي كامل أبهتك السلطانية، وسيفهم شيخ الصحراء وحكيمها رسالتك، دون شك؛ فلما رأى أبو بكر ذلك سأل يوسف: ما حاجتك إلى كل هذه العساكر؟ فأجابه أريدها لأعدائي، فأدرك شيخ المرابطين فحوى تصرف ابن أخته، وأظهر سروره بعظم سلطان المرابطين هناك، ودعا شيوخهم وأكابرهم، معلنا أمامهم أن يوسف بن تاشفين هو السلطان الأنسب للدولة اللمتونية، وأنه هو لا يصلح إلا للجهاد، وسوف يعود إلى عرينه في منتبذه القصي حتى يلقى الله ربه.

وهكذا نجح الانقلاب الأول في بلادنا يوم كان الحكم لعنصر البربر، فلما دخلت قبائل بني حسان هذا الفضاء انقلبت على أسلافها البربر، وتوزعت بلاد السيبة بين إمارات قبلية بدوية، تنقلب كل منها على الأخرى متى سنحت لها الفرصة، وينقلب أفراد كل مشيخة منها على بعضهم البعض، عبر حالة من الدور والتسلسل، لم تنته إلا بانقلاب المستعمر الفرنسي على الجميع، ليسلمنا بعدما يئس من ضبط مجالنا إلى حكم مدني بدأ يؤسس قواعد الدولة الحديثة على أنقاض السيبة المتأصلة عميقا في صميم هذه الصحراء، ذات الرمال المتحركة في كل الاتجاهات، مع تقلبات مَهَبَّاتِ العواصف الهوجاء، وسرعان ما وجد هذا الحكم المدني الوليد أن التعددية السياسية الحزبية التي كانت قائمة في ظل الاستعمار لا تناسب هشاشة الدولة الناشئة، فانقلب على تلك التعددية الحزبية، مختزلا إياها في حزب واحد، هو "حزب الشعب" الحاكم، حيث كان "الحزب الواحد" هو نظام الحكم السائد في إفريقيا يومئذ.

وبعد حوالي عقدين من الزمن، أحدثت "يأجو ج ومأجوج" ثقبا، في ردْم الحكم المدني الوليد، فعادت حليمة- في بلاد السيبة- إلى عادتها القديمة...فارتجت بنيات النظام الفتي تحت وقع الأحذية العسكرية الثقيلة، وانقلبت عقليات المجتمع، وتصدعت منظومة قيمه، وتفتت النواة الصلبة للكيانات السياسية، وماعت انتماءات النخب، وما تزال الضربات الارتدادية متواصلة هنا وهناك.، منذ أن "زلزلت الأرض زلزالها"

هكذا ينبغي أن نقرأ الظواهر، فسيرورة التاريخ -في نظري- تعتمد على التراكم، أكثر مما تقوم على القطائع.

"اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على الإيمان".

تسييس النحو
وتصريف السياسة

عندما وصلتني رسالة من صديق عزيز يستكتبني، مساهمة في عدد خاص ستصدره جريدته التي يتعامل معها، بمناسبة عشريتها الأولى، تلبستني الحيرة برهة من الوقت، حيث طال عهدي بالكتابة الصحفية، بعدما انتزعني البحث الأكاديمي منها، طيلة النصف الأخير لهذه العشرية الأولى من الألفية الثالثة، إذ وجدت الجمع بين إعداد الدكتوراه، وهذه الكتابات الصحفية صعبا، لأنني أنظر إلى الموضوعين بالجدية اللازمة، فلا أرى كل بحث بحثا،ولا كل مقال مقالا، لاسيما أنني كنت ملتزما بمقال أسبوعي في صفحة الرأي بجريدة الوطن القطرية الذائعة الصيت، محشورا بين خيرة الكتاب دوليا، مما ضاعف المسؤولية، وكان الرأي السياسي المستقل يومها، يتجاذبه الخوف والطمع في بلدي. أما بعدما تغيرت "أسباب النزول"، ابتداء من 2005، وانفكت عقدة الألسن، وانتضيت الأقلام من أغمادها، فما عاد للرأي السياسي جاذبية الواجب المقدس ودافعيته، إذ أصبح –في نظري– مجرد فرض كفاية، وقد كثر اليوم من يقوم به، بعدما كانوا قليلين جدا.

المهم أنني أمام استحالة الاعتذار لصديقي، وجدت نفسي منساقا إلى هذا العنوان الذي لا يخلو –في ظاهره– من مفارقة تتجلى في الجمع بين النحو والسياسة، ولكن إذا "عرف السبب بطل العجب"، فأي موضوع لا ينطلق من مفارقة، يسعى لترويضها، وبناء الجسور بين متناقضاتها، لا يساوي الحبر الذي يهدر فيه، وأنا شاعر لغة الخطاب السياسي الجافة تخنقني، ويصعب علي البقاء بعيدا عن المجاز،فلعل مقاربة السياسة باستعارة معجم النحو يشبع رغبتي الأديب والسياسي معا، فهذا النحو العربي جاء بمثابة استخراج وتقنين للمنطق الذي كانت تستبطنه السليقة العربية، في فطرتها البدائية، المجبولة على الفصاحة والبلاغة اللتين تعتبران سمتين مائزتين لهذه الأمة أكثر من غيرها من الأمم.

وبناء على التماهي بين اللغة والمنطق، كانت الكتب اللغوية -قديما- تعنون ب"المنطق" إطلاقا، فكيف عبثت سياسة هذا الزمن الرديء بمنطق الأشياء، وعاثت فسادا في كل شيء، حتى طالت منطق اللغة ذاته؟ فأصبحت الأسماء "أسماء متغيرة" لا تعنى مسمياتها، إذ صار النزيه فاشلا، ومستضعفا ومحروما، والسارق بطلا، قوي الشخصية، والمتساهل في الضوابط الأخلاقية والقانونية مرنا و"شاطرا"، والملتزم بها معقدا ومريضا، والخمور والمخدرات مشروبات ومنشطات روحية، إضافة إلى الأمهات العازبات، والأطفال المتخلى عنهم، إلى آخر التسميات المستحدثة التي لا داعي لذكر مرادفاتها بأسمائها الأصلية.

وحتى "الأسماء الخمسة": أبوك، أخوك، حموك... أصبحت "لا محل لها من الإعراب" إلا في أبواب الزبونية والمحسوبية والشللية، كما هو حال "المضاف والمضاف إليه" إيديولوجيا وحزبيا وقبليا وجهويا، لاسيما إذا تعززت هذه الزمرة -من الأسماء- ب "حروف الجر" و"العطف" و"التوكيد" و"الابتداء"، التي فقدت وظائفها ومعانيها إلا في هذا السياق الزبوني. وما أدوات القسم -وخصوصا في اليمين الدستورية- إلا أقنعة ممزقة "للغو اليمين" المستباح.

وبما أن السياسات المهيمنة مهوسة بشهوة تكسير أضالع وأذرع وأرجل وجماجم التجمعات التي ليست لصالحها، فإن "جموع التكسير" طالما هددت "سلامة" جمعي المذكر والمؤنث ما لم يعترفا -خوفا أو طمعا- بأن "جمع الجموع" لا يجب أبدا أن يلتئم شمله إلا على نصرة "مفرد في صيغة الجمع"، هو الحاكم المتغلب المستبد، الذي لا يقيم للإعراب وزنا، فهو"يرفع المخفوض، ويخفض المرفوع"، غير مبال بقواعد"التمييز" الضروري بين "المعارف"و"النكرات"، لأنه يعتقد أن لكل أفعاله "مفعولا مطلقا مؤكدا"، قلما يكون "مبينا للنوع".

وغير بعيد من هذا السياق ذاته، لم تعد "الأفعال اللازمة" تلزم غير المستضعفين في الأرض، أما المستكبرون فيها فهم أكبر من اللزوم والإلزام، وليس يعنيهم غير"الأفعال المتعدية" على الشعوب وحقوقها، منذ استمرأوا "أفعال الشروع" في نهب الثروات الوطنية، و"ظهر الفساد في البر والبحر"، ولم يحققوا وهْمَ وحدتهم العربية الموعودة المفقودة من الخليج إلى المحيط إلا في شيئين هما: هيمنة "الأفعال الناقصة" على "الأفعال التامة، وتفشي "الأفعال الناسخة" للفضائل، موازاة مع انتشار "أفعال المقاربة " للرذائل، مما أدى إلى تغلغل الفساد

المستشري إلى صميم "أفعال القلوب"، حيث هيمنت"أفعال الشك" على "أفعال اليقين"، حتى دب المرض في "الضمائر" "الظاهرة" و"المستترة"، فتساوى -في ذلك- المتصل" منها، و"المنفصل"، وسادت صيغة "التمريض" الظنية، "المبنية للمجهولة"، مدعمة بترسانة من "الأفعال المضارعة"، المكبلة بسلاسل من "السينات"و"السوفات"، لا تتركها أبدا تتحول إلى "أفعال ماضية" منجزة، قابلة لدخول حروف "التحقيق".

وإذا كانت "العجمة" إحدى موانع الصرف في الأسماء، فإن المفارقة هنا تتمثل في كون الكراسي -عبر البلاد العربية- ممنوعة من الصرف"، و"مبنية على السكون"، تحت المستحوذين عليها، خلافا لحالتها في البلاد الغربية، بلاد أهل العجم، حيث تتسم بالمرونة وقابلية الصرف، وفق تقلبات المناخ السياسي، وتغير ذبذبات "أصوات" الجماهير الناخبة التي تتبادل مع منتخبيها جدلية الفاعلية، فكل منهما فاعل ومفعول به في الوقت ذاته، عكس جماهيرنا العربية المفعول بها دائما من طرف حاكميها الفاعلين فيها أبدا، رغم أنهم -في حقيقة علاقاتهم بحاكميهم في الغرب- لا يبدو أي واحد منهم إلا مجرد "اسم فاعل"، أو حتى "صفة مشبهة باسم الفاعل".

ومهما يكن حكامنا -فاعلين أو مفعولا بهم- فإنهم يعشقون من النحو العربي باب "التوابع" في مجمله، ولاسيما إذا كان "توكيدا" لذواتهم، أو "عطفا" للجماهير المقهورة عليهم، أو "نعتا" متملقا لهم، يدغدغ كبرياءهم الزائفة، أما التابع الوحيد الذي يكرهونه، فهو "البدل"، عبر التناوب الديمقراطي المشروع قانونيا، والمرفوض -تطبيقيا- من قبلهم، ما لم يكن "بدل اشتمال"، يتجسد في "بدل البعض من الكل"، عبر توريث الأبناء، خلفا للأبناء، والذي لا يجوز -أيضا- ما لم يتراء للحاكم "المبدل منه" شبح الموت المحتوم، بعد استنفاذ "الظرف" الزماني"للرئاسة، ومع أن دوام "الحال" من المحال، تظل مباضع التغييرات "المنسوبة" للدستور زورا - تعبث بفترات مأموريات الرؤساء، حتى تجعلها مدى الحياة، موازاة مع دينامية مباضع الجراحة "التجميلية" التي تدمن-عبثا- مقاومة وهن العظم، واشتعال الرأس شيبا، ولكنها لن تستطيع في النهاية أن "تصلح ما أفسده الدهر"، ومن باب أولى لن تستطيع -أيضا- في نهاية النهاية أن تقاوم ملك الموت، (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون).

ومهما يكن "البدل" و"المبدل منه"، داخل دائرة الحكم العربي من المحيط إلى الخليج، فإن"القضية الزنبورية" ظلت تطرح نفسها باستمرار على بساط البحث النحوي والسياسي معا، حيث كان مثار الخلاف -أصلا- حول إعراب مقولة: "كنت أظن الزنبور أشد لسعا من العقرب، فإذا هو هي، أو إذا هو إياها"، ومع أن الصواب الإعرابي، ربما كان حليف سيبويه شيخ النحاة، فإن قرب الكسائي -منازعه- من البلاط العباسي ألقى بظلاله على رأي الأعرابي الذي حكم في القضية، فرجحَ قوله محاباة، ومات سيبويه -إثر ذلك- غما.

وعلى الرغم من سقوط هذا العالم الكبير ضحية تغلب السياسة -ظلما- على العلم، فإن الأولى ما تزال تمارس تخريبها للثاني، عبر تخريب منطق قواعده العلمية، وتسفيه وتتفيه جدواه العملية، وما يزال "الزنبور والعقرب" هما المسموح لهما وحدهما بالتناوب -بدلا ومبدلا منه- على لسعنا، دون أن ندرى حتى الآن أيهما أشد لسعا، إلا أننا متأكدون -حد اليقين- أن لسعهما معا شديد، وبالغ المضاضة.

وهكذا -أيضا- ما تزال جملة: "ضرب زيد عمروا" سارية المفعول فينا. إذ لم ندرج في مقرراتنا الدراسية، عبر إصلاحاتنا التعليمية المتناسخة الفساد والإفساد -مثالا بناء عوضا لهذه الجملة، يكون أكثر مودة وإيجابية، في العلاقة بين الفاعل والمفعول به، وليت الأمر اقتصر على الحرب الداخلية الدائرة -عربيا- بين زيد وعمرو، منذ حرب "البسوس" وأخواتها، فزيد وعمرو معا أصبحا-حيث ما وجدا- هدفا للضرب والنهب والقصف والخطف، من طرف جورج وتوني وبنيامين وباراك... إلى آخر قائمة "الأسماء الناقصة"، فأنتجت سياسة العنف والعنف المضاد هذه "صيغا" "صرفية"، "مشتقة" من "مصادر" الدمار والخراب، مغموسة في الدماء المهدورة، متشحة بلون الحداد المأساوي، فلم يعد مقدمو نشرات الأخبار يمتهنون غير تصريف أفعال، يمكن أن نخترع لها اسم "أفعال التخريب وأخواتها"، مثل: فخخ، وفجر ودمر، وقصف، ونسف، وقتل، وسحل -بكل مشتقاتها اللعينة، عليها نستيقظ، وعليها ننام، وأمام فيضانات هذه الأفعال الفتاكة لم تجد حكوماتنا المحكومة، وشعوبنا المقهورة لمقاومتها سوى تصريف "الأفعال المعتلة": "الجوفاء" "الناقصة" في دلالتها لا في بنائها، الملجمة ب"حروف المضارعة" البائسة العاجزة، مثل: ندين -نندد- نشجب- نستنكر..

أما "أفعال الأمر"، فما عادت تطاع إلا إذا كانت صادرة من أعلى إلى أسفل، بينما يتصامم عنها إذا كانت صادرة من الداخل، عبر أصوات العقل والواجب والضمير.

وإذا كانت شاشات الفضائيات قد أقذت أعيننا بمشاهد الخراب الدامي، وهذيانُ الإذاعات قد أصم آذاننا بإدمان " تصريف أفعال" العنف والعجز معا، فهل يحق لنا أن نستشرف -في آخر النفق المظلم- عبر صور وأصداء الشوارع العربية، التي بدأت تتململ هنا وهناك- مدرسة عربية جديدة، سوف تؤسس لعلاقة أكثر توازنا بين إعراب الأقوال وإعراب الأفعال، وأكثر ترشيدا في تصريف الأقوال والأموال والأحوال، وأكثر ودية وجدية وندية بين الفاعلين والمفعول بهم، بين الحاكمين والمحكومين، حتى يستعيد "الفعل الصحيح" هيمنته على "الفعل المعتل"، وينتصر الجمعان السالمان للمذكر والمؤنث، على "جمع التكسير"، فتكون صيغة "منتهى الجموع" لصالح الجميع، بعدما يعيد جمهور النحاة الجدد ضبط "حركات إعراب" المشهد السياسي، التي طالما عبث بها "اللحن"، في جميع "ظروف الزمان والمكان"، فتصحح بحركات الشوارع المدنية السلمية الحضارية" حركات التصحيح العسكرية"، و"تفتح" موصد أبواب التغيير الإيجابي على مصراعيه، و"تنصب" الموازين القسط للعدالة الحقيقية، و"ترفع" هامات الشرفاء المقهورين، و"يضم" الأحرار بعضهم بعضا، بعد طول التفرقة المتعمدة، و"تكسر" أصفاد الطاقات الوطنية المكبوتة من جهة، وخواطر وإرادات الطغاة المستبدين من جهة أخرى، و"تجر" كبرياءهم الزائفة في التراب، و"تخفض" قاماتهم المتطاولة إلى الحضيض، وبهذا تسترد اللغة العربية {منطقها} و{سر الفصاحة} و{إعجاز البلاغة}، وتكتشف السياسة أن جذر اشتقاقها -في الأصل- من السَّوْسِ، وليس من التَّسوُّس، فإذا الحرب قد نزع فتيلها، حين سقط راؤها -عمدا- فالتقى الحاء والباء، {على أمرقد قدر} وأصبحت حبا، واستوت سفينة هذه التداعيات على {الجودي}، بعدما تقاذفتها أمواج طوفان{ تسييس النحو، وتصريف السياسة}، (وقيل بعدا للقوم الظالمين).

لعبة الضمائر

عندما اقترحتْ عليَّ الصفحةُ الثقافية في جريدة الوطن، زاوية بعنوان «الضمير المتصل»، لَبَّيْتُ العَرْضَ مُغْتَبِطاً، وأعْجِبْتُ بالعنوان الجميل، وبدأتِ الضمائرُ -مباشرة- تَتَرَاقَصُ في لُعْبَةِ اسْتِعْرَاضٍ أمامَ قَلمِي، حيث أمْعَنَت الضمائرُ الظاهرةُ في التظاهُر، وتمادَت المُسْتَتِرَةُ في التَّوَاري، مُسْتَغِلَّةً -هنا وهناك- كلَّما تُوحِي به «جَدَلِيةُ الخَفَاءِ والتَّجَلِّي» من إغْرَاءٍ وتَشْويقٍ، وعَلَى إيقاعِ هذه الجَدَلية ذاتِها تَبَارَتْ كُلٌّ منْ ضمائر الحَاضِر والغائِب، وتَفَاعَلَتْ ضمائرُ المُتَكَلِّم معَ ضمائر المُخاطَب، وبقدْر ما تَحَزَّبَتْ ضمائرُ الجَماعة، تَعَصَّبَتْ لأنَانِيتِها ضمائرُ المُفْرَد، واحْتَدَمَ الجَدَلُ حِينًا -والغَزَلُ حِينًا آخر- بيْنَ ضمائرِ المُذَكَّر، ونظائِرِها ضمائرِ المُؤَنَّث، ولجَّتِ الضمائرُ المُنْفَصِلَةُ في التَّقاطُع، والتَّدَابُر، والتنافُر، وتَدَاعَتِ الضمائرُ المُتَّصِلَةُ إِلَى التَّشَبُّثِ بِعُرَى التواصُل، والتآزُر، والتكامُل، لكنَّ أتْعَسَ حَلقاتِ هذا المَشْهَد الاسْتِعْرَاضِي لِسُلالَةِ الضمائر، كانَ يَتمَثَّلُ في المَأتَمِ المُتَفَجِّع، الذي أقَامَتْهُ بَقِيةُ الضمائر الحَيَّةِ، على أخَوَاتِها الضمائر المَيِّتَةِ، نَادِبَةً حَظَّهَا التَّعِيْسَ في هذا الزَّمَن الرَّديء، حيث أصْبحتْ مَنْظومَتُه الأخْلاقِيةُ التافِهَةُ السَّائدَةُ تُهَدِّدُها بالانْقِرَاضِ، بَعْدَمَا اسْتَحَرَّ المَوْتُ فِي أغْلَبِ الضمائر، وبَقِيتْ حَتَّى أشْبَاحُ مَوْتَاهَا، مُهَيْمِنَةً عَلى أرْوَاحِ أحْيائها، فِي اخْتِلالٍ غريبٍ لِتَوَازُنات الحَيَاة، يُنْذِرُ بانْهِيارِ نَوامِيسِ الكَوْن. وأمَامَ هذه التَّدَاعيات أوْجَسَ قَلَمِي خِيفَةً منَ التَّوَغُلِ فِي هَذِهِ الزَّاوِية المُقْتَرَحَةِ عَليْهِ أسْبوعياً، وشَعَرْتُ برعْشَتِه بيْن أصابعي، وأطْبَقَتْ غَيْمَةٌ منَ الحَيْرَةِ على أُفُقِ تَفْكيري بُرْهَةً، وانْزَرَعَتْ مَساحَةُ الكِتَابَةِ بالتَّساؤُلاتِ عمّا يُمْكِنُ فِعْلُهُ أمامَ لُعْبَةِ الضَّمَائِرِ هذه، منْ أجْلِ التَّحَكُّم في مُتَنَاقِضَاتِها، وتَسْيِيرِ فَصَائلِها المُتَعَدِّدَةِ والمُتَجَاذِبَةِ؟؟! لَكِنَّنِي سرْعانَ ما أدْرَكْتُ أنَّ لُعْبَةَ التَّنَاقُضِ هي لُعْبَةُ الوُجُودِ نَفْسِه، وأنَّ الضمائرَ مَا هِي إلاَّ مَرَايَا لِذَوَاتِ الوُجُودِ سَلْبًا وإيجابًا، ومِنْ هُنَا يَكُونُ دَوْرِي في هَذه الزاوية، هو النُّزُوعُ إلى تحويل تَنَاقُضَاتِها السَّلْبية إلى تَوَازُنَاتٍ إيجابية، فالظاهِرُ والبَاطِنُ، والحَاضِرُ والغَائِبُ، والمُتَكَلِّمُ والمُخَاطَبُ، والمُفْرَدُ والجَمْعُ، والمُذَكَّرُ والمُؤَنَّث، والمُتَّصِلُ والمُنْفَصِلُ، والحَيُّ والمَيِّتُ، كُلٌّ منهما يُمَثِّلُ وَجْهَيْنِ لِعُمْلَةٍ وَاحِدَة،

هي عُمْلَةُ الحَيَاةِ ذاتها، فالمُفْرَدُ يَجِبُ أنْ يَتَنَامَى تَدَرُّجًا، إلَى الثُّنائية، إلى الجَمْع، وإلاَّ تَحَوَّلَتْ فَرْدَانِيتُه إلى عُقْمٍ، يَؤُولُ به –حَتْمًا– إلى التَّلاَشِي والانْقِرَاض، والباطِنُ لا يُعْرَفُ –حقيقة– إلاَّ فِي مِرْآةِ الظاهِر، والحَاضِرُ والغائبُ يَتَنَاوَبَانِ موْقِعَيْهِمَا، فالغائبُ يُمْكِنَ أنْ يَحْضُرَ، والحاضرُ لا بُدَّ أنْ يَغِيبَ، والمُتَكَلِّمُ والمُخَاطَبُ يَتَبَادَلانِ وَظِيفَتَيْ الإرْسال والتَّلَقِّي في التَّدَاوُل اللُّغَوي، والمُذَكَّرُ والمُؤَنَّثُ نِصْفَا نَوَاةِ هذه الحَيَاة، واسْتِقلالُ بعْضِهِمَا – مُطْلَقًا– عنْ بَعْضٍ، يُسَاوِي الفَنَاءَ الحَتْمِي، كما أنَّ جَدَلَ الاتِّصَالِ والانْفِصَال، هو سِرُّ إيقاع ذَرَّاتِ الكَوْن، السَّابِحَة في مَدَارَاتِها المُتَسَاوِقَةِ عَبْرَ نَوَامِيس نُظُمِها العَجِيبَة، مُنْذُ عَمَلِيَّتَيْ الرَّتْقِ والفَتْقِ، فِي النَّشْأَةِ الأوُلَى، وَرَبُّنَا –جَلَّتْ قُدْرَتُه– يُخْرِجُ الحَيَّ منَ المَيِّتِ، ويُخْرِجُ المَيِّتَ منَ الحَيِّ. وهكذا يَتَجَلَّى أنَّ اللُّغَةَ العَرَبية –في ثَرَائِها المُعْجَمِي، وغِنَاهَا الدَّلالِي– قدْ مَنَحَتْ كُلَّ عُنْصُرٍ مِنْ هَذهِ الازْدِوَاجَاتِ الوُجُودِية مُصْطَلَحًا لِضَمِيرِهِ الذي يُعَبِّرُ عَنْهُ، اسْتِكْنَاهًا مِنْهَا لأسْرَارِ الكَوْن، وسَعْيًا لِتَطْوِيقِ ظَوَاهِرِهِ المُتَشَاكِسَةِ في بنْيَتِها السَّطْحية، والمُتَنَاغِمَةِ في بنْيَتِها العَمِيقَة. ومن هنا نَسْتَخْلِصُ –في المُحَصّلَةِ النِّهائية– أنَّ «الضَّميرَ المُتَّصِلَ» هو سَيِّدُ هذه الضمائِر المُتَعَدِّدَة، لأنَّ مَعْنَى الاتصال فِيهِ يَخْتَزِلُ المَعَانِي العَمِيقة، والوَظائفَ الحَيَوية لِكُلِّ الضمائر، فهو يُجَسِّدُ الوَصْلَ بيْن أطْرافِها المُتناقضة، والاتصالُ –بهذا المَعْنَى– يُسَاوِي الازْدِوَاجَ الذي هو سِرُّ الحَيَاة، نَقِيضًا للأُحَادية التي تُسَاوِي الفَنَاءَ، إنَّهُ إذَنْ ضَمِيرُ الضمائر يُحْيِيها باتِّصالِه، بَعْدَمَا كانَتْ مَيِّتَة بانْفِصالها، حيث يَصِلُ بيْنَ الظاهِر والمُسْتَتِر، بيْنَ المُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ، بَيْنَ المُتَكَلِّم والمُخاطَبِ، بيْنَ المُفْرَدِ والجَمَاعَة، بيْن الحاضر والغائب....عبْرَ هذه الزاوية التي تَطْمَحُ أنْ تكون همزة وصل بين كل الضمائر.

سياسة النار.. ونار السياسة

هذه جدلية ملتبسة الطرفين، حيث كانا معا يستخدمان غالبا من قبل الحكام العرب ضد شعوبهم، فلما أصبح الأسلوبان اليوم دولة بين هؤلاء وهؤلاء، تعذر التمييز بين السبب والنتيجة، وتكافأ فيهما التقديم والتأخير، فلم نعد ندري: هل سياسة النار هي التي تؤدي إلى نار السياسة..؟ أم العكس هو الصحيح؟

مهما يكن، فإني وأنا أتأمل لهيب هذه الجدلية الزاحف بشكل متفاقم، فوق خريطة الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، وأبحث عن مدخل يختلف عما تزاحمت فيه الأقلام حول هذا الموضوع، وجدت ذهني محاصرا بتداعيات حول النار، أخذتني في سبحات تأمل عميق، عادت بي إلى كون النار عنصرا ثابتا في كينونة الوجود، ضمن عناصر الطبيعة الأربعة: التراب والماء والهواء والنار، التي تتفاعل وتتغالب فيما بينها، داخل بنيات الوجود، لتنتج حيوات يهيمن على كل منها بعض العناصر أكثر من الأخرى، فإذا كان الإنسان سلالة التراب والماء، فإنه يتنفس الهواء، ويتحرك بطاقة الحرارة، وإذا كانت الشياطين والأبالسة من سلالة النار، فإن تلبس الشيطان بالإنسان يكسر الحواجز بين كون هذا من طين مهين، وذلك من مارج من نار.

وهكذا لم يستطع الإنسان العيش فوق الأرض بعد هبوطه من الجنة بعيدا من النار، رغم أنها العقاب الإلهي المرصود له في الآخرة، فكانت أولى اختراعاته باعتبارها ضرورة حياة لا غنى عنها، وتقديسا لهذه العناصر وحيويتها لدى الإنسان كانت "النار" معبود المجوس، كما قدس الهنود النار والماء معا، فتعبدوا بحرق جثمان الميت طلبا لخلاص الجسم، وتغاطسوا في بعض الأنهار المقدسة عندهم تطهرا من الذنوب، واستشفاءً من العلل والعاهات.

وقد قادتني هذه التداعيات إلى أن العقود الماضية من حياة العرب قد هيمن فيها زوج الطين والماء على كينونة الشعوب، فأخلدت إلى الأرض نزوعا إلى طينيتها، وماعت ماهيتها في مائيتها، انتماءً ومواقفَ ومشاعرَ، إلا أن سياسة النار التي كان الحكام المستبدون يمارسونها طيلة هذه الفترات هيجت ريح المشاعر الهامدة، وأججت جذوة النار الخامدة في نفوس هذه

الشعوب، فتغلب زوج النار والهواء على زوج الطين والماء، لتلتهم نار السياسة خرائط الأوطان، وتمتد إلى الأجساد، بعدما تضرمت طويلا في الأكباد.

وهذا التحول -وفق قانون التغير من الكم إلى الكيف- شبيه بظاهرة الاحتباس الحراري، التي ليست هي الأخرى إلا نتيجة سلبية من نتائج سياسة النار تجاه البيئة، حيث تتراكم هناك التأثيرات وردات الأفعال، حتى تتحول فجأة إلى براكين وأعاصير وفيضانات، (لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم).

وما دامت الثورة إحدى هذه الظواهر الكونية الغلابة التي ما هي إلا جزء من لعبة تفاعل عناصر الطبيعة، فإنه يجب على الحكام المنتهجين لسياسة النار، أن يفهموا أن رياح التغيير التي تهب بعنف على المنطقة، هي (إعصار فيه نار)، جاء نتيجة احتباس حراري طال تفاقمه تحت ضغط أحكامهم الأنانية المستبدة، و"على قدر الضغط يكون الانفجار"، فلن يتولد من نار عسف الحكام السياسي، إلا نار الثورة الشعبية، التي (تفور تكاد تميز من الغيظ)، وقد أخذت ألسنة لهبها تكتب صفحات أبلغ من كل الخطب والقصائد والرسائل والجرائد والشعارات والبيانات...

وفي ضوء هذه النار أو تلك، تتراءى الخلفية التاريخية لسياسة النار، حيث نستحضر رائدها "النمرود" ملك (أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم ما يفعلون بالمؤمنين شهود)، حين واجه الدعوة الحنيفية المناهضة لسلطانه الجائر، بتلك النار الموقدة التي ألقى بإبراهيم عليه السلام في أخدودها عبر المنجنيق، فجعلها الله عليه (بردا وسلاما).

وحين نرى حرص الحكام العرب المشهود اليوم على استخدام سياسة الأرض المحروقة، عندما يتأكدون من استحالة البقاء أبدا في سدة الحكم، أمام إعصار ثورة الشعوب، تبنيا لمقولة "شمشون" القوي-حين انكشفت نقطة ضعفه: "علي وعلى أعدائي"، نستحضر أيضا "نيرون" ملك روما، الذي أصيب بجنون العظمة، ومدت له بطانته المتملقة في غيه فصدقوا -زورا- دعواه الحكمةَ والفروسيةَ والوسامةَ والإبداعَ في الشعر والموسيقى والتمثيل...وحين أفاق من غيبوبة وَهْمِ العظمة والعبقرية، ووجد أعداءه يحيطون به في قصره من كل جانب، قرر أن يحرق روما بكاملها، تماديا في أنانيته ونرجسيته المقيتة، وإمعانا في غيه، وأظن أن أخلافه من حكام العرب ماثلون للعيان مهما اختلفت الأسماء والألقاب:

كُلَّ قَوْم صانعو "نَيْرونهمْ" قيْصرًا سَمَّوْهُ أوْ سَمَّوْهُ كِسْرَى

فهذا القذافي أقر جهارا بعزمه على إحراق ليبيا بكاملها، لأنها بدونه لا تساوي شيئا، وشعبها إذا لم يحبه؛ فهو لا يستحق الحياة، فمعمر في مرآة نرجسيته هو المجد، هو العظمة...بينما الليبيون الأماجد، أباة الضيم الأبدي، مقذوفون من طرف القذافي بما لم يسبقه إليه سلفاه المخلوعان من بذيء الأوصاف.

وإذا كانت نار موسى عليه السلام مثلت نار الهدى والتنوير والتغيير، فإن "نار القِرَى" في تراث العرب منذ العصور الجاهلية، كانت بالنسبة لمعتسفي مجاهيل الصحراء في الليالي الظلماء نار هداية من التيه، وإطعام من الجوع، وأمن من الخوف، رغم أن الذاكرة العربية تحتفظ لنا بنموذج لتحول هذه النار الإيجابية في الجاهلية إلى نار سياسة مشؤومة، حيث قرر أحد الملوك أن يحرق مائة من قبيلة أغضبته تسمى البراجم، وعندما أحرق تسعة وتسعين منهم كانت رائحة الشواء البشري تملأ آفاق الصحراء البائسة، فاستدرجت بقتارها الرقم المكمل للمائة من تلك القبيلة المغضوب عليها، حيث خانه أنفه في تمييز أنواع الشواء، وقاده حظه العاثر إلى نار الطاغية، فالتقمته فور معرفته بنسبه، فأرسلوا المثل المشهور: "إن الشقي وافد البراجم".

وبعد ذلك نجد طارق بن زياد يستخدم سياسة النار بمقصدية الخير هذه المرة، حين أحرق مراكب العبور من الضفة المغربية إلى الضفة الأندلسية، واضعا مجاهديه في موقف الاستبسال بين عدو هائج أمامهم، وبحر مائج خلفهم، إلا أن أحفاد طارق بن زياد من حكام الضفتين في الأندلس والمغرب، قد مارسوا -أحيانا- سياسة النار السلبية ضد الأفكار المعارضة،فأحرقت نارُ سياستهم كتبَ الفلسفة في العهد العامري، وكتبَ ابن حزم في عصر الطوائف، وكتبَ الغزالي في العصر المرابطي، وكتبَ فروع الفقه المالكي في عهد الموحدين، بل أحرقوا المعارضين أنفسهم بلحمهم وشحمهم، مثل لسان الدين بن الخطيب الذي أحرق في قبره بفاس، بتمالؤ الحُكْمين المريني في المغرب والنصري في الأندلس. ولكن البعد الأخطر لاستمرار سياسة النار في أخلاف طارق بن زياد هو ظاهرة "الحرّاقة" المتفشية في دول المغرب العربي منذ عقود، حيث أجج أحفاده من الحكام -غير الوارثين لعدله-نار سياستهم في نفوس شعوبهم، حتى احترقت بنيران غلاء الأسعار والاحتكار والاحتقار...، مما جعل هؤلاء يضيقون ذرعا بأوطانهم الغنية التي لا تطعمهم من جوع، ولا تؤمنهم من خوف، فبدأوا ظاهرة "الحريق" بإضرام النار في شواهدهم العلمية، وبطاقات انتمائهم لهذه الأوطان، ملقين بأنفسهم في "قوارب الموت"، الوريثة غير الشرعية لسفن طارق الجهادية، عبر أمواج الهجرة

السرية إلى الضفاف الأوربية، فرارا من نار السياسة وسياسة النار المتأججتين في الضفاف العربية عموما والمغاربية خصوصا، ولو إلى بطون تماسيح البحار.

وهكذا بدأت الشعوب العربية ترد على سياسة النار التي يسوسهم بها حكامهم المجوس، ردودا تطورت عبر تاريخ نار السياسة، من السلبية البائسة إلى الإيجابية الخلاقة، فكنا نرى المظاهرات في الشوارع العربية تحرق عجلات السيارات تنفيسا عن غضبها المكبوت، وتشعل أعلام الدول المحتلة الغاشمة مثل إسرائيل وأمريكا... دون أن تنال فعلا من زهو بيارقها الطاغية، وأحيانا تحرق مجسمات المستوطنات ودمى الرؤساء والوزراء الغربيين المغضوب عليهم، دون أن توقف زحف غول الاستيطان المتمادي في اكتساح الأراضي الفلسطينية، ودون أن تطال نار مظاهراتهم شعرة من الجناة الإسرائيليين ولا داعميهم الغربيين، إلا أن الشعوب العربية تقمصت روح "سارق النار" من "برومسيوس" الذي ثار على احتكار آلهة اليونان للنار المقدسة، فسرق شعلة الإبداع التي تقابس رواد الثورات الشبابية العربية مؤخرا من لهيبها الخالد، فانتقلوا من حرق الأشياء الرمزية، إلى حرق الذات ضجرا من الحياة المهينة، واحتجاجا بنار السياسة على سياسة النار، علاجا "بالتي كانت هي الداء"، وانتصارا للكرامة المجروحة والحقوق المهدورة.

ورغم اختلافي عقديا وفلسفيا مع ما أصبح يسمى الظاهرة البوعزيزية، نظرا لأني أرى النضال بالحياة -فضلا عن البعد الشرعي- أجدى من النضال بالموت، إذ الأول نضال مستمر ومتجدد، والثاني منته ومنقطع، إلا أنني رغم هذا التحفظ، أجد هذه الظاهرة قد شكلت نقلة نوعية في مواجهة سياسة النار بنار السياسة، حيث اقتدحت الشعلة التي أحرقت جسم البوعزيزي شرارات العزيمة والإباء في نفوس الشباب العربي، فكانت بالفعل هي الصاعق الذي فجر بركان الغضب الشعبي المكبوت، وكانت دمعة أمه هي القطرة التي أفاضت طوفان الثورة الشعبية الجبارة المندفع من تونس،إلى مصر، إلى ليبيا، إلى اليمن، إلى البحرين، إلى الأردن، إلى الجزائر، إلى المغرب، إلى موريتانيا... فتحول البوعزيزي حقيقة إلى سارق النار العربي الوريث لسارقها اليوناني، وكانت الشعلة التي أحرقته فعلا شعلة إبداع مباركة، غيرت -بأعجوبة- مسار التاريخ العربي بين عشية وضحاها، كما لم تفعل شعل أخر، حرقت أجسادا أخرى.

وبقدر ما أججت من غضب الطغاة على حشود الثائرين، فأمطروهم بشآبيب نار سياستهم، أججت -أيضا- روح الصمود والإصرار على إرادة الحياة، لدى هذه الشعوب العربية، فجعلتها تتقمص طائر الفينيق الذي كلما أحرق نبت من رماده. وهكذا رأينا الشعوب

العربية المنبعثة من رمادها، تتجاوز تقنية إحراق الأشياء الرمزية التافهة، وإحراق الذات، إلى إحراق أكباد المستبدين بإشعال قصورهم الفاخرة، وإيقونات صورهم الصنمية، وأنصاب كتبهم غير المقدسة، ومقرات زبانيتهم اللعينة، ومعدات جلاديهم المتوحشين. وهذا التحول في سياسة النار الشعبية ضد نار السياسة الرسمية، هو الذي فاجأ الحكام العرب المتألهين، وزعزع بنية طاغوتهم المتجبر، ففر منهم من فضل النجاة بجلده، وسارع بعضهم إلى إعلان التنازلات والإغراءات استباقا للثورات أو تزامنا معها، بينما لاذ آخرون بجحورهم -كالجرذان- محرضين الشعب ضد الشعب، بعدما تهاوت معاقلهم تباعا، وتقلصت حلقة سلطانهم الآيل للسقوط حتما، رغم استخدامهم لتقنية البلطجية والمرتزقة الداخلية والخارجية، وشعروا بألسنة نار سياستهم ترتد إليهم، من أيدي الشعوب الناهضة من رمادها، فتكاد تلفح أوجههم الكالحة، وتأخذ بتلابيب ثيابهم التي خاطوها غلولا من خيرات الشعوب المنهوبة.

ولعمري إنه لا غرابة أن تنبثق الثورة البوعزيزية -أم الثورات- من مدينة "سيدي بوزيد" الهلالي، بطل الملحمة الشعبية التي كانت تمثل ثورة عربية عابرة للأحكام والدول والقارات، عرفت باسم "تغريبة بني هلال"، التي انطلقت عاصفتها من المشرق إلى المغرب، لتعود اليوم -في نسختها الجديدة- عبر الاتجاه المعاكس، انطلاقا من المغرب إلى المشرق، لتبقى -بعد انتصارها في تونس ومصر على فرعونين مع بعض هاماناتهم وقاروناتهم- كرةً ملتهبة تتقاذفها الجماهير العربية بين مرامي ملاعب الحكام العرب، في المشرق والمغرب، مسجلة كثيرا من الأهداف في شباكهم بعد تخاذل حراسها، أو تعاطفهم مع الهدافين الجدد.

وإذا كان زين العابدين قد فهم درس الثورة الشعبية ولو متأخرا، وتبعه مبارك بعد فترة مكابرة وعناد لم تطل، فمتى يفهم بقية حكام العرب المستبدين أن عهد الفرض قد نسخه عهد الرفض؟ وأن العنف يولد العنف، وسياسة النار الرسمية تؤجج نار السياسة الشعبية، مع عدم تكافؤ النارين؟ فنار الثوار الأحرار مقدسة، ونار الطغاة الأشرار مدنسة، نار هؤلاء المهاجمة، مهما أحرقت الأخضر واليابس، فإنها تمحيص للشعوب، وصقل لجوهرها النفيس، واستنفار لكوامن كنوز طاقاتها الثورية المكبوتة، مع ما ينتظرهم بعدها من الحسنيين في الدنيا والآخرة، أما نار الشعوب المقاومة فإنها خزي وهوان وعقاب عاجل للمستبدين، والله وحده يعلم ما ينتظر الظلمة من سوء العاقبة في آجلتهم يوم الدين، أعاذنا الله من سوء المنقلب، وشؤم المصير. والحمد لله الذي عافانا من حرقة الأسف على سقوط الآفلين، وقلق الإشفاق من تهاوي اللاحقين، "ولا أحاشي من الأقوام من أحد".

أنا فهمت ...
فمتى يفهم الآخرون؟

هذه جملة كررها زين العابدين بن علي، بصوت متهدج، حينما شعر بخفق أقدام المتظاهرين، ودوي هتافات الجماهير المحتجة قد بدأ يزلزل قوائم كرسيه التي كان يظن أن خمس دورات رئاسية كافية لترسيخها -عميقا- في بلاط قصر قرطاجة وعندما شعر بزلزلة الكرسي ترعد فرائصه انجلى الغشاء الكثيف عن بصره، وصحت بصيرته المسحورة بنشوة الاستبداد، ليفهم فجأة، بعد أكثر من عقدين من الحكم أن للشعب تصورا ورؤية لواقع الحياة العامة في تونس، يختلف تماما عما يعيشه زين العابد داخل عالمه التونسي الخاص.

وهنا لم يتردد لحظة في أن يلقي باللائمة والمسؤولية على أفراد من حكومته، مقدما إياهم قربانا للثورة، وفداء لكرسيه الذي كان هزازا، فأصبح مهزوزا، بين عشية وضحاها.

ونظرا لأن فهم زين العابدين فد جاء متأخرا جدا، فذهب ضحية كسل تفكيره في العواقب، فإننا جميعا مطالبون بترويض الفهم وتنشيطه باستمرار، لأن الحياة كتاب عميق، لمن يقرأ العبر بين سطوره، ببصيرته أكثر من بصره، ليفهم ما لم يفهمه بن علي.

– فأنا فهمت أن جميع حكام العرب من المحيط إلى الخليج يجب أن يسارعوا إلى تفهم الظاهرة التونسية في سياقها السياسي العام إن لم يرق لهم مصير زميلهم الشاخص للعيان.

– فأنا فهمت، أنهم الآن ما زالوا تحت تخدير مستشاريهم المضلين، يمارسون لعبة النعامة، فيدفنون رؤوسهم في بروجهم العاجية، ويقولون: نحن مختلفون عن تونس، ومقارنتنا بها "قياس مع وجود الفارق"، وهذا صحيح، إذا أريد به أن الوضع التنموي في تونس أفضل بكثير منه في أخواتها العربية، مما يعني أن شعبها إذا كان "أراد الحياة" فاستجاب له "القدر" بسقوط "الظالم المستبد" فإن ثورة الشعوب العربية الأسوأ وضعا ستكون من باب أولى.

– أنا فهمت أن خوف الشعوب من قامعيها بمجرد ما ينفتح أمامه ثقب صغير في جدار الصمت، سرعان ما ينفجر ثورة شعبية عارمة تسري عدواها حتى إلى أعتى جلاديها، فإذا بالشرطة تحتج وتتظاهر جنبا لجنب مع الشعب، بعدما كانت حارسة "الهيكل" وقامعة المظاهرات، وجهاز أمن للسلط الفاسدة، وترويع وإرهاب للشعب.

– أنا فهمت أن الشعوب العربية لن تخدع أبدا بالإجراءات المنافقة التي تحاول امتصاص الغضب الشعبي، مراءاة بتخفيض الأسعار وغيره من الحركات البهلوانية، التي لو كانت صادقة لأنجزت في ظروف سابقة على ثورة تونس، ولتواصلت بعدها، ولكانت نابعة من إرادة وطنية داخلية مخلصة لشعبها.

– أنا فهمت أن الشعوب العربية، قد سدت أمامها منافذ الأمل والعمل، وخنقت حرياتها، وديست كراماتها، ونهبت ثرواتها، حتى أصبحت نار الله الموقدة أرحم لديها من نار الظلم والهوان، فكانت كالمستخير من الرمضاء بالنار، فأشعلت النار في الشوارع والأجساد، بعد طول اتقادها في النفوس والأكباد، ومن ذا الذي يقتحم النار إذا لم تكن معاناته أقسى من النار نفسها، "فظلم ذوي القربى أشد مضاضة".

– أنا فهمت أن أحكام الطغاة هشة جدا، لأنها مؤسسة على وهم نجرسي مريض، ولذلك سرعان ما تلاشت هيبة كرسي الرئاسة في تونس، وتهاوت دعائمه أمام صرير عربة خضار في منطقة شعبية مهمشة.

– أنا فهمت أن العلاقة بين الحاكم وبطانته السيئة علاقة هشة وزئبقية، لا يعول عليها من الطرفين، فبقدر ما يسهل على الحاكم مسح جرائمه وأخطائه في أثواب بطانته، وتقديمها قرابين للثورات، والفرار عنهم بجلده، إذا سمحت له الفرصة، وتركهم في مهب العاصفة فريسة عزلاء في مواجهة غضب المظلومين الثائرين -يسهل -أيضا- على هؤلاء، إذا تأكدوا من زوال سلطان الحاكم أن يتنكروا لعلاقتهم به، وأن يبدلوا جلودهم وأقنعتهم وألسنتهم، وولاءاتهم، مسددين إلى ظهره -لا صدره طبعا- قذائف اللعنات الجبانة، بعد كيل المديح والتهويل والتضليل.

– أنا فهمت أن الدكتاتورية الظالمة ليست لعنة على أصحابها وحدهم، بل وعلى محيطهم العائلي، وجهازهم الحكومي، وإطارهم السياسي. فبمجرد ما يسقطون من عليائهم الموهومة يلتهم الغضب عليهم كل من كانوا يتشرفون بالتقرب إليهم زلفى بأي آصرة كانت، ولهذا

ينبغي للحكام ومحيطهم بمستوياته الآنفة، أن يفكروا دائما في تحسين عواقب مصائرهم المجهولة، لأن يوم حسابهم آت لا محالة إما في العاجلة أو الآجلة، أو فيهما معا.

- أنا فهمت أن الدكتاتور يستمد كل مقوماته ومكانته من الكرسي أكثر من شخصيته الذاتية، وبهذا فهو -ربما- معذور في تعلقه بذلك الكرسي وتماهيه معه، لأنه ما يكاد ينتزع من فوقه حتى تتهاوى منظومة علائقه كلها، فيتحاماه الرؤساء العرب الباقون في كراسيهم تشاؤما بمصيره، ويسدون أمامه أبواب دولهم برا وبحرا وجوا، ويذودونه عن حدودهم ذود البهائم الجرباء عن حياض المناهل، خوفا من عدوى السقوط الذي يتشبع بجراثيمها وفيروساتها الخطيرة.

كما أن حماته السابقين من حكام الغرب النفعيين، يدعمون الدكتاتور العربي ما دام متمكنا حرصا على مصالحهم، ولكنهم يمجدون الثورة عليه ويشجعونها، فور ما يتأكدون من إطاحتها به حفاظا على سمعتهم الديمقراطية المغشوشة...المزورة.

- أنا فهمت أن إسرائيل التي يطبل لها ويزمر في أبواق العالم بأنها -في زعمهم- هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في محيط الدكتاتوريات الشرق أوسطية- هي في الواقع حارسة الدكتاتوريات في العالم العربي، لأنها تخاف من الأحكام العربية الديمقراطية التي ستساير -لا محالة- نبض الشعوب التي أوصلتها إلى السلطة. وهذا ما صرح به نائب الرئيس الإسرائيلي في مناحته المفجوعة على عهد زين العابدين بن علي الذي اعترف بأنه كان من أكبر خدامهم في المنطقة. والله أعلم متى ستنكشف بقية أسرار الحكام الآخرين مع إسرائيل، فربما يكون ما خفي أعظم وما وثائق ويكيليكس، والجزيرة عنا ببعيد.

- أنا فهمت أن النخب السياسية والثقافية والنقابية الفاسدة المفلسة ليست خير معيار لقياس حيوية ضمائر الشعوب العربية، ونبض شوارعها فأولئك النخب زبد يذهب جفاء. بينما الحركات الشعبية هي درر الأعماق التي تنفع الناس وتمكث في الأرض، فإذا طال انتظارها للغواصين المهرة، كسرت أصدافها وأصفادها وأخرجت نفسها بنفسها، لتتنفس فضاء الحرية دون استجداء للمنشغلين بالصيد في المياه العكرة.

- أنا فهمت أن هذه النخب السياسية والثقافية حين تفلس فكريا، وتعجز عن فعل التغيير، تصبح الشعوب الناضجة هي قائدة نفسها، ورائدة النضال والتغيير، بينما تبدو النخب

والتشكيلات السياسية والنقابية مجرد توابع لها، تقتات من فتات ثورة الشعب، بعدما تفشل في سرقة الثمرة التي لم تضح من أجل اقتطافها.

– أنا فهمت أن الفرق بين ثورة الشعب وثورة النخب السياسية وانقلابات العسكر هو شحنة الصدق في الدافع الجماعي، وخلو الحركة التغييرية من المآرب الشخصية الفردية الإنسية.

– أنا فهمت أن الفرق بين الهبة والثورة، هو أن الأولى فورة خاطفة وآنية، يسهل التحايل عليها، أما الأخرى، فهي حركة جذرية، تحمي نفسها بنفسها، ولذلك رفض الشعب التونسي أن يلتف النظام الذي أسقط رأسه على ثورته، أو تلتف عليها التشكيلات الحزبية التي وجدت الحكم – بعدما عجزت عن الوصول إليه – في متناول يديها – على طبق من ياسمين تحمله عربة خضار، حيث واصلت الثورة الشعبية التصدي بوعي وإصرار لكل محاولات الاستحواذ مجانا على ثمار نضالها، مما يعني أن خداع الشعوب لم يعد سهلا مثلما كان سابقا.

– أنا فهمت أن الشعوب العربية قد فهمت الدرس التونسي الرابع وقد باشرت تطبيقه مباشرة أولا في مصر والبقية تأتي.

– وأخيرا صحيح أن الرئيس التونسي الهارب قد فهم ولو بعد فوات الأوان، والشعوب العربية فهمت قبل فوات الأوان، وأنا قد فهمت –أيضا– كل هذه التداعيات المستوحاة من المشهد السياسي ما بعد الثورة التونسية، والرئيس حسني ما زال يكابر في فهم الدرس الذي يكتبه الشعب في شوارع المدن المصرية كلها... ولكنه سيفهم عاجلا أم آجلا... فمتى سيفهم بقية رؤساء العرب قبل فوات الأوان؟

بوش يعود من العراق بخفي منتظر
ومنتظر يدخل التاريخ بنعليه

عجيب هو شريط ذاكراتنا، فإنك لا تكاد تسمع كلمة، أو تشاهد صورة، أو تتابع حدثا، إلا وبدأت تتداعى إلى ذهنك المخزونات التي لها علاقة بذلك الموضوع، وكأن هنالك أصابع خفية تضغط على الأزرار المسؤولة عن إظهارها، من خفايا الذاكرة السحيقة التي تراكمت في سراديبها منذ فترة طويلة، ولقد عشت هذه الحالة آخر مرة عندما رأيت ذلك الصحفي العراقي ينقض على بوش قاذفا إياه بنعليه واحدا تلو الآخر، في مؤتمره المشترك مع المالكي، رئيس وزراء العراق، خلال زيارة مفاجئة يوم أمس، أرادها بوش أن تكون وداعا أخيرا قبل مغادرته للبيت الأبيض مطرودا -في سابقة عجيبة- بأول رئيس أمريكي أسود ينتزع كرسيه في ذلك البيت الذي ظل أبيض محتكرا على البيض طيلة حكم ثلاث وأربعين رئيسا أمريكيا، وعندما لم يجد منتظر هدية وداع يقدمها لبوش أفضل من نعليه راجما إياه بهما معا، تبادر إلى ذهني مثلنا العربي المأثور في خيبة المسعى "عاد بخفي حنين" فأدركت الدلالة الرمزية لهذا التوديع الحار حيث أراد الزيدي أن يعود بوش من العراق "بخفي منتظر" ، بل ويعود بهما إلى بيته بعد نهاية مأموريتيه المشؤومين على أمريكا وعلى العالم العربي والإسلامي، بل والعالم بأسره، الذي لم يغادره حتى تركه يتخبط في أزمة اقتصادية عالمية بامتياز، بعد أن أشعل الحروب في أكثر من مكان.

ولماذا لا يعتبر الفتى العراقي أن نعليه خير هدية وداع يستحقها بوش على العراق، وهو الذي أسقط على هذا البلد مئات الأطنان من القذائف المدمرة، وأغرقه في دوامة من الموت، والخوف، والجوع، والفوضى، والبؤس، والتمزق، والتشرد، والنهب، واستنزاف الخيرات، وإهدار كنوز التراث، بصورة لم يعرفها حتى في عهد هولاكو، فما بالك بمن جاء بعده.

وإذا كانت دلالة الخيبة المنبعثة من "خفي حنين" حاضرة في هذه الواقعة، فإن الدلالة الرمزية المهينة في استخدام النعل سلاحا قاضيا على أحقر الأعداء قد تداعت إلى ذهني من خلال المثل العربي الآخر المنظوم:

إن عـــادت العقـــرب عـــدنا لهـــا   وكانـــت النعـــل لهـــا حـــاضره

وهو تهديد رفعه المثل العربي، ورفعه الزيدي في وجه بوش، وكل من تسول له نفسه الإمعان في إهانة الشعوب العريقة، إذ أن إشهار حذائك وهو على قدمك أمام جليسك -أحرى ضيفك- يعتبر منافيا للسلوك الحضاري، فما بالك بإشهاره سلاحا في وجه الضيف الذي كان ينتظر أن يستقبل بالورود، باعتباره محررا وفاتحا، وقد صدق بـوش -وقلما يفعل- حين اعتبر هذا ثمن الحرية التي تساوي الاحتلال في نظره الأعشى الذي لا يميز بين لون الحرية ولون الاحتلال.

والواقع أن هذا الصحفي وهو يعايش ذلك المسلسل التراجيدي الذي أخرجه بوش -وما يزال- على مسرح ما بين الرافدين، جرب أن يكتب بقلمه كسلاح للصحفي المهني حول المشهد العراقي المأساوي، ولما لم يستطع قلمه أن يفي بالتعبير عن شعوره بالمهانة تجاه هذا الوضع المتفاقم، جرب أيضا أن يكتب بنعليه في جبين بوش رسالة تبقى عبرة لكل من يأتي بعده من الطغاة، وحتى من يشاهده منهم في الحاضر، وهي رسالة إن لم تسل دما من وجه بوش ، لأنه لا دم فيه أصلا، فإنها أسالت كثيرا من الحبر، حيث كتب هذا الصحفي اليافع بنعليه من المقالات بأقلام الآخرين ما لم يكتبه هو بقلمه.

وقد امتزجت في ذهني و أذهان جميع المشاهدين في العالم الإسلامي صورة منتظر الزيدي وهو يرجم بوش بنعليه -متوترا- في ذلك المؤتمر، بصورة أمواج حجاج بيت الله الحرام وهم ينهالون برمي ملايين الجمرات لدى موقع الرمي بالمحصب من منى، مستحضرين أنهم يعيدون تمثيل رجم إبراهيم عليه السلام للشيطان، وكأن منتظر الزيدي يؤدي هذا الركن من حجه هناك في بغداد بين جدران الساحة الخضراء ، معتقدا أن بوش هو المثال المجسم للشيطان الذي يستحق أن يرجمه كل العراقيين وكل الأفغان وكل المسلمين، بحيث يمكن أن يعتبروا رجمه -أينما كان- ركنا إضافيا به تكتمل للحج مناسكه، ولعل هذا التأويل لا يختلف حوله أتباع ولاية الفقيه في إيران الذين يرى فيهم بوش ضلعا من محور الشر ويرون فيه الشيطان الأكبر، كما أنه ينسجم مع مذهب الفقيه اليساري هيكو شافيز الرئيس الفينيزويلي، الذي وصف بوش بالشيطنة في عقر داره وأمام العالم كله، حيث تشمم فضاء المنبر في مقر الأمم المتحدة، وهو يخطو إليه ليلقي خطابه بعد بوش، وقال -متأففا- "لقد مر الشيطان من هنا".

وعلى ضوء هذا فالشيطان رجيم مهما تقمص من الصور، ولا فرق بين رجمه بالحجارة والنعال خارج المشاعر المقدسة، بل إن كثيرا من الحجاج في لحظات الانفعال لا يكتفون

بجمرات الرمي المحددة شرعا، بل ينهمكون في رمي الشيطان بنعالهم، وبكل ما تصل إليه أيديهم، داعمين ذلك بقذفه أيضا بسيل من الشتائم الغاضبة، التي تشبه ما تلفظ به منتظر الزيدي في لحظة رميه لنعليه تجاه بوش "يا كلب".

وقبل أن أبتعد عن استخدام النعال سلاحا لاشك أن ذاكرة المشاهدين وذاكرة الرؤساء الأمريكيين، بمن فيهم بوش، وهو أضعفهم معرفة على الإطلاق، سوف تستحضر الرئيس الروسي الأسبق خروتشوف الذي كان خلال المؤتمرات الدولية إذا احتدم النقاش يخلع نعله ويضعها على الطاولة، في متناول يده، إيعازا بأن لا ضرورة لتعكير مزاجه، وإلا كانت النعل حاضرة، للقضاء على العقارب. وهذا يعني أن الحذاء ليس سلاح الضعفاء والمقهورين فقط، فالأمريكيون يعرفون جيدا من هو خروتشوف الذي أوقف العدوان الثلاثي على مصر بمجرد مكالمة هاتفية، كان صوت حذائه فيها مسموعا لدى الطرف الآخر، الرئيس الأمريكي يومها.

وعلى كل حال ومهما كان ضعف سلاح منتظر الزيدي، فإن حذاءيه القذيفتين قد جعلا رئيس أقوى دولة –أشعل بها العالم حروبا– ينحني مرتين فاغرا فاه هلعا ومهانة، وهو الذي لم يكن يمشي إلا مزهوا كالطاووس، وأغلب رؤساء العالم يمشون بجانبه كمجرد رجال تشريفات، وخصوصا زعماء العالم الإسلامي الذين يحجون –غالبيتهم– إلى بيته الأبيض أكثر مما يحجون إلى بيت الله الحرام، ويستلمون يدي وزيرته السوداء أكثر مما يلثمون الحجر الأسود، المطهر، ويسعون في رحاب منتجعه أكثر مما يسعون بين الصفا والمروة، بل إن هذا الرئيس الطاووس –وهذه مفارقة طريفة– قد أصبح –أمام حذائي منتظر الزيدي– يحتاج لحماية يدي نور المالكي، الذي كان قبل هذين الحذاءين وما يزال يستمد الحماية من بوش، داخل منطقته الخضراء وخارجها.

إن الحقيقة التي يجب أن تقرأ ما بين سطور هذه الحادثة هي أن المقاومة تبتدع وسائلها باستمرار في ضمير هذه الأمة المتكالب عليها، المسحوقة ما بين مطرقة الخارج وسندان الداخل، فمن البندقية إلى الحجر إلى المقلاع إلى الحذاء إلى ...

وكل الشعوب المقهورة تبتدع أيضا منتظرها المخلص، وتعيش على أمل انبثاقه من رحمها الذي لن يتوقف عن إنجاب مخلص منتظر، كلما استفحل أمر دجاجيل الزمن وفراعنته، رغم حقنات التعقيم التي تزرع بها عبقريات الأمة بجرعات عالية وبشكل مستمر ومبرمج.

وهكذا ينبثق من رحم العراق هذا –المنتظر– اليساري الذي مازال بدلا من صور زعماء البلاد والعباد يضع صورة تشي غيفارا بين كتبه الدينية والصحفية، عند رأس سريره المنفرد المتقشف، أيقونة تلهمه كراهية أمثال بوش من طواغيت العالم، وتحرضه على مقاومتهم ولو بحذاءيه.

وعلى الرغم من أنه جر من القاعة حافي القدمين، ربما إلى سجن أبي غريب السيء الصيت، فإنه دخل التاريخ من بابه الواسع بنعليه، اللذين لم يكبرا في عين بوش وحده الذي أعطاهما -فزعا- مقاس 44، وإنما كبر في عيني كل من لم يزل يمتلك قابلية الشعور بالضيم، ويتجاسر على التعبير عن غضبه للكرامة المهدورة من الماء إلى الماء ومن الأرض إلى السماء.

فمئات المحامين يستعدون للدفاع عنه بدون أتعاب، ومئات الصحفيين في المواقع الإلكترونية يجمعون التواقيع المليونية لمناصرته، وبعض أصحاب الأموال يرهنون ملايين الدولارات ثمنا لحذاء منتظر الزيدي لو وضع في مزاد علني، وبعض الهيئات منحته وسام الشجاعة، بل إن البعض قرر أن يجعل لحذاء هذا الفتى العراقي تمثالا ينصبه في حديقة منزله.

كل هذا تعبير عن مدى تلهف هذه الأمة وظمئها إلى البطولة في زمن قل فيه صانعوها.

وأنا لا أجد حرجا ولا غضاضة في أن أصف هذا التصرف بالبطولة، لأنه ليس موجها إلى أمريكا بخيرها وشرها، بقدر ما هو موجه إلى رجل قد اقترفت يداه من الجرائم الإنسانية والحربية ما جعل أمريكا نفسها تفكر الآن في محاكمة كثير من مقربيه، وربما تطاله هو يد العدالة، فور ما يخرج من البيت الأبيض الذي يجب أن يتذكر قبل الخروج منه أن "من كان بيته من الزجاج لا ينبغي أن يرمي بيوت الناس بالقنابل العنقودية"، وإذا فعل فلا يستغرب أن يرموه بنعالهم على الأقل.

وإلى هنا يكون آخر ما يراودني من تداعيات هذا الحدث أنه قد يلقي بظلال أحذيته، على المؤتمرات الصحفية للرؤساء والزعماء في المستقبل، حيث ربما تسن قوانين جديدة تفرض على الصحفيين أن لا يدخلوا إلى قاعة المؤتمرات إلا وهم حفاة الأقدام، بحيث يكتب على عتبة كل قاعة تحتضن مؤتمرا "اخلع نعليك إنك بالوادي.." .

ولكن مهما يكن يجب أن لا نترك منتظر الزيدي يذهب ضحية حذائيه، حتى لا يكون حذاؤه مثل حذاء الطنبوري البغدادي المعروف تاريخيا بشؤمه عليه، فالتفريط في هذا النوع من الفتيان هو الذي احتج عليه الشاعر قديما: (أضاعوني وأي فتى أضاعوا...)، ولمثل هذا قرب الحارث بن عباد فرسه "النعامة"، حين قتل مهلهل ابنه بجيرا مقابل شسع نعل كليب في حرب البسوس، فلنردد مع الحارث بن عباد عبر المظاهرات المنتظرة، مؤازرة لمنتظر الزيدي:

إن بيع الكرام بالشسع غال

إن بيع الكرام بالشسع غال!

أمة التوحيد.. المتفقة على ألاَّ تتفق

أمام تكرر اختلافاتنا حول يومي عرفة والعيد، لنُواجِهْ أنْفسَنا بهذا السؤال: هل نحن أمَّة التوْحيد حقا؟

لقد أرادتْ مِلَّةُ الإسلام أنْ نَعْتَصِمَ بحبْلِ الله، بَدَلَ التقسيمات الجاهلية، فقرَّرْنا أنْ نَتَسَرَّبَ منْ عِصمَةِ حبْله المَتين، ونَتفَرَّقَ شِيعًا، أنزلتْ علينا عقيدة واحدة فابْتَدَعنا باسمها عقائدَ مُتضاربة لا تنتهي، وسنَّتْ لنا شريعة واحدة، فاخْترعْنا باسْمها مَذاهبَ فقهية شتَّى، سرْعانَ ما حَوَّلْناها إلى شِبْه خُطوطٍ مُتوازية، لا تكادُ تلتقي، تفرَّقت بنا طرائقَ قِدَدًا، وشرائعَ بَدَدًا... اخْتَلَفْنا حوْل مَواقيتِ صلاتنا، وصوْمنا، وفِطْرنا، بمُسوِّغاتِ تَبَاعُدِ الأمْكنة، وفوارقِ الأزْمِنة، فقَبِلْنا ذلك لمَنْطِقية الدليل، جغْرافيا، وفلكيا، لكنْ بالله ربِّكم: كيف نَختلفُ في الحجِّ، حوْل توْقيت سُنَّتَيْ:صوْم عَرَفة وذبْح الأضحية؟

إنَّ شهْرَ الحج -دون بقية الشهور- غيرُ قابلٍ لخِلافاتِنا المُزْمَنة، حيث خصَّتْه العربيةُ والإسلامُ باسْم:"ذي الحجة"، ومادام الحجُّ مرتبطا -في مَناسِكه، وشعَائره- بمكة المُكرَّمة، مَوْقِعًا مَخصوصا لأدائه، فإنَّ اعْتماد المكان هنا، لمْ يَدَعْ مجالاً لاعْتبار الزمان، حيث لا حجَّ خارجَ مكة، والأمْر من البَدَاهة بحيث يمْكنُ أنْ يُدْركه حتى غيْرُ الفقهاء مثْلي أنا. وبناءً علي ذلك؛ فلا يوْمَ لعرفة -حقيقة- غير يوم الوقوف به، في مكة، ولا يوم نحْر، يُسَنُّ به ذبْحُ الأضاحي، غير يوْم النحْر بمكة أيضا، ومَنْ أصرَّ على التقرُّب إلى الله بأداء سُنَّتَيْ الصوْم في يوم عرفة، وذبْح الأضحية خارج اليومين اللذين قرَّرَتهُما مكة، وأجمع عليهما حُجَّاجُ بيت الله من كلِّ فجّ عَميق، فإنَّه ينْبغي أنْ يخْتَرَع في بلاده مَشاعِرَ حَجٍّ تخُصُّها، ومَناسكَ همْ ناسِكوها، فيختار جبلا يُسَمِيهِ: "عَرَفاتٍ"، يقف عليه ويصوم متى قرَّرَت لجْنَةُ أهِلَّتِه ذلك، ويَبْنِي "قُلَّيْسًا"، يعتبرها كعبته؛ وليمارسْ ما شاء من"النَّسِيئَةِ" في المَواقِيت، إمْعانًا في العَبَثِ بالمكان، والزمان، والإنسان، والإيمان.

الفهرست